مِنْ هُدَى القُرآن

١٥

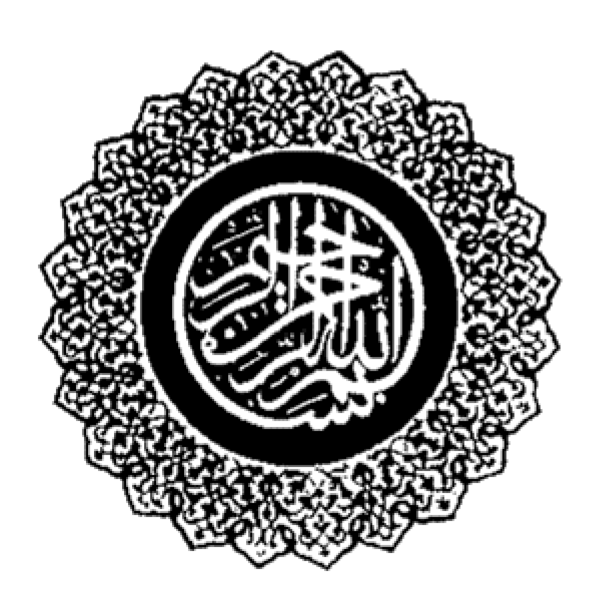
تفسير سور

الحديد إلى المنافقون

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي





سورة الحديد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (ع) قال : «من قــرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام (يعني السـورة الـتي فاتحتها التسبيح مثل الحديد والتغـابن والحشر والجمعـة) لم يمت حتى يدرك القائم ، وإن مـات كـان في جـوار رسـول الله (صلى الله عليه وآله)».

نور الثقلين / ج 5 / ص 231

وروى العربـاض بن سـارية قـال : «إنّ النـبي (صـلى الله عليه وآله) كان يقرأ المسبّحات قبل أن يرقد ، ويقول : إنّ فيهنّ آية أفضل من ألف آية».

نور الثقلين / ج 5 / ص 131

الإطار العام

ترتكز أغلبية آيات السورة حول محورين رئيسيين :

الأوّل : الإنفـاق في سـبيل الله ، من دون تحديد نـوع منه ، فقد يتحقّق بالإنفاق من النفس أو من المـال أو من أيّ شيء آخر. ويحرّضنا الـذكر الحكيم على ذلك من خلال منهج واقعي ونافذ هو :

1 ـ إنّ الله هو المالك الحق لكـلّ شـيء ، وله الولاية التامّة خلقا وقدرة وعلما وتدبيرا ، وإنّه الذي يحيي ويميت وإليه ترجع الأمور ، أمّا نحن فلسنا سـوى مسـتخلفين من قبله فيما ملّكنا ، فلا ينبغي أن نرفض أمره بالإنفـاق إذ أنّه هو المالك الحق.

2 ـ والإنفاق هو الشاهد الصادق على الـتزام الإنسـان بالميثـاق ، ذلك الميثـاق الـذي أخـذه الله عليه في عـالم الذر.

3 ـ ولمـاذا يبخل الإنسـان بالمـال وهو لا يبقى لـه؟! فأمّا يرحل عنه أو ينتقل إلى

غــيره. بلى ، قد يســتخلف فيه برهة من الــزمن ، ولكنّه يموت عنه كلّ أهله ليعود إليه تعالى.

4 ـ ثمّ أنّ الإنفاق لا يزيد الله شيئا وهو الغـني الحميد ، إنّما النفع والضرر يعـودان على الإنسـان نفسه ، فهو إن أنفق نمى ماله ، وبــنى مجتمعة ، وصــار إلى ثــواب الله ورضـــــوانه ، أمّا إذا بخل فلن يحصد إلّا التلف ، والتخلّف في الدنيا ، وألوان العذاب في الآخرة.

وتعالج السورة أيضا قضايا تتصل بالإنفاق.

الثــاني : العدالة الاجتماعيّة كهــدف تــنزّلت له جميع رسالات الله ، وسعى من أجله كلّ الأنبيـاء والأوليـاء ، كما ينبغي أن يتحـرّك لتحقيقه كـلّ المؤمـنين الرسـاليين ، ولا تقوم العدالة إلّا بالقائد الصالح (رسولا أو وليّـا) ، والنظـام الصــالح في البعد السياسي والاجتمــاعي والاقتصــادي والتربوي ، وبالميزان الذي يشخص المخطئ من المصيب ، وبالسلاح المنفّذ للنظام.

وهنـاك علاقة وثيقة بين محــور العدالة والإنفـاق في الســورة يتمثّل في أنّ الإنفــاق في ســبيل الله يســاهم بصورة فعّالة في إقامة العدالة ونصرة الحق. أو ليس قام الإسلام بسيف علي ومال خديجة؟

ومن هذا المنطلق نهتدي إلى أفضلية الإنفاق والقتـال قبل الفتح على الذي بعده.

إن الحركــات الرســالية تنشد العدالة وإقامة الحق ، والأمّة مسئولة أن تتحمّل مسـئوليتها الحاسـمة في دعمها والوقـوف إلى صـفّها بالإنفـاق نصـرا لله ورسـله وأوليائه على الظالمين.

سورة الحديد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6)

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

هدى من الآيات :

في فاتحة سورة الحديد الـتي تأمرنا بالإنفـاق لتحقيق العدالة التي هي هدف رسالات الله ، يـذكّرنا القـرآن بـأنّ ما في السموات والأرض يسـبح لله (فلا يجـوز أن نقـدّس شـيئا منهـا) فهو العزيز الحكيم المالك للسـموات والأرض (وهو غـني عن إنفاقنا ، ونحن المسـتفيدون من العطـاء) وهو الأوّل بلا أوّل كـــــان قبله ، والآخر فلا يتغيّر بالأزمنة سبحانه ، والظاهر على كلّ شيء بالغلبة ، والباطن العليم بكلّ شيء.

وقد خلق السـموات والأرض في سـتة أيّـام ، شـهادة على كمــال قدرته ، وواسع علمه ، وحسن تــدبيره ، وأنّه المهيمن على حركة الأشياء وتطوّرها ، فهو يعلم ما يدخل في الأرض من الغيث والمـواد والأشـعّة ، وما يخـرج منها من الأبخـرة والنبـات ، وما يـنزل من السـماء من رحمته عبر ملائكته ، وما يعـرج فيها من ملائكة وأعمـال ونيّـات ، وهو مع خلقه أنّى كانوا.

وهو المالك الحق للسـموات والأرض ، وإليه ترجع الأمـور ، فهو المقـدر المـدبّر وإليه المصـير ، وآية تـدبيره تـوالج الليل والنهـار في الصـيف والشـتاء وعلمه بـذات الصدور.

كـلّ ذلك يحملنا على الإنفـاق في سـبيل الله ، وهو موضوع الدرس التالي.

بينات من الآيات :

[1] إنّ للكائنـات شـعورا يسـبّحن عـبره بحمد ربّهن ، كلّ بقـدره وبلغته ، إذ سـواء وعين ذاتهن أو بصـرن آفـاق الخلق فهنّ يرين تجليات الرب ، وبعجز ذاتها تسـتدل على قدرته تعـالى ، وبزوالها تسـتدل على بقائه سـبحانه ، وبحدوثها تستهدي إلى أنّه القيّوم الـذي لم يـزل ولا يـزال ولن يزول ، وأمّا عن الآفـاق فهي أنّى رمت ببصـرها تـرى آثار خلقه وتدبيره تعـالى ، لـذا فـالخلق كلّهم ينزّهونه عن النقص والعيب.

(**سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

إنّه تسبيح قـديم قـدم كـلّ مخلـوق ، إذ يبـدأ معه منذ اللحظة الأولى الـتي ينشـأها بارئها من بعد العـدم ، ولكن كيف تسبّح الأشياء ربّها؟!

نتصوّر لذلك معنيين :

الأوّل : أنّ خلقة كـلّ شـيء تهـدي إلى نقصه وعجـزه ومحدوديّته ، وذلك بدوره شـاهد صـدق على كمـال خالقه وقدرته وتعاليه عن الحـدّ والقيد ، وبالتـالي شـاهد صـدق على أنّه سـبّوح قـدّوس متعـال مـنزّه عن أيّ نقص وعجز وتحديد.

الثـاني : أنّ الأمر لا يقف عند هـذا الحد ، بل لكـلّ شيء إحساس بقدره يعرف

به الخالق ، ولغة مخصوصة يعبّر بها عن معرفته ، فـإذا به يسبّح له.

ونحن بنظرنا وتفكّرنا نهتـدي إلى التسـبيح بـالمعنى الأوّل ، ولكنّنا نقصر عن فهم المعنى الثاني ، يقول تعـالى : (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) [1] ، وقـال يحـدّثنا عن حضـارة داود (ع) : (**وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ**) [2] ، والخلق كلّهم متساوون تكوينيا في التسبيح لله ، وإنما يتفاوتون ويختلفون في النوع الآخر ، وإن أحـدا لا يستطيع أن ينكر وجود شعور ولغة عند كلّ شـيء ، فما أوتينا من العلم إلّا قليلا ، وجهلنا لا يغيّر من الواقع شـيئا ، فنحن لا زلنا في البوصة الأولى من طريق ذي آلاف الأميال في مسيرة العلم والمعرفة ، قـال ربّنا سـبحانه : (**وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**) ، ويكفينا عقلا وحكمة أن نعترف بـأنّ ما لا يحط به علما قد يكـون موجـودا فلا نعادي ما نجهل.

ولسـنا بحاجة الى تأويل «**ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**» لينصـرف إلى ما يعقل ، وذلك لأنّه يخـالف ظاهر اللغة العربية التي اعتبرت «مـا» لغـير العاقل ، وما دام الوجود كلّه يسبح لله فإنّ عـدم تسـبيح الإنسـان يعـدّ تخلّفنا عن عهده التكويني الفطـري مع ربّه ، وشـذوذا عن واقع الكائنات.

إنّ من مشـاكل البشر أنّه ينبهر بالطبيعة أو بجـانب منها ، فإذا به يتخذ ما فيها إلها ، ويغتر بما فيها من ظـاهر الزينة والقوّة والإبـداع ، بينما لو تـدبّر فيها مليّا عـرف أنّها هي الأخرى تسبّح بحمد ربّها ، فكيف يتخذها شريكا لبارئها ، بل وتتأذى الطبيعة حينما يعبدها أحد من دون الله ، ففي الأخبار أنّ البقر نكّست رؤوسها منذ

---
(1) الإسراء / 44
(2) الأنبياء / 79

عبدها الناس عند ما أضلّهم السامري ، ولعلّه لذلك جاءت خاتمة الآية الكريمة تذكيرا بعزّة الله وحكمته.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

إنّه كـذلك سـواء سـبّحه الخلق أو لم يسـبّحوه ، فهو بذاته عزيز لا يزيـده التسـبيح عـزّا ، وحكيم تتجلّى حكمته في النظام الدقيق الـذي فطر عليه خلقه وحكمه به ، كما تتجلّى في تـدبيره لشـؤونه المختلفة ، وليس بحاجة إلى الاعتراف من قبلنا بحكمته سبحانه ، كما لا تنصرف هاتـان الصفتان إلى غيره لو اعتقدنا بألوهيّته ، ولعـلّ الحكمة من بيان هاتين الصفتين أنّ الله لا يدبر الكائنات بقوته وحسب ، بل بالحكمة أيضا ، وأنّه يحـقّ للكائنـات أن يسـبّحنه لأنّه تعالى مهيمن عليها بالقوّة والحكمة فهو أهل لذلك.

[2] وتتصل الآيات بعضـها حـتى الآية السادسة تعرّفنا بربّنا عـزّ وجـلّ من خلال صـفاته وأسـمائه وأفعاله الـتي تتجلّى في الخليقة والتي تهدينا إلى أنّه يحقّ علينا تسبيحه ، وإنّما يشرك الإنسان بربّه لجهله به تعالى ، أما إذا عرف عظمته وهيمنته المطلقة على الخليقة فسوف تنسف تلك المعرفة كـلّ الأفكـار والعقد الشـركية لديه ، إنّنا نشـرك ببشر أمثالنا لأنّهم أعطوا شيئا من الملك والقوة ، ويحجبنا ذلك عن الإله الحق ، بلى. إنّهم قد يملكـــــون رقعة من الأرض وبعضا من النعيم ، أو يكـــون لهم ســـلطان على النـــاس ، ولكنّ ذلك كلّه محـــدود ، لا يصـــيّرهم آلهة ، ولا يقاس بما عند الله.

(**لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

بما فيهما ، وهو حقّا ملك واسع مطلق وحقيقي ، أمّا تملّك الناس للأشياء فهو

اعتبـاري محـدود زمنا لأنّهم يموتـون عنها ، وكمّا لأنّه قليل جدا بالنسبة إلى ملك الله الذي ينضـوي تحته كـلّ الوجـود وكيفا لأنّ قدرتهم على التصرف فيه محدودة ، ولله الملك المطلق والقدرة اللّامحدودة ، والتي من مظاهرها الإحياء والإماتة.

(**يُحْيِي وَيُمِيتُ**)

كيف يشاء ، ومتى أراد ، لا يمنعه عن ذلك مانع أبـدا ، وليس لسواه هذه القدرة في الملك ، والهيمنة عليـه. وما دامت حيـــاة الإنســـان بيد الله فهل هو المالك أم اللــــه؟ وكيف يملك شــيئا من لا يملك حياتــه. أو ليس الإنســـان يملك ما يملك بحياته التي تمكّنه من الحركة والتصرّف؟

ومع أنّ الحيـــاة والمـــوت من أبـــرز مظـــاهر الملك والهيمنة الإلهية على الخلق ، إلّا أنّ قدرته تعــــالى ليست محدودة في ذلك حسب ، بل هي مطلقة.

(**وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

أمّا نحن فلا نستطيع ان نفعل كلّ شيء وكيفما نشـاء فيما نملك.

[3] (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ**)

لم يكن مثله أحد فهو أزلي ، وحيث تأخّر الوجــود عنه فهو محــدث من صــنعه عــزّ وجل ، وتتجلّى هــذه الحقيقة مــرة اخــرى حيث يصــير الخلق الى العــدم ويبقى وجهه تعـالى ، ولأنه الاول فهو الـذي أحيا الخلق وأوجـده ، ولأنه الآخر فهو الذي يميته بقدرته وحكمته ، كما انه الظـاهر بلا خفـاء ، فـالوجود كلّه آيـات تهـدينا إليه ، لأنه القـاهر فـوق عباده.

(**وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ**)

ظاهر بأسمائه وصفاته وتجلّياته في الوجود ، تدرك ذلك حواس الإنسان ، ويراه قلبه وعقله ، وهو باطن بذاته التي لا يعلم كنهها أحد من خلقه ، ولكنّ ذلك لا يعني انّه غائب عن الخلق ، بل انّه نافذ علمه الى أعماق كلّ شيء.

(**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

سعة علمه كسعة قدرته ، وتكفي هذه الآية تحسيسا للإنسان بشهود ربّه ، وردعا له عن اقتحام المعصية. وهناك صلة بين الآيتين (**وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) بالآية (**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) فالعزّة بالقدرة المطلقة ، والحكمة بالعلم المطلق ، الذي هو أبرز جوانبها ومقوّماتها ، وربنا بعلمه يقدّر ويقضي ، وبقدرته يمضي ما قضاه.

وقد وردت بعض الاخبار في تفسير هذه الآية الكريمة تزيدنا بصيرة بها. ذكر المفسّرون دعاء عن النبي (ص) اعتبروه تفسيرا للآية ، وهو قوله : «**اللهمّ أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الاخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنّا الدين ، وأغننا من الفقر**» [1].

وروي عن الامام الرضا (ع) وهو يبين ان الكلمات تشترك بيننا وبين ربّنا اشتراكا لفظيّا لا معنويّا ، ويستعرض بعض أسماء الله التي تختلف معانيها عمّا يوجد عندنا من أمثالها ، الى أن قال في معنى الظاهر والباطن :

«وأمّا الظاهر فليس من أجل أنّه علا الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها وتسنّم لذراها ، ولكنّ ذلك لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها ، كقول الرجل :

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 234

ظهرت على أعدائي ، وأظهرني الله على خصـمي ، يخـبر عن الفلج والغلبة ، فهكذا ظهور الله على الأشـياء ، ووجه آخر انّه الظــاهر لمن أراده ، ولا يخفي عليه شــيء ، وأنّه مدبّر لكلّ ما برأ ، فأي ظاهر أظهر وأوضح من الله تبارك وتعـالى ، لأنّك لا تعـدم صـنعته حيثما تـوجّهت ، وفيك من آثاره ما يغنيك ، والظاهر منا البارز لنفسه والمعلوم بحدّه ، فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعـــنى ، واما البـــاطن فليس على معـنى الاسـتبطان للأشـياء بـأن يغـور فيها ، ولكنّ ذلك منه على اســـتبطانه للأشـــياء علما وحفظا وتـدبيرا ، كقـول القائل : أبطنته ، يعـني خبرته ، وعلمت مكتوم سرّه ، والباطن منا الغائب في الشـيء المسـتتر ، وقد جمعنا الاسم واختلف المعنى» [1].

وجاء عن الامـام الصـادق (ع) شـرح وتوضـيح لمعـنى القبل والبعد فقـال : «جـاء حـبر من الأحبـار الى أمـير المؤمنين (ع)، فقال : يا أمير المؤمـنين! مـتى كـان ربـك؟ فقال له : ثكلتك أمك! ومتى لم يكن حتى متى كان؟ كان ربّي قبل القبل بلا قبل ، وبعد البعد بلا بعد ، ولا غاية ولا منتهى لغايته ، وانقطعت الغايـات عنـده فهو منتهى كـلّ غاية» [2]

وجاء في خطبة لأمير المؤمنين (ع) يذكّر بأسماء الله ، ويبين ضمنا معانيها ، ما يلي :

«الـــــــذي ليست له في اوليّته نهاية ، ولا في آخريته حد ولا غايــة. الــذي لم يســبقه وقت ، ولم يتقدّمه زمان. الاول قبل كل شـيء ، والاخر بعد كل شيء ، والظاهر على كل شيء بالقهر له» [3].

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 234.
(2) المصدر ص 233
(3) المصدر 235

وقال أبو يعفور : سألت الامام الصادق (ع) عن قول الله عز وجل : «الاول والآخر» وقلنا : أمّا الاول فقد عرفناه ، وأمّا الآخر فبيّن لنا تفسيره؟ فقال : «إنّه ليس شيء إلّا يبدأ ويتغيّر أو يدخله التغير والزوال ، وينتقل من لون إلى لون ، ومن هيئة الى هيئة ، ومن صفة الى صفة ، ومن زيادة الى نقصان ، ومن نقصان الى زيادة ، إلا رب العالمين ، فانّه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، وهو الاول قبل كل شيء ، وهو الاخر على ما لم يزل ، ولا تختلف عليه الصفات والأسماء ، كما تختلف على غيره مثل الإنسان الذي يكون ترابا مرة ومرة لحما ودما ومرة رفاتا ورميما ، وكالبسر الذي يكون مرة بلحا ومرة بسرا ومرة رطبا ومرة تمرا ، فتتبدّل عليه الأسماء والصفات ، والله عزّ وجل بخلاف ذلك» [1].

[4] (**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**)

فالخلق آية على عزّته وقدرته ، والتقدير «في ستة أيام» آية لعلمه وحكمته ، ومرة أخرى نطرح هذا التساؤل : لماذا خلقهما في ستة أيام ، وهو القادر على خلقهما في أقلّ من لحظة «**وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**»؟ قد سبق في سورة الأعراف بأن ذلك قد يدلّ على سنّة التكامل في الخليقة حيث يبارك الله فيها وينمّيها طورا فطورا ، يوما فيوما ، لحظة بلحظة ، مما يجعل لعامل الزمن تأثيرا كبيرا في العالم ، بتعبير آخر : الأيام الستة هي ظرف المخلوق ، ولا بد أن نعرف المخلوقات من خلال ظرفها الزمني حيث نستلهم ذلك من قوله سبحانه «**ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى**» [2] مما يوحي بأنّ الأجل المسمى مساوق للحق في أنّه جزء من حقيقته ، والله العالم.

---

(1) المصدر / ص 232

(2) الروم / 8

كما أنّ خلق السموات والأرض في ستة أيـام أصـدق دلالة وأوضح شـهادة على التقـدير والتـدبير ، وفي ذلك تفنيد لشبهة القـائلين بالصـدفة ، فـان كـان أصل الوجـود صدفة فكيف يكون تدبير أمرها وتكميل مسيرتها صدفة؟! وبتعبـير آخر : عملية الخلق مسـتمرة وهي شـاهدة على الخالق سبحانه.

وربنا حيث خلق الخلق لم يعتزله أو يتركه سـدى ، إنّما جعله تحت تـدبيره ورعايته ، بلى. لقد أركز فيه سـننا وأنظمة حاكمة ، بل وقدر فيه كل شيء من قبل أن يبرأه ، ولكن كـانت له اليد العليا والبـداء ، لحاجة الخلق إليه ، ولان كل شـيء وحـتى القـوانين والسـنن لا يقـوم إلا به تعالى ، وهكذا استوى على العرش.

(**ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ**)

وهو رمز القـدرة والملك والتـدبير ، يحمله أربعة من الملائكة المقـربين ، واليه يسـتوي الملائكة يتلقـون أوامر الله لهم ، واسـتواء الله عليه يعـني سـلطته ، وانه يهيمن على الخليقة ويـدبّرها ، ولكن ليس تـدبيرا اعتباطيا ، بل حكيما قائما على أساس علمه بكل شيء.

(**يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْـرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها**)

و «مـا» تـدل على الإطلاق ، أي كـلّ شـيء يلج في الأرض من الغيث والاشـعة والمـواد ، وكـذلك كـلّ شـيء يخرج منها من النبات ، وكذلك كلّ شيء ينزل من السماء أو يصعد إليها من ملائكة الله وأعمال العباد.

(**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ**)

في بر أو بحر ، ظاهرين أو مستورين ، كما قال «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**» [1] وربنا ليس فقط عليم بظاهر خلقه ، بل هو بصير أيضا بباطنهم ، ينفذ علمه الى لطائف الأمور ومغيباتها.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

يعلم ظاهر العمل ، كما يبصر صاحبه ، ويعلم الدوافع الحقيقية عنده ، فقد يكون ظاهره الصلاح ولكنّ باطنه الرياء وحبّ الشهرة والمصلحة ، ويكفي بهذه الآية أن تدفعنا إلى المزيد من العمل الصالح ، والسعي نحو المزيد من الإخلاص والإنفاق ، فان مصائرنا رهينة أعمالنا ، وناقد أعمالنا بصير بصير. نعم. قد نخدم الناس أو نخدع أنفسنا بمظاهرنا وحسن أعمالنا ، ولكن هل نخدع الله؟! كلّا ..

[5 ـ 6] وهذه الآيات تعتبر تمهيدا للحديث عن الإنفاق ، لأنها تعرفنا ربنا عز وجل من خلال صفاته الحسنى ، ومنها الغنى ، فهو حين يدعونا الى الإنفاق فليس ليربح علينا بل لنربح عليه ، إذ لا يزيده إنفاقنا شيئا.

(**لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

فما عسى أن يزيد إنفاقنا في ملكه؟! بل إنفاقنا لا يكون إلّا في جزء من ملكه استخلفنا فيه ، فهو أما من الأرض ، أو من السماء ، والمالك الحقيقي هو الذي خلقهما ، ثم ان ظاهر الأمور بأيدينا مما يوحي بأننا نملك ناصيتها ، إلّا أنّ واقعها بيد الله فإليه ترجع الأمور ، وكم يدبّر العبد أمرا ينقضه تدبير الله؟ وكم يقدر شيئا يقيله

(1) المجادلة / 7

منه أمر الله؟

(**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)

ونهتدي من هـذا المقطع إلى أن المالك الاول هو الله حين ابتـدع كـلّ شـيء ابتـداعا ، وخلقه بعد العـدم ، وانه المالك في المســــــتقبل ، وهو المالك الآن ، لأنه الأحد ، العالم بكل شيء ، كما أنّه القادر على التصـرّف فيه كيف ومتى شاء. إنّه الذي يميت ويحيي ، ولك ان تلقي ببصـرك في آفــاق الخليقة ابتــداء من نفسك لــترى آثــار الحكمة والتـــدبير الالهي المنطبعة في كل شـــيء ، بلى. قد تنكر دور الارادة الالهية في دقـــائق حياتك ، زاعما بأنك الـــذي تصـــنع كل شـــيء فيها ، ولكن من الـــذي يحـــرّك ملايين المجرات السابحة في الفضاء بهذا النظـام الـدقيق؟ ومن الذي يبدّل الفصول والليل والنهار؟ إنّه الله.

(**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ**)

فاذا ولج أحـدهما في الآخر أخذ منه واسـتطال عليه ، وهــذا التنــاقص والتزايد المســتمر والمتقابل في الحركة اليومية للأرض حول نفسها وبسبب حركتها حول الشـمس ينتهي الى تبدّل الفصـول ، فـاذا بالليل يلج في النهـار الى الأقصى في منتصف الشتاء ، بينما يلج النهـار الى الأقصى في منتصف الصـــيف ، ويتعـــادلان في الربيع والخريف تقريبا.

(**وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ**)

إنّ علمه لا يقف عند ما يظهره الإنسـان دليلا على ما في قلبه ، وعلامة على نيته ، إنّما ينفذ الى ذات الصـــدور نفسـها ، ولعـلّ سـائلا يقـول : ما هي العلاقة بين شـطري الآية ، أو بتعبـير آخر : ما هي علاقة إيلاج الليل في النهـار والعكس بعلم الله ما في

الصـــدور؟ والجـــواب : إنّ الاثـــنين يحتاجـــان الى اللطف والعلم والحكمة ، ثم أنّه تعالى لا يشغله شأن عن شــأن ، فتـدبيره لشـؤون الكـون لا يصـرفه عن علم أدقّ الأمـور ، إنّما يهيمن على كل شــيء ، وذلك يســير على الله .. كما تحتمل الآية ردّا على الذين قـالوا بـأنّ الله تفـرّغ للأمـور الكبيرة كحركة الكـواكب والأرض وفـوض سـائر الشـؤون الى خلقه.

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9) وَما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

---

11 [يقرض] : القرض ما تعطيه غيرك ليقضيكه ، وأصله القطع فهو قطعة عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله.

يَوْمَ تَـرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ يَسْـعى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمـانِهِمْ بُشْـراكُمُ الْيَـوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُــورِكُمْ قِيــلَ ارْجِعُــوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُـرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُـورٍ لَـهُ بـابٌ باطِنُـهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قــالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَــكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

---

13 [نقتبس] : نستضــيء ، الاقتبــاس أخذ النــار ، ويقــال قبســته نــارا واقتبسته علما.

14 [وتربصتم] : أي تربصـتم بـالمؤمنين الـدوائر ، وقيل : لم تسـارعوا في إطاعة أوامر الله لأنّ التربّص الترقّب والانتظار.

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا

هدى من الآيات :

توجّهنا هــذه الآيــات إلى اليمــان بالله وبالرســول ، وتأمرنا بالإنفاق باعتباره من أعظم ثمـرات الايمـان ، ولما فيه الأجر الكبـير ، وهو محك الميثـاق الـذي أخذ من كـلّ الناس في عالم الذر ، وهو بند من بنود العهد الـذي قطعه المسلم على نفسه عند بيعته للقيادة الرسالية .. ولا يحدد القرآن نوعا من الإنفاق بذاته ، وان كان الظاهر هو إنفـاق المــال ، كما لا يــدعو الى كمية معينة من الإنفــاق ، لان الأهم الكيف وليس الكم ، لــذلك نجد تفريقا بين الإنفــاق استجابة لأمر الله ودعوة الرسول إذا كـان قبل الفتح وإذا كـان بعـده ، والتأكيد على ان الاول هو الأفضل عند الله ، لأنه الأصعب ، إذ يتعرّض المؤمن يومئذ لكثير من الصعاب كضغط السلطة التي تعتـبر الإنفـاق من أجل الحق جريمة تسـتحق العقـاب ، وضـغط المجتمع المثبّط الـذي يعتـبره مغرما وسفها ، اما بعد الفتح فتنتفي الكثير من الضغوط ، وربما يصير الإنفاق بابا الى الشـهرة ، وتأكيـدا على النـوع في الإنفـاق يـدعونا ربنا الى قـرض حسن في سـبيله ، لا لحاجة منه

اليه ، وانما لكي يـرده علينا أضـعافا مضـاعفة في الـدنيا ، وليجعله نورا في الآخرة وثوابا وفوزا عظيما.

ثم ينقل لنا الـــوحي مشـــهدا من الاخـــرة ، حيث المؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيـديهم وبأيمـانهم الـتي مـدّوها بالإنفـاق والقـرض الحسن في سـبيل الله ، فهم في نعيم الجنة خالـــدون ، بينما يتخبط المنـــافقون الـذين بخلـوا أو أنفقـوا لغـير وجهه تعـالى في ظلمـات وعـــــذاب مقيم ، وهنالك لا يقبل منهم فدية في مقابل الخلاص من العـذاب ، ولو كـان قـدرها ملء الأرض ذهبا ، بينما كـان بامكـانهم ان يعتقـوا أنفسـهم من جهنم بإنفـاق حسن محدود في الدنيا لوجه الله وطاعة لرسوله وأوليائه ، لكنّهم فتنوا أنفسهم وتربّصـوا وارتـابوا وغـرتهم الامـاني وخدعهم الشيطان.

بيّنات من الآيات :

[7] بعد ان عرّفنا ربنا نفسه من خلال صفاته كالقدرة على كل شـــيء ، والعلم بكل شـــيء ، وانه الاول والآخر والظـاهر والبـاطن ، وانه الخـالق الـذي له الملك الواسع وبيده التدبير ، يدعونا الى الايمان به تعـالى ، معتـبرا ذلك أساسا للايمان. أو ليس الايمان الحق هو الذي يقـوم على المعرفة؟

(**آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا**)

يسأل البعض : هل الخطاب موجبه الى المؤمنين فهو تحصـــيل حاصل لأنهم مؤمنـــون ، أم هو موجه لغـــير المؤمنين فهو غير جائز لان الأمر يلزم المؤمن فقط؟!

والجواب : أولا : إنّ الايمان درجـات فيصـحّ ان يكـون الخطاب للمؤمنين يـدعوهم الى درجة أرفع من الايمـان ، والإنفـاق المـأمور به في الآية هو أحد درجـات الايمـان ، فليس كل المؤمنين منفقين.

وثانيا : إنّ الأمر بالايمان والإنفاق قائم وملزم حتى لغير المؤمن ، فان كان مسلما لمّا يدخل الايمان قلبه فدعوته لذلك جائزة ، ولو افترضناه كافرا فهي قائمة وملزمة أيضا ، فهذا رسول الله (ص) يدعو الكافرين والمشركين الى التوحيد بما اشتهر عنه : «قولوا لا إله الّا الله تفلحوا» ، فلا يعني ذلك أنّ أمره (ص) قبيح ، ولا أن دعوته غير ملزمة ، فالأمر حينما يكون عقليّا يلزم كل ذي عقل ، وحينما يكون شرعيّا يلزم كل من بلغته الحجة ولو لم يذعن ، والدليل الى ذلك توعد الله المخالفين لأوامره بالعذاب ، والأمر بالايمان ـ ومن ثم الإنفاق ـ يتسم بالعقلانية ، كما هو مقتضى الشريعة.

وإذا كانت المعرفة مرتكز الايمان فانّ الايمان مرتكز الإنفاق ، إذ لا قيمة لانفاق بغير إيمان ، ولغير وجه الله ، قال تعالى : «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ* مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**» [1] ، والايمان ليس يوجّه الإنفاق الى أهدافه الصحيحة ، ويجعله ضمن منطلقاته ودافعه المطلوبة وحسب ، بل هو الذي يعطي الإنسان الارادة والقدرة على تجاوز حرص النفس وشحّها وسائر الضغوط والحوافز المعاكسة ، فالمؤمن يعطي في سبيل الله لاعتقاده بأن ذلك يؤدي الى النماء ، والى الجنة ، والى رضوان الله وهو الأهم ، فلا يعتبر إنفاقه خسارة ، بل هو ربح في الواقع والمستقبل ، ثم هب أنّه لم يحصل على نماء في الدنيا فانّه سوف يجد أجرا كريما في الاخرة.

ومن الحوافز الموضوعية الى الإنفاق بالاضافة الى الايمان هو المعرفة الراسخة باننا لا ننفق من عند أنفسنا ، إنّما ننفق من ملك الله الذي استخلفنا فيه ، فلما ذا الشح

---

(1) آل عمران / 16 ـ 17

ما دام الآمر بالإنفاق هو المالك؟ لذلك يؤكّد القرآن قائلا : (مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)

وقد قيل في «مستخلفين» معنيان أحدهما : انّ الإنسان يأتي خلفا لسلف في الملك ، فيكون المعنى : أنفقوا من قبل أن يستخلف الله أحدا غيركم باماتتكم ، أو نقل مالكم إليه ، والثاني : إنّكم لستم المالك الحقيقي بل الله ، وانما أذن لكم بالتصرّف فيه ، وخوّلكم صلاحية العمل فيه ، كما لو كنتم خلفاءه فيه ، وكلا المعنيين سواء في التحريص على الإنفاق ، ولكنّ الاول أظهر لقوله تعالى : (وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) [1]

(فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

أما الذي يؤمن ولا ينفق فان كان امتنع عن الإنفاق الواجب فله العذاب ، وان كان مستحبا فانّ أجره لن يكون كأجر المنفقين.

[8] ولماذا يرفض الإنسان الايمان بربّه وهو الذي خلقه ويرزقه ويرعاه؟!

(وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ)

وهذه الدعوة ليست بدعة ولا باطلا ، إنّما تتفق مع الحق المودع في فطرة كلّ خلق منذ عهده مع ربّه. قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

(1) المنافقون / 10

أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ* وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [1].

(**وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**)

أي ان كنتم أعطيتم الميثـــــــــاق الاول بالطاعة لله وللرسول فأنفقوا.

قال البعض : إن ميثاق عالم الذر لا يصلح للتحـريض ، لاننا لا نتـذكّر ذلك الميثـاق فكيف يكـون حجة علينـا؟ قـال عطـاء ومجاهد والكلـبي والمقـاتلات : يريد حين أخـرجهم من ظهر آدم ، وقال : «**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى**» ، وردّ عليهم الفخر الرازي : وهذا ضعيف ، وذلك لأنه تعـالى إنّما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في انه لم يبق لهم عذر في ترك الايمـان بعد ذلك ، وأخذ الميثـاق وقت إخـراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسـول (ومضى يردّ على رأيهم حـتى قـال :) فعلمنا أنّ تفسـير الاية بهـذا المعـنى غـير جـائز [2] ، والحـال أنّ الله لم يأخذ الميثـاق ويشهد بني آدم على أنفسهم إلّا لكي يستأديه في يوم من الأيـــام عـــبر رســـله وأوليائه ، وحججه ، وهو مـــودع في قلوبهم بصورة معرفة وايمان فطري ، والشاهد والمتقـدّم من سورة الأعراف ظاهر وظهير لهذا المعنى.

ويحتمل ان يكـون معـنى الايمـان هو الجـانب العملي منه المتمثّل في الإنفـــاق ، فيكـــون المعـــنى : إن كنتم مؤمنين حقّا استجيبوا لدعوة الرسول بالإنفاق.

وقـال البعض : إنّ معـنى الاية : آمنـوا إن كنتم ممن تكفيه هذه الشواهد.

[9] ومـرة أخـرى نتسـاءل : لمـاذا يـرفض الإنسـان الايمـــــان ، انه ليس خســــارة ، بل هو ربح عظيم ، لأنه يخرجه من الظلمـات الى النـور ، من ظلمـات الظلم الى نور

---

(1) الأعراف / 172 ـ 174

(2) التفسير الكبير عند تفسير الآية.

العدالة ، ومن ظلمـــات العقائد الســـخيفة الـــتي تحجب العقل عن الحقائق الى نور الحنفيّة السـمحاء الـتي تثـيره الى معرفتها ، ومن ظلمـات العقد النفسـية الـتي تسـلبه لذّة الحياة الى نور الوعي ، وكل ذلك يتم برسالة الله الى الإنسان.

(**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّنـاتٍ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**)

القــرآن يرسم لنا خريطة شــاملة متكاملة وصـحيحة لجوانب الحياة ، ويحرّر العقل والنفس من الأفكار الضـالّة والعقد. إنّه يزكّي النفس من الحسد والحقد وســوء الظن والشك ، وهــذه كلها ظلمــات ، وفي المقابل يــزرع فيها الوئـــــام والمحبّة وحسن الظن والالفة ، كما أنّ من أهم الظلمات التي تسـتهدف الرسـالات الالهية إخـراج النـاس منها هي الانظمة الفاسدة التي تتسلّط على رقاب النـاس ، وتمنع الامة من التقــدم ، وعلى النــاس أن يعلمــوا بــان الايمـان الأصـيل ، والإنفـاق الـذي تـدعوهم اليه القيـادات والحركـات الرسـالية يهـدف تحريـرهم من تلك الظلمـات الى نـور دولة الحـقّ والعـدل ، وهـذا لا شك يكلّفهم شـيئا من التضحيات ، ولكن ليعلمـوا انّه في صـالحهم ولخـيرهم في الـدنيا والآخـرة. إنّ الايمـان والإنفـاق يسـتهدفان بنـاء مجتمع متحضّــر نفســيا واجتماعيا وسياســيا واقتصــاديا وثقافيا .. كل ذلك من رأفة الله ورحمته بعباده.

(**وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

بلى. إنّ الايمــان يحملنا بعض المســؤولية ، ونحتــاج حتى نلـتزم به أن نخـالف أهواءنا ، ولكنّه ليس مغرما كما يتصوّره البعض ، فقد يطالبنا بالإنفاق ولكن ليس ليسـتنفع به الله سبحانه وتعالى ، انما ليعـود النفع علينا نحن البشر ، وذلك لأنه يزكّي نفوسنا ويربينا ، ويبـني مجتمعا متكـاملا قويا ، وينمّي اقتصادنا ، إضافة الى كونه يسبب رضى الله وثوابه في الآخرة ، وقد قـال تعـالى : (**خُذْ مِنْ أَمْـوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ**

وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [1] ، وقال : (**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ**) [2] ، وقال : (**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**) [3].

ولنا أن نلمس حقيقة الرسالة ، ورأفة الله ورحمته عن قرب ، لو رجعنا الى الوراء قليلا في الزمن لنقارن بين واقعين في تجمّع واحد كان يعيش على شبه الجزيرة العربية ، واقعه قبل الإسلام ، وواقعه بعده ، لقد كان قبله مجتمعا ضعيفا متمزّقا عرضة للطامعين وعرضة للتناحر والحروب ، فأصبح قويا متحدا ورمزا للتحضّر ، وقال تعالى مشيرا الى هذه النعمة العظيمة : «**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**» [4] ، وقالت فاطمة الزهراء (ع) تعكس محتوى هذه الآية وشبيهاتها : «**ابتعثه إتماما لأمره ، وعزيمة على إمضاء حكمه ، وإنفاذا لمقادير رحمته ، فرأى الأمم فرقا في أديانها ، عكّفا على نيرانها ، عابدة لاوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله بأبي محمّد (ص) ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلى عن الأبصار غممها ، وقام في الناس بالهداية ، فأنقذهم من الغواية ، وبصّرهم من العماية ، وهداهم إلى الدين القويم ، ودعاهم الى الطريق المستقيم .. إلى أن تقول : وكنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطئ الاقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القد ، أذلّة خاسئين ، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمّد (ص) بعد اللتيا والتي**» [5].

---

(1) التوبة / 103
(2) البقرة / 276
(3) سبأ / 39
(4) آل عمران / 103
(5) الإحتجاج / ج 1 ص 99 ـ 100

[10] فلما ذا لا يتبع البشر الآيات ويطبقونها إذا كانت تخـرجهم من الظلمـات الى النـور؟ هل الظلمة خـير من النور؟! أم العذاب خير من رأفة الله ورحمته؟!

(**وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللـهِ وَلِلَّهِ مِـيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

كل نعمة هي أمانة بيد الإنسان ، روحه وجسده وماله وكل شيء ، ويأتي يوم تسترد هـذه الامانة منه لتعـود الى مالكها وهو الله ، ليسـأل كل واحد عن موقفه منها ، «**ثُمَّ لَتُسْـئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**» [1] ، «**وَقِفُـوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ**» [2]. ولماذا يمسك مال الله وأمانته دون أمره ، أفلا يسـتحق بعـدها الجـزاء؟ «**وَما ذا عَلَيْهِمْ لَـوْ آمَنُـوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ**» [3]؟!

وكما يختلف الإنفــاق في ســبيل الله عن الإنفــاق لأغراض أخـرى ، بـأنّ الاوّل مقبـول مجـزي عليه ، والآخر مـردود وربما معـاقب بسـببه ، فـانّ الاوّل يتفاضل على بعضه أيضا ، نظـرا لمسـتوى إيمـان صـاحبه ، وللظـروف والمعطيـــــات المحيطة به ، فالـــــذي ينفق قبل الفتح والانتصـار لا شك أنّه أعظم درجة وفضلا ، وذلك لاسـباب أهمّها :

1 ـ سـبقه الى الحق والعمل الصـالح ، ولعـلّ الكثـير من اللاحقين إنما اهتدوا بسـببه ، فهو يصـدق عليه حـديث الرسـول (ص) : «**من سـنّ سـنّة حسـنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، لا ينقصهم من أجـــرهم شــيئا**» ، كما أنّه مصـــداق لقوله تعـــالى : (**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**) [4].

2 ـ دوره في إقامة حكومة الله في المجتمع ، وهو لا شك فضل كبير ، والكثير من

(1) التكاثر / 8
(2) الصافات / 24.
(3) النساء / 39
(4) الواقعة / 10 ـ 11

الإنفاق والقتال الذي يلي الفتح إنّما بفضل الانتصـار الـذي ارتفع بسببه الحرج ، وصلحت الظروف المضادة ، والكثير من النـاس مسـتعدون للإنفـاق في ظل المجتمع المسـلم أكـثر من اسـتعدادهم للإنفـاق في ظل الحركة بالـذات إذا كانوا يستضعفونها ، ولعلّه لو لم ينبر لدعم الرسـالة أولئك السابقون ما كانت تقوم لها قائمة.

3 ـ لأنّ الإنفاق والقتال قبل الفتح أكثر صعوبة وتحديا بالنسـبة للإنسـان ، فقد يجر عليه الكثـير من الـويلات والمشاكل ، إذا عرفه أعداء الرسالة كالانظمة الفاسـدة ، ويكفيه فضـيلة أنّه يقـاوم به في ظـروف أكـثر معاكسة وتحـديا ، حيث النـاس كلّهم متقاعسـون ، والنـبي (ص) يشـير الى هـذه الحقيقة إذ يقـول : «**خـير الأعمـال أحمزها**». أما بعد الانتصـار والفتح فقد يكـون الإنفـاق سبيلا الى المجد الاجتماعي.

إنّ الإنفـاق قبل الفتح يـدلّ على عمق الايمـان ، لان على المنفق يومئذ أن يجتـاز ثلاث عقبـات : عقبة حب المـال ، وعقبة الضـغوط السياسـية ، وعقبة التحـدّيات الاجتماعية .. كذلك يكون إقدامه على القتال وإنفاقه نابعا حينها من روح ايمانية خالصة ، وليس من اختلاط الـدوافع والدواعي.

(**لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَـةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ بَعْـدُ وَقاتَلُوا**)

ولكن لا ينبغي أن يكـون هـذا التفاضل سـببا للتعـالي عند فئة ، ولا لليأس والاحساس بالضعة عند الأخرى ، كما لا يعني أن اللاحقين لا حظّ ولا فضل لهم ، كلّا ..

(**وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى**)

يعني الجنة والرضا والجزاء ، ويؤكّد القـرآن في نهاية الآية أنّ التفاضل ليس

لمجـرد الانتمـاء الى صـفوف المجاهـدين الرسـاليين قبل الفتح ، ولا لعوامل ذاتية تنحصر في ذلك الجيل ، كلا .. إنّما التفاضل بالأعمال الصالحة التي يحيط بها علم الله.
(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

إذ لا يكفي أن يقتات الجيل السابق بأمجاده الغـابرة ، ويتوقّف عن العمل اعتمادا على ذلك التفضيل ، ولعلّ في هذه الخاتمة إشارة لطيفة إلى موقف الإسلام من صـراع الأجيال ، ففي الوقت الذي يعترف فيه بوجـود الأجيـال بل بتمايزها ، لا يدعوها للصـراع ، بل يـدفعها باتجـاه الالتحـام والتعاون والتسابق البنّاء في ميدان السعي والعمل.

[11] ويجـــادل البعض : ما دام لله ملك الســـماوات والأرض ، وهو على كـــلّ شــــيء قـــدير ، فلما ذا يأمرنا بالإنفـاق؟ ويقـول ربنا عن مثل هـؤلاء : «**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ أَنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللـهُ قـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ**» [1] ، كل ذلك تـبريرا لتخلّفهم عن الحق ، وسعيا للتملّص من المسؤولية ، ولكنّ المؤمـنين يـدركون غنى الله ، وأنّه إنّما فرض الإنفاق ليبتلي عباده ويستأديهم ميثاقه بالطاعة لـه. قـال أمـير المؤمـنين (ع) : «أسـهروا عيـونكم ، وأضـمروا بطـونكم ، واسـتعملوا أقـدامكم ، وأنفقوا أمـوالكم ، وخـذوا من أجسـادكم فجـودوا بها على أنفســكم ، ولا تبخلـوا بها عنها ، فقد قـال تعـالى : (**إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**) ، وقال تعـالى : (**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَـناً فَيُضـاعِفَهُ لَـهُ وَلَـــهُ أَجْـــرٌ كَـــرِيمٌ**) ، فلم يستنصـــركم من ذل ، ولم يستقرضـكم من قل ، استنصـركم وله جنـود السـماوات والأرض ، واستقرضـكم وله خـزائن السـماوات والأرض ، وهو الغني الحميد ، وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملا ، فبادروا

---

(1) يس / 47

بأعمالكم تكونوا من جيران الله في داره» [1].

نعم. إنّه تعـالى لا يحتـاج إلينا ، ولا لأحد من خلقه ، وإنّ ما نملك من شيء فهو من فضله ورزقه ، ودعوته لنا الى الإنفـاق في صـالحنا ، فبالانفـاق في سـبيله نعـالج مشـاكلنا الاقتصـادية والسياسـية والاجتماعية ، ونـزكي أنفسـنا ، وفي الاخـرة أجر وثـواب عظيمـان ، فلنسـتمع لندائه ، ولنستجب دعوته :

(**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**)

إنّه لا يريدنا ان ننفق كل أموالنا في سبيله ، انما يريد بعضها ، فالقرض هو الاقتطـاع ، ولعـلّ في الكلمة اشـارة الى الصـعوبة الـتي يواجهها الإنسـان عند الإنفـاق والـتي تشبه القـرض. أو ليس يريد مخالفة هـواه ، وحبه للمـال؟ اذن فليتحمل ، وليعلم انه في صالحه دنيا وآخرة.

وربنا لا يريد اي إنفـاق ، انما الإنفـاق الحسن ، ولا يكون كذلك الا إذا اشتمل على المواصفات التالية :

1 ـ أن يكـون من المـال الحلال ..قـال أبو بصير عن أبي عبد الله (ع) في قوله عز وجل : «**أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ**» فقـال : «كـان القـوم قد كسـبوا كاسب سـوء في الجاهلية ، فلما أسـلموا أرادوا ان يخرجوها من أمـوالهم فيتصـدقوا بها ، فـأبى الله عز وجل ان يخرجوا إلّا من أطيب ما كسبوا» [2] وفي قوله تعـالى : (**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**) قال : «**كان النـاس حين أسلموا عندهم مكاسب من الربا ، ومن أمـوال خبيثة ، فكـان الرجل يتعمّـدها من بين ماله فتصـدق بها ، فنهاهم الله**

---

(1) نهج / ج 183 ص 267

(2) وسائل / ج 6 ص 325

عن ذلك ، وان الصدقة لا تصلح الا من كسب طيب» [1] وقال رسول الله (ص) : «إنّ الله تعالى طيّب لا يقبل إلّا الطيّب» [2] ، ولعلّ تأكيد الأحاديث والآيات على هذا الشرط لان البعض يحاول تبرير مكاسبه الحرام ، والالتفاف على الشرع بمختلف الحيل ، كانفاق بعضها في بناء المساجد والحسينيات ، والمساهمة في المشاريع الخيرية ، ولكن ليعلم هؤلاء ان ذلك لا يخلعهم عن المسؤولية أمام الله ، ولا يعود عليهم بالنفع.

2 ـ أن يكون مخلصا لوجه الله ، قال تعالى : (**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**) [3] ، وهذه سيرة أوليائه (ع) : (**وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً* إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**) [4] ، أمّا إذا أنفق الإنسان تزلفا الى الطاغوت ، أو طمعا في منصب ، وقضاء حاجة لدى القيادة الرسالية ، أو رئاء الناس ولهثا وراء الشهرة والسمعة ، فهذا ليس قرضا حسنا ، إنّما هو سيء يستوجب العقاب ، لأنه قد يكون طريقا الى الفساد والإفساد في المجتمع ، وعلى القيادة الرسالية ان تتنبه لهذه النوعية من أصحاب الأموال ، الذين يتظاهرون بدعم الحركة والدولة الاسلامية ، ولكنهم في الواقع لا يريدون من وراء ذلك الا بلوغ مصالحهم ، والتغطية على أخطائهم وتلاعبهم بالاقتصاد والمجتمع ، ولا ريب ان الكلام الحسن خير من هذا النوع من الإنفاق ، وقد قال الله تعالى : (**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ* يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا**

---

(1) تفسير العياشي / ج 1 ص 149

(2) مجمع البيان / ج 9 عند الآية

(3) المائدة / 27

(4) الإنسان / 8 ـ 10

صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ) [1].

3 ـ أن يصيب الإنفاق موارده المشروعة ، فيكون الإنسان أقرض الله بالفعل ، بلى. ليس مطلوبا منه أن يفتّش عن عقائد الناس ويحقّق معهم ، ولكن ينبغي له أن يعلم اين يضع ماله ، وفي الخبر المشهور : «لا تجوز قدما عبد على الصراط حتى يسأل عن خمس (منها :) وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه» وقال الله عز وجل : (**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**) [2] وقال الامام الصادق (ع) : «لو أن الناس أخذوا ما أمرهم الله به فأنفقوه فيما نهاهم عنه ما قبله منهم ، ولو أخذوا ما نهاهم عنه فأنفقوه فيما أمرهم الله به ما قبله منهم ، حتى يأخذوه من حق ، وينفقوه في حق» [3].

بالطبع الثواب يكون على النية ، والإنسان مطالب أن يعمل بالظاهر ، ولكنّه إذا أخلص نيته وأصحاب هدفه فهو أجزل ثوابا من الذي يخلص ولا يصيب ، بالذات إذا كان ذلك يسبب الإهمال ، فان الإنفاق إذا أخطأ موارده قد يؤدي الى حالات سلبية معاكسة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.

ومن أهم الموارد الامام المعصوم ومن يخلفه في قيادة المجتمع المسلم أو التجمع الرسالي الذي يجاهد من أجل اقامة حكم الله ، وتحرير البلاد والعباد من ربقة الظلم والفساد والتبعيّة ، قال الامام الصادق (عليه السلام): «**إنّ الله لم يسأل خلقه ما**

---

(1) البقرة / 262 ـ 264

(2) البقرة / 271

(3) وسائل / ج 6 ص 326

في أيــديهم قرضا من حاجة به الى ذلك ، وما كــان لله من حق فانّما هو لوليّه» [1] وفي روضة الكافي عن أبي الحسن الماضي (ع) في قوله تعــالى : (**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ**) (الآية) قال : «**صلة الامام في دولة الفسّاق**» [2].

ولتعلم الامة انها كلما دعمت الحركــات الرســالية والقيـادات الصـالحة كلما تقـدمت نحو النصر ، وسـاهمت في اســتقلال طلائعها المجاهــدة ، فهنــاك الكثــير من المشـاريع في طريق الجهـاد والنصر تنتظر العـون الـذي يصيّرها واقعا على الأرض ، وزوجة الرسول الأكرم خديجة بنت خويلد (عليهما السلام) أسوة حسـنة لنـا. فلقد وهبت مالها للإسلام ابتغاء مرضاة الله ، وجهادا في سـبيله ، وإذا كانت هذه المسؤولية تقع على الامة فـردا فـردا ، فانها لا ريب تــتركز عند الــذين أنعم الله عليهم بــالثروة ، وهم مطالبون أمام الله والامة والتاريخ ان يتحمّلوا مسـئوليتهم ويــؤدوا واجبهم في الصـــراع الحاسم بين الباطل (ممثلا بالأنظمة الجاهلية) وبين الحق (ممثلا بالقيادات والحركات الرسالية والصادقة) ، وليطمئن كل منفق أنّ انتصار الحق لن يكــون في صــالح الامة وحسب ، بل في صــالحه هو شخصـيّا أيضا ، وأن المـال الـذي ينفق منه لن ينقص ، بل سيبارك الله له فيه.

(**فَيُضاعِفَهُ**)

في الـدنيا. ويضـرب القـرآن مثلا لهـذه المضـاعفة إذ يقول : (**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللهِ كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَـبْعَ سَـنابِلَ فِي كُـلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِـعٌ عَلِيمٌ**) [3] ، وقال الامام علي (ع) : الصدقة تنمي

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 239
(2) المصدر / نقلا عن الروضة
(3) البقرة / 361

المـال عند الله [1] ، ولا يقف الجـزاء عند هـذا الحد ، انّما تعم البركة جـــــوانب حياته ، وتمتد الى من حوله ، والى الأجيال من بعده ، قـال الامـام الصـادق (ع) : «ما أحسن عبد الصـدقة في الـدنيا الا أحسن الله الخلافة على ولـده من بعده» [2] ، وكذلك يشمل الجزاء الآخرة ، فيكون هناك أكثر وأفضل.

(**وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**)

في مقابل شكر الإنسـان لربّه ، وتصـرّفه الحسن في نعمه يشكره الله. ونحن نعلم كم تكـون العطية كثـيرة إذا امتــدت بها يد الكــريم من النــاس ، ولكننا لا نســتوعب ســعتها ونوعيّتها إذا كــانت من عند رب العــالمين الــذي وسعت رحمته كل شيء!

ويجـــدر بنا في خاتمة تفســير الآية أن ننقل هنا نص كلام العلامة الطبرسي في بيان شروط القرض الحسن :

قال أهل التحقيق : القـرض الحسن أن يجمع عشـرة أوصاف : أن يكون من الحلال ، لأنّ النبي (صلى الله عليه وآلـه) قـال : «إنّ الله تعـالى طيّب لا يقبل إلّا الطيب» ، وأن يكـــون من أكـــرم ما يملكه دون ان يقصد الـــرديء بالإنفاق ، لقوله : «**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُـونَ**» ، وان يتصـدّق وهو يحب المـال ويرجو الحيـاة ، لقوله (ص) لمّا ســئل عن الصــدقة : «**أفضل الصــدقة أن تعطيه وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل العيش ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل حـــتى إذا بلغت النفس الـــتراقي قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا**» ، وأن يضعه في الاخل الاحوج الاولي بأخــذه ، ولــذلك خص الله أقواما بأخذ الصــدقات وهم أهل الســهمان ، وان يكتمه ما أمكن ، لقوله : «**وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَـراءَ فَهُـوَ خَيْــرٌ لَكُمْ**» ، وان لا يتبعه المن والأذى ،

---

(1) بح / ج 77 ص 268

(2) المصدر / ج 96 ص 268

لقوله : (**لا تُبْطِلُــوا صَــدَقاتِكُمْ بِــالْمَنِّ وَالْأَذى**) ، وان يقصد به وجه الله ولا يرائي بذلك لان الرياء مذموم ، وان يسـتحقر ما يعطي وان كـثر لان متـاع الـدنيا قليل ، وان يكون من أحب ماله اليه ، لقوله : (**لَنْ تَنـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ**) ، فهــذه الأوصــاف العشـــرة إذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرضا حسنا» [1].

[12] وجــزاء الله وأجـره لا ينحصر في الـدنيا ، ففي الآخرة يكون الجزاء الأعظم والأعم.

(**يَوْمَ تَرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنـاتِ يَسْـعى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**)

لأنهم بعثوا أعمالهم الصالحة قبل ان يرحلـوا الى تلك الدار.

(**وَبِأَيْمانِهِمْ**)

الـتي ما بـرحت حـتى الرمق الأخـير تنفق في سـبيل الله حيث تتحول صحيفة أعمالهم الـتي يحملونها بأيمـانهم الى نور وبشـرى بالجنة ، والنـور هو تجل واقعي للأعمـال الصالحة ، والهـدى الـذي اتبعـوه من آيـات الرسـالة الـتي تــنزلت على الأنبيــاء ، والامامة الصــالحة الــتي اختاروها وسلموا لها واتبعوا بصائرها ، قال الامام البـاقر (ع) : وهو يفسّر الاية : أئمة المؤمنين يـوم القيامة تسـعى بين يـدي المؤمنين وبأيمانهم حـتى يـنزلوهم منـازل أهل الجنة [2] ، ولا غرابة في ذلك وربنا يصف نبيّه بأنّه نـور وسـراج منـير ويقـول : (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَـلْناكَ شـاهِداً وَمُبَشِّـراً وَنَذِيراً* وَداعِيـاً إِلَى اللـهِ بِإِذْنِـهِ وَسِـراجاً مُنِـيراً***) [3]. وهذا النور موجود في الدنيا ، ولكن الإنسـان لا يـراه بعينه ، انما يـراه البصـير بقلبه ، وفي الاخـرة يكشف الله عنـه. ونهتدي من التدبّر في المقطع

---

(1) مجمع البيان / ج 9 ص 235
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 240
(3) الأحزاب / 45 ـ 46

«**يَسْـعى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمـانِهِمْ**» أنّه ينبغي للمـؤمن ان لا يكتفي بـالنور الـذي ينـير له الطريق من الخـارج ، بل لا بد ان يكـون بيـده نـور وعنـده بصـيرة الاستفادة من ذلك في الوقت المناسب.

ومن دقائق التعبير هنا قوله تعالى (**وَالْمُؤْمِناتِ**) دون ان يكتفي بذكر المؤمـنين الـتي هي لغة القـرآن الشـاملة للجنسين ، وذلك لكي لا تتصوّر النساء أنّ الإنفاق والجهـاد في سـبيل الله من وظـائف الرجل وحـده ، كلّا .. فهنّ مكلّفات بقدرهنّ أيضا ، ومن الخطأ أن تعتمد المرأة على ما يقدّمه وليها أو أقرباؤها ، فلكل عمله وسـعيه ، ونـوره وجزاؤه يوم القيامة.

وحيث يتقـدّمون نحو الجنة ويعـبرون الصـراط تـأتيهم البشارة من الله تحملها الملائكة. وأي بشـرى تلـك؟! إنّها عظيمة حقّا.

(**بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ**)

كثيرة ومختلفة ، باختلاف الأعمال وقدرها.

(**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها**)

وهذه من أفضل نعم الجنة ، نعيم دائم وحياة أبديّة.

(**ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

حيث الخلاص من جهنّم ، والوصـــول إلى أعظم تمنّيات الإنسان ألا وهي الخلـود ، وكـلّ إنسـان يشـعر في نفسه كم ينغّص الخـــوف من المـــوت والنهاية عيشه وسعادته ، وقد ضمن الله الخلود للمؤمنين.

ويبدو أنّ «بشراكم» مبتـدأ وخـبره «جنّـات» ، كما لو قلنا : أملك السلطة.

[13] أمّا المنافقون الذين لم يتبعوا الآيـات البيّنـات ، ولم يسـلّموا للقيـادة الرسـالية والإمامة الصـالحة ، ولم يعملوا الصالحات كالجهـاد والإنفـاق ، أو عملـوا ذلك لغـير الله ، فهم يظلّون في الظلمـات والعـذاب ، ذلك أنّ هـذه العوامل هي الـتي تخـرج الإنسـان من الظلمـات «**لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمـاتِ إِلَى النُّورِ**» وحيث لم يتمسّكوا بها لم يخرجوا منها ، هكذا يقول لهم المؤمنون.

(**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونا**)

أي انتظرونا حتى نستضيء بنوركم.

(**نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ**)

وهذا لا يمكن ، لأنّ الإنسـان هو الـذي يرسم مصـيره بنفسه ، و «**كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ**» [1] ، فإن عمل الصالحات جنى النور والثـواب ، وإنّ عمل السـيئات جـنى الظلمة والعذاب ، ثمّ أنّ الآخرة ليست محلّا ليستزيد فيها أحد عملا ، إنّما الـدنيا هي دار العمل ، وهنـاك حسـاب ولا عمل ، لذلك يأتيهم النداء أن عودوا إلى الدنيا.

(**قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**)

وهذه الآية لا تخصّ يوم القيامة ، إنّما تنفعنا في الدنيا أيضا ، وذلك بـأن نعلم بأنّها الفرصة الوحيـدة الـتي يمكن فيها التغيـير والرجـوع عن الخطأ بالتوبة والعمل الصـالح ، وربّنا ينقل لنا هــذه الصــورة من القيامة لنتصــور واقع الحسرة فنسعى

---

(1) الطور / 21

لاجتنابها ونحن في الـدنيا ، ولأنّ الآخـرة دار الفصل فـإنّ الله لا يـدع للمنـافقين فرصة للاختلاط بـالمؤمنين ، بلى. ربما استطاعوا في الدنيا أن يخفـوا نوايـاهم وشخصـيّاتهم الحقيقية ، فتعايشــوا وسط المجتمع المــؤمن متطفّلين ، ينتفعون بظـاهر الإيمـان من مكتسـبات الأمّة ، ويغتنمـون الفرص لينزوا على مصالحهم ويحقّقـوا أهـدافهم ، أمّا في الآخرة فلا يجدون طريقا إلى النفاق.

(**فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ**)

من جهة المؤمنين.

(**وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ**)

أي ذات الباب فيه عذاب لكي لا يدنوا منه المنـافقون ، وربما جعل الله في الســور بابا لكي يلج منه التـائبون ، والمشفوع لهم بإذن الله ، ومن تطهّر بالنـار من النفـاق ، فهنــاك من المنــافقين من هو في أســفل درك وهــؤلاء يخلدون في العـذاب ، وهنـاك من عنـدهم نسب محـدودة من النفـاق يعـذّبون بسـببها ثم يـدخلون الجنة ، وقد قـال الله تعـالى : (**وَيُعَـذِّبَ الْمُنـافِقِينَ إِنْ شـاءَ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً**) [1] ، وإنّما يؤكّد الله هـذه الحقيقة لتتـبيّن لنا رحمته ، ولكي لا ييـأس أحد من التوبة بعد التــــورّط في الخطأ ، ولو كــــان ذلك أأ في مستوى النفاق.

[14] وبعد أن يضرب السور بين الفريقين في الآخرة ينادي المنافقون المؤمنين ، والنداء يختلف عن القول بأنّ القول يعني المخاطبة عن قرب ، أما النداء فهو المخاطبة عن بعد ، أو من وراء حجـاب ، وبصــورت مرتفع يقصد به المنادي إسماع الطرف الآخر كلامه.

---

(1) الأحزاب / 24

(**يُنادُونَهُمْ**)
نداء استغاثة وحسرة.
(**أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**)
وهنـاك يجيبهم المؤمنـون بما هو قـول فصل : أوّلا : ببيان حقيقة الانتماء ، بأنّه ليس مجـرّد التشـدّق اللفظي ، إنّما يتحقّق الانتماء بالعمل المتجانس ، والخـطّ المشـترك ، وهـذا ما لم يتحقّق في واقع المنـافقين ، لأنّهم أوقعـوا أنفسهم في الفتنة حين اجتنبها المؤمنـون ، وتربّصـوا حين أقدموا ، وشكّكوا حين تيقّنوا ، واغترّوا بالأماني حين سعوا ، واستجابوا لنداء الشيطان حين استعاذوا منه ، وأمسـكوا بخلا وأمـروا النـاس به حين أنفقـوا. وثانيا : ببيـان مراحل التسـافل والهلاك عند الإنسـان ، وهـذه أوضح آية في القرآن من حيث ترتيبها بالتتالي ، وهي :
المرحلة الأولى : الافتتـان ، والفتن لغويّا هو وضع المعـدن كالـذهب في النـار ، وسـمّي الابتلاء فتنة لأنّ الإنسـان أثنـاءه يكتـوي بنـيران الحـوادث والمتغيّـرات ، ويواجه التحـدّيات والضـغوط الصـعبة والحاسـمة بعض الأحيان ، والسؤال : كيف يفتن الإنسان نفسه؟
ونجيب : حينما يريد الإنسـان أن يكـون مخلصا لربّه ، بعيـدا عن الضـلالة والانحـراف ، يجب أن يتجنّب مضـلّات الفتن ومظانّها ، فلا يـدخل فيها ولا يتفاعل معها ، إنّما يكـون كما نصح أمـير المؤمـنين (ع) : «**كن في الفتنة كابن اللبـون ، لا ظهر فـيركب ، ولا ضـرع فيحلب**» [1] ، فلا يسافر في البلاد التي تصـرعه فيها الفتن ، أو يقع فيها بيد الظالم ، ولا يقرأ أو يتصفح الكتب والمجلّات التي تضلّه ،

(1) نهج / حكمة 1

ولا يدخل في الصراعات السياسية والاجتماعية التي تضـرّ بدينه ، وقد قــال الإمــام علي (ع) : «**لا تقتحمــوا ما اسـتقبلتم من فـور الفتنة ، وأميطـوا عن سـننها ، وخلّوا قصد السبيل لها**» [1] ، وهذا هو حال المؤمن. إنّه يحتاط لدينه ، ويمشي في الأرض كما يمشي المقاتل في حقل الألغــام ، أمّا المنــافق والكــافر الــذي يبحث عن المغانم الدنيوية فإنّه يقتحم الفتن ، ويخــوض فيها خوضا ، لهثا وراء الدنيا ، كما تبيّن الآية. (20).

(**قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ**)

أي أدخلتموها في الفتنة بــــإرادتكم ، بهــــدف اللهو واللعب والزينة والتفـاخر والتكـاثر في حطامها وملـذّاتها ، وهناك فرق بين من يتعـرّض للفتنة عن غـير إرادة ثمّ يتبع منهج الإسـلام في التعامل معها أو يـدخل نفسه ليقاومها ، وبين من يـدخل نفسه في الفتن بإرادته لا ليتحـدّاها ، إنّما ليكــون غرضا لها ، ولتكــون الــدنيا والهــوى غرضه من دخولها. ولعلّ الاغترار بالدنيا أظهر مصـاديق فتن النفس ، وفي الكلمة ظلال لمعـنى أضـللتم ، تشـابها مع قـول الله لنبيّه : «**وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْـزَلَ اللـهُ إِلَيْكَ**» [2] أي يضلّوك.

المرحلة الثانية : التربّص.

(**وَتَرَبَّصْتُمْ**)

بتســويف الالــتزام بــالحق ، وانتظــار التغيــير في المســتقبل ، ذلك أنّ الإنســان مهما توغّل في الانحــراف ودخل في الفتن ، فــإنّ الله يـــبيّن له الحق ليقيم عليه الحجة ولو في

---

(1) غرر الحكم

(2) المائدة / 49

لحاظـات ، إمّا بيقظة الضـمير أو بموعظة داعية ، أو من خلال اصـطدامه بمشـكلة تنبّهه إلى خطئه ، ولكنّه في الغالب لا يلزم نفسه الحقّ مباشرة ، إنّما يسـوّف التوبة ، ويستمرّ في الفتنة حتى تفوته الفرصة ، والإمـام علي (ع) يحذّر من هذه الحالة إذ يقول : «**فـاتقى عبد ربّه ، نصح نفسه ، وقـدّم توبته ، وغلب شـهوته ، فـإنّ أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشـيطان موكل به ، ويزيّن له المعصية ليركبها ، ويمنّيه التوبة ليسـوّفها ، إذا هجمت عليه منيّته أغفل ما يكون عنها ، فيا لها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكـون عمـره عليه حجة ، وأن تؤديه أيّامه إلى الشقوة**» [1].

المرحلة الثالثة : الارتياب والشك.

(**وَارْتَبْتُمْ**)

إن الله يبصّر الإنسان بـالحق ، ويـبيّن له الخطأ الـذي هو عليه ، فإنّ أقدم على التغيير اهتدى ، وإلّا فإنّ التربّص يحوّل يقينه إلى شك ، والإمام علي (ع) يقول : «لا تجعلوا علمكم جهلا ، ولا يقينكم شـكّا ، إذا علمتم فـاعملوا ، وإذا أيقنتم فاقـدموا» [2] ، والإنسـان حينما يقـدم عمليّا على الالـتزام بـالحق تتعمّق قناعته به ، قـال تعـالى : (**وَالَّذِينَ جاهَـدُوا فِينا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنا**) [3] ، وفي غـير هـذه الصـورة يبـدأ يشـكّك نفسه ليتخلّص من وخز الضـمير وملامة النفس اللّوامة ، فـإذا نصـحه إخوانه بالأوبة إلى هذه الصورة أخذته بالعزّة بالإثم ، وأنكر الحق ، وقـال كما قال الكافرون للذين آمنوا : (**لَوْ كـانَ خَيْـراً ما سَـبَقُونا إِلَيْهِ**) [4] ، وهـذه الصـفة تنفي انتمـاءهم للمؤمـنين لقوله تعـالى بالحصر : (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آمَنُـوا بِاللـهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا**

---

(1) نهج / ح 64 ص 95
(2) نهج / حكمة 274
(3) العنكبوت / 69
(4) الأحقاف / 11

وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [1] وادّعاء المنافقين أنّهم من المؤمنين ومعهم مجرّد محاولة لإلصاق أنفسهم بهم والتخلّص من العذاب ، وإلّا فهم لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولم يستجيبوا لدعوته المتمثّلة في الآيات البيّنات المنزلة على رسوله (ص) فبقوا في الظلمات.

المرحلة الرابعة : الاغترار بالأماني ، ذلك أنّ الحق واضح مبين تتلاحق أمام الإنسان آياته ، وله ثقل عظيم على الواقع ومنافع لا تحصى ، وينسجم مع فطرة الإنسان وسنن الله في الخليقة ، والانحراف عن مثل ذلك يتطلّب جهدا ، ولا يكون إلّا بوسائل ، ومن وسائله الغرور بالأماني التي تتلاحق في وعي المنحرفين كشلّال أسود لا يكاد المبتلى به يقدر على مراجعة قراراته والتدبر في عواقب أموره.

إن الشك والتردّد إمّا يحسمه الإنسان باتجاه الحق من خلال التوبة والعمل ، وإلّا فإنّه سيبقى على الباطل حتى يوافيه الأجل ، وتضيع منه فرصة التغيير ، بسبب الأماني التي ينفخ فيها الشيطان ، كالتشبث بالقشور وبعض الأعمال الجانبية التي يسعى البشر لتبرير أخطائه الفادحة بها ، ومن الأماني أيضا النظرة الخاطئة لغفران الله ، والاعتماد على شفاعة الأولياء ، ولذلك حذّر أئمة الهدى شيعتهم من المنى ، قال الإمام علي (ع) : «**وسابقوا إلى مغفرة من ربّكم من قبل أن يضرب بالسور ، باطنه الرحمة وظاهره العذاب ، فتنادون فلا يسمع نداؤكم ، وتضجّون فلا يحفل بضجيجكم**» [2] ، وقال الإمام الصادق (ع) : «**تجنّبوا المنى فإنّها تذهب بهجة ما خوّلتم ، وتستصغرون بها مواهب الله جلّ وعزّ عندكم ، وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم**» [3] ، وإنّما ينال ما عند الله بالعمل والسعي ، قال تعالى :

(1) الحجرات / 15
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 241
(3) المصدر / ص 242

(**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى**) [1] ، والتمنّي يوقف مسيرة الإنسان باتجاه التغيير والعمل ، لأنّه يستبدل السعي بالأحلام والوهم ، وربّنا يستنكر على المنافقين والكافرين تمنّياتهم إذ يقول : «**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى * أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى**» [2] ؟!!

(**وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُ**)

أي خدعتكم ، والأماني هي الأحلام والظنون التي يصنعها الإنسان بخياله المنبعث من شهواته ، والذي يدخل في هذا النفق قد لا يتخلّص منه ، بل يبقى في غروره حتى الموت ، وهذا ما صار إليه المنافقون.

(**حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ**)

أي نصرة المؤمنين ، أو أجله الذي لا تأخير فيه ، وحينها لا تنفع التوبة ، فإذا جاءت المنيّة بطلت الأمنيّة ، وقبل أن يختم ربّنا الآية يشير إلى دور الشيطان في خدع الإنسان الذي يتمثّل في تزيين المعاصي ، وتأكيد الأمنيات في النفس ، وليس له سلطان على أحد ، وفي الدعاء بعد أن يشكو الإمام عدوّه الأوّل إلى الله وهو النفس يقول : «إلهي أشكو إليك عدوّا يضلّني ، وشيطانا يغويني ، قد ملأ بالوسواس صدري ، وأحاطت هواجسه بقلبي ، (يعاضد لي الهوى) : ويزيّن لي حبّ الدنيا ، ويحول بيني وبين الطاعة والزّلفى» [3]. إنّ دوره الأساسي هو المعاضدة والإعانة على الانحراف ، وتأكيد النصوص الإسلامية على هذه الحقيقة (وذكره في هذه الآية في صيغة الإستدراك) كلّ ذلك يأتي لكي لا يعتبر البشر وساوس الشيطان تبريرا

---

(1) النجم / 39

(2) النجم / 23 ـ 24

(3) الصحيفة السجادية / مناجاة الشاكين

للانحراف والضلالة ، وأنّه مجبور عليها.

(**وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ**)

يعني الشيطان إنسيا كان أو جنّيا. و «الغرور» صـيغة مبالغة ، تـــدلّ على أن ذلك عمله وديدنه ، ولا ريب أنّ الاعلام المضـلّل الـذي ينشر ثقافة الفسـاد كتابة وصـورا وصـوتا ، وكـذلك الأنظمة الفاسـدة الـتي تركز حبّ الـدنيا واتبـاع الهـوى في المجتمع ، هما من أبـرز مصـاديق هـذه الآية الكريمة ، كما أصدقاء السوء من مصاديقها.

[15] وكم تكون حسـرة الإنسـان إذا صـار في الـدنيا غرضا للفتن ، وفريسة للأمـاني وهمـزات الشـيطان ، وعـاش بينهما متربّصا مرتابا حـتى يجيء أجله ، وتضـيع الفرصة قبل أن يخلّص نفسه من النـار ، ليصـير إلى بئس المصـير! إنّه يبخل بالمـال في الـدنيا ، ولكنّه يتمنّى لو أنّ له ملء الأرض ذهبا وفضة يفتـدي به نفسه يـوم القيامة ، «**وَلَـوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعـاً وَمِثْلَـهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَـذابِ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَبَـدا لَهُمْ مِنَ اللـهِ ما لَمْ يَكُونُـوا يَحْتَسِـبُونَ* وَبَـدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**» [1] نعم. هنـاك تتبـدّد ظنـونهم وأمـانيّهم الـتي لا تغـني من الحق شـيئا. وهب أنّهم كـان لهم ما في الأرض ومثلهم وأرادوا فدو أنفسهم فإنّه لا يقبل منهم ، ويأتيهم النداء بأنّ الدنيا هي دار العمل ولم تعملوا.

(**فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ**)

في مقابل الجنة التي يفوز بها المؤمنون والمؤمنـات. ومفارقة أخرى أنّ ولي المؤمنين هو الله والأنبياء والأولياء والصالحين الذين يتقدّمون بهم إلى الجنة نورا يسعى بين

---

(1) الزمر / 47 ـ 48

أيديهم ، أمّا المنافقون فلا يجدون وليّا ولا نصيرا ولا مـأوى إلّا النار ، وحيث يبحثـون عن أوليـائهم الـذين اتبعـوهم في الدنيا من الظلمة والشياطين فيأتيهم الجواب :

(**هِيَ مَوْلاكُمْ**)

إنّهم رفضوا دعوة الله «**آمِنُوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ**» ، إذ نافقوا بدل الايمان ، واتبعوا القيادات الضّـالة بـدل الطاعة للرسول ، وحيث يقال أنّ النـار هي مـولاكم يعلمـون عين اليقين بأنّهم إذ تولّوا الظالمين إنّما تولّوا النار.

(**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

وهذا المقطع يقابل قوله تعالى عن المؤمنين : (**ذلِـكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) وأيّ مصير أسوأ من ظلمـات القيامة ، وعذاب النار ، وسخط الرب؟! وهـذا الأخـير أشـدّ عـذابا من كلّ شيء أنّ الإنسان يصير غرضا لغضب الله ، وبعيدا عنه ، وفي الدعاء : «**فهبني يا إلهي وسـيّدي ومـولاي صـــبرت على عـــذابك فكيف أصـــبر على فراقك ، وهبـني صـبرت على حـرّ نـارك ، فكيف أصـبر عن النظر إلى كرامتك .. ولأبكين عليك بكاء الفاقـدين ، ولأناديّنك أين كنت يا وليّ المؤمنين**» [1].

وما دامت الفدية لا تؤخذ ذلك اليـوم فلنقـدّمها الآن ، ونكـون من المتقين الـذين صـيح بهم فـانتبهوا وعلمـوا أن الـــدنيا ليست لهم بـــدار فاســـتبدلوا ، و «**صـــبروا أيّاما قصـــيرة ، وأعقبتهم راحة طويلة ، تجـــارة مربحة يسّــرها لهم ربّهم ، أرادتهم الــدنيا فلم يريــدوها ، وأســـرتهم ففـــدوا أنفســـهم منها**» [2] بينما أراد المنافقون الدنيا ، وبقوا في أسرها حتى الأخير.

---

(1) دعاء كميل للإمام أمير المؤمنين علي (ع)

(2) نهج / خ 193 ص 304

إنّ المتقين والمؤمنين استجابوا لله وللرسول إذ قـال : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ* يَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ وَمَسـاكِنَ طَيِّبَـةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ**) [1] والمتـدبّر يكتشف العلاقة الوثيقة في العبارات والمعنى بين هذه الآيـات وآيـات هـذا الدرس من سورة الحديد.

---

(1) الصف / 10 ـ 12

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَـقِّ وَلا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتـابَ مِنْ قَبْـلُ فَطـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَـدُ فَقَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَـدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيـاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (17) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللـهَ قَرْضـاً حَسَـناً يُضـاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْـرٌ كَـرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آمَنُـوا بِاللـهِ وَرُسُـلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّـدِّيقُونَ وَالشُّـهَداءُ عِنْـدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ وَنُـورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَحِيمِ (19) اعْلَمُـوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفـاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكـاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَـلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُـهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ

---

16 [الأمد] : الوقت الممتد وهو المدّ أي الزمان.

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (20) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

---

22 [نبرأها] : أي نفطرها ونخلقها.
23 [تأسوا] : تحزنوا.

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ

هدى من الآيات :

إذا كان المنافقون يتورّطـون في الضـلال والانحـراف الذي يستمرّ معهم حتى النهاية ، بسبب نفاقهم ونفوسـهم المريضة ، فـإذا بهم يفتنونها ، ويتربصـون ، ويرتـابون ، وتغرّهم الأماني ، ويتسلّط عليهم الشـيطان ، فيصـيرون ، إلى بئس المصـير ، فـإن المؤمـنين في خطر آخر متمثّل في قسوة القلب بسبب طـول الأمد حيث يفقـدون جـذوة الإيمان ثمّ ينتهي بهم شيئا فشيئا إلى تحوّل خطـير يلخصه القـرآن بكلمة (الفسـوق) ، أي الانحـراف عن الطريق السليم ، وبسبب الفسق والخروج عن إطار القيم الربانية والتعاليم القرآنية فإنّ الـدنيا تـتزيّن في أعينهم فيتخـذونها لعبا ولهوا وتفاخرا وزينة وتكاثرا في الأموال والأولاد ، بدل أن يجعلوها ميـدانا للتسـابق إلى الخـير ، ويسـتبدلونها بالآخرة بدل أن يجعلوها مزرعة للمسـتقبل ، وإذا أصـابت أحـدهم مصـيبة أكـدت عنـده اليـأس والأسف ، وإذا أوتي خيرا ونعمة تشبّث بالدنيا بصورة

أكبر.

ونتيجة لعاملي اليأس وحبّ الدنيا تجده يبخل بالإنفاق في سبيل الله ، لاعتقاده بأنّه لا يغيّر شيئا أو يضرّ بـدنياه ، ولا يكتفي بـــذلك بل يتســـافل دركا آخر إلى الحضـــيض بمحاربته الإنفـاق ، ودعوته الآخـرين للبخل ، وهكـذا ينتهي اليـأس إلى الفسـوق والتـولّي عن الحق ، ويحـدث انقلابا خطيرا وجذريا في حياة الإنسان ، من الإيمان إلى التــولّي ، كما حـــدث لأهل الكتـــاب ، الـــذين بـــدأوا بحركة إلهية يتزعمها الأنبياء من أولي العزم وغـيرهم ، وإيمـان صـادق مخلص ، ثم انتهوا لمّا طال عليهم الأمد ونخر فيهم اليأس إلى حركة وزعامة فاســـقة ، وأهـــداف خبيثة كمحاربة المؤمنين ، واستغلال الشعوب وظلمهم ، ونحن نــرى الآن كيف أنّ زعامة النصـــرانية (الفاتيكـــان) وزعامة اليهودية (الكنيســـت) يخطّطـــون جنبا إلى جنب المؤسســـات الاستكبارية للقضـاء على الإسـلام ، الـذي كـانوا ينتظرونه يوما من الأيّام على أحرّ من الجمر ، ولظلم البشرية التي جاءت كتب التوراة والزبـور والإنجيل لهـدايتها وسـعادتها ، والإمـام الصـادق (ع) يشـير إلى ذلك الانحـراف في رواية سوف نأتي عليها في البيّنات.

بيّنات من الآيات :

[16 ـ 17] كما الشـجرة إن سـقاها وراعاها صـاحبها نمت وأثمـرت ، وإن تركها ذبلت ويبست ، كـذلك الإيمـان إذا حافظ الإنسـان على عوامله تعمّق وتجـذر ونمى وأثمر ، وإلا خبأ ضوؤه وصار إلى النقصـان ، وذكر الله ورسـالته هما وسـيلة نمـوّ الإيمـان في النفس ، إذا تسـاقطت عنها الحجب وخشـعت ، أما إذا قست وتكلّست لا تنتفع بالـذكر ، كما لا تنتفع الشـجرة اليابسة بالمـاء الفـرات ، ولـذلك يحذّر الله المؤمنين من قسوة القلب ، ويعاتبهم على عدم خشوعهم لذكره وللحق ، فيقول :

(**أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُـوبُهُمْ لِـذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ**)

قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين هـذه الآية إلّا أربع سـنين ، فجعل المؤمنـون يعـاتب بعضـهم بعضا ، وقيل : أنّ الله اسـتبطأ قلـوب المؤمـنين فعـاتبهم على رأس ثلاثة عشر سـنة من نـزول القـرآن بهـذه الآية (عن ابن عبـاس) ، وقيل : كـانت الصـحابة بمكة مجـدبين فلما هاجروا وأصـابوا الريف والنعمة فتغـيروا عمّا كـانوا عليه ، فقست قلـوبهم ، والـواجب أن يـزدادوا الإيمـان واليقين والإخلاص ، في طول صحبة الكتاب (عن محمد بن سعد). ومع اختلاف هـذه الأقـوال إلّا أنّها تلتقي في نقطة واحـدة هي أنّ الآية جـاءت تعـالج تحـوّلا سـلبيّا في حيـاة الأمّة ، وهـــذا يظهر عناية الله من خلال وحيه ببنـــاء المجتمع المــؤمن وتوجيه حركته نحو الحق والأهــداف السـامية ، ولكنّ الله لا يبدأ العلاج من الظواهر ، إنّما يوجّه الرسـول والمؤمنين أنفسهم إلى جذور المشكلة ، ألا وهي القلـوب التي تغيّر موقفها من ذكر الله ومن تطـبيق الرسـالة. لقد كـانوا في البـدء أمّة مؤمنة حقا ببركة ذكر الله ، وكـانوا ملـتزمين غاية الالـتزام بـالحق ، يتسـابقون إلى تطـبيق الرسـالة ، ويسـلّمون لما فيها تسـليما ، أمّا الآن فقد بـدأ الخشـوع ينحسر عن قلـوبهم ، كما صـاروا يتبـاطئون في تطبيق رسـالة ربّهم ، ويتخلّصـون عن دعـوة قيـادتهم إلى الإيمان والإنفـاق ، وهـذا لا ريب إن لم يبـادروا إلى علاجه سوف يخرجهم من دائرة المؤمـنين. أو ليس الله يقـول : (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِـرَ اللـهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُـــهُ زادَتْهُمْ إِيمانــاً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ* الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنـاهُمْ يُنْفِقُونَ* أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجـاتٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**) [1]؟!!

فلما ذا إذا لا توجل قلـوبهم ، ولا يـزدادون إيمانا ، ولا ينفقون؟! الإشكال ليس

(1) الأنفال / 2 ـ 4

في قلّة ذكر الله ، ولا في قلّة الآيات ، ولا في عدم وجـود الواعظ ، فهـذا الرسـول يصـيح فيهم : (**آمِنُـوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ وَأَنْفِقُـوا**) ويـدعوهم للإيمـان والآيـات بيّنة مستفيضة متواصـلة ينزّلها الله على عبـده ليخـرجهم من الظلمات إلى النور ، ولكنّ الإشكال في قلوبهم المريضة.

ولنا أن نعـــرف كم ينبغي أن يكـــون القلب مريضا وقاسيا حتى لا يتـأثّر بـالقرآن إذا تـدبّرنا في قوله تعـالى : (**لَـوْ أَنْزَلْنا هـذَا الْقُـرْآنَ عَلى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خاشِـعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**) [1] ، فلم لا يحرّض القرآن المؤمن على الخشـوع ، والخشـوع هو الـذي يجعل الإنسـان مسـتعدا للتسليم إلى الحق نفسيّا ، وتطبيقه عمليّا في الواقع؟

وتأكيد القـرآن على أنّ ما نـزل حق يهـدينا إلى أنّ قسـوة القلب تـورّط الإنسـان في الباطل ، وهنـاك علاقة متينة بين ذكر الله وبين رســالته النازلة من عنـــده ، لأن الله تعالى يتجلّى في كتابه.

وفي الشطر الثاني من الآية يلفتنا القـرآن إلى تجربة أهل الكتاب لنتعظ بتجـارب الأمم الأخـرى. إنّهم كما الأمّة الإسـلامية أوتـوا كتابا من عند الله ، أنقـذهم من الطغـاة كفرعون ، وأخرجهم من الظلمات إلى نور الإيمان والعلم ، ولكنّهم ابتلوا بقسوة القلب فما ذا كانت عاقبتهم؟

(**وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ**)

وكـــان ينبغي أن يطبّقـــوا ما فيه حـــتى يصـــلوا إلى أهـــدافهم وســـعادتهم ، ولكنّهم كـــانوا لا يريـــدون تحمّل المســؤولية فراحــوا يلتفّــون على آياته ، ويتخلّفــون عن تطبيقها ،

---

(1) الحشر / 21

لأنهم يريدون إيمانا بلا تكلفة وتضحية ، ومجدا بلا مشقة وسعي ، فعلموه أماني كما قال تعالى : (**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**) [1] ، وبدل أن تكون الرسالة قائدهم وإمامهم يكيّفون أنفسهم وفقها ، أصبحوا يفرضون شهواتهم عليها ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، وربما عادت بينهم كتابا مألوفا ، وجزء من التراث ، فوقفوا عند حروفه وكلماته دون العمل به.

ولأنّهم فعلوا ذلك ما عاد الكتاب ينفعهم فتبدّل إيمانهم به إلى الشك فيه ، وارتابوا في بشائره ووعوده ، والحقّ الذي اشتمل عليه ، وحيث تعاقبت الأجيال الواحد تلو الآخر وهم ينتظرون شيئا من ذلك يتحقّق دون جدوى ـ لأنّهم اتخذوه أماني ولم يسعوا إلى تطبيقه ـ انتهت في نفوسهم جذوة الإيمان ، بالذات وأنّ كلّ جيل يأتي يورث سلبياته الذي بعده.

(**فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ**)

لقد ابتعدوا عن الدّين كل جيل بمسافة بعده عن جيل الروّاد الأوائل ، الذين آمنوا بالكتاب حقّ الإيمان ، وطبّقوا ما فيه كما أراد الله ، ولأنّهم نبذوا الكتاب الذي به حياة القلوب ذهب خشوعهم ، وقد جاء في الأثر عن الإمام الصادق (ع) : لم يزل بنو إسماعيل ولاة البيت ، ويقيمون للناس حجتهم وأمر دينهم ، يتوارثونه كابر عن كابر (عظيما عن عظيم) حتى كان زمن عدنان ابن أدّد «**فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**» وفسدوا ، وأحدثوا في دينهم ، وأخرج بعضهم بعضا [2] وإذا صحت الروايات والتفاسير التي تقول بأنّ الأمد طال على المؤمنين من أهل الكتاب في انتظار الرسول (ص) الذي ينصرهم على أعداء الله ، ويخلّصهم من الضلال والعذاب ، فإنّنا نهتدي إلى أحد أسباب قسوة القلب بعد طول

(1) البقرة / 78
(2) نور الثقلين / ج 54 ص 242

الأمد هو اليأس من روح الله ، والشك في وعد الله الـذي لا يخلف!

وهــذه المشــكلة يمكن أن تتــورّط فيها الكثــير من الحركات الإسلامية ، خصوصا تلك الـتي تناضل من خـارج الـــــوطن ، حيث يخشى أن تتنــــــاقص فيها تلك الحيوية والفاعلية الــتي كــانت لــديها عند انطلاقها ، وقد يصــاب بعضــهم بالاســترخاء نتيجة الرضا ببعض المكاسب الأولية الـــتي يحصـــلون عليها ، فـــإذا بالـــدنيا تحلو في أعينهم فيخلــدون إلى أرض الخفض والدّعة ، ويرفضــون خشــونة الجهـــاد وعنف المواجهة ويبـــدءون مســـيرة التـــبرير ، ويرفعون شـعار المعـاذير ويحرّفـون الكلم عن مواضـعه ، كما حدث لقوم موسى (ع) «**إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِـهِ إِنَّ اللــهَ يَــأْمُرُكُمْ أَنْ تَــذْبَحُوا بَقَــرَةً**» فراحـــوا يجادلونه وتباطـــــــــــــــأوا في تطـــــــــــــــبيق قراراته (**فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ**) [1] ، ومـرّة أخـرى حينما دعاهم إلى اقتحام بيت المقـدس : (**قـالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ .. قـالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَـدْخُلَها أَبَـداً ما دامُـوا فِيها فَـاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ**) [2].

(**فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**)

لماذا كان طول الأمد سببا لقسوة القلب؟

لعلّ في الآية إشـارة إلى قـانون الـدورات الحضـارية الــذي ذهب إليه كثــير من فلاســفة التــاريخ فقــالوا : كما الإنســان الفـرد يمر بمراحل الصـبا فالشـباب والكهولة ثم الشـيخوخة والهـرم ، كـذلك المجتمع الإنسـاني يمر بـذات المراحل ، فأيّــام شــبابه تكــون عند ما تبعث فيه فكــرة خلّاقة فتفجّر طاقاته ، ولكن مع مـــرور الـــزمن يغفلـــون الفكرة الحضـارية الـتي آمنـوا بها بسـلبياتهم وشـهواتهم ، ويفقدون روح التحدي والتضحية ،

---

(1) البقرة / 67 ـ 71

(2) المائدة / 21 ـ 24

ويصيرون إلى ما يشبه حالة الشـيخوخة ، وربما نسـتوحي هـذه الفكـرة من قوله سـبحانه : «**فَخَلَـفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ**».

وهكـذا أشـارت الآية إلى هـذا القـانون الطـبيعي لكي نتحداه ، ولا ندع طول الأمد يسبّب فينا قسوة القلب.

ثم إنّ فلاسفة التاريخ قسموا الأجيال في كل حضـارة إلى ثلاثة : جيل البناة ، وجيل الرعاة ، والجيل الذي يليهما والذي تتوقف الحضارة عندهم عن التطور والإبـداع. ولكنّ الفصل بين الأجيال الثلاثة ليس فصلا دائما ، إذ قد تتعايش في برهة زمنية واحـدة نمـاذج من هـذه الأجيـال جميعا ، فتجد طبقة من النـاس لا يزالـون في حالة الزيـادة وهم الـذين قد تمكنت الفكـرة الحضـارية من أنفسـهم ، بينما تجد في ذات الوقت طبقة من الناس منافقين يبحثون عن مصالحهم ويحرفـون الكتـاب بما يتلاءم وشـهواتهم ، وتجد آخرين ممن يعيش الحالة الوسطى بين الحالتين.

بلى. إنّ الأغلب هو تلاحق هذه الأجيـال ، إلّا أن قـدرة الإنسان على تحدي الظروف المعاكسة ، واغراءات الدعة والرخاء تعطي الناصحين فرصة إصـلاح النـاس ، ومقاومة عوامل الانحراف!

فقد ينبعث في الجيل الثالث في المسلمين وما بعـده مصلح كبير يفسر القرآن بما ينسجم وتحـديات عصـرهم ، ويعيد إليهم نضـارته وطراوته وصـفاءه بعيـدا عن زيف التحريفـيين ، وتأويل المعـذرين ، ولعله إلى ذلك تشـير الأحاديث الـتي تؤكد على ظهـور مجـدد للـدين على رأس كل قرن من الهجرة النبوية الشريفة.

والآية الكريمة التي نفسـرها لا تستصـدر حكما قطعيا واحـدا على كل أهل الكتـاب ، إنّما تفـرق فيهم بين جيل وجيل ، فهناك المؤمنون حقا كما يؤكد القرآن

ذلك في مواضع منه ، مثل قوله تعـالى في نهاية السـورة «**فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُـــوا مِنْهُمْ أَجْـــرَهُمْ**» [1] وهنـــاك المتزمتون الذين صعّبوا الـدين وتصـوّفوا ، ومن بينهم من قست قلوبهم ، الذين يشكلون الأكثرية الساحقة فيهم!

(**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ**)

إلى هنا يكـون القـرآن قد حـذر المؤمـنين من مـرض القســوة الــذي قد يتورطــون فيه ، كما بيّن لهم عواقبه السيئة من خلال الإشارة الى سيرة أهل الكتاب ، أما الآن فالسـياق بآياته يشـرع بمعالجة المشـكلة الى جنب بيـان أسبابها.

المؤمنون الـذين خـاطبتهم الآية السـابقة لم ينحرفـوا انحرافا كليا كـأكثر أهل الكتـاب ، وانما سـلبوا الخشـوع ، فقست قلـــوبهم قليلا ، ودبّ فيهم اليـــأس من إصـــلاح أنفسهم فأخذ القرآن يعطيهم الثقة بربهم.

(**اعْلَمُوا**)

ربما ابتـدأ بـالعلم لأن الخشـية مـيراث العلم ، أو لم يقل تعالى : «**إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**» [2]؟

والســؤال : ما هي تلك الحقيقة الكفيلة بــزرع الأمل في نفوس المؤمنين وإنقاذهم من اليأس؟

(**أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**)

أرأيت كيف تنبسط على الصـعيد حلة خضـراء بعد ان كانت الأرض هامدة

---

(1) الحديد / 27

(2) فاطر / 28

كأنها مقبرة مهجـورة؟ انظر الى الحيـاة الـتي تـدب فيها ، وتفكر في قـدرة الله ، أليس الـذي أحياها بقـادر على ان يحيي ميت القلوب؟ فما ذا اليأس؟

بلى. قد تحيط بالمؤمنين ألوان المشـاكل ، فتمسـهم البأساء والضراء ، ونقص من الأمـوال والأنفس والثمـرات ويزلزلون ، وربما استطال اليـأس بسـبب ذلك حـتى على نفوس المخلصين «**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُـولُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَهُ مَتى نَصْـرُ اللـهِ**»[1]؟! ولكن ليعلمـوا أن انتصـارهم حتمية فرضـــها الله كما فـــرض كتابه عليهم «**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُـرْآنَ لَـرادُّكَ إِلى مَعـادٍ**»[2] ، نعم. قد يتـأخر لحكمة يعلمها الله (كتصـفية قلـوب المؤمـنين من أدرانها ، ولكي يكـون النصر أكـبر وأشـمل وأنفـع) ، فلا ينبغي للمؤمنين المجاهد ان يقنط وييـأس لان اليـأس من العوامل الرئيسية والخطيرة التي تجمد الطاقـات ، وتكبل الإنسان عن السعي ، لأنه معه لا يرى فائدة من التحرك ، فلما ذا يسعى نحو السـراب؟! والحركة الناجحة هي الـتي تجنب أفرادها السـقوط في أشـراكه ، وتبـادر الى علاج حالاته وظواهره كلما بدت ، بإعطـاء المزيد من الأمل في الله ، والثقة به ، والتوكل عليه.

ولهـــذه الآية الكريمة تأويل يتصل بحيـــاة الأرض المعنوية التي تعني اشاعة العدل والسلام في ربوع البلاد! ومعلوم انّ الله لا يحييها ـ حسب هذا المعنى ـ كما يحييها بالمعنى الاول بالمطر ، بل بأيـدي الصـالحين من عبـاده ، ولكنّ السـؤال بمـاذا يحـيي الله الأرض؟ إنّه لن يبعث ملائكته الشـداد الغلاظ ليقوضـوا الانظمة الفاسـدة ، أو يطهـروا الأرض من دنسـها ورجسـها ، انما سـيحييها وفق سـننه الـتي فطر الوجـود عليها ، سـيحييها بأهلها من المؤمـنين المجاهـدين ، والقيـادات الصـالحة ، الـذين يتصـدون للجهـاد في سـبيل اقامة حكومة الحق والعـدل على ربوع المعمورة ، قال الامام

---

(1) البقرة / 214
(2) القصص / 85

الباقر (ع) : «يحيي الله تعالى بالقــائم (الأرض) بعد موتها ، يعني بموتها كفر أهلها ، والكافر ميت» [1]. وقـال الامـام الحسين (ع) : «منا اثنى عشر مهديا أولهم أمير المؤمنين علي ابن أبي طــالب ، وآخـــرهم التاسع من ولـــدي ، هو القائم بالحق ، به يحــيي الله الأرض بعد موتها ، ويظهر به الدين الحق على الدين كله ولو كره المشركون» [2].

وهــذا الوعد الالهي لا يعــني ان نحيل المســافة بيننا وبينه سـاحة للتقـاعس والامنيـات الزائفة ، فاقامة العـدل ليست من مسئوليات القــائم (ع) وحــده ، انما هي تكليف كل مسلم بنص القــرآن : (**فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمـانَ لَهُمْ**) [3] ونصــوص اخــرى كثـيرة ، وإذا كـان هـذا التأكيد على الامـام قد كـثر وتـواتر في تأويل هـذه الآية ، فهو من بــاب التأكيد على الأحيــاء الأعظم ، والا فإصــلاح الإنسان لنفسه ومجتمعة احياء أيضا كائنا من كان ، بل ان تحقق الوعد الالهي بظهـور القائد الـذي يملأ الأرض عـدلا وقسطا بعد ما ملئت ظلما وجورا بإجماع المسـلمين وكل المذاهب والأديـان مرهـون بنا بقـدر ما ، لان ربنا سـبحانه وتعالى يقـول : (**إِنَّ اللـهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِــهِمْ**) ، ولأنه جــاء في بعض النصــوص انه عليه السـلام لا يظهر الا بعد اكتمـال أصـحابه الـذين هم بعـدد أصحاب النبي يوم بدر (313) فردا والله العالم.

وهب ان الحجة (ع) ظهر بيننا فانه ســوف يقاتل بنا ، ولهــذا يــأتي أمر الله وتأكيــده على ضــرورة العلم بهــذه الحقيقة ، لان العلم يقـــــود الى العمل والســــعي ، اما الامنيــات فانها تكــرس الســلبية عند الإنســان ، وتشل طاقاته العملية ، إذ لا تثير فيه

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 242
(2) المصدر / ص 234
(3) التوبة / 12

سوى الخيال والظنون التي لا تغني من الحق شيئا ، ولعل قوله تعالى (**اعْلَمُوا**) يقال قوله (**أَمْ حَسِبْتُمْ**) ، فهو دعوة لنبذ التمنيات والظنـون ، والتمسك بالمعرفة والعلم ، وإذا كنا نريد التأكيد من هذه الحقيقة فنعـرف كيف يحـيي الله الأرض بعد موتها ، فما علينا الا الرجوع بنظـرة موضـوعية شاملة الى آياته ورسالته. من هنا يؤكد الحق تعـالى بقوله :

(**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ**)

إن العــود الى الآيــات الشــاهدة على تلك الحقيقة ، سواء المتجلية في التاريخ ، أو في القرآن كفيل بــان يعيد للمؤمـنين الثقة بأنفسـهم ، ويصـيرها علما ثابتا تسـتوعبه عقــولهم ، مع كونها عظيمة وكبــيرة يصــعب على غــير المؤمنين التسليم لها.

(**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

حيث من أهم اهــداف القــرآن هو تبصــير الإنســان واستثارة عقله. وتوجيه الله لنا إلى آياته فور تأكيــده على انه يحــيي الأرض بعد موتها ، يهــدينا الى ان الآيــات هي المنهج الســليم الــذي ينبغي للإنســان الانطلاق منه في الإصلاح ، سواء إصـلاح القلب الـذي يمـوت بالقسـوة ، أو إصلاح الأرض والمجتمع اللذان يفسـدان بـالجور والظلم ، كما يهدينا الى ان عدم خشوع قلوب المؤمنين وتعرضــهم شيئا فشيئا للقسوة نـاجم عن ابتعـادهم عن القـرآن ، كما قست قلــوب أهل الكتــاب ، وفســقوا بنبذ الكتــاب وراء ظهورهم ولا سبيل لهم لعلاج هذه المشكلة المستفحلة إلّا بالعودة الى آياته ، الـتي تخـرج من الظلمـات الى النـور ، وقبل ان نمضي الى تفســـير الاية اللاحقة هنـــاك ثلاث ملاحظات حول الآيتين :

الاولى : ان اليــأس من التغيــير قد ينطلق من زاوية محدودة في تفكير الإنسان

المؤمن (فردا ، وحركة ، وأمـة) وهي أنّه يقيس المسـافة بينه وبين التغيـــير ، وينظر إليها من خلال قدراته وإرادته الذاتية ، فـيرى الأعـداء أكـثر منه عـددا وعـدة وخـبرة ، فيســتنتج انه لا يمكنه تحقيق الانتصـــار عليهم بامكانياته المحدودة ، الأمر الذي يـزرع اليـأس والهزيمة في نفسه ، وربما يقوده الى التراجع عن المسيرة والاستسلام للواقع عمليا ، وهـذا خطأ خطـير يجب علاجه بالتوكل على الله ، والثقة بنصـره ، وأنّه يحـيي الأرض بعد موتها ، وينصر من يتحركون الى هذا الهـدف بإرادته المطلقة الـتي لا يعجزها شيء.

الثانية : ان الأرض بمن عليها وبما فيها تصـــبح ميتة في ظل حكومـات الجـور ، فهي تميت قلـوب النـاس بالتضليل ، ولا تبقي لأحد منهم حرمة في ماله ، وعرضه ، ولا دمه ، (**وَإِذا تَـوَلَّى سَـعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللـهُ لا يُحِبُّ الْفَسـادَ**) [1]. ثم إنها توجه طاقات الشعوب في دمارها ، وتشـعل الحـروب لاطماعها الرخيصة ، ثم تدفع النـاس ضـحايا وقـرابين من أجلها ، ولنا ان نتصور أحد معاني الموت في ظلها بنظـرة خاطفة الى النظام الاستكباري الذي يحكم العالم اليـوم ، والى ترسـانات الاسـلحة المـدمرة ، الـتي تكفي لتـدمير الأرض أكثر من (200) مرة ، وهي تزرع الآن الخـوف في كل العـالم ، كما تمتص ثـروات النـاس ، وتمنعهم من الانتفاع بها في سبيل تقدمهم ورفاههم!

ثم ان مقيـاس الحيـاة وبالـذات عند المـؤمن ليس القيـام بالوظـائف المادية الضـرورية كالأكل والشـرب والتنفس والحركة و.. إنما مقياسـها على ضـوء الاهـداف والقيم الانسانية والالهية ، وما هي قيمة الإنسـان إذا جـرد من حريته وكرامتـه؟! لا ريب ان المـوت أهـون عليه من الحياة بـدونها ، ولـذلك قـال الامـام الحسـين (ع) : إني لا ارى المـوت الا سـعادة ، والحيـاة مع الظـالمين الا برما ، وقال الامام

---

(1) البقرة / 205

علي (ع) لأصـحابه بصـفين : «**فـالموت في حيـاتكم مقهورين ، والحياة في موتكم قاهرين**» [1].

وحينما يسأل الامام الصادق (ع) عن معنى الحياة بعد الموت في الآية يقول : العدل بعد الجور [2].

الثالثة : والى جـانب هـذا التفسـير السياسي الجـاد للآيتين نجد هناك تطبيقـات اخـرى يتسع لها المعـنى ، من بينها ان القلوب تمـوت بالضـلال والانحـراف ، ولكن ليس من الصـحيح ان ييـأس الإنسـان من التغيـير وقبـول ربّه التوبة ، فهو واسع المغفـــرة ، إذن فلا يقنط من رحمته ، فقلبه يمكن ان تعود اليه الحياة مرة أخرى ، لو تراجع عن خطئه ، وبدأ مسيرة الثورة على الذات بالتوبة والعمل بما يوافق رســـالة الله وآياته ، وقد تناقل المفســـرون ان الفضل بن يسار أحد مصـاديقهما ، حيث كـان ضـالا يقطع الطريق وقد تواعد مع جارية ، فلمّا أتاها من جهة الجـدار متسـلقا سـمع تاليا يتلوهما فـنزل من على الجـدار وهو يقـول بلى قد آن ، بلى قد آن .. فتـاب من ذنوبه وتحـول من قاطع طريق الى مؤمن زاهد.

وكلمة أخيرة :

لننظر الى الأرض القاحلة التي لا زرع ولا ضرع فيها ، كيف يجعلها الله واحة خضــراء بـــالغيث؟! لعلنا نعـــرف المســافة الشاسـعة بين الحيـاة والمـوت ، الـتي تشـبه المسافة بين العـدم والوجـود ، فـنزداد بهـذه المعرفة ثقة بربنا العظيم وتـوكلا عليه لان هـذه الظـاهرة تتجلى فيها قدرته وسائر أسمائه الحسـنى ، ورحمته المطلقة الكفيلة بنصـــرنا وإيصـالنا الى اهـــدافنا ، فلا داعي اذن لليـــأس والقنوط ، ولنتفكر في عظمة القرآن

---

(1) نهج / ج 51 ص 88

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 243

الـذي تغـير اية واحـدة منه حيـاة إنسـان أمتهن الجريمة ، الى حيـاة حافلة بـالتقوى والكرامـة! انه حقا أهل ان يأخذ بأيـــدينا الى العلاج والســـعادة والنصر ، لو رجعنا اليه ، وتفكرنا في آياته ، وعملنا بمضـــامينها. ســـوف يحيل ذلنا عزة ، وهزيمتنا نصرا ، وقسـوتنا خشـوعا ، وتخلفنا تقـدما وحضارة ، وبكلمة سوف يحول موتنا حياة.

[18] ويعود القرآن بعد ان حـذر المؤمـنين من عاقبة النفـاق يـوم القيامة ، ومن مصـير أهل الكتـاب في الـدنيا ليؤكد اهمية الإنفاق ومعطياته ليتصل بما تقدم في الآيـات (7 ، 10 ، 11) وليكون طريقا لتطهير القلب وخشـوعه كما قـال ربنا : (**خُـذْ مِنْ أَمْـوالِهِمْ صَـدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُـزَكِّيهِمْ بِها**) [1] ولنتخـذه مقياسا للايمـان ، فمـتى ما تصـدق المؤمنـون وأنفقـوا دلّ ذلك على صـدقهم ، ثم فاعليتهم بعد الجمود بسبب الانصراف إلى الـدنيا ، والـذي ينتهي إلى قسوة القلب.

وبما أن الآيـــتين الســـابقتين جاءتا لتنتشلا بعض المؤمنين من هذا الدرك الذي يتوسط المؤمنين الصادقين ، ودرك المنافقين ، قبل أن يتسافلوا إلى الفسـوق ، حيث درك المنـافقين الـذين بخلـوا بـأموالهم ، ولم ينفقـوا في سبيل الله ، قال تعالى : (**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُـوا اللـهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ**) [2] ، حيث كان أحـــدهم يعاهد الله (**لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْـــلِهِ لَنَصَّـــدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُـوا بِـهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُـونَ* فَـأَعْقَبَهُمْ نِفاقـاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُـوا اللـهَ ما وَعَـدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ**) [3] ، فكان من الطبيعي إذا أن يلحق الله بتلكما الآيتين دعوة إلى الإنفاق في سبيله :

---

(1) التوبة / 103
(2) التوبة / 67
(3) المصدر / 75 ـ 77

(**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ**)

والصدقة هي ما يصـدّق به الإنسـان ربّه ، فلأنّه الـذي أمر ووعد بالثواب ينبعث إلى الإنفـاق ، وسـمّيت الصـدقة صدقة لأنّها تثبت صدق الإيمـان بالعمل وتثبّته ، ولا تنحصر في إنفـاق المـال المسـتحب والفـرض ، إنّما تشـمل كل الأعمـال الصـالحة ، وإن كـان ظـاهر السـياق كما الكلمة يدلّان على بذل المـال ، وفي الحـديث : قـال رسـول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) : «**كل معروف صدقة إلى غـني أو فقـير**» [1] وقـال : إماطتك الأذى عن الطريق صدقة ، ونهيك عن المنكر صدقة ، وردّك السلام صدقة [2] ومن ذلك العـام يخصّ الله القـرض بالـذكر ، وإذا كـان للقـرض الاجتمـاعي الـذي يسـتهدف رفع حاجـات النـاس مـيزة على سـائر الإنفـاق ، فـإنّ الإنفـاق في الجهـاد أرفع درجة وأسـمى ، حيث يبـدو أن التفريق بين الإنفـاق قبل الفتح وبعده في القرآن إشارة إلى هذا النوع من الإنفاق ، حيث أنّه قبل الفتح يسـتهدف إقامة حكم الله ، بينما يستهدف الإنفاق بعده بناء المجتمع.

(**وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً**)

قـال بعضـهم : أي وأقرضـوا الله تعـالى قرضا حسـنا بالصـدقة والنفقة في سـبيل الله جـلّ جلاله ، (و) عن الحسن : «أي كل ما في القرآن من القـرض الحسن فهو التطـوع» ، (و) قيل أي هو العمل الصـالح من الصـدقة وغيرها محتسبا صادقا ، (و) قيل أي أنفقوا في سـبيل الله تعـالى لإعلاء كلمة الحق ، وتحطيم أركـان الباطل (ثم أضاف) أقول : والأخير هو الأظهر ، وعليه أكثر المفسرين [3] وبضميمة الروايات المتقدمة في معنى القـرض الـوارد في الآية (11) التي جاءت بعد الكلام عن الإنفاق

(1) بج / ج 96 ص 122
(2) بج / ج 75 ص 50
(3) تفسير البصائر / ج 44 ص 97

والقتال والفتح يتأكد هذا المعنى.

(**يُضاعَفُ لَهُمْ**)

بركة من الله ، ذلك لأنّ التكافل الاجتماعي يدور الثروة ، مما يؤدي إلى بناء المجتمع اقتصاديا وحضاريا ، قال تعالى : (**وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**) [1] ، أضف إلى ذلك حب الناس واحترامهم ودعاءهم في الدنيا ، وفي الآخرة الثواب ، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال : على باب الجنة مكتوب : «**القرض بثمانية عشر والصدقة بعشرة**» [2]

(**وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**)

[19] أمّا الباب الأوسع للدخول إلى مقام الصديقين والشهداء فهو التسليم نفسيا وعمليا لله ولرسله والقيادات الرسالية من بعدهم ، وأساسا الإيمان والإنفاق يتكاملان ، ويكمّلان شخصية الإنسان الربانية ، ولا يكفي أحدهما دون الآخر ، ومن هذا المنطلق يأتي التلازم الكثير في القرآن بينهما كما في الآية السابقة من هذه السورة ، أو بصيغ تختلف كالإيمان والجهاد أو العمل الصالح. ولعلّ التعرض لموضوع الإيمان بعد التحريض على التصدّق والقرض تأكيد على أنّهما لا ينفكان عن بعضهما.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ**)

إيمان تسليم مطلق للحق وعمل صالح مخلص بما في رسالته يستمر مع الإنسان حتى الموت ، ولا يمكن لأحد أن يحقق ذلك إلّا بالطاعة للقيادات الرسالية أنبياء

---

(1) الروم / 39

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 239

ورسلا وأئمة ومن يمثل خطهم في الحياة قال تعالى : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**) [1] لأنّهم حجة الله ، وبابه الذي يؤتى منه ، والانتماء إليهم والتسليم لقيادتهم جزء لا يتجزأ من الإيمان الحق ، الذي يرفع الإنسان إلى درجة الصديقين والشهداء ، وهل يصدّق الإيمان إلّا تولي الأولياء والتجرد عن كل قيادة سواهم؟! وهل تتم شهادة الأمة الوسط إلّا بشهادة الرسول عليها؟! ... لذلك عطف الله على الإيمان به الإيمان برسله قائلا :

(**وَرُسُلِهِ**)

كلّهم لأن مسيرتهم واحدة متكاملة ، وما جاؤوا به من القيم وبيّنوه من العظات وجسّدوه من السّير الصالحة ذخر للحضارة ينبغي للبشرية وبالذات المؤمنين أن ينتفعوا به ، وإن كانت الطاعة العملية تبقى للرسول فيما تناسخ من الشرائع وإنّما تتابعت الرسالات لتكميل المسيرة.

ولعلّ الحكمة في التأكيد على الإيمان بالرسل جميعا أنّه حيث انتقد آنفا أهل الكتاب وبيّن انحرافهم كان من الممكن أن تنصرف بعض الأذهان إلى أن الطعن متوجه إلى الرسالات ، فأزال السياق هذه الشبهة بالتأكيد على ضرورة الإيمان بها جميعا. وإذا ارتفع بشر إلى مستوى الإيمان المتقدم بيانه صار صديقا أو شهيدا وشملته اشارة القرآن :

(**أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ**)

ونقرأ في آية أخرى (**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً**) [2] وأي تجمع

---

(1) النساء / 59

(2) النساء / 69

أنبل من هـــؤلاء وأقـــرب إلى اللـــه؟ بـــالطبع اختلف المفسرون والقراء عند هذه الآية فوقف بعضهم عند كلمة «الصـــدّيقون» ، واعتـــبر الـــواو في قوله تعـــالى : (**وَالشُّهَداءُ**) للاستئناف فألحق «**عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ وَنُـــورُهُمْ**» بالشـــهداء وأوقفه عليهم ، والـــذي يظهر أنّه منصرف إلى الإثنين (الصديقون والشهداء) ، لأنّ الشهادة في القرآن ليست منصـرفة إلى القتل بالسـيف وإنّما هي تنصـرف لكل من وافـاه أجله مؤمنا بالله ورسـله متحملا لمســؤوليته الرســالية وهي بمعــنى الشــهود والحضــور والميزان والتأثير.

روى العياشي عن منهـال القصّـاب قـال : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) أدع الله أن يرزقني الشهادة فقال : «ان المؤمن شهيد ، وقـرأ هـذه الآيـة» [1] وعن الحـارث بن المغيرة قال : كنّا عند أبي جعفر (عليه السـلام) فقـال : العـــارف منكم هـــذا الأمر المنتظر له ، المحتسب فيه الخـير ، كمن جاهد والله مع قـائم آل محمد بسـيفه ، ثم قال : بل والله كمن جاهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وســـلم) بســـيفه ، ثم قـــال الثالثة : بل والله كمن استشهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسـلم) في فســـطاطه! وفيكم آية من كتـــاب اللـــه. قلت : وأيّة آية جعلت فـداك؟ قـال : قـول الله : (**وَالَّذِينَ آمَنُـوا بِاللـهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْـدَ رَبِّهِمْ**) ، قـال : صـرتم والله شـهداء عند ربّكم. [2] وقـال الصـادق (ع) : «**نـــزلت هـــذه الآية في المهـــاجرين الـــذين أخرجهم أهل مكة من ديارهم وأموالهم**» [3].

إنّ تصديق الشهادة الحقيقية يتجلى في الإيمـان بالله ، والطاعة للقيادة الرسالية ، لأنّ المهم أن يكون الإنسـان في خدمة الدين ليكون صدّيقا أو شهيدا ثم لا يهم أين

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 244

(2) المصدر

(3) المصدر / ج 3 ص 503

يكـون ، فقد يكـون دوره ضـمن أجهـزة الأنظمة الفاسـدة ومؤسسـاتها لأغـراض تعلمها القيـادة كما فعل مـؤمن آل فرعون وفعلت زوجته آسية ، وقد يكون مشغولا بـالقراءة والتـأليف ، أو سـائحا في البلاد لمصـلحة العمل ، أو ما أشبه.

(**لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**)

أمّا الأجر فيتمثل في الآخرة بالجنـات ، أمّا في الـدنيا فقد يتجلى في النظـام الحيـاتي المتكامل بماله من معطيـات حضـارية كريمـة. وأمّا النـور فيتمثل في الآخـرة بالضياء الـذي يفقـده النـاس في المحشر ، أمّا في الـدنيا فهو ذلك الهدى الذي يمشي عليه المـؤمن في كل حقـول الحياة.

(**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْـحابُ الْجَحِيمِ**)

في الـدنيا لأنّهم كـذّبوا بالرسـالة الـتي تشـتمل على النظم والمنـاهج لأبعـاد الحيـاة السـعيدة ، وبينما اختـاروا الأنظمة الفاسدة الـتي لا ينتج عنها إلّا الـدمار والانحطـاط والعذاب ، وفي الآخرة لأنّ الطريق الذي اختـاروه يهـديهم إلى النار.

[20] وحيث أنّ حبّ الـدنيا رأس كل خطيئة ، فـإنّ الموقف الخاطئ تجاهها يسـلب الإنسـان خشـوع القلب ، ويجرّه إلى الفسوق ، ولكنّ الدنيا في ذات الـوقت مزرعة الإنسان للآخرة وفرصة التي يحدد فيها مسـتقبله الابـدي ، فلا بد أن يتخذ منها موقفا سـليما ، وهـذا ما تعالجه بقيّة آيـات هـذا الـدرس الـتي تبصـرنا بحقيقة الـدنيا ، ورسـالة الإنسان فيها ، وموقف المؤمن منها.

أولا : ما هي حقيقة الدنيا؟

لقد اختلفت البشـرية في الإجابة على هـذا السـؤال الحساس الذي يراود فردا فردا

منّا إلى مذاهب عديـدة : قـال المثـاليون أنّ الـدنيا لا واقع لها وما هي إلّا خيـــال ، وذهب المتصـــوّفة إلى أنّ الـــدنيا شـرح محض ، وأنّ الجسم سـجن الـروح ، وبالتـالي فـإنّ وظيفة الإنسان في الحياة هي السعي الحثيث والمســتمر لبناء الروح على حساب الجسد ، ولا بد لـذلك من احتقـار الـدنيا وتجنب ما فيها لأنّها تغـذي شـهوات النفس المنبعثة من حاجات الجسم ، الأمر الذي يشد الروح إلى التســافل ، ويمنعها من التسـامي في آفـاق الملكـوت المعنـوي ، أو الوصــول إلى رضــوان الله والجنة ، وقــال المــادّيون أنّ الدنيا وجدت بالصدفة فليس بعدها من حيـاة ولا مسـئولية ، انطلاقا من الكفر بـالغيب ، وعليه فـإنّ السـعيد فيها من أطلق لنفسه العنان يتلذذ من نعيمها ما يشاء ، وعلى هـذا المــذهب أكــثر البشــرية ، وبالــذات إذا اعتبرنا الموقف العملي في الحياة هو المقياس.

أمّا الرســالات الإلهية فهي تختلف عنهم جميعا ، حيث اعتبرت الحياة الـدنيا مرحلة تتوسط حيـاة الـذّر ، والحيـاة الآخرة ، وحيث كان الإنسان طاهرا ونظيفا وقد قطع على نفسه عهدا وميثاقا «وقد أخذ ميثاقكم» بـأن يسـلم لربّه ، فإنّه يجب عليه المحافظة على ذلك الطهر بالإيمــان بالله والاســتجابة لــدعوة الرســول ، لينطلق نحو الآخــرة ويبلغ الجنة من عند الله والرضوان.

إن الإنســان لن يبقى في الـدنيا ولن تتوقف مسـيرته بها ، إنّما ينتقل إلى ســـــفر طويل ينتهي به إلى مقـــــرّه الأبـــدي ، فعليه أن يكيّف نفسه وفق هـــذه الحقيقة ، فلا ينسب ذلك السـفر الحتمي ، فيتعامل مع الـدنيا وكأنها دار البقــاء ، ولا يــدع اسـتعداده لتلك الرحلة الشــاقة ، فــإذا جـاءت ســاعته وحل أجله وهجمت منيته ، وليســتمع إلى نصيحة إمامه أمـير المؤمـنين (عليه السـلام) حين يخاطبه فيقول : «أمّا بعد فإنّ الـدنيا أدبـرت ، وآذنت بـوداع ، وإنّ الآخـــرة قد أقبلت وأشـــرفت بـــاطلاع ، ألا وإنّ اليـــوم المضمار ، وغدا السباق ، والسـبقة الجنّة ، والغاية النـار ، أفلا تائب من خطيئته قبل

منيته ، ألا عامل لنفسه قبل يـــــوم بؤسه ، ألا وإنّكم في أيّــام أمل من ورائه أجل ، فمن عمل في أيّــام أمله قبل حضـــور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضـــرره أجله ، ومن قصّــر في أيّــام أمله قبل حضــور أجله فقد خسر عمله ، وضرّه أجله» [1]

ساعات الدنيا خير من ساعات الآخرة :

ـ وبـالرغم من أن ظـاهر التعريف بالـدنيا يحقرها في نفوســنا ، لكن ربنا لا يريد من هــذا التعريف ان يحط من قدرها لكي ننصـرف عنها انصـراف المتصـوفة ، فهي ذات اهمية لكــلّ إنســان ، لأنها دار تقرير المصـــير الابـــدي ، وحينما يســأل الامـــام علي (عليه الســلام) أيهما أفضل ساعة من ساعات الدنيا أم ساعة من ساعات الاخرة فانه يجيب : ساعة من الدنيا خير من ساعات في الاخرة ، لأنه يــربح بســاعة دنيوية آلاف الســاعات ، وربما اشــترى بها الخلود في الجنة كـالحر بن يزيد الريـاحي ، الـذي لم يكن بين توبته وشهادته الا لحظات ، وانما أراد الله ان يـبين لنا طبيعتها وطبيعة الإنسان حينما يحبها ويتخـذها هـدفا ، دون مرضـاة اللـه. وهـذا يتضح من نهاية الاية ، وعلاقتها بـالتي تليها حيث الدعوة الى التسـابق نحو الخـيرات ، فهو تـارة يتخذها هـدفا فلا قيمة لها ، انما هي متـاع الغـرور ، وتـارة اخـرى يتخـذها وسـيلة وميـدانا للتسـابق الى مغفـرة الله والجنة ، فيســـخر كل ما يملك من نعيمها لهـــذه الغاية ، فهي عند ذلك ذات قيمة عظيمة.

إن الله يؤكد للمؤمنين ـ بالذات الفريق الـذين ضـعف ايمــانهم نفســيا ، فما عــادوا يخشـعون لــذكر الله وآياته بالكيفية اللازمة ، وعمليا ، فما عـــادوا يســـلمون لاوامر القيـادة بالإنفـاق مثلا ، فصـاروا على شـفاجرف هـار من القسـوة والنفـاق بسـبب اليـأس من الانتصـار لتـأخره ، وبسبب الانصراف الى الدنيا بدل الاخرة ـ يؤكد لهم

---

(1) نهج / ح 28

بأنها ليست سوى ميدانا للعب ، وللهو ، والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر ، وبالرغم من ان هـذه الحقيقة ليست غائبة عن أذهان المؤمنين عموما إلا انها لم تتحـول من الفكـرة الى وعي يهيمن على النفس ، وبتعبـير آخر لم تتحـول العـبرة الى موعظة عملية ، وآنئذ ما الفرق بين الذي يجهل وجود لغم في طريقه فينفجر فيه ، وبين الآخر الذي يحتمل ذلك أو يـدري به لكنه لا يحتـاط؟! كلاهما ينتـثران أشـلاء في الهواء ، لان العلم بلا اقدام يساوي الجهل ، قـال تعـالى : (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْلَمُـونَ**) [1] ، فلا شك اذن ان المـــؤمن الـــذي يلعب ويلهو في الـــدنيا ، ويتخذها زينة وتفـاخرا وتكـاثرا في المـال والأولاد ، ويبخل بالإنفـاق في سـبيل الله حرصا وتشـبثا بها ، كمثل الـذي يكفر بـالآخرة وما فيها من الثـواب والعقـاب ، وإلا لجعل الآخـــرة هدفه ، وبـــذل ما يســـتطيع من أجلها رغبة في رضـوان ربه وثوابه ، وخوفا من غضـبه وعقابه ، بل أصـبح يتسـابق ـ إذا ـ نحو الخـيرات ، لأنها الـزاد والثمن فيها ، وربما لذلك أمرنا القرآن بالعلم قائلا :

(**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا**)

هنا ثلاثة تأكيدات : أحدهما الدعوة المؤكدة الى العلم ، والثاني أداة التوكيد إنّ ، والثـالث الحصر (إنّمـا) ، وحيث تتوالى هذه التأكيدات على حقيقة ما فهي مهمة ومهم ان يعلمها الإنسان ، فما هي تلك الحقيقة؟

أنّ الحياة الدنيا لمن أرادها

(**لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ**)

واللعب هو العمل الباطل وبلا هـدف معقـول ، قـال تعالى يحدث عن

---

(1) لقمان 25

إبراهيم (ع) : (**قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ* قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ**) [1] ، وقال : (**وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ**) ، (**ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) [2] ، أي لا يعلمون الهدف الذي تنطوي عليه الحياة الدنيا ، فتصبح بمجملها باطلا ولعبا ولهوا ، كما ان تفريغ الدين من مضمونه ومن قيمه واهدافه عند البعض يجعلهم يتخذونه لهوا ولعبا ، كما قال ربنا سبحانه عنهم : (**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا**) [3].

وإنما نسمي مجموعة ممارسات لعبا لأنها غير هادفة (حتى بمقاييس أهل الدنيا) كذلك إلدنيا لمن يمارسها لا لهدف أبعد منها تصبح لعبا ، فاذا سألته لماذا تعمل؟ قال : لآكل ، وإذا أعدت عليه ذات السؤال وقلت : لماذا تأكل؟ قال : لكي أتقوى على العمل ، وإذا سألته ثالثا : لماذا أساسا تعيش؟ قال هكذا جئت لأعيش ولا أعرف لماذا؟

أو لم تسمع شاعرهم قال :

جئت لا أعلم من أين	ولكنّي أتيت
ولقد أبصرت قدّامي	طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا إن	شئت هذا أو أبيت
كيف جئت كيف	أبصرت طريقي؟ لست أدري

وحينما يغرق في ممارسته اللعب يتحول الى اللهو ، حيث النسيان التام والغفلة عن الهدف ، بلى. جاء الإنسان من عالم الذر الى الدنيا كمحطة يتزود منها ، ثم

---

(1) الأنبياء 55
(2) الدخان / 39
(3) الانعام / 70

يواصل سفره الى الاخرة ، ولكنه حيث جاءها رأى النـاس يلعبون ، ورأى أدوات اللعب فشـاركهم ، فبـالغ في لعبه ، فنسي انه على سفر ، وغفل عن مهمته.

وكل شـيء يـدعونا الى الغفلة ، وينسـينا أهـدافنا فهو لهو ، قـال الامـام علي (ع) : «فما خلقت ليشـغلني أكل الطيبـات ، كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسـلة شغلها تقممها ، تكترش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بهـا»[1]. واستخدام القرآن لكلمة اللهو يأتي بهذا المعنى ، قـال تعالى : (**أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ**)[2]. وقـال : (**لا تُلْهِكُمْ أَمْـوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْـرِ اللـهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)[3] ، وقال : (**رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقـامِ الصَّـلاةِ وَإِيتـاءِ الزَّكـاةِ يَخـافُونَ يَوْمـاً تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصارُ**)[4] ، وقال : (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْـتَرِي لَهْـوَ الْحَـدِيثِ لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِـذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**)[5] ، وأكثر ما يتورط أحد في اللهو بسبب نسيان الموت والاخرة ، ولذلك يـأتي في نهاية الآية تـذكير بها عند قوله : «**وَفِي الْآخِـرَةِ عَـذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ**» ، وانطلاقا من هذا التعريف فان الغناء ، والرقص ، ومجـالس البطـالين ، وجمع المـال ، وما أشـبه مصاديق للهو.

وإذا لهي الإنسان نسي السفر ، ونسي الاستعداد اليه ، فاذا بك تراه يغرق في حب الدنيا ، وينصرف الى اهداف جانبية فيها (تسـمى بالزينـة) ، طبيعتها الفسـاد والـزوال حتى بمقاييس الدنيا الزائلة. أرأيت الذين يصرفون الألوف من أموالهم على أمور كمالية أو ديكورية؟

---

(1) نهج كتاب / 45 ص 418

(2) التكاثر / 1 ـ 2

(3) المنافقون / 9

(4) النور / 37

(5) لقمان / 6

والزينة هي الأمــور الثانوية الــتي يكمل بها الشــيء ، ومنها الحلي والعطر والــورد لأنها تكمل جمــال المــرأة ، قال تعالى : (**وَلَقَـدْ جَعَلْنا فِي السَّـماءِ بُرُوجـاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ**) [1] وقــال : (**الْمــالُ وَالْبَنُــونَ زِينَــةُ الْحَيــاةِ الدُّنْيا**) [2].

والإســلام لا يعــارض الزينة ، بل ويســتنكر تحريمها ، قال تعالى : (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ**) [3] ، كما أنه دعا إليها ، قال تعــالى : (**يا بَنِي آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا**) بلى. حرم الإسلام الإسراف فيها ، فقال في خاتمة الاية : (**وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ**) [4] ، كما حرم الباطل : (**قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَـواحِشَ ما ظَهَــرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْــرِ الْحَـقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**) [5].

إن المطلوب هو حفظ التــوازن المعقــول بين الأمــور الكمالية والاخــرى الاساســية ، وان يجعل الإنســان الأمــور الثانوية تكمل بالفعل الجــانب الضــروري من حياته ، لا ان تكون بديلا عنه ، أو على حسابه ، ومشكلة البشرية اليــوم انها توجهت الى الكماليات على حساب اهدافها الاساســية ، ليس في مجال الالــتزام بالــدين وحسب ، بل في مجــال الحضــارة ، وهــذا جــزء من الموقف الخــاطئ من الحيــاة الدنيا ، ولا ريب ان سببه نسيان الاخــرة أو الكفر بها ، لان مثل هــذا الإنســان يجــري وراء اهوائه وناســيا ليس فقط اهدافه السامية (في الاخــرة) بل ومصــالحه الحقيقية (في الــدنيا) ، كما قــال ربنا ســبحانه عن مثله : (**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ**

---

(1) الحجر / 16
(2) الكهف / 46
(3) الأعراف / 32
(4) المصدر / 31
(5) المصدر / 33

(وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) [1].

أما الذي يعتقد بالدنيا وحدها فسعيه سوف يكـون من أجل إشــباع الشــهوات ، وجمع الزينة ، وســتزيده زينتها انغماسا فيها وبعدا عن الحق. ومن مظاهر الاهتمام الزائد بالزينة التوجه الى القشــور ، على حســاب اللبــاب. بينما المؤمن بالآخرة يحس بالمسؤولية فلا يسترسل في اتبــاع شــهواته ، ولا ينــدفع في الزينة الــتي تخــالف مصــالحه الحقيقية.

(**وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ**)

والتفاخر هو الآخر مما يتلهى به الإنسان ويستعيض به عن اهدافه الحقيقية ، وإذا كـــــــان اللعب واللهو والزينة تحكي الجانب الفردي من الاغـترار بالـدنيا ، فـان التفـاخر هو الجانب الاجتماعي لذات الحالة ، ويـأتي التفـاخر نتيجة مباشــرة للافتتــان بالزينة إذ يــرى الشــخص نفسه كــاملا وأفضل من غيره من خلالها ، فيركبه الخيلاء والفخر.

ثم تتحــول هــذه الحالة النفســية الاجتماعية الى فعل خارجي يمارسه المختال الفخور ليثبت عظمته على غـيره من خلال التكــاثر والتســابق المــادي ، قــال تعــالى : (**وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَـدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنـابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْـلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعـاً**) (**... وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقـالَ لِصـاحِبِهِ وَهُـوَ يُحـاوِرُهُ (أَنَا أَكْثَـرُ مِنْـكَ مـالاً وَأَعَـزُّ نَفَـراً) * وَدَخَـلَ جَنَّتَـهُ (وَهُـوَ ظـالِمٌ لِنَفْسِـهِ) قـالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هـذِهِ أَبَـداً* وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً**) [2]. انظر هكـذا يتحـول حب الـدنيا وزينتها الى حالة نفســـية داخلية (الغـــرور والظلم) فاجتماعية (التباهي والتفاخر).

---

(1) الكهف / 28

(2) الكهف / 32 ـ 35

(**وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ**)
الممتلكـات من العملات والعقـارات ، والمشـاريع وما أشبه.
(**وَالْأَوْلادِ**)
الأبناء والأنصار ، وقد يتحول هذا التسابق صــراعا بين الناس في غـالب الأحيـان ، ويركز فيهم حب الـدنيا ضـمن أطر سياسية واجتماعية واقتصادية ، وأظهر صورة صــراع القـوى الاسـتكبارية وتسـابقها في نهب ثـروات العـالم ، واستغلالهم في صـالحها ، والسـيطرة عليهم بضـمهم الى نفوذها.
تعــالوا نمعن النظر في هــذه الحيــاة الــدنيا الــتي استحوذت على أفئـدتنا (هـذا اللعب واللهو ، هـذه الزينة ، وهذا التفاخر والتكاثر) ما هي عاقبتهـا؟ بل ما هي حقيقتها بل هل لها ــ أساسا ــ حقيقة أم انها أضـغاث أحلام تـراود النـائمين فـاذا مـاتوا انتبهـوا ، وعرفـوا انها لم تكن سـوى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، أو حفنة رمــاد في كف الاعصار.
ولكن انّى لنا ان نفكر في الــــــدنيا ولا زلنا في أسر سـحرها الجـذاب؟! لا تكـاد لحظة تمر علينا إلّا ونحن في دوامة امنية نســــعى إليها ، أو فتنة نعيش في لهبها ، أو صراع نحترق في اتونه ، وحتى في النوم تلاحقنا كـوابيس النهــار في صــورة أحلام مزعجــة! إذا كيف الخلاص من أغلال هذه الشهوات لنفكر بحرية وموضوعية في واقعنا؟
إن للقـرآن الحكيم منـاهج شـتى تسـاعد على التفكر السليم ، وما يشـير اليه السـياق هنا من أبرزها : ان ننظر الى الطبيعة ودوراتها السريعة ، ونتساءل : أليست هذه

هي الـدنيا؟! أو ليست حيـاة النبـات في دورتها السـريعة شـبيهة بحيـاة الإنسـان في دورة أبطأ قليلا ولكن بـذات النسق ، يقـول عنها ربنا في آية كريمة : (**وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْنـاهُ مِنَ السَّـماءِ فَاخْتَلَـطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِـيماً تَـذْرُوهُ الرِّيـاحُ وَكـانَ اللهُ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ مُقْتَـدِراً* الْمـالُ وَالْبَنُـونَ زِينَـةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**) [1]؟! ويقول ربنا في هذه الآية :

(**كَمَثَلِ غَيْثٍ**)

مطر نــزل على الأرض ، فســقاها ، واختلط بما فيها من بذور فصارت نباتا.

(**أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ**)

أي أدخل الى نفس الفلاح العجب والاغــترار به ، كما تدخل زينة الـدنيا في نفـوس الكـافرين بـالآخرة ، ولا شك ان هذه الحالة سوف تجعله يعتقد ببقائه ، ويلهو عن نهايته حيث يصير حطاما ، والنبات هو المزروعات الصغيرة التي لا تبقى كـــالقمح والـــذرة ، ويقـــال لها نباتا في أطوارها الاولى حيث تشق التربة.

(**ثُمَّ يَهِيجُ**)

ويــترعرع ، ويثمر حينما يبلغ أقصى القــوة ، ولكنه لا يبقى طويلا حتى تبدأ مسيرته الى النهاية.

(**فَتَراهُ مُصْفَرًّا**)

أول الأمــر. والملاحظ ان العطف جــاء بالفــاء وهي أقرب الحروف عطفا.

---

(1) الكهف / 45 ـ 46.

(**ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً**)

إذا أكمل دورته الحياتية ، إذ تيبس وتتكسر أوراقه وأعواده ، وهذه بالضبط مسـيرة الحيـاة عند الإنسـان في الدنيا ، يبدأ طفلا كالنبـات ، ثم ينشط ويهيج عند المراهقة والشـباب ، ولكنك تـراه يتنكس في الخلق شـيئا فشـيئا ، ويفقد قوته وزينته ليصـــير كهلا فشـــيخا عجـــوزا قد وهن عظمه وخارت قـواه ، ولا يطـول به الأمد حـتى تـراه جثة هامدة محمولة على الأكتاف الى قـبر ضـيق يسـتحيل فيه هيكلا ، فأوصـالا ، فحطاما ، فترابا تـذروه الريـاح ، فلما ذا يتشـبث الإنسـان بالحطـام والمتـاع الزائل اذن وهو مقبل على الاخرة؟

ثانيا : ما هي أهدافه في الـــدنيا وكيف يصل بها؟

وحينما يطمئن الإنسان الى حقيقة الـدنيا فسـيعلم ان حطامها ليس بالذي يشـــبع طموحاته ويحقق تطلعاته ، إنّه يريد السعادة ولا تتم له فيها ، ويريد الخلود وهيهات ذلك؟ ، فلا بد ان يبحث له عن هدف سام يجده أهل للسـعي له ، وهذا لا يمكن حتى يضـيف الى علمه بحقيقة الـدنيا علما بحقيقة الآخرة ، ومن هـذا المنطلق يعطف الله على قوله

(**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا**) قوله تعالى :

(**وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ**)

فكل إنســان يحس بفطرته ، ان طموحاته أكـــبر من الدنيا وما فيها ، ولكنّه إذا غفل عن الاخرة فسيبقى مصرا على التشبث بالدنيا ، طمعا في تحقيق ما يقـدر عليه منها مما كـان متواضـعا ، ولـذلك نجد القـرآن يرسي قاعـدة الايمان بالآخرة في النفس ليحقق التـوازن المطلـوب في نفس البشر لكي لا ينسـاق وراء التكـاثر في جمع حطامها ، ظنا منه انه يحقق تطلعاته بذلك. كلا .. أنت مخلــوق لما هو أكبر منه وأبقى ، فما

الذي يعطيك هذا التفـاخر والتكـاثر؟ هب انك بلغت ما بلغ سـليمان ذلك النـبي الكـريم الـذي سـخرت له الـريح ، واسـتخدم الجن وعلم منطق الطـير ، ولكن أتعلم اين سليمان اليوم؟ واين ملكه الكبـير؟ وأين عزته الشـامخة؟ أفلا نعتـبر بمصـير الملـوك الـذين حققـوا عند النـاس طموحـاتهم فـاذا بهم ينقلـون من قصـورهم الى قبـورهم تأكل أبدانهم الديـدان قبل ان تصـبح رميما ثم ترابا تـذروه الرياح؟

أما المـؤمن بـالآخرة فـان نفسه قانعة بما لـديها ، راضية بما آتاها الله ، وتائقة الى ما عنده. هل سـمعت نبأ الامـام الحسن المجتـبى (عليه السـلام) كيف خـرج عن أمواله جميعا لله مـرة وقاسم الله أمواله مـرات؟ أم هل عـرفت زهد الامـام علي عليه السـلام؟ وهكـذا المـؤمن يستبدل الدنيا بالآخرة ، ولن يمتنع عن الإنفـاق في سـبيل الله.

وعلى أسـاس الايمـان بـأن الآخـرة هي دار الجـزاء والخلود ـ فأما عذاب شديد ، أو مغفـرة ورضـوان من الله حسب ما يقدم الإنسان في الدنيا ليوم الحسـاب ـ فانه لا ريب سـيعرف أهمية الحيـاة الـدنيا ، ودورها الحاسم في مستقبله الابدي ، وحينها لن يدع الهـزال والمـزاح واللعب يأخذ من وقته شـيئا ، لان الغاية عظيمة ، والخطر كبـير ، والفرصة قصـيرة ، بل سـوف يخشع قلبه لـذكر الله خوفا من عذابه ، وطمعا في مغفرته ورضوانه.

وأعظم هـدف يسـعى اليه هو الخلاص من النـار ، لان صراط الجنة يمر من فوقها. أو ليس طريق الجنة محفوفا بالمكـاره الـتي ينبغي للإنسـان تحملها والصـبر عليها ، وبالشـهوات الـتي ينبغي ان يتحـداها ويجتنبها ، فـان لم يتحمل ولم يصـبر ، أو لم يتحد ويتجنب فسـوف يقع في الجحيم وقـودا لنيرانها ويعـذب فيها بقـدر فشـله؟ وهـذه الغاية من أعظم طموحات المتقين «**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً**

سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ» [1]. وأعظم بها من غاية فـاز والله من أصـابها (**فَمَنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ**) [2].

والهـدف الآخر هو الـدخول الى الجنة ، وذلك لا يمكن من دون مغفــرة الله ورضــوانه ، إذ لا يــدخل أحد الجنة بعمله ـ بل بفضل الله ــ حـتى الأنبيـاء ، وذلك لا يتحقق الا بالانابة الى الله والاعـتراف له بالخطإ ، والسـعي الـدائب للإصلاح.

(**وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ**)

هذه هي الاهداف الحقيقية التي يجب على كل إنسان السعي من أجلها ، وبها تصـبح الـدنيا آخـرة ، والحيـاة فيها ذات معنى ، وكل سـاعة فيها أعظم من سـاعات الآخـرة. أما بدونها فتصبح لعبا ولهوا ، وتتحول الى أداة للغرور.

(**وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**)

المتاع هو الزاد ، والغرور الانخداع ، قال تعالى : (**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الـدُّنْيا وَلا يَغُـرَّنَّكُمْ بِاللـهِ الْغَـرُورُ**) [3] ، وشبّه ربنا الدنيا بزاد الغـرور ، لأنها لا تشـبع عند المنخـدع بها حاجة حقيقية ، إلا غروره الكاذب الباطل ، الذي ينتهي عند الموت ، فلا تبقى عنده ذرة من غرور.

وإذا نظرنا الى حـــديث القـــرآن عن الـــدنيا ، والى السياق الذي تقع ضمنه في كل مرة ، فاننا سـوف نلاحظ ورود ذكرها في مواضع كثــيرة وعلاجا لمشــاكل مختلفة مما يثـير فينا التسـاؤل : لمـاذا؟ وقد يتكـرر النص الواحد في مـوارد متعـددة ، وسـياقات مختلفة ، ويجيب عن ذلك الحــديث المــروي عن الرســول (صــلى الله عليه وآله وسلم) :

---

(1) آل عمران / 191
(2) آل عمران / 185
(3) لقمان / 33

حب الدنيا رأس كل خطيئة فمهما وجـدت انحرافا أو خطأ في حياة الإنسان (فردا وجماعـة) فانك تجـده متصلا بحب الدنيا ، والاغترار بها.

[21] وإذا تحول نظر الإنسان وقلبه الى تلك الاهداف السامية ، فهو لا ريب سيتحول موقفه من الدنيا وسـلوكه فيها ، فالاهـداف عظيمة والفرصة قصـيرة ، إذا لا بد من تـرك اللعب واللهو الى الجد والاجتهـاد ، وتـرك الزينة الى ما ينفع ، والتفـاخر والتكـاثر في الأمـوال والأولاد الى التسابق في الخير والصالحات الباقيات.

إن تلك الاهداف كفيلة بان تجعله في ذروة الفاعلية ، وتحيل المجتمع الى بركـان متفجر من الحيوية والاجتهـاد وروادا في فضيلة التسليم للقيادة الرسـالية ، والاسـتجابة لدعوتها.

(**سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**)

وانبعثـوا انبعاثة نحو الجنة العريضة ، بـدل الـدنيا ، وقاوموا جاذبية المادة طلبا لرضوان الله.

(**وَجَنَّةٍ عَرْضُـها كَعَـرْضِ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ أُعِـدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**)

وهـذا هو الأجر وهو ـ في ذات الـوقت ـ النـور الـذي وعد به الله تعالى الصديقين والشهداء في الآية (19).

(**ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ**)

فلا يظنن أحد أنّه يمن على ربه بالايمـان ، أو انه يحصل عليه بجهـده ، أو يـدخل الجنة بسـعيه ، إنما بفضل الله ومنه يحظى الإنسـان بالايمـان ، ويـدخل الجنة ، بلى. ان

ارادة الإنسان وسعيه ضروري ، كما قال ربنا : (**وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً**) [1] ، ولكن التوفيق الى ذلك جزء من فضله تعالى.

(**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**)

وما دمنا في مقـــــام رب عظيم ، ذي فضل عظيم ، ومغفرة عظيمة ورضوان ، فمن السفه ان نرضى لأنفسنا بــالأدنى ، ونشــتغل بالتوافه تــاركين وراءنا ذلك الفضل العظيم.

ويأتي الأمر الالهي بالتسابق الذي يستهدف (المغفرة والرضوان) ، وهو أعلى مراحل السعي الايجابي وحالاته ، في مقابل التكاثر في الأموال والأولاد ، الذي يستهدف جمع أكبر قدر من حطام الدنيا ، ويمثل أسفل دركات العلاقة والانشداد بها ، بالرغم من اعتقاد الإنسان بأنه يبلغ الكمــال عنــدها. ويصل التســابق الى أقصــاه حينما ينبذ المؤمنــون الغــرور بالعمل والامــاني ، وينطلقــون من الاحساس بالتقصير ، لان الاحساس بالكمال يوقفهم عن السعي والاستزادة ، ولذلك قال تعالى (**إِلى مَغْفِرَةٍ**) ، وهذه من صفات المتقين «لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يســتكثرون الكثــير ، فهم لأنفســهم متهمــون ، ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له ، فيقول : انا أعلم بنفسي من غيري ، وربي أعلم بي من نفسي! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني أفضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون» [2] وهذه الصفة هي التي تصنع الإبداع والفاعلية في الفرد والمجتمع ، وتجعله يتقدم الى الامام أبدا.

---

(1) الإسراء / 19

(2) نهج / ح 193 ص 304

ثالثا : ما هو الموقف السـليم من متغـيرات الدنيا؟

[22 ـ 23] وحيث يعيش المؤمنـون في الـدنيا ، ويسـابقون الى فضل الله ، فلا بد ان يسـتوعبوا طبيعتها المتغيرة لكي لا تترك آثارها السلبية عليهم ، ففيها الغنى والفقر ، والشفاء والمرض ، والقوة والضعف ، والنصر والهزيمة ، والزيـادة والنقص ، ولا بد ان يسـتقيموا على كل حال ، فالذي يتغير مع الظروف والمتغيرات لا يصل الى اهدافه وطموحاته ، لأنه تضـله النعمة بطـرا ، والمصيبة يأسا ، أو يعطي ويسابق حيث تسود هذه الحالة المجتمع ويلقى التشـجيع إليها ، ولكنه يتوقف حيث توقف الآخرون ، أو ثبطوه ، فكيف يحصل الإنسان على الثبات؟

أولا : بالمعرفة العميقة بطبيعة الدنيا على ضـوء الآية الكريمة (**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ .. وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**) والرغبة في فضل الله ، مما يزهد الإنسـان فيها ، فلا يفـرح حين تقبل عليه ، ولا يحـزن حين تـدبر عنه ، لأنها ليست بـذات شـأن عظيم عنده.

قـال الامـام علي (ع) : النـاس ثلاثة : زاهد وصـابر وراغب ، فاما الزاهد فقد خـرجت الأحـزان والأفـراح من قلبه ، فلا يفرح بشيء من الدنيا ، ولا يأسى على شيء منها فاته فهو مستريح» [1] ، وقال (ع) : «الزهد كله بين كلمتين في القرآن ، قال الله تعالى : (**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ**) ومن لم يـأس على الماضي ، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه [2].

ونقل عن الإمام الباقر (ع) انه رأى جـابر بن عبد الله (رضـي) وقد تنفس الصـعداء (التنفس الطويل من همّ أو تعب) فقال (ع) : يا جابر على م تنفسك

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 248
(2) المصدر / ص 249

أعلى الدنيا»؟! فقال جابر : نعم ، فقال له : «يا جابر ملاذ الــدنيا ســبعة : المــأكول ، والمشــروب ، والملبــوس ، والمنكوح ، والمركـوب ، والمشـموم ، والمسـموع ، فألـذّ المـــــــــــأكولات العسل وهو بصق من ذبابه ، وأحلى المشـــروبات المــاء ، وكفى بإباحته وســباحته على وجه الأرض ، وأعلى الملبوسات الـديباج وهو من لعـاب دودة ، وأعلى المنكوحـات النسـاء وهو مبـال في مبـال ، ومثـال لمثـال وو انما يـراد أحسن ما في المـرأة لأقبح ما فيها ، وأعلى المركوبات الخيل وهو قواتل ، وأجل المشـمومات المسك وهو دم من سرة دابة ، وأجل المسموعات الغنـاء والترنم وهو إثم ، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل».

قال جابر : فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلـبي [1].

ثانيا : الرضى والتسـليم بالقضـاء الـذي يـأذن به الله فيقع ، وهو أرفع درجة من الزهد ، بل أرفع درجـــــــــات الايمان لقول الامـام علي بن الحسـين (ع) وقد سـئل عن الزهد : «الزهد عشرة أجزاء ، فأعلى درجـات الزهد أدنى درجات الورع ، وأعلى درجات الـورع أدنى درجـات اليقين ، وأعلى درجـات اليقين ادنى درجـات الرضـى» [2] ، ولا يســمو الإنســان اليه الا إذا آمن بــأن كل ما يحــدث في الوجـود بتقـدير مسـبق من الله (القـدر) ، فـذلك بـدل ان يــؤثر فيه ســلبا باتجــاه الانحــراف يؤكد فيه الانتمــاء الى مســيرة الحق ، والتوحيد المخلص لله بــدل الشــرك ، (**وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّـابِرِينَ* الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**) [3] ، لأنهم يعتقدون بهذه الحقيقة :

---

(1) بح / ج 78 ص 11
(2) بحار الأنوار / ج 78 ص 136
(3) البقرة / 155 ـ 156

(**ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ**)
خارجية من حولكم ، قال صاحب المجمع : مثل قحط المطر : وقلة النبات ، ونقص الثمرات.
(**وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ**)
مباشـــرة «من الأمـــراض والثكل بـــالأولاد» [1] أو ما أشبه.
(**إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها**)
فهي مكتوبة على الإنســـان في قـــدر الله قبل الخلق الاول لنفسه ، وتحولها الى الواقع انما هو تصـويب للقـدر بإنفاذ القضـاء ، ومن الصـعب على الإنسـان ان يسـتوعب هـــــــــذه الحقيقة انطلاقا من النظر الى نفسه وقدراته المحدودة ، ولكنّه إذا فكر فيها من خلال ارادة الله وعلمه فالأمر هين عنده تعالى.
(**إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**)
وكيف لا يكون كذلك «**وَهُوَ عَلى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ**» «**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**»؟
ولهذه الآية الكريمة علاقة وثيقة بالدعوة الى التسابق ، وهي ان المتغيرات السلبية في حياة الإنسان (المصيبة) قد تصيبه بالإحبـاط النفسي الـذي يفقـده الفاعلية اللازمة للتسـابق ، ولا شك ان الايمـان بالقضـاء والقـدر مـانع عن الإحبـــاط في الضـــراء كما هو حـــاجز عن الاغـــترارِ في السراء.
(**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ**)

---
(1) المجمع عند الآية

لأن اليأس (التثبط والهزيمة الداخلية) بسبب التغير السلبي يسلبنا الفاعلية والتحرك. ولماذا نسعى ونسابق الى هدف لا نصل اليه؟ هذا هو الاحساس والتساؤل الذي يرتسم عند المصيبة ، ولكن لماذا اليأس ، فالمصيبة إما بإرادة الهية لا سبيل فيها إلا الاعتراف بها والتسليم لارادة ربنا وحكمته ، واما تكون بسببنا فنحن إذا قادرون على مقاومتها وتغييرها بتغيير ما في أنفسنا. ولا داعي لليأس ، فقد نجاهد العدو فنفشل وننهزم لاننا متفرقون ، منهزمون نفسيا ، ولكننا نستطيع الانتصار عليه إذا اعترفنا بعوامل الهزيمة عندنا فتجنبناها ، وأسباب الانتصار عند العدو فأخذنا بها.

وكذلك النعمة يجب ان لا تدفعنا الى الغرور والفخر ، فنعتمد عليها بدل الاعتماد على الله ، وهي لا تبقى ، أو ننسى العوامل التي تسببت فيها فتزول.

(**وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ**)

لان الفرح (الغرور والاحساس بالكمال) يدعونا الى التوقف ، كاليأس ولكن بصورة أخرى ، حيث لا نجد دافعا الى السعي والاستزادة ، وقد بلغنا القمة عند أنفسنا ، بل قد يدعونا الى الشرك وذلك للشعور بالاستغناء عن الله تعالى.

(**وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ**)

كائنا من كان ، لأنهما صفتان سلبيتان منبوذتان عنده تعالى ، لا يبررهما حسب ولا نسب ولا منصب ولا فضل مادي أو معنوي. ونستلهم من الآية :

أولا : ان الفرح (والاعجاب بما نملك) يسبب التكبر على الناس والفخر.

ثانيا : ان علاجه يتم بالايمان بالقضاء والقدر ، وان ما نملك لم نحصل عليه من

عند أنفســنا بل بفضل الله ســبحانه ، فلا داعي للتعــالي على الناس به أو الفخر والغرور.

ثالثا : ان من يعيش التكبر والفخر يخسر ما آتـاه الله ، لان الله لا يحب كل مختال فخور ، وإذا كانت النعمة من الله فان زوالها سيكون بيده.

[24] ويضرب الله مثلا على المختالين الذين يفخرون ، ويبين لنا انعكاس فرحهم بالنعم على نفوسهم وسلوكهم بالنسبة للإنفاق ، بعد بيان انعكاسه في النفس والمجتمع.

(**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ**)

وانما يبخلــون لاســباب أهمها أمــران ، الاول : لأنهم يريدون التفاخر والتكـاثر ، فهم يزعمـون أنّ الإنفـاق يقلل ما يملكــون ، وجـاء في الحـديث «**ما فتح على عبد بابا من أمر الــدنيا إلّا وفتح عليه من الحــرص مثليه**» [1] والثـاني : لأنهم يحســون بالاســتغناء عن كل أحد ، وهــذا يتضـخم في نفوســهم حــتى يشــعرون بعــدم الحاجة الى ثـواب الله ، فـاذا بهم لا يسـتجيبون لدعوته بالإنفـاق ، ولا يدعمون مسيرة الحق.

(**وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُ**)

الــذي لا يحتــاج الى أحد ، وانما أمر بالإنفـاق لصــالح الناس ولابتلائهم.

(**الْحَمِيدُ**)

فهو يواصل فضـله على عبـاده ، ولكن لمـاذا يـأمرون الناس بالبخل؟

---

(1) بح / ج 73 ص 160

1 ـ لكي يـــبرروا بخلهم بخلق تيــار من البخلاء في المجتمع حتى لا يرى بخلهم شذوذا.

2 ـ حفاظا على الحالة الطبقية الـــــتي تمهد لهم الاســـتبداد والاســـتغلال والفخر والخيلاء ، أما إذا ردمت الهوة بين الطبقـتين الأغنيـاء والفقـراء فعلى من يختـالون ويفتخـــرون ، ومن يســتغلون ويســتبدون؟! والرأســمالية الموجـــودة الآن هي أحد إفـــرازات الفلســفات والأفكـــار الاغريقية القديمة العفنة ، والـــــتي تقسم النـــــاس الى طبقـــات حتمية ، وذاتها موجـــودة الآن في الفلســـفات البرهماتية في الهند.

3 ـ كما ان المنــافقين يتخـــذون تثبيط النـــاس عن الإنفاق ، ودعوتهم الى البخل سبيلا للصد عن سبيل الله ، ومحاربة الرسول ورسالته الداعيان الى العدالة والوقـوف ضد الطبقية المقيتة ، واستغلال الناس و. و. مما يتعــارض مع مصــالحهم. قــال الله تعــالى : (**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللـهِ حَتَّى يَنْفَضُّـوا وَلِلَّهِ خَـــزائِنُ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنـــافِقِينَ لا يَفْقَهُـونَ**) [1] وهـذه الاية تشـير الى الهـدف الأخـير للأمر بالبخل ، ولعل الاية من ســـورة الحديد اشـــارة الى دور المنافقين في محاربة الرسالة ، والـدعوة الى التـولي عن الرسول والحق.

وفي الاخبـــار روايـــات كثـــيرة في ذم البخل والبخلاء إليك بعضها :

قـال الرسـول (صـلى الله عليه وآلـه) : «البخيل بعيد من الله ، بعيد من النـــاس ، قـــريب من النـــار» [2] وقـــال الامــام علي (عليه الســلام) : «**البخل جــامع لمســاوئ العيوب ، وهو زمام يقاد به الى كل سوء**» [3] وقــال : «**النظر الى البخيل يقسي**

---

(1) المنافقون / 7 ـ 8

(2) بح / ج 30873

(3) المصدر / ص 307

القلب» [1] وقال الامام الصادق (عليه السـلام) : «حسب البخيل من بخله سوء الظن بربه ، من أيقن بـالخلف جـاد بالعطيـــة» [2] وعن الامـــام الرضا عليه الســلام :«إيّـاكم والبخل فانها عاهة لا تكـون في حر ولا مـؤمن. إنّها خلاف الايمان» [3].

---

(1) بج / ج 78 ص 53
(2) بج / ج 77 ص 147
(3) بج / ج 78 ص 346

لَقَـدْ أَرْسَـلْنا رُسُـلَنا بِالْبَيِّنـاتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتـابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيـدَ فِيـهِ بَـأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللـهُ مَنْ يَنْصُـرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْـراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُـوَّةَ وَالْكِتـابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَـدٍ وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ فاسِـقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثــارِهِمْ بِرُسُــلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَــى ابْنِ مَــرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَـةً وَرَحْمَــــةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَــــدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغـاءَ رِضْـوانِ اللـهِ فَما رَعَوْها حَـقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْهُمْ أَجْـرَهُمْ وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ فاسِـقُونَ (27) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ

---

25 [بأس] : عذاب بالقتل أو القصاص ونحوهما.

وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْـلُ الْكِتـابِ أَلاَّ يَقْـدِرُونَ عَلى شَـيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29))

---

28 [قفّينا] اتبعنا.

[ورهبانيّــة] مشــتقّة من الرهبة ، بمعــنى ما يظهر من العبــادة على الجوارح من آثار رهبة القلب.

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

هدى من الآيات :

إقامة العدالة وفق القيم الالهية أحد أهم وأبـــــــرز الاهداف التي تنزلت من أجلها رسالات الله ، وسـعى إليها الأنبياء والرسل ، كما ينبغي ان يسعى إليها كل مــؤمن بل كل إنسان ، ولا يجـوز أن ينتظر رسـولا يبعثه الله ليتحمّلها ، فـإذا لم يحـدث ذلك اعـتزل الواقع ، وبـالغ في الـترهّب انتظـارا للمنقذ ، كما فعل الكثـير من أهل الكتـاب ، فـإن ذلك يصـير بهم الى الظلم والتخلّف في الـدنيا ، والعـذاب والغضب الإلهـــيين في الآخـــرة .. وإذا رفع راية العدالة شـخص أو تجمّع فـان على سـائر النـاس ان ينصـروه ان وثقـــوا منه ومن اهدافه ، ولا يـــدعوه وحـــده في مواجهة الظـالمين ، فـذلك هو المحك الـذي يثبت شخصـية الامة الحقيقية ، كما أنّه الطريق الى كفلين من رحمة الله : هدى ورحمة في الدنيا ، وجنّة ومغفرة في الآخرة.

بينات من الآيات :

[25] ما هي السـمات الاساسـية للحركة الصـادقة؟ وما هو هدفها والمنهج الالهي الكفيل بالوصول اليـه؟ ومن هو المسـؤول عن تطبيقـه؟ عن هـذه الأسـئلة الحساسة تتحـدّث آية الحديد الـتي تنتهي إليها بصـائر هـذه السـورة التي سميت باسمها.

إنّ أهم السـمات في الحركة الصـادقة والـتي تعد بيّنات على سلامتها هي التالية :

الأولى : الانبعـاث باسم الله رب العـالمين ، أمّا الانطلاقة الضـالة الـتي تبـدأ من ثقافة الشـرك والجحـود فانها آية واضـحة على خطأ الحركـات الـتي ترتكز عليها ، والرسل وحـدهم انطلقـوا باسم الله وبـأمره الـذي تلقـوه عبر الوحي بعد اختيارهم من قبله تعالى ، وحيث ختم الله عهد هذا النوع من الحركات بنبيّه محمّد (ص) فان الحركة الصـادقة هي الـتي تكـون امتـدادا لهم وبزعامة الأوصـياء والربـانيين والعلمـاء بالله الأمنـاء على حلاله وحرامه والأولياء والقادة الرساليين.

الثانية : المنهج الربـاني الأصـيل ، والمتمثل في الرسـالات الـتي أكملها وختمها ربنا بـالقرآن الـذي حفظه من التحريف ، وجعله مهيمنا على الكتب ، فانّه المنهج الأصيل والوحيد الذي يجب اتباعه ، واتباع هداه وبصائره ، اما المناهج القائمة على الجهالة والإفـراط واتبـاع الأهـواء فهي لا تصـلح وسـيلة مناسـبة للنجـاح ، لأنها إذا أخـرجت الناس من ظلمـات فلكي تـدخلهم في مثلها ، أو أنقـذتهم من عبودية فالى عبودية مثلها أو أسوء منها.

الثالثة : الاهداف السامية ، والتي يلخّصها القـرآن في العدل (قيام الناس

بالقسـط) ، ولكن ليس بـالمفهوم الضـيّق له المتمثّل في ردم الهــوة بين الطبقــات الاجتماعية ، بل الــتزام الحق والإنصاف من قبل الإنسان في كل أبعـاد حياته وعلاقاته ، في علاقته بربه وقيادته ، وفي علاقته بنفسه ومجتمعة ، وفي علاقته بالخليقة من حوله ، وانما يعـرف مـدى قيامه بالقسط من خلال الميزان (الفطرة ، والعقل ، والكتـاب ، والقيادة ، ...).

والحركة الصـادقة هي الـتي تسـعى الى ذلك بالكلمة الصادقة أو بالقوة والسلاح ، وهي الـتي يجب على النـاس تبنّيها ، ومسـاعدتها ، والانتمـاء الى صـفوفها ، لأنها تجاهد للحق ومن أجل سعادتهم ، ولأنها المحك في نصـرتهم لله ولمسيرة الأنبياء والمرسلين.

والآية تشير الى هذه السمات إذ تقول :

(**لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا**)

دليلا الى الله ، وتعريفا للنـــــاس به تعـــــالى ، فهم يتحمّلـون مسـئولية محـددة هي تبليغ رسـالة الخـالق الى المخلوقين ، وهدايتهم الى معرفته ، والايمان به ، والعمل برسالته ، قال النبي (ص) : «بعث إليهم الرسل لتكون له الحجة البالغة على خلقه ، ويكــون رســله إليهم شــهداء عليهم ، وابتعث فيهم النبيين مبشرين ومنـذرين ليهلك من هلك عن بيّنة ، ويحــيى من حي عن بينة ، وليعقل العبــاد عن ربهم ما جهلــوه ، فيعرفــوه بربوبيته بعد ما أنكــروا ، ويوحّـدوه بالالهية بعد ما عضـدوا (أشـركوا)» [1] ، وقـال الامـام علي (ع) : «بعث رسـله بما خصـهم به من وحيه ، وجعلهم حجة له على خلقه ، لئلا تجب الحجة لهم بـــترك الاعذار إليهم» [2] ، فهم

(1) توحيد المفضل / ص 45
(2) نهج / خ 144

الواسطة بين الخالق والمخلوق ، وحبل الله الممـــدود من السـماء الى الأرض ، ولكن كيف نعـرف صـدقهم وصـدق دعوتهم من بين القادة المنحرفين والدعوات الضالة؟

القرآن يجيب على هذا السؤال إذ يقول :

(**بِالْبَيِّناتِ**)

لهذه الكلمة معنيان يبدو ان كليهما تشملهما الكلمة :

1 ـ تفاصـيل الهـدى ، المتمثّلة في الثقافة التوحيدية ، والبصـــائر والقيم ، والمنـــاهج المنبثقة منها ، واشـــتمال رسالات الله على هذه التفاصـيل دليل على انّها وحي من عند الله ، إذ قد يهتدي بشر اوتي صـفاء النفس الى بعض معاني الغيب ، ولكن انّى للإنسان ان يأتي بهذه المنظومة المتكاملة من البصـــائر الغيبيّة ، ان ذلك الا دليل اتصـــاله المباشر بالوحي.

2 ـ الحجج والآيات الـتي تهيمن على النفس والعقل ، كالمعـاجز ، والخلـوص من الهـوى والمصـلحة والتمحض للحق ، وهـذا يهـدينا الى ان الرسـالات الالهية قائمة قبل كل شـــيء على الاقنـــاع ، لأنه الـــذي ينمّي الايمـــان في النفس ، ويحرّكه بفاعلية أكبر ، وأبقى من اي عامل آخر ، وربنا يقـــول : (**سَـــنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفـــاقِ وَفِي أَنْفُسِـــهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَــقُ**) [1] ، ذلك أنّ الايمـان النـاتج من الاسـتجابة للبيّنـات والآيـات هو الـذي يخشع القلب والجـوارح لـذكر الله ، ويطوّعهما للرسـول ولما نـزل من الحق وللمـيزان ، وبالتـالي يـدفع المـؤمن للقيـــام بالقسط ، وحينما يتخلّف أحد من المؤمـــنين عن الاستجابة للرسول وللوحي فانّ ذلك يدلّ على تزلزل في قناعاته.

وحيث لا يؤتي الايمـان ثمـاره الا إذا تحـول الى نظـام تربوي ، اجتماعي ،

(1) فصلت / 53

اقتصادي ، سياسي ، ثقافي شامل لجوانب الحيـاة ، يكفل للبشرية السعادة ، أنـزل الله شـريعة متكاملة الى جـانب البينات متمثلا بالكتاب.

(**وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ**)

فاذا كانت البيّنات تؤمّن القناعات الاوّلية فانّ الكتـاب يــؤمّن النظــام العملي الشــامل المنطلق من الايمــان ، والــذي يســتهدف تكريسه بعمق في النفــوس والواقع ، والقيـام بالقسط ـــ هـذا الهـدف العظيم ـــ إنّما يســتمد شرعيّته وشرعته منه.

ومع دلالة الانــزال على المعــنى الظــاهر من الكلمة فانّه يــدل على الفــرض ، وكل ما نــزل من الخــالق الى المخلوق فهو لازم ومفروض عليه القيام به. ومن البديهي انّ معرفتنا بالبيّنــات انّ الكتــاب من الله تلزمنا العمل به وتنفيذه.

(**وَالْمِيزانَ**)

الوسيلة التي نعـرف بها مضـامين الكتـاب الخارجية ، مما يتكفّله القضاء في المرافعات والخصومات.

والسؤال : ما هو الميزان؟ هل هو العقـل؟ أم الامـام العادل؟ أم هذه المقاييس التي يزن الناس أشياءهم بها؟

يبدو ان الميزان أساسا هو المقيـاس الـذي نعـرف به تطبيق الحكم على الواقع الخارجي ، وهو لا يتمّ إلّا بالعقل والامام والمقياس السليم. كيف ذلك؟

اولا : ما جــاء القــرآن ليلغي دور العقل ، انما ليثــير دفائنه بالاجتهـاد في فهم حقائقه وأحكامه وطريقة تطبيقه ، وليقوم بدوره الحساس والخطير في حياة البشرية.

ثانيا : ما جـاء القـرآن بـديلا عن الامـام (السـلطة العادلة) حيث يجب التسـليم للقيـادة الشـرعية في حـدود قيم الكتاب ، فدور الامام يكمل دور الرسالة ، لـذلك قـال رسـول الله (ص) : «إنّي قد تـركت فيكم الثقلين ، ما ان تمسّكتم بهما لن تضلوا بعـدي ، أحـدهما أكـبر من الآخر : كتاب الله حبل ممـدود من السـماء الى الأرض ، وعـترتي أهل بيتي. ألا وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» [1] ، وقد أجمعت فرق المسلمين قاطبة على هـذه الرواية ، مع حكم العقل بضـرورتها ، اما قـول الخـوارج : (حسـبنا كتاب الله) فانّه باطل بشـهادة الكتـاب ، وشـهادة العقل ، بل وشـهادة التـاريخ البشـري حيث لم نعهد جماعة بلا سلطة تحكمهم ، وحتى الخـوارج أنفسـهم ما عاشـوا دون سلطة طول تاريخهم.

وميزان الإنسان في الدنيا هو ميزانه في الآخرة حيث يقـول ربنا سـبحانه : (**يَوْمَ نَـدْعُوا كُـلَّ أُنـاسٍ بِإِمـامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِـهِ فَأُولئِكَ يَقْـرَؤُنَ كِتـابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**) [2]

قـال الامـام الرضا (ع) : «المـيزان : أمـير المؤمـنين نصـبه لخلقـه» ، «**أَلَّا تَطْغَـوْا فِي الْمِـيزانِ**» قـال : «**لا تعصوا الامام**» [3].

والعقل يعكس مقاييسه الـــــــــتي فطر عليها على مجموعة أدوات يقيس بها الأشياء. أرأيت ان العقل يعرف ـ عبر البصر ـ مـدى قـرب أو بعد الأشـياء ، ولكنّه التماسا للدقة يعكس ذلك على أدوات العلم (المـتر والكيلومـتر) ، كما يقدر العقل على معرفة مدى حرارة الجسم بـاللمس ، ولكنّه يبـدع المحـرار ليكـون أقـرب الى الدقة ، وهكـذا سـائر المـوازين. إنّها تجليـات العقل على الطبيعة ، ومن جهة أخرى انها

---

(1) بح / ج 23 ص 106 وكنز العمال / ج ص 172 و(18) موضعا آخر
(2) الإسراء / 71
(3) نـور الثقلين / ج 5 ص 188 وقد مر في سـورة الـرحمن تفصـيل حول معنى الميزان

أدوات لحكم السلطة العادلة ، فلو لا القوانين الــتي تنظم العلاقة وتوزن مـدى تطـبيق القيم على الواقع لم يسـتطع الامام فـرض العـدل على النـاس .. وهكـذا كـان المـيزان أساسا هو العقل (الــذي هــداه الله لمعرفة المقــاييس والمقـادير) ، والامـام الـذي هو بمثابة العقل الظـاهر ، ثم الانظمة والأدوات القياســية ، لأنها تهــدي النــاس للحق والعـدل ، ولـذلك جـاء في التفسـير : «نـزل جبرئيل (ع) بالميزان (الكفتين واللسان) فدفعه الى نـوح ، وقـال : مر قومك يزنوا به» [1].

(**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**)

وإقامة الشـيء تنفيـذه على أصـلح وجه ، ومنه إقامة الصــلاة إذا مارســها بوجهها الصــحيح. والعوامل الثلاثة (البيـان ، الكتـاب ، المـيزان) يكمل بعضـها بعضا ، وهي كفيلة بأن تـوفّر المنـاخ المناسب لاقامة القسط ولتحقيق هدف رسالات الله.

والقسط ـ حسب الرازي ــ والاقسـاط هو الإنصـاف ، وهو ان تعطي قسط غـــــيرك كما تأخذ قسط نفسك ، والعــادل مقسط ، قــال الله تعــالى : (**إِنَّ اللــهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ**) ، والقاسط الجـائر ، قـال تعـالى : (**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**) [2].

وحسب بعض اللغــويين : قسط (بــالفتح) قســطا (بالكســــــــر) : عــــــــدل ، وقســــــــطا (بالفتح) وقسـوطا : جـار وعـدل عن الحق [3] ، ثم اعتـبر ذلك من الأضداد.

وأنّى كـان فـانّ مفـردات اسـتخدام الكلمة تـدل على انّها ليست مجــرد بسط العدالة الظــاهرة ، بل هي اقامة العدالة الواقعية الــتي فيها المزيد من الإنصــاف ، وإيتـاء الحق

(1) جوامع الجامع للطبرسي عند الآية

(2) تفسير الرازي / ج 29 ص 243

(3) المعجم الوسيط (قسط)

لأهله.

والآية تصرح بأنّ اقامة القسط تكون بيد الناس أنفسهم ، فلم تقل : ليقوم الرسل بالقسط بين الناس ، بل قالت : «**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**» ، ولو انّ الناس تخلوا عن مسئوليتهم تجاه العدالة فان القسط لا يقوم ، لان رسالات الله توفر للناس فرصة اقامة القسط ، ولم يبعث الأنبياء لفرض العدالة بالإكراه على الناس.

وقيام الناس بالقسط يعني العدالة ، وإقامة الحق في سائر جوانب حياتهم ، مع الله ، ومع الرسول ، ومع القيادة الشرعية ، ومع الناس ، بل ومع الحياة ، فيتقون الله حق تقاته ، ثم يختارون الامام العدل ويسلمون له ويتبعونه ، قال الامام الرضا (ع) : «**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ**» : وأقيموا الامام بالعدل [1] ، ويلتزمون الحق مع أنفسهم باتباع القصد من دون افراط ولا تفريط ، ومع الناس فلا يبخسون ، ولا يطففون ، ولا يظلمون ولا يعتدون ، ولا ينقضون العهد ، وهكذا يلتزمون العدل في علاقتهم مع الخليقة من حولهم ، فلا يفسدون في الأرض بعد إصلاحها ، ولا يهلكون الحرث والنسل ، ولا .. ولا ..

ولكن تبقى شريحة من الناس تخالف الحق ، من أجل هذا أنزل الله الحديد وسيلة رادعة لتنفيذ القسط وإقامته بين الناس ، ولا ريب ان القوة ليست الوسيلة المناسبة دائما ، فما يقرّه الإسلام شرعية القوة في الحالات الخاصة لا شريعتها.

(**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ**)

قال الامام علي (ع) : «**يعني السلاح وغير ذلك**» [2] ، مما يحقق الغرض منه ،

---

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 189.

(2) المصدر / ص 250

وهو الردع وتنفيذ القسط. وهذا الشطر من الآية معطوف على (الكتاب والميزان) ولكن الله يذكر أولا الهدف من الحديد. لماذا؟ يبدو لكي يبيّن بصيرة هامة أنّ العوامل المتقدمة هي الأهم ، ولا بد ان تكفي في الظروف العادية «ليقوم الناس (أنفسهم) بالقسط» فلا يحتاجون الى إعمال الحديد وذلك لان القوة التنفيذية في الإسلام تستمد قوتها الاساسية من الايمان لا من السيف. وهنا نتساءل : إذا لماذا أنزل الله الحديد؟ الجواب : إنّما لأولئك الجبابرة والطغاة والمعاندين الذين قست قلوبهم عن وعي البينات والكتاب ، وعارضوا الميزان والقسط ، لمثل أولئك شرع الله استخدام السيف ، ورغب فيه ، فقد روي عن رسول الله (ص) انّه قال : «الخير كله في السيف ، وتحت ظل السيف ، ولا يقيم الناس الا السيف» [1] ، وقال الامام علي (ع) : «إن الله داوى هذه الامة بدوائين : السوط ، والسيف ، لا هوادة عند الامام فيهما» [2] ، وقال الامام الصادق (ع) : «إنّ الله عز وجل بعث رسوله بالإسلام الى الناس عشر سنين ، فأبوا ان يقبلوا حتى أمره بالقتال ، فالخير في السيف ، وتحت السيف ، والأمر يعود كما بدأ» [3] ، وقال الامام أمير المؤمنين (ع) : السيف فاتق ، والدين راتق ، فالدين يأمر بالمعروف ، والسيف ينهى عن المنكر ، قال الله تعالى : (**وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ**) [4].

(**فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**)

على الذين لا يقومون بالقسط (حيث الحدود ، والقصاص ، وسائر العقوبات الشرعية) ، وعلى الذين يظلمون ويحاربون العدالة (حيث الجهاد في سبيل الله) واستخدام الحديد كرمز للقوة ، باعتباره المادة الاساسية لصنع الاسلحة ووسائل

---

(1) بح / ج 100 ص 9

(2) شرح ابن حديد / ج 1 ص 275

(3) فروع الكافي / ج 5 ص 7

(4) غرر الحكم طبعة إيران المترجمة حكمة (2157) باب الألف

القـوة ، وهنا يطـرح السـؤالين التـاليين : الاول : إذا كـان الإسـلام يـؤمن بالحرية فلما ذا القـوة؟ والثـاني : إذا كـان الله سـوف يحاسب النـاس يـوم القيامة فلما ذا السـيف والجهاد في الدنيا؟ ونجيب على ذلك :

أولا : الإسلام بين الحجة والقوة :

أبــرز اهــداف الإســلام تحرير الإنســان من الأغلال ظاهرة وباطنة ، قـال تعـالى : (**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْــرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كـــانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ**) [(1)] ، بلى. الرسـول يخـرج الناس من ظلمـات الجهل والتخلّف والاسـتعباد ، الى نـور العلم والتحضر والحرية ، ولكن كيـف؟ هل بقــوة المنطق أم بمنطق القوة؟ لقد بينت آيـات عديـدة أنّه لا إكـراه في الدين ، وأنّ الرسـول ليس بجبـار عليهم ، قـال سـبحانه : (**لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ**) ، وقال ســـبحانه : (**نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُـــونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ**) [(2)] وتطبيقا لهـذه الحقيقة في الواقع منع ربنا الرســـول والمســـلمين من إكـراه النـاس على الـدخول في الـدين الجديد ، فقـال : (**وَلَــوْ شــاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعــاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**) [(3)].

إذا لمــاذا القــوة؟ انما ضد فــريقين : الاول : الــذين يصادرون حرية الناس ، ويفرضون عليهم أغلالهم ، الثـاني : الذين يخرجون على قوانين البلاد ، ويعيشون في

---

(1) الأعراف / 157
(2) ق / 45
(3) يونس / 99

الأرض فسادا ..

ثانيا : الإسلام والقوّة والحياة :

1 ـ أمّا لماذا القوة في الدنيا ما دام الله يحاسب الناس في الآخرة فيجزي المحسن والمسيء؟ فلأنّ الابتداء لا يتم إلّا عند توافر شروطه ، فلو أطبقت على الأرض حكومات الضلال وأفرغت على الناس دعاياتها السّامّة ، دون أن تسمح لأحد بنشر الدعوة إلى الله بينهم ، كيف تتمّ آنئذ حجة الله على سائر العباد. أو ليسوا كانوا يقولون : ربّنا لم تبلغنا الدعوة إليك ، ولم نسمع عن رسولك شيئا؟ إذا لا بدّ أن يسعى المؤمنون لتوفير جوّ الامتحان ليهتدي من اهتدى عن بيّنة ، ويضلّ من ضلّ عن بيّنة.

2 ـ ثم أنّ الّذين يعارضون إستخدام القوة من قبل المؤمنين لا ينظرون إلى الجهاد إلّا من زاوية المضاعفات السلبية التي تستتبعه ، وبالذات من زاوية بطش الحكومات الفاسدة بالمجتمع والمجاهدين أنفسهم ، في حين يجب عليهم النظر من زاوية المعطيات الإيجابية للجهاد على صعيد الدنيا حيث الحرية والاستقلال والأمن والتقدم وسائر مضامين إقامة القسط ونتائجه ، وعلى صعيد الآخرة حيث رضوان الله وجنّته ، وهذه بعض المنافع التي جعلها الله للحديد.

(**وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ**)

فالحديد سلاح يساهم في إقامة القسط ، وهو في ذات الوقت معدن يتدخّل في كثير من الصناعات ومرافق الحياة.

وإنّ السعي لإقامة الحق والعدالة بين الناس يتسبّب في صراع مصيري بين أنصاره ورسله (حزبه) وأنصار الباطل وأئمة (حزب الشيطان) فيميّزهم عن

بعضهما ، فيحقّق الهدف الأساس من حياتنا الــدنيا ألا وهو الابتلاء.

(**وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ**)

من المجاهـدين الـذين يسـعون نحو تحقيق الغاية من الرسالات وهي إقامة القسط ، بلى. السيف وسيلة ذلك ، ولكنّ سواعد المجاهدين هي التي تحمل السيف وتحـارب به الأعداء ، فلا يزعم أحد أنّ نصرة الله لدينه تتم بصــورة غيبيّة دائما. ويعتبر المجاهدون هذه الغاية هي الأسمى لأنّ أعظم أهـدافهم بلـوغ رضـوان الله سـبحانه ، الـذي يعتـبر الجهاد أقرب سبله.

والنصرة الحقيقية للحق لا تتحقّق بمجرد الانتمـاء إلى صفوف المؤمنين ، ورفع السيف ، والقتـال ، وحسب ، كلا ... فهذا المظهر المطلوب ، بل المهم إلى جـانب ذلك أن تكون الدوافع توحيدية نابعة من الإيمان بالله ، لـذلك قـال ربّنا :

(**بِالْغَيْبِ**)

أمّا الـــذي ينتمي للمؤمـــنين ويقاتل معهم بـــدوافع وأهداف مادية ومصلحية ، أو لأنّ الآخرين نصـروه ، أو لأي شــيء آخر لا يتصل بــالغيب ، وهو رضى الله وجنّاته ، فلا تشـمله الآية .. وممّا يخلص دوافع الإنســان وأهدافه علمه بأنّه لا ينصر ضعيفا ولا ذليلا ، وأنّه تعالى لم يدعه للنصــرة عن حاجة وعجز حـــتى يطلب المقابل ويفرضه عليه بعد النصر ، أو يمنّ على ربّه سبحانه.

(**إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**)

وإنّما يكتسب المجاهدون من نصرتهم له قوّة وعزّة.

وكلمة أخيرة :

إنّ آية الحديد تشير إلى نظام التجمّع الإسلامي الـذي يتمثّل في الرسول ومن ينـوب عنه ، وفي القـوى الثلاث : التشـــريعية ، ورمزها (الكتـــاب) ودورها بيـــان الأحكـــام ، والقـــوة القضـــائية ، ورمزها (المـــيزان) أمّا مهمتها فهي تطبيق الأنظمة على الواقع لتحديد المصاديق وبيـان كيفية التنفيذ ، والقوّة التنفيذية ، ورمزها (الحديد).

كما تشـــير الآية إلى شـــعار التجمّع الإســـلامي الـــذي يهـــــدينا إلى وجهته وصـــــبغته العامة والمتمثّل في قوله سبحانه : «**لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**».

وخاتمة الآية تهدينا إلى الدافع الغيبي لنصـرة الـدّين ، والذي يعتـبر الضـمانة التنفيذية للأحكـام ، وقـوّة التماسك الداخلية في التجمّع الإيماني.

[26] ويضرب القـرآن مثلا تاريخيا لما بيّنته آية الحديد فيما يتصل بحركة الأنبيـــــاء ومن يتبعهم ، وذلك من واقع نوح وإبراهيم (عليهما السـلام) حيث كانا فـاتحين لعهـدين جديدين في تاريخ الرسالات الإلهية.

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ**)

والنبوّة هي القيادة المعصـومة المختـارة من عند الله ، أمّا الرسـالة فهي فوقها بدرجة حيث أنّ الرسـول يحمل رسالة من ربّه إلى الناس.

والنبوّة والكتاب هما عهد الله ، ولا يناله إلّا الصالحون الصادقون ، الذين يمتحنهم الله ، قال عزّ من قائل : «**وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِماماً قـالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قـالَ لا يَنـالُ عَهْـدِي الظَّالِمِينَ**».

وحيث تصـدّى أبنـاء نـوح وإبـراهيم (عليهما السـلام) لقيادة البشرية عبر

الأجيال ، وحملـوا مشـعل الهداية ونهجها للأمم تلو الأمم ، يظهر فضلهم على الناس.

(**وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ**)

ولكن مجـرد كـون النبـوة والكتـاب في ذرية نـوح وإبراهيم (عليهما السلام) لا يبرّر نموّ الحالة العنصرية عند أولادهم وأتباعهم.

(**فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ**)

هم الرسل والأنبياء والأوصياء ومن آمن بهم واتبعهم.

(**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ**)

ضالون منحرفون ، لم يلـتزموا بالكتـاب ، ولم يقتفـوا آثـار الأنبيـاء ، فالمقيـاس في الصـلاح أو الفسـاد ليس الانتساب ولا ادّعـاء المشـايعة للصـالحين ، إنّما المقيـاس الحق هو اتباع القيم الرسالية ، والتزام السلوك الصـالح ، فلا صـلاح القـادة وحقّانية القيم دليل هـدى الأمم والمجتمعـات ، ولا ضـلال الأمم والمجتمعـات وانحرافها دليل فسـادهما ، وإلى هـذا يشـير الإمـام الرضا (ع) حيث يقـول مخاطبا المـأمون وبعض العلمـاء في جلسه : «أما علمتم أنّه وقعت الوراثة والطهـارة على المصـطفين المهتـدين دون سـايرهم؟ قـالوا : ومن أين النبـوّة يا أبا الحسن؟ قال : قول الله عزّ وجلّ : (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحـاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَـدٍ وَكَثِـيرٌ مِنْهُمْ فاسِـقُونَ**) ، فصـارت وراثة النبـوّة والكتـاب للمهتـدين دون الفاسـقين ، أما علمتم أنّ نوحا حين سأل ربّه عزّ وجلّ فقـال : (**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ**) ، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ وعده أن ينجيه وأهله ، فقـال له ربّه عـزّ وجـلّ : (**يا نُـوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِـكَ إِنَّهُ عَمَـلٌ غَيْـرُ صـالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ**

بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ). [1]

[27] في سورة الحديد التي اتسمت بصفة الروحانية المتسامية والتي جاءت شفاء ناجعا لمرض القسـوة الـتي تصـيب القلـوب الغافلة عن ذكر الله ، في هـذه السـورة قرأنا آية الحديد الـتي حـدّدت هـدف الرسـالة في إقامة القسط ، ولم تسـتبعد الحديد كوسـيلة لتنفيـذه. إنّه حقّا توازن حكيم بين التعالي في أفق الغيب والحضـور الفاعل في أحداث الحياة.

ولذلك أيضا يتنـاول السـياق قصة الرهبنة الـتي زاغت بالنصـارى عن الطريق القـويم ، كما انحـرف اليهـود من قبلهم حين ابتلـوا بـالنظرة العنصـرية. وإذا عـالجت الآية السابقة وبإشارة خاطفة عنصرية اليهود وغيرهم فإنّ هذه الآية بيّنت بوضوح خطأ الرهبانية ، وذكّرت كلتا الآيتين بأنّ الطريق القويم يتمثّل في سنّة الأنبيـاء الـذين توالـوا على البشرية برسالة واحـدة تحـدّدت معالمها مع الـزمن ، وأنّ الخط الواحد والمشـترك الـذي تهـدي إليه سـيرتهم جميعا هو الميزان في قيـاس الحق ، وهو يتمثّل في القـرآن كما نقرأ ذلك في آيات لاحقة.

(**ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا**)

واحدا بعد واحد يهدي بهم الله البشرية إلى خط نـوح وإبـراهيم كلّما فسـقت وضـلّت عنه ، فهم يتبعـون ذات النهج ، ويسـعون إلى ذات الأهـداف ، وبـذات الوسـائل (البيّنات ، والكتاب ، والمـيزان ، والحديـد) ، وهكـذا ينبغي أن تكون الأجيال اللاحقة في الأمّة مسئولة عن مسيرتها ، تقتفي أثر الرّواد الصالحين ، سيرا إلى الحضارة والتكامل ... وحيث تفصلها العصور والأجيال عن أولئك (النبي وأئمة الهدى) فإنّ الكتـاب والإمـام خـير مقيـاس لمعرفة المنهج القويم. بلى. إنّ

---

(1) عيون اخبار الرضا / ج 1 ص 230

عودتها إلى الخط السليم ، وبالذات في مجتمع ذهب بعيدا في الضلال والانحـراف ، سيضـعها أمـام تحـدّيات صـعبة ، ولكنّها الطريق الوحيد نحو الهدى والسعادة ، والنجـاة من الضلال والشقاء.

(**وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ**)

والإنجيل لم يكن مغـــايرا لتلك الرســـالات ، إنّما هو متضـمّن لـذات المفـاهيم والقيم ، إلا أنّ العنصـرية الـتي انحـــدر إليها بنو إســـرائيل من قبل نـــزول الإنجيل ، وما رافقها من النظـرة المادية وقسـوة القلب ، كـانت بحاجة إلى جرعـــات من الحنـــان والعطف والزهد والخشـــوع ، وكانت كلمات الإنجيل تفيض بذلك لمعالجة ذلك التطـرف المـادي الطـاغي ، وهكـذا زرع الله في قلـوب التـابعين لعيسى (ع) الرأفة والرحمة بل الزهد والرهبانية الطاهرة.

(**وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً**)

لعـــلّ الرأفة هي العطف القلـــبي ، بينما الرحمة هي المظهر الخارجي لها مثل العطـاء وخفض الجنـاح ، وقـال البعض : إنّ الرأفة هي منع ما يضر ، بينما الرحمة هي توفير ما ينفع ، ومثل هذه الكلمات إذا ذكرت مفـردة منها شـملت معـنى الجميع ، بينما إذا أطلقت أكـثر من مفـردة دلّت كلّ واحدة على معنى خاص ، وكان ذكرها يـدلّ على التأكيد ، ممّا يـــوحي بـــأنّ الله جعل المزيد من العطف والحنـان في قلـوب الـذين اتبعـوا عيسى (ع). وحق لهم ذلـــك. أولم يكن قائـــدهم مثلا أســـمى للزهد والحنـــان والخشوع والتبتّل؟

والرأفة والرحمة من أظهر وأعظم صـــفات الله في تعامله مع خلقه (**إِنَّ اللـــهَ بِالنَّاسِ لَـرَؤُفٌ رَحِيمٌ**) [1] ، وهكـــذا تســـتهدف الرســـالات الإلهية إنقـــاذ النـــاس من الصفات

---

(1) البقرة / 143

البشـرية لـتركّز فيهم أخلاق الله ليكونـوا ربّـانيين. ولعـلّ عيسى (ع) جــاء بالرأفة والرحمة علاجا للقســوة الــتي أصـابت بـني إسـرائيل حيث قـال ربّنا عنهم : (**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجـارَةِ أَوْ أَشَـدُّ قَسْـوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّـقَّقُ فَيَخْـرُجُ مِنْـهُ الْمـاءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِـطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**). [1]

وجعل الله لهما في قلوب أتباع المسـيح (ع) لا يعـني أبــدا أنّ الله يرسل نبيّا بــاللطف والرحمة ، ويرسل الآخر بالشدّة والحديد ، أو أنّهم لم يفرض عليهم الجهاد بالسيف وخوض اللجج لإقامة القسط إذا كانت الظروف تسـتدعي ذلك ، بل يعني أنّ الحالة الاجتماعية المتردّية في القسوة والفســوق لم تكن تعــالج بالســيف بل بالرحمة والرأفة ، وربما الرهبانية.

ثم يبيّن القرآن تجربة مهمّة من تجـارب أتبـاع عيسى (ع) : لقد ظهــرت الجبــابرة والطغــاة من بعد عيسى ، وصارت مسيرة الأكثرية من الناس إلى الفسوق والقسوة مما شـاة لملـوكهم ، واتباعا للتحريف والبـدع ، فـاختلفوا على مـذاهب شـتّى ، حيث سـكتت الأغلبية عن الطغـاة ، واتبعوا أدعياء الدّين ، إلّا أنّ قليلا منهم قرّر التحـدي ولكن كيف؟

إنّهم يواجهون نوعين من التحدي : التحـدي السياسي ، والتحدي الاجتماعي المدعوم بقشـور الـدّين المحـرّف ، وأمــام كــلّ ذلك يجب عليهم أن يحــافظوا من جهة على مســيرتهم فلا يتــابعون الطغــاة أو يستســلمون للــدين المحـــرّف ، ومن جهة أخـــرى يجب أن يحـــافظوا على أنفسـهم الّا يبـادوا ، فوقع اختيـارهم على الرهبانية الـتي تعني توثيق العلاقة بالله ، واعتزال المجتمع الضّـال. هـذه كانت خطتهم التي يرون فيها السبيل

---

(1) البقرة / 74

إلى أهــدافهم ، وهي الالــتزام بالإنجيل ، واتبــاع عيسى ، والمحافظة على أشخاصهم وحيثيّات شخصيتهم أن تمـاث في الواقع الجديد ، ويلخّصها القرآن في كلمة هي رضوان الله.

(**وَرَهْبانِيَّةً ابْتَـدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغـاءَ رِضْوانِ اللهِ**)

ماذا تعني هذه الفقــرة من الآية ، فهل الرهبانية كتبها الله عليهم ، فما ذا تعـني إذا كلمة «ابتـدعوها» ، وهل هم الــذين اسـتحدثوها ، فما ذا يعــني إذا قوله : «**ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ**»؟

الـــذي يبـــدو لي : أنّ لفظة الرهبانية معطوفة على قوله سبحانه : (**وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ رَأْفَـةً وَرَحْمَــةً**) ، حيث أنّ الله أوجد فيها عـــبر الإنجيل وعـــبر سـيرة المسـيح عيسى بن مـريم (ع) ثلاثة أنــوار : نــور الرأفة ونــور الرحمة ونــور الخشـية من الله والرهبانية ، ولكنّهم ابتدعوا هـذه الرهبانية وغيّـروا فيها ، كما أنّ الزهد أساسا فضـــــيلة دعا إليها الإســـــلام إلّا أنّ طائفة من المسلمين ابتدعوها وجعلوا لها وسـائل غـير لائقة ممّا دعا أئمة المسلمين إلى التبري منهم.

إذا الابتــداع لم يكن في أصل الرهبانية الــتي تعــني الخشـية من الله ، وإنّما في فروعها من اعـتزال المجتمع في الأديـــرة ، ووضع طقـــوس خاصة بها ، وعلى هـــذا التفسير يكون قوله سـبحانه : «**ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ**» تبيانا للابتـداع حيث أنّ الله كتب الرهبانية عليهم بهـدف ابتغـاء مرضاته فما رعوها حق رعايتها فحرّفوها.

وقـال البعض : إنّ الآية تشـير إلى أنّهم ابتـدعوا أصل الرهبانية ابتغاء رضوان الله ، وأنّ الله لم يكتبها عليهم.

وقــالوا : ليس بالضــرورة أن يكــون الإبــداع مكتوبا بحذافيره في الرسالة ليكون

مشـــروعا ، بل يكفي أن يكـــون موافقا وقيم الرســـالة والأصـول والقواعد العامّة فيها ، لأنّ المهم أن ينطلق من الكتاب ، وينتهي إليه ، ويلتزم به بتصـديق المـيزان. وهـذا من مرونة الدّين ، وقدرته على قيـادة الحيـاة المتطـوّرة ، وهو يؤيّد الإبداع ، ما دام في حدود رضوان الله وشــريعته ، ومن هنا فإنّ الرهبانية جيدة إن لم تؤدّ إلى :

1 ـ التشبّث بظاهر الأمور على حساب القيم.

2 ـ واعـتزال المجتمع وتكفـيره دون الشـهادة عليه والسعي نحو تغيير واقعه.

3 ـ والتقاعس عن الواجبات الاجتماعية.

4 ـ وابتزاز الناس ، واكتنـاز الـذهب والفضة ، والصـدّ عن سبيل الله.

وما إلى ذلك ، وهو إفـــراغ للرهبانية من مضـــامينها الحقّة التي تعني الحقائق التالية :

أ: خشـــية الله ، والتقـــرّب إليه بالتبتّل ، والزهد في حطام الدنيا.

ب : الاحتياط في الدّين ، والاجتهـاد في العبـادة وأداء حقـوق النـاس ، وإقامة أحكـام الله على وجهها الصـحيح لتحقيق أهداف الدّين ومقاصد الشريعة من خلالها ، وجعل رضوان الله هو الغاية دون تكريس العصبيات والأنانيات.

ج : اعتزال الناس تمهيدا لتغييرهم ، والتقية والهجـرة من أجل الجهـاد ، دون جعلها هـدفا بذاته ووسـيلة لـترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله.

(**فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها**)

وبلغ بهم الأمر إلى درجة استغل أدعياء العلم والـدين الناس باسمها ، وصدّوهم عن السبيل ، قـال تعـالى : (**إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ**

النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ). [1]

جاء في مسند أحمد بن حنبل : خرجنا مع رسول الله (ص) في سـريّة من سـراياه ، فقـال : مـرّ رجل بغـار فيه شـيء من مـاء ، فحـدّث نفسه بـأن يقيم في ذلك الغـار ، فيقوّته ما كان فيه من ماء ، ويصـيب ما حوله من البقل ، ويتخلّى عن الـدنيا ، فقـال : لو أنّـني أتيت النـبي (ص) فـذكرت ذلك له ، فـإن أذن لي فعلت ، وإلّا لم أفعل ، فأتاه فقال : يا نبيّ الله إنـني مـررت بغـار فيه ما يقوّتـني من المـاء والبقل ، فحـدّثتني نفسي بـأن أقيم فيه وأتخلّى عن الـدنيا ، قـال : فقـال النـبي (ص) : «إنّي لم أبعث باليهودية ولا بالنصـرانية (يعـني ما عليه اليهـود والنصـارى من التحريـف) ولكنّـني بعثت بالحنيفية السـمحة ، والـذي نفس محمد بيـده لغـدوة وروحة في سـبيل الله خـير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحـدكم في الصف الأوّل خـير من صلاته ستين سنة». [2]

ويعضد هذا ما جاءت به الرواية عن ابن مسعود قال : «كنت رديف رسول الله (ص) على الحمـار فقـال : يا ابن أمّ عبد! هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانيــة؟ فقلت : الله ورســوله أعلم ، فقــال : ظهــرت عليهم الجبــابرة بعد عيسى (ع) يعملــون بمعاصي الله ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم ، فهـزم أهل الإيمـان ثلاث مـرات ، فلم يبق منهم إلّا القليل ، فقالوا : إن ظهرنا لهـؤلاء أفنونا ولم يبق للدّين أحد يدعوا إليه ، فتعالوا نتفـرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى (ع) (يعنـون محمـدا (ص)) ، فتفرّقـوا في غـيران الجبـال ، وأحـدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسّك بدينه ، ومنهم من كفر ، ثم تلا الآية : (**وَرَهْبانِيَّةً ابْتَـدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ**) .... إلى آخرها ثم قال : يا بن أمّ عبد أتدري

---

(1) التوبة / 34
(2) الجامع لأحكام القرآن

ما رهبانية أمتي؟ قال : الهجرة والجهاد والصلوة والصــوم والحج والعمرة».

وفي حــديث آخر أنه قــال : «يا ابن مســعود! اختلف من كان قبلكم على اثنين وسـبعين فرقة ، نجا منها ثنتـان وهلك ســايرهم ، فرقة قــاتلوا الملــوك على دين عيسى فقتلوهم ، وفرقة لم يكن لهم طاقة لموازاة الملـوك ، ولا أن يقيمــوا بين ظهــرانيهم يــدعونهم إلى دين الله تعــالى ودين عيسى ، فساحوا في البلاد وترهّبوا ، وهم الذين قال الله : (**وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ**) ، ثم قــال النــبي (ص) : من آمن بي وصــدّقني واتبعــني فقد رعاها حقّ رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون[1]

وهــــــــذه الرواية في الواقع موافقة لما نعرفه من مقاييس الشرع ، وهي تفسّر الرواية التي تنقلها المذاهب الإسـلامية كلّها عن النـبي (ص) بـأن الأمّة سـوف تفـترق بعده (73) فرقة كلّها هالكة إلا واحــدة ، وهي الــتي تقاتل الطغــاة. أمّا الــذين يعــتزلون الســاحة ، ويتفرّجــون على صراع الحـقّ والباطل ، أو الـذين يتـابعون الملـوك والتّيـار العـام في المجتمع صـحيحا كـان أو مخطئا ، فليســوا من الناجين ، ومن هنا يتضح لنا أنّ الحديث الذي يشير إلى أنّ الفرقة الناجية من أمّة محمد (ص) هي التي تتبع الجماعة والأكثرية ولا تخالف الجبابرة والطغاة هو حـديث موضـوع على يد حكّام الجور ومن أيّدهم من أدعياء الدّين.

ومع أنّ الفــرق والمــذاهب الــتي يصــير إليها النــاس كثيرة إلّا أنّ القرآن يصــنفها إلى خطين : خط الحق وخط الباطن.

(**فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ**)

(1) نــور الثقلين / ج 5 ص 251 ـــ 252 / الجــامع لأحكــام القــرآن للقرطبي / ج 17 ص 265

بعيسى (ع) واتبعـوه قبل أن يتوفّـاه الله ، أو حـافظوا على إيمانهم بعده فكانوا ممّن رعى الرهبانية حـقّ رعايتها ، ولمّا جاء الرسول (ص) آمنوا به واتبعوه ..

(**أَجْرَهُمْ**)

والأجر هو الجـزاء في مقابل شـيء ، والمؤمنـون من أهل الكتـاب يعطيهم الله أجـرهم مقابل الإيمـان والعمل الصـالح ، وليس لمجـرّد انتمـائهم إلى دين المسـيح (ع) ومجتمعة وأشـــياعه. وينسف القـــرآن النظرية العرقيّة والعنصرية لدى الضّالين من أهل الكتاب فيقول :

(**وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ**)

ضالّون منحرفون يدخلون النار ، لا تنفعهم عنصريّتهم ولا انتماءاتهم اللفظية.

[28] وإذا كـانت الرهبانية القائمة اليـوم بدعة زائفة عن السـبيل ، فما هي الوسـيلة الـتي تقرّبنا إلى ربّنا أكـثر فأكثر لمن اشتاق إلى الزلفى إليه سبحانه ، ونيل مرضاته وحبّه والدرجات العلى من جنّاته؟

في خاتمة سـورة الحديد ــ سـورة التبتّل والجهـاد ــ يبصّرنا ربّنا بالوسـيلة الـتي يتخـذها من شـاء أن يتخذ إلى رضوان ربه سبيلا.

ويوجّه ربّنا الخطـاب إلى المؤمـنين بالله جميعا ممّا يشمل الفريق الأوّل من أهل الكتـاب ، وكـذلك المؤمـنين في عهد النـــبي محمد (ص) لا يفــرّق بين أحد منهم ، يـدعوهم إلى صـدق الإيمـان والتقـوى بـترغيب في رحمة وفضله.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**)

وإنّها لكرامة أن يخصّ الخالق فريقا من خلقه بحديث من ذكره ، وإنّه لمن الشقاء أن يتلهّى المؤمنون عن هذا الحديث ، فلا تخشع له قلوبهم ، ولا تسعى إليه جوارحهم! من هنا يسارع المؤمنون حقّا عند ما يسمعون هذا النداء إلى القول : لبّيك اللهم لبّيك.

لماذا القرآن الكريم يخص النداء بالمؤمنين حينا ويخاطب الناس أحيانا ، علما بأن آياته تتسع كلّ تال لكتاب ربّه؟

ربما لأن الإيمان شرط أساسي في الموضوع. ألا ترى كيف أنّ القرآن يعمّم الخطاب للناس في غير ذلك ، مثل القضايا العلمية التي لا يشترط الإيمان في تنفيذها كالنفاذ من أقطار السموات والأرض ، فيقول : (**يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ**) [1] ، ويقول : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ**) [2] ، أو فيما يتصل بحكم يشمل الناس جميعا كالعلاقة بين الشعوب في قوله سبحانه : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا**) [3]. أمّا هنا فإنّ العمل بالمضمون يحتاج إلى الإيمان فلا يقفز الإنسان من الكفر إلى الإيمان بالرسول ، بل لا بد أن يؤمن بالله أوّل ثم برسوله ، كذلك لا يقفز من الكفر إلى التقوى التي هي من مراحل الإيمان المتقدمة إلّا بعد الإيمان بالله والرسول.

---

(1) الرحمن / 33
(2) الحج / 5
(3) الحجرات / 11

(**اتَّقُوا اللهَ**)

وبعبـارة : إنّ المسـافة بين الإنسـان وبين الاسـتجابة للوحي واتباع القيادة الرسالية مليئة بالتحديات والضـغوط ، ولا يقدر الإنسان على طيّها إلّا بـزاد التقـوى الـتي يواجه بها أشواك الطريق.

(**وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**)

فهو محك الإيمـان والتقـوى ، وما هي قيمة إيمـان لا يتحـوّل في واقع الإنسـان إلى ولاء ديـني ، اجتمـاعي ، سياسي ، عملي ، للقيـادة الرسـالية الصـالحة ، ويصـوغ شخصية الإنسان صياغة ربّانية بعيدة عن قـوالب التحـزّب الأعمى ، والعصـبيّة الضـيّقة ، والقوميّة المحـدودة ، والوطنيّة الزائفة ، و... و...؟

ما قيمة الإيمان الـذي لا يصـنع مجتمعا صـالحا ، يعمر الأرض ، وينصر الضـعفاء ، ويقـاوم الطغـاة والمجـرمين؟ بلى. إنّه سـوف يواجه ضـغوط القيـادات المنحرفة ، والمجتمع من حوله ، ولكن ليعلم أنّ ما يجـده مع التقـوى واتباع القيادة خير ممّا يفوته من حطام الدنيا.

(**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**)

قيل غ الكفل هو ما يشـدّ الـراكب إلى سـنام الإبل ، ويتكفّل بإجلاسه عليها [1] ، ولكل فـرد كفل ، فتطـوّر المعنى والاستخدام حـتى أصـبحت الكلمة تعـني النصـيب الكامل للشخص ، والذي يتقي الله ويؤمن بالرسـول ينـال نصـيبين وحظّين ، فلا يخسر الـدنيا بسـبب الـترهّب الزائد عن حدّه ، كما هو حال بعض أهل

---

(1) في التفسير الكبير قال المفضل بن سلمة : الكفل : كسـاء يـديره الراكب حول السنام حتى يتمكن من القعود على البعير

الكتاب ، ولا يخسر الآخرة بسبب الالتصاق المفرط بالدنيا ، كما يستوي إلى ذلك الكثير من المؤمنين الذين قدّم لهم الله التعريف بالدنيا والدعوة إلى الآخرة في الآيات (19 ـ 24) ، والكثير من الناس ، فالإسلام منهاج متوازن يريد لأتباعه الدنيا والآخرة ، فعن أبي الجارود قال : قلت لأبي جعفر (ع) : لقد آتى الله أهل الكتاب خيرا كثيرا ، قال : وما ذاك؟ قلت : قول الله عزّ وجلّ : (**الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ**) إلى قوله : (**أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا**) قال : فقال : قد آتاكم الله كما آتاهم ، ثم تلا : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**». [1]

(**وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ**)

نتيجة التقوى والإيمان بالرسول. قال البعض : أي يوم القيامة ، وهو النور المذكور في قوله : «**يَسْعى نُورُهُمْ**» [2] ، ولكن ما الذي يجعل هذا النور محدودا بالآخرة؟ أو ليست حاجة الإنسان إلى النور قائمة في الدنيا أيضا؟ قال تعالى : (**أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها**) [3]. هكذا يبدون أنّ النور الذي جاء في هذه الآية وفي تلك هو البصيرة في الحياة والتي تتمثّل يوم القيامة نورا ساطعا.

لماذا جيء بنا إلى الحياة الدنيا ، وما هي أهدافنا الكبرى فيها ، وما هي سنن الله الحاكمة ، واختلاف الناس وما هو الموقف المناسب والموازين الحق كيف نعرف بها أمورنا؟ وعشرات من البصائر القرآنية التي يؤتيها ربّنا الذين آمنوا واتقوا.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 254
(2) التفسير الكبير عند الآية يتابع الكشّاف
(3) الانعام / 142

وتجسد القيـادة الرسـالية هـذه البصـائر فيما تطرحه من مواقف أو تصـدره من أوامر ، لــذلك فهي أيضا نــور للمتقين المتمسكين بها.

ومع أن مصــدر النــور هو الــوحي إلّا أنّنا بحاجة إلى القيـادة الرّبانية ، لأنّها الأقـرب الى حقـائق الـوحي ، فهي المرآة الصافية التي تعكس حقائقة بصدق وأمانة ووعي ، وما أحوجنا إلى هـذا النـور ونحن نعيش في عـالم كـثرت فيه البدع ، والمـذاهب الضّـالة ، ووسـائل الاعلام والثقافة المضلّلة.

قال الإمام البـاقر (ع) : «**نُـوراً تَمْشُـونَ بِـهِ**» يعـني إماما تــأتمّون به [1] وهكــذا عن الصــادق (ع). وإنّ المهم ليس أن يتحـرّك الإنسـان أو يمشي ، إنّ المهم أن تكـون حركته في الطريق المستقيم نحو الأهداف الـتي خلق من أجلها ، وهو لا يصــير إلى ذلك إلّا بــالنور ، والله هو الــذي يجعله في قلبه (**يَهْـدِي اللــهُ لِنُــورِهِ مَنْ يَشــاءُ**) [2] ، والجعل إمّا يكون مباشرا عبر الوحي وإمّا غير مباشر عبر المقاييس والموازين التي يشخّص بها القائد للناس.

وحينما يضيف الإنسان إلى إيمانه التقوى واتباع القائد الصـالح فـإنّ ذلك سـيطهّر قلبه وسـلوكه من الانحرافـات والـذنوب ، فـالتقوى تخلص نيته وتدفعه للطاعة كما تجنّبه المعصــية ، والقيــادة تنــير له الــدرب ليشق طريقة على بصيرة وهدى.

(**وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

[29] التقــوى هي المقيــاس لا الاعتبــارات العرفية والعنصــرية والقومية والمادية أو غيرها لأنّها ســاقطة في الإسـلام ، وتبقى قيمة واحـدة هي التقـوى كما قـال الله : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْنـاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ**

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 252

(2) النور / 35

أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللـهِ أَتْقـاكُمْ إِنَّ اللـهَ عَلِيمٌ خَبِـيرٌ) [1] ، ويؤكد القرآن هذه القيمة في مئات المواضع ، كما يؤكّدها هنا مـرّتين : مـرّة بتعميم الخطـاب لكـلّ المؤمـنين ، دون اشـتراط صـفات واعتبـارات مادية ، ومـرّة عند ما يصـرّح بأن السبيل مشرعة إلى فضل الله للجميع.

(**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْـلُ الْكِتـابِ أَلَّا يَقْـدِرُونَ عَلى شَـيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ**)

في الآية وجهـان ، يكـون المعـنى على الوجه الأول : لكي لا يقنطـوا من روح الله وفضـله فيـبرّروا بـذلك عـدم إيمانهم بالرسـول (ص) والكتـاب الجديد ، أو يـبرّروا عـدم سـعيهم إلى الرحمة والفضل ، كلّا .. فـدعوة الله ووعـده للجميع.

أما على الوجه الثـاني فيكـون المعـنى : لكي لا يظن أهل الكتـاب (النصـارى واليهـود) أن الفضل حكر عليهم ، وأنّ المؤمنين المسلمين لا سبيل لهم إلى فضـله تعـالى ، كلّا ..

(**وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ**)

يبدو أنّ أهل الكتاب كانوا يعيشون عقدتين خطـيرتين : الأولى : أنّهم العنصر الأسـمى فالفضل لهم لا لغـيرهم ، الثانية : أنّهم لو آمنوا لا يتساوون في الفضل مع السابقين من المسلمين لأنّهم عرب وهم غرباء ، أو لأيّ سبب آخر.

وخاتمة الآية (وربما فاتحتها أيضا) تنفي كلتا العقـدتين ، لأنّ الفضل بيد الله فإنّه يؤتيه للمسلمين كما آتاه سـابقا لأهل الكتـاب عند ما آمنـوا برسـلهم ، ثمّ لأنّ الفضل بيد الله فإنّه لا يميّز بين عـربي وأعجمي ، وسـابق ولا حق ، ومـواطن وأجنـبي (حسب التعبـير الحـديث) ، وقرشي وحبشي ، فكلّ من آمن واتقى شمله الله

---

(1) الحجرات / 13

بفضله .. وبهذا نجمع بين وجهي التفسير الّذين ذكرناهما آنفا حول الآية.

(**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**)

الذي يتسع لكلّ إنسان سعى له سعيه ، فمن أراد منع غيره عنه ، أن تصوّر أنه لا يتسع له فإنّما يستصغر فضل ربّه ويستقلّه ، وهذا شأن النفوس المريضة بعقد الإحساس بالحقارة والدونية ، والمريضة بالعنصرية والحسد ، وهذا وذاك لا يمتّ إلى الإيمان بصلة. والآية تشبه إلى حدّ بعيد قوله تعالى : (**سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) [1] ، فربّنا يدعوا إلى التسابق بين المؤمنين ، لا إلى التوقف بسبب اليأس ، ولا إلى الصراع بسبب النظرة العنصرية. ولعلّ ما ورد في مورد نزول الآية يشير إلى بعض ما سبق ذكره ..

في مجمع البيان قال سعيد بن جبير : بعث رسول الله (ص) جعفرا في سبعين راكبا إلى النجاشي يدعوه ، فقدم عليه ودعاه ، فاستجاب له وآمن به ، فلمّا كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلا : ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به ، فقدموا مع جعفر ، فلمّا رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا وقالوا : يا نبيّ الله إنّ لنا أموالا ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها؟ فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين ، فأنزل الله تعالى فيهم : (**الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ**) إلى قوله :

(**وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**) فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين ، فلمّا سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله : (**أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا**) فخروا على المسلمين فقالوا : يا معشر المسلمين أمّا من آمن

---

(1) الحديد / 21

بكتابكم وكتابنا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا؟ فنزل : (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللـهَ وَآمِنُـوا بِرَسُـولِهِ**) ... الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ، ثم قـال :

(**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ**) ...

وقال الكلبي : كان هؤلاء أربعة وعشرين رجلا قـدموا من اليمن إلى رسـول الله (ص) وهو بمكّة ، لم يكونـوا يهـودا ولا نصـارى ، وكـانوا على دين الأنبيـاء ، فأسـلموا ، فقـال لهم أبو جهل : بئس القـوم أنتم والوفد لقـومكم ، فردّوا عليه : (**وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ**) ... الآية فجعل الله لهم ولمؤمـني أهل الكتـاب عبد الله بن سـلام وأصـحابه أجرين اثنين ، فجعلوا يفخـرون على أصـحاب رسـول الله (ص) ويقولـون : نحن أفضل منكم لنا أجـران ولكم أجر واحد ، فـنزل : (**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْـلُ الْكِتـابِ**) ... إلى آخر السورة. [1]

---

(1) مجمع البيان / ج 9 ص 244

سورة المجادلة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

في ثواب الأعمال للشيخ الصدوق (رض) بإسناده عن أبي عبد الله (عليه السـلام) أنه قـال : «**من قرأ سـورة الحديد والمجادلة في صـــلاة فريضة أدمنها لم يعذّبه الله حـتى يمـوت أبـدا ، ولا يـرى في نفسه ولا في أهله سوءا أبدا ، ولا خصاصة في بدنه**».

ثواب الأعمال وعقاب الأعمال / ص 145

الإطار العام

للنفس حـرم تنطـوي فيه وتتحصّـن داخله عن بصـائر الـوحي وضـياء العـبر والعظـات ، وما لم يخـرق الإنسـان بعـــــزائم اليقين حجب النفس إلى حرمها فإنّه لن يفلح. ولكن كيف يتم ذلك ، وبماذا؟

إنّما بمعرفة الرب ، وأنّه سميع بصير. إنّ وعي شهادة الله على كلّ شيء كفيلة بتنمية الوعي الديني في النفس ، هنا لك في تلك الأغـــوار الـــتي تنضج قراراتها وتتحـــدّد وجهتها ربما بعيدا عن وعي صاحبها ، هنا لك يصلح الإيمان ما تفسده وساوس الشيطان.

ولعـلّ في سـورة المجادلة نـورا نافـذا إلى ذلك البعد البـــاطن ، إلى ذلك الغـــور العميق ، إلى ذلك الحـــرم المستور في النفس البشرية ، وهذا الإطـار يجمع حسـبما يبدو لي بين محاور السورة الـتي تـتراءى بـادئ النظر أنّها متباينة. كيف ذلك؟

ألـف) في فاتحة الســورة وفي بداية الجــزء الثـامن والعشرين من الذكر الكريم يتلو علينا الرب كلمة الســمع ، فالله سمع قول التي جادلت الرسـول في قصة الظهـار واشتكت إلى الله ، وسمع تحاورها والرسول ، وإنّه سميع بصير.

ب) وبعد أن يسوق الذكر أحكام الظهار ويحدّد كفّارته يقول : «**ذلِـكَ لِتُؤْمِنُـوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ**» ممّا فسّـر بأنّه يعني تنمية روح الإيمان ، لأنّ المفروض أنّهم مؤمنون.

فـــإذا الحكمة من الكفّـــارة تنمية روح الإيمـــان في النفس ، على أنّ الظهار يتم في العلاقة الزوجية التي هي من الأمور الشخصية والمستورة عادة ، وأنّه موقف خاص لا يمكن ضبطه إلّا بالإيمان وبروح التقـوى ، كما أنّ كفّارته كبيرة ، والدافع الجنسي الذي يقف الظهـار دونه متصـاعد ، وضــمن هــذه الظــروف لا ينظّم العلاقة ســوى الــوازع النفسي الــذي تصــنعه معرفة الإنســان بربّه وبأنّه ســميع بصير.

ج) وبعد أن ينذر السياق الـذين يتجـاوزون حـدود الله (ومنها أحكـام الشـريعة في الظهـار) يـذكّرنا بيـوم البعث حيث ينبّئ الله الكافرين بما عملـوا ، ويـبيّن أنّه قد أحصى ما لم يحفظــوه وأنّه شـاهد على كـلّ شـيء. وكـلّ هـذه البصـــائر تنمّي روح التقـــوى في النفس ليس في أبعادها الخارجية بل في حرمها المستور.

د) وعــبر أربع آيــات بينـات يعـالج الـذكر موضــوعة النجـوى الـتي تتصل بتنمية الـوعي الإيمـاني في النفس ، ومؤكّدا ـ أوّلا ـ أنّ الله سبحانه حاضر عند كل نجوى ، فما من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ، ولا خمسة إلّا هو سادسـهم ، ثمّ ينذر الذين يتناجون بالإثم والعدوان ، ويتحدّون عـذاب الله ، ويكفـرون بالنـذر قـائلين : لمـاذا لا يعـذّبنا الله بعد التنـاجي؟ حسـبهم جهنّم ، ويرسم القـرآن حـدود النجـوى المسموح بها .. عند ما يتمّ التناجي بالبر والتقوى ، وينفي أي أثر لتناجي الكفّار ، ويأمر المؤمنين بالتوكّل على الله.

ومن الواضح : أنّ التقــوى هي وحــدها الــتي تضــبط النجـــوى من الانحـــراف في الإثم والعـــدوان ومعصـــية الرسول ، وبما أنّ هدف تناجي الكفّار التعـالي يوصي ربّنا المؤمـــنين بالتواضع لبعضـــهم بالتفسح في المجـــالس ، وتركها إذا أمـــروا بها ، ويـــبيّن أنّ الله هو الـــذي يرفع المؤمنين وأهل العلم درجات (بدرجات إيمانهم وعلمهم) ، وأنّه ليس انتخاب المجـالس القريبة من القيـادة أو طـول المكث عنـــدها ســـبب التعـــالي كما يحسب الكفّـــار والمنافقون.

ويأمر المؤمـنين بإيتـاء الصـدقة قبل تنـاجي الرسـول (لكي لا يتسابقوا إلى ذلك طلبا للفخـر) ، ثم يتـوب عليهم رعاية لهم لأنّهم أشفقوا عن تقديم الصدقات.

ه) ويعالج السياق بعدئذ موضوعة الـبراءة من الكفّـار التي تتصل أيضا بالوعي الإيماني ، وينذر المنافقين الــذين يتولّـونهم واقعا ، ثم يتخــذون أيمــانهم جنّة حيث يحلفــون على الكــذب أنّهم مؤمنــون حقا (كــلّ ذلك طلبا للثــورة والقوّة ، ولا يعلمون أنّهما لا تنفعانهم شيئا).

ويبيّن القرآن أنّ الأمــوال والأولاد لا تنفع يــوم القيامة حيث يبعثهم الله ليحاسـبهم فـإذا بهم يحلفـون له عبثا كما يحلفون للمؤمنين في الدنيا.

و) وما يفــــرّق بين المـــــؤمن والمنــــافق ليس تلك المظــاهر (مناجــاة الرســول ، والتقــرّب المكــاني منه ، والتأكيد على صـدق الإيمـان بـالحلف الكـاذب) ، إنّما هي تلك الحقــائق (التحسّــس بشــهادة الله ، والكفّــارة عند الظهار ، ومراعـاة حـدود الله وأحكامه ، والتواضع لأوليـاء الله ، والــــبراءة من أعــــداء اللــــه) ، وبها يتميّز حــــزب الشـــيطان عن حـــزب الله فـــإنّ حـــزب الشـــيطان هم الخاسـرون ، وهم الـذين يتجـاوزون حـدود الله (ويتولّـون أعــــداء اللــــه) ، ولقد كتب الله بغلبة رســــله ، وأكّد أنّ المؤمنين حقّا لا يتولّـون من حـادّ الله حـتى ولو كـانوا من ذوي قرباهم ، لأنّ الله قد ثبّت

قلوبهم على الإيمان ، وأيّدهم بروح منه ، وأعدّ لهم جنّـات خالدين فيها ، وقد رضي عنهم ورضوا عنه ، واعتبرهم من حزبه. (**أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**).

سورة المجادلة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(قَـدْ سَـمِعَ اللـهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجادِلُـكَ فِي زَوْجِها وَتَشْـتَكِي إِلَى اللـهِ وَاللـهُ يَسْـمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَـهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظـاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسـائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُـونَ مُنْكَـراً مِنَ الْقَـوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللـهَ لَعَفُـوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُـودُونَ لِما قـالُوا فَتَحْرِيـرُ رَقَبَـةٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَتَمَاسَّـا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتـابِعَيْنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَتَمَاسَّـا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ

وَلِلْكـافِرِينَ عَـذابٌ أَلِيمٌ (4) إِنَّ الَّذِينَ يُحَـادُّونَ اللـهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَـدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَـذابٌ مُهِينٌ (5) يَـوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُـوا أَحْصـاهُ اللـهُ وَنَسُـوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

---

5 [كبتوا] : أي أذلّهم الله وأخزاهم ، والكبت : القهر والإذلال.

وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً

هدى من الآيات :

في قضـية عائلية كالظهـار ، وعند تحـاور خـاص بين الرسول وواحـدة من المسـلمات بشـأن مشـكلتها هـذه ، ينزل الله قرآنـا. أيّ شـهادة أكـبر من شـهادة الـربّ على الحوادث الواقعة ، أم أيّ حضور فاعل للوحي في يوميّات الأمة! بلى. إنّ الله يسمع تحاورهما.

ولقد كـانت العـرب تـرى أنّ الرجل إذا قـال لزوجته : (أنت عليّ كظهر أمّي) حـرمت عليه أبـدا ، وكـان ينطـوي هــذا الحكم على ظلم كبــير للمــرأة الــتي لا تعاشر آنئذ معاشرة الأزواج ، ولا تسرّح للتزوّج من رجل آخر.

لقد كــان الظهــار من العــادات الجاهلية الــتي فتّت الكثير من الأسر قبل بزوغ نـور الإسـلام ، وقد تعـود عليها المجتمع ، وبقي إيمــان الكثــير بها إلى ما بعد إســلامهم ، وحيث أراد الله لرسالته أن تكـون بـديلا عن الجاهلية فقد نزل الوحي يدافع عن الأسرة باعتبارها إذا صلحت وقويت كانت أساس بناء المجتمع والحضارة ، ومن

هذا المنطلق حارب القرآن فكرة الظهار ، واعتبرها منكرا وقـولا زورا ، لا يـبرّرهم شـرع الله ولا الواقع ، فـإنّ قـول الرجل لزوجته : أنت عليّ كظهر أمّي لا يصــيّرها أمّا له : «**إِنْ أُمَّهــاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَــدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُــونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَـوْلِ وَزُوراً**» ، يشـبه ولكن بصـورة أعظم خطـرا عند الله وفي واقع المجتمع فكـرة الأدعيـاء الـتي عالجها الذكر الحكيم في سورة الأحزاب. [1]

وفي الوقت الذي تسفّه سورة المجادلة فكرة الظهار كما يتصـوّرها الجـاهليّون من المسـلمين ، بأنّها لـون من الطلاق الـدائم الـذي لا تصح بعــده الرجعة ، تؤكّد هــذه السـورة بـأنّ الرجعة ممكنة حفاظا على كيـان الأسـرة والمجتمع ورعاية لعواطف الإنسان ، ولكنّها تفرض كفّـارة عليه قبلها (تحرير رقبة ، أو صــيام شــهرين ، أو إطعــام ستين مسكينا) ، وذلك يعني أنّ الإسلام يعتبر الظهار أمرا مشروعا ، إنّما أراد بـذلك الوقـوف أمـام تـأثّر المسـلمين بالجاهلية من جهة ، ودفعهم من جهة أخـــــــرى إلى أخذ شرائعهم وثقافتهم من مصدرها الصحيح والأصيل ، «**ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ وَتِلْـكَ حُـدُودُ اللـهِ**» ، وما دون ذلك فهو صـنيع الجاهلية الضـالة الكـافرة ، والـذي ينبغي الاسـتغفار منه ، لأنّ الإيمـان والعمل به يسـتوجب غضب الله وعذابه ، «**وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ**».

بينات من الآيات :

[1] نــزلت الآيــات في امــرأة من الأنصــار ثم من الخـزرج واسـمها خولة بنت خويلد عن ابن عبّـاس ، وقيل خولة بنت ثعلبة عن قتـــــــادة ومقاتل ، وزوجها أوس بن الصــامت ، وذلك أنّها كـانت حسـنة الجسم فرآها زوجها ســاجدة في صــلاتها فلمّا انصــرفت أرادها فــأبت عليه فغضب عليها ، وكان امرءا فيه سرعة ولمم ، فقال لها :

---

(1) لقد مر تفسير ذلك في تفسير السورة فراجع

أنت عليّ كظهر أمّي ، ثم ندم على ما قال وكـان الظهـار من طلاق أهل الجاهلية فقـــــــال لها : ما أظنك إلّا وقد حـــرمت عليّ ، فقــالت : لا تقل ذلك ، وأت رســول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فأسـأله فقـال : إنّي أجد أنّي أستحي منه أن أسأله عن هـذا ، قـالت : فـدعني أسـأله؟ فقال : سليه ، فـأتت النبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) وعائشة تغسل شـقّ رأسه ، فقــالت : يا رســول الله انّ زوجي أوس بن الصــامت تزوّجــني وأنا شــابة غانية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شـبابي وتفـرّق أهلي وكــبرت ســنّي ظــاهر مــني ، وقد نــدم فهل من شــيء يحبسني وإيّاه فتنعشـني بـه؟ فقـال (صـلّى الله عليه وآله وســلم) : ما أراك إلّا حـرمت عليه ، فقــالت : يا رســول اللــه! والــذي أنـزل عليك الكتـاب ما ذكر طلاقا ، وإنّه أبو ولدي وأحبّ الناس إليّ ، فقال (صلّى الله عليه وآله) : ما أراك إلّا حـــرمت عليه ، ولم أؤمر في شـــأنك بشـــيء ، فجعلت تراجع رسـول الله (صــلّى الله عليه وآلــه) ، وإذا قـال لها رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) حـرمت عليه هتفت وقــالت : أشــكو إلى الله فــاقتي وحــاجتي وشــدّة حــالي. اللهمّ فــانزل على لســان نبيــك. وكــان هــذا أوّل الظهــار في الإسـلام ، فقـامت عائشة تغسل شـقّ رأسه الآخر ، فقالت : أنظر في أمري جعلني الله فـداك يا نـبيّ الله ، فقالت عائشة : اقصري حديثك ومجادلتك أما تـرين وجه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) ، وكان (صـلّى الله عليه وآله) إذا نزل عليه الوحي أخـذه مثل السـبات ، فلمّا قضي الــوحي قــال : ادع زوجك ، فتلا عليه رســول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) : «**قَـدْ سَـمِعَ اللـهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجادِلُــكَ فِي زَوْجِها**» ... إلى تمــام الآيــات» ، قــالت عائشة : تبــارك الــذي وسع ســمعه الأصــوات كلّهــا. إنّ المرأة لتحاور رسول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله : «**قَدْ سَمِعَ ..**.» ، فلّما تلا عليه هذه الآيات قال له : هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ قـال : إذا يـذهب مـالي كلّه ، والرقبة غالية وإني قليل المال ، فقال : فهل تســتطيع أن تصوم شهرين متتـابعين؟ فقـال : والله يا رسـول الله إنّي إذا لم آكل ثلاث مرّات كلّ

بصري ، وخشـيت أن تعشى عيـني ، قـال : فهل تسـتطيع أن تطعم ستين مسكينا؟ قال : لا والله إلّا أن تعينني على ذلك يا رســـول الله ، فقـــال : إنّي معينك بخمسة عشر صــاعا ، وأنا داع لك بالبركة ، فأعانه رســول الله (صــلّى الله عليه وآله وسلم) بخمسة عشر صاعا فـدعا له البركة فاجتمع لهما أمرهما. [1]

وحينما نتــدبّر آيــات الــدرس على ضــوء هــذا النص التــاريخي نســتوحي بصـيرتين : الأولى : أنّ هـذه الحادثة جعلت مناسـبة لـنزول الـوحي ليكـون أبلغ أثـرا ، وهكـذا الكثير من الأحداث التي تـزامنت ونـزول آيـات من الـذكر الحكيم. الثانية : حضور الوحي عند قضايا الأمّة ومشـاكلها ، فليس الـوحي أفكـارا مثالية ، إنّما كـان حاضـرا مع كـلّ حـدث ، وشـاهدا على كـلّ قضـية ، مما جعله قطب رحى الأمّة وأساس بناء حضارتها.

فلا غرابة أن تــرتجي خولة حلّا لمعضــلتها عند النــبي (صلّى الله عليه وآله) ، بل وتحاوره إلى حدّ الجدال ، لأنّها كـأيّ مسـلم وأيّة مسـلمة تـرى في القـرآن وعند القيـادة الربانية حلّا لكلّ مشكلة ، وجوابا لكلّ تساؤل. ولا ريب أنّ هــــذه العلاقة الوثيقة بين الأمّة وكتابها وقيادتها أولــــدت حضــارة الإيمــان الــتي لا زالت في مثلها وقيمها كما في واقعها مثلا وأسوة للبشرية.

إنّ خولة ألحّت على الرســول (صــلّى الله عليه وآله وسلم) وراجعته في الجدال مرّات ومرّات ، ولكنّه ما كان ليستصــدر حكما من عند نفسه متــأثرا لحالها ، وما كــان يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه ، مما يؤكّد أنّه مرسل من قبل الله ، لا ينطق عن الهـــــوى ولا عن عقل البشــر. وإنّه لمن صـفات القيـادة الرسـالية انطلاقها في أحكامها ومواقفها ورؤاها من الرســــــــالة ، وليس عيبا السكوت ، إنّما العيب أن يحكم

---

(1) مجمع البيان ج 9 ص 246

الإنسـان على أسـاس الهـوى والجهل ، أو أن يتقـوّل على الله ، فهذا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسـلم) على عظمته يجيب المـرأة : «ولم أؤمر في شـأنك بشـيء» ، حتى نزل قوله تعالى في شأن الظهار.

(**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها**)

أي في شأنه وأمره ، تريده يرجع إليها.

(**وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ**)

وتكشف مجادلتها وشـكواها عن الأثر العميق للحادثة في نفسـها ، لأن الظهـار في عـرف الجاهلية ينهي كيـان الأسـرة إلى الأبـد. إنّها حقا صـورة من الغيّ والضـلال تعكس مأساة الإنسان في ظلّ الجاهلية.

بلى. إنّ الأمر قضّ مضجع هذه المرأة الضـعيفة ، وما فتأت تعـاود رسـول الله في أمرها ، لعلّها تجد بلسـما في دين الله ، وعند رسـول الرحمـة. وإنّ قلبها ليحـدّثها بأنّه تعالى أسـمى من أن يعطي لهـذه العـادات شـرعية ، ممّا يدفعها للحوار مع النبي المرّة بعد الأخرى دون يأس. وكلّ ذلك بظـاهره وباطنه وبـدقائق تفاصـيله لم يكن ليخفى على الله.

(**وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما**)

إنّه شاهد ناظر ، لا حاجب يمنعه ، ولا ستر يستر عنه. إنّهما الآن واقفان في زاوية البيت يتحـاوران ، تقـول هـذه المرأة المجادلة لرسول الله ـ حسب بعض النصوص ـ : يا رسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية ، وإنّ زوجي ظاهر مني ، فقال لها : ما أوحي إليّ في هذا شيء ، فقالت : يا رسول الله أوحي إليك في كلّ

شيء وطوي عنك هذا؟ فقال : هو ما قلت لك.

هذا رسول الرحمة ، هذا مركز العطف وينبوع الحنان ، هـذا صـاحب الخلق العظيم ، ولكنّ الله أرحم الـرّاحمين وأعظم عطفا وحنانا فلا يجوز أن نرى أحدا أقرب إلينا منه ولا أرحم ، حـتى ولو كـان الشـفيع الحـبيب محمّد بن عبد الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) على أنّه السـبيل إلى الله ، وأقرب الوسائل إليه ، وأقرب الشفعاء.

إنّ الله سـمع تحاورهما ، فلما ذا لا نراقبه في سرائرنا ، ولماذا نخوض في أحاديثنا مع الخائضـين؟ لمـاذا لا نجـأر إليه عند الشـدائد ، أو ليس ربّنا نعم الـربّ لنا ، فلما ذا لا نصـبح نعم العبيد لـه؟! يقـول الإمـام الحسـين (عليه السلام) في دعائه المعروف :

«**وإلى غيرك فلا تكلـني. إلهي إلى من تكلـني؟ إلى قريب فيقطعني أم إلى بعيد فيتجهّمني أم إلى المستضعفين لي ، وأنت ربّي ومليك أمـري ، أشـكو إليك غربـتي ، وبعد داري ، وهـواني على من ملّكته أمري**» [1]

(**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ**)

يحيط بظاهر الكلام.

(**بَصِيرٌ**)

ينفذ علمه بما تنطوي عليه السرائر.

والآية تعكس صـورة عن مكانة المـرأة في الإسـلام ، وأنّها مع الرجل على حد واحد في علاقتها مع قيادتها الرسالية ، تجادلها في حقوقها ، وتشتكي عند المشاكل

---

(1) المنتخب الحسيني / ص 916

لديها ، وتحاورها في مختلف القضايا والمواضـيع ، تسـتمع القــول وتبــدي الــرأي ، باعتبارها مكلّفا له حقوقه وعليه واجباته الشخصية ، بل باعتبارها جزءا من الأمّة يهمّها أمر الإسـلام والمسـلمين ، وينعكس عليها التقـدم والتخلف ، والنصر والانكسار ، فهذا الرسول القائد لا يصـدّ خولة عن التصـدي لموضـوع الظهـار لأنّها امـرأة ، إنّما يسـتقبلها بصـدره الـرحب رغم إلحاحها ، وهي تـروم الوقـوف بوجه مشـكلة تهمّ كـلّ مسـلم ومسـلمة ، وتتصل بالنظـام الاجتمـاعي للأسـرة. وقد تعـوّدت هـذه المـرأة على هـذه الخصـلة ، كما تعـودت سـائر النسـاء والرجـال في العهد الأول ، على ممارسة حـريتهم في مواجهة ما كـانوا يرونه خطأ ، فقد روي أنّ عمر بن الخطـــاب مر بها في خلافته والنـاس معه على حمـار ، فاسـتوقفته طـويلا ووعظته ، وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عمـيرا ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمـير المؤمـنين ، فـاتق الله يا عمر فإنّه من أيقن بـالموت خـاف الفـوت ، ومن أيقن بالحسـاب خـاف العذاب. [1]

[2] ويعالج القـرآن مشـكلة الظهـار في البـدء بنسف التصورات الجاهلية بـأنّ الزوجة تصـبح أمّا لزوجها بمجـرد أن يقول لها (أنت عليّ كظهر أمّي) ، وذلك من زاويتين :

الأولى : الزاوية الواقعية ، فالأمومة ليست صـــــفة اعتبارية يمكن إعطاؤها بــالكلام كما العقــود. إنّها ليست كالمال يكون لك فتملّكه غيرك هبة أو بيعا أو وراثة ليصـير ماله ، إنّما هي صـــفة تكوينية طبيعية يعبّر بها عن علاقة شخصين أحدهما والدة والآخر مولود.

(**الَّذِينَ يُظـــاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِســـائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ**

(1) القرطبي / ج 17 ص 249

الثانية : الزاوية الشرعية ، فالشرع قائم على أساس الواقعيات ، وإنّما يحرّم زواج الرجل من أمّة الحقيقية ، وليس الزوجة كذلك ، فهي لا تحرم على زوجها لمجرّد الظهار ، لذلك يسفّه ربّنا رأي الجاهليين بأنّه غير مقبول عند العقل وأنّه باطل فيقول :

(**وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ**)

والمنكر خلافا للمعروف الذي يعرفه العقل.

(**وَزُوراً**)

والزور هو القول الباطل والحكم الذي لا يستند إلى حقّ ولا واقع ، قال الله :

(**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**) [1] أي الشهادة الكاذبة.

(**وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**)

يعفو عن المنكر ويغفر الزور لمن تاب وعمل بالإسلام بعد الجاهلية ، فإنّه يجبّ ما قبله ، إذا فالظهار ليس كما يظنّ الجاهلون لا رجعة بعده ، بلى. ذلك في الجاهلية المقيتة التي لا تقوم إلّا على الباطل ، ولا تنتهي إلّا إلى تكبيل الإنسان وتحطيمه ، أمّا دين الله فهو يقوم على الحق ولا يستهدف إلّا خيره ورحمته وهداه.

وإذا كانت هاتان الصفتان لله تزرع فينا الأمل والرجاء فإنّ نزولهما يومئذ لا ريب أخذ فعله الإيجابي الواسع والعميق في نفوس الكثير وحياتهم الاجتماعية والأسرية ، حيث وضع عنهم الإسلام إصرا وغلا من إصر الجاهلية وأغلالها ، طالما ظلّوا في ربقته يشتكون الدمار والأسر ، وبالذات أولئك النساء الضعيفات اللواتي

(1) الفرقان / 72

تعلّقن وتعقّدن بالظهار ، فالرجل من جهته مجاز في الزواج لا يمنعه مانع ، أمّا هي فيكتب عليها بأن تبقى لا تتزوّج أحدا غيره ، وتعيش في جحيم.

ولعلّنا نفهم من الآية أنّ للظهار مفسدتين : أحدهما ما يسمّيه القرآن بالمنكر ، والآخرة ما يسمّيه بالزور ، فهو من الجهة العملية إثم يهدم الأسرة ، وظلم للنفس وللمرأة وأولادها ، ومن الجهة المعنوية يعدّ افتراء على الله وزورا إذ هو تشريع بغير حجة من الله.

[3] والآن : ما هو الظهار ، وما هو الحل؟

الظهار هو أن يقول الزوج لزوجته أنت عليّ كظهر أمّي يقصد بذلك الظهار ، ولا يقع إلّا إذا توافرت شروط أهمها من جهة المظاهر أن يكون بالغا عاقلا مختارا قاصدا ، فلا يقع من مجنون ، ولا صبي ، ولا سكران ، ولا هازل ، ولا غضبان ، ومن جهة الزوجة المظاهر منها الطهر من الحيض والنفاس ، وأن تكون في طهر لم يواقعها فيه ، وبحضور شاهدين عادلين يسمعان الصيغة [1] ، هكذا جاء في الحديث المأثور عن حمران عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : «لا يكون ظهار في يمين ، ولا في إضرار ، ولا في غضب ، ولا يكون ظهار إلّا في طهر من غير جماع بشهادة شاهدين مسلمين» [2] وروي عن زرارة عنه (عليه السلام) في حديث أنّه سأله : كيف الظهار؟ فقال : «يقول الرجل لامرأته وهي طاهر من غير جماع : أنت عليّ حرام مثل ظهر أمّي ، وهو يريد بذلك الظهار» [3] وعن زرارة عنه (عليه السلام) قال : «**لا طلاق إلّا ما أريد به الطلاق ، ولا ظهار إلّا ما أريد به الظهار**» [4]

---

(1) راجع شرائع الإسلام كتاب الظهار

(2) وسائل / ج 15 ص 509

(3) المصدر

(4) المصدر / ص 510 وهناك شروط مفصل مذكورة في كتب الفقه الاستدلالية فراجع

وهذا التشـدّد من قبل الإسـلام بهـذه الشـروط يجعل الظهـار الشـرعي نـادرا ، وإن دلّ ذلك على شـيء فإنّما يؤكّد حـرص الإسـلام على سـلامة الأسـرة فهو يسـعى لتأليف أفرادها وربطهم إلى بعضهم ، لكي تستطيع القيام بدورها الحضـاري في البنـاء والتقـدم ، كما ويضع الإسـلام حلّا تشـريعيّا وعمليّا ناجعا لمشـكلة الظهـار ، فمن جهة لا يعطيه شـرعية الجاهلية (الحرمة والتعليق إلى الأبـد) ، ولا يعدّه واقعا إلّا إذا استكمل شروطه الشرعية الآنفة الـذكر ، فبإمكـان المظـاهر أن يعيد النظر في قـراره ويعـود إلى زوجته لو أراد. ثم يضع العقوبـات الواعظة بما فيه الكفاية عن أن يتـورّط الإنسـان المـؤمن فيه ، وإذا تـورّط فيه لا يعود إليه مرّة أخرى ويكون موعظة لغيره.

(**الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ**)

ظهارا مشروعا فـإنّ ذلك لا يقطع كـلّ الوشـائج وإلى الأبد ، وإنّما يـؤثّر عمليّا في العلاقة الجنسـية المباشـرة ، وبتعبـير الروايـات يمنع الوطأ (التمـاس) إلى أداء الكفّـارة وتذوّق العقوبة الشرعية ، حتى أنّ أكثر الفقهاء جـوّزوا ما دون الوطء كالقبلة وسائر أنـواع المـزاح ، فهو أقـلّ حـتى من الطلاق لأنّ المـرأة لا تـبين من زوجها به وحـده ولا تعتـد. وهـذا الموقف من الإسـلام يسـهّل الحـلّ ويهـوّن المشكلة بخلاف الحكم الجاهلي في الموضوع [1].

والمظـاهر على الخيـار بين قطع العلاقة بـالطلاق المشروع وبين العودة إلى زوجته ، وللحـاكم الشـرعي أن يضـيّق عليه حـتى يختـار أحـدهما لو رفعت المظـاهر منها أمرها إليه بهدف منعه من التعليق [2].

والقـرآن في هـذا الموضـوع لا يـذكر الخيـار الأوّل (الطلاق) ، وإنّما قال :

---

(1) راجع وسائل الفقهاء عند الموضوع

(2) شرائع الإسلام

(**ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا**)

يعني يعودون إلى الزواج الذي قالوه في صـيغة العقد أو يعودون إلى الظهـار بقصد نقضه وعلاجه ، وسـواء هـذا أو ذاك فإنّ المعنى واحد ، وهو إرادة الوطأ الـذي حرمـوه على أنفسهم بالظهار. ولكن يبقى سؤال : كيف اسـتفادوا هذا المعنى من هذه الكلمة؟

أجـــاب القرطـــبي على الاحتمـــال الأوّل بما يلي : وتحقيق هذا القول أنّ العزم قول نفسي ، وهذا رجل قال قـــولا اقتضى التحليل وهو النكـــاح وقـــال قـــولا اقتضى التحـريم وهو الظهـار ، ثم عـاد لما قـال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقده لأنّ العقد بـاق فلم يبق إلّا أنّه قـــول عـــزم يخـــالف ما اعتقـــده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله : أنت عليّ كظهر أمّي ، وإذا كان كذلك كفّر وعاد إلى أهله. [1]

أمّا الاحتمال الثـاني الـذي اختـاره الفخر الـرازي فقد مهّد له أوّلا بما حكـاه عن الفـرّاء أنّه قـال : لا فـرق في اللغة بين أن يقـال : يعـودون لما قـالوا ، وإلى ما قـالوا وفيما قـــالوا ، قـــال أبو علي الفارسي : كلمة إلى واللام يتعاقبان كقوله : «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا**» ، وقال : «**فَاهْــدُوهُمْ إِلى صِــراطِ الْجَحِيمِ**» ، وقـــال تعـــالى : «**وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ**» ، وقال : «**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها**».

ثم قـال : قـال أهل اللغة : يجـوز أن يقـال : عـاد لما فعل ، أي فعله مرّة أخرى ، ويجوز أن يقـال عـاد لما فعل ، أي نقض ما فعـل. وهـذا الكلام معقـول ، لأنّ من فعل شـيئا ثم أراد أن يفعل مثله فقد عـاد إلى تلك الماهية لا محالة أيضا ، وأيضا من فعل شيئا ثم أراد إبطاله فقد عـاد إليه لأنّ التصرّف في الشـيء بالإعـدام لا يمكن إلّا بـالعود اليه. [2]

---

(1) تفسير القرطبي / ج 17 ص 281

(2) الرازي / ج 29 ص 209

(**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا**)

ولعلّ الذكر أعرض عن ذكر خيـار الطلاق تأكيـدا على ترجيح العودة ، ممّا يدخل في سياق الحفاظ على الأسرة ، ولا تجوز العودة إلى المعاشرة الجنسية إلّا بعد التكفير ، وهذا الشرط يذيق الإنسان جزاء اللجوء إلى عادة الظهار.

ومن حكمة الله ودقة تشـريعه أنه فـرض كفّـارة في علاج مشكلة الظهار ، هي بحدّ ذاتها علاج لمشـكلة أخـرى هي الرقيق أو المســكنة ، إذ أوجب كحكم أوّلي مقــدّم على غــيره أن يكفّر المظــاهر عن نفسه بتحرير رقبة مملوكة قبل أن يجـامع زوجته ، وهـذا الأمر يوجّه الشـهوة الجنسية كدافع قوي للإنسـان نحو فعل الخـيرات. ويلاحظ في الإسـلام اهتمامه بعلاج مشـكلة الـرق في كثـير من المواضـيع والأحكـام بصـورة الفـرض تـارة وباعتبـار ذلك الخيار الأقوم تارة أخرى.

ولعلّ قائلا يقول : ولمـاذا يفـرض هـذا العقوبة الثقيلة جــزاء لموقف يتلخّص في كلمـــات قليلة (هي صــيغة الظهار)؟ ولكن لنعلم أنّ العلاقة الزوجية ليست أمـرا هيّنا ، إنّما هي مهمّة ويجب أن يحيطها الإسلام بسور لا تخرقه الأهـــواء والـــنزوات العاجلة ، فهي مرتكز المجتمع ، ومدرسة الأجيـال الناشـئة ، كما وأنّ التجربة الحضـارية للأمّة تـتركّز فيها ، فلا يجــوز إذا الاعتـــداء على حرمتها وهدمها من أجل الشهوات والانفعالات العابرة.

(**ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ**)

إنّه رادع عملي للوقــوف ضد تهديد كيـان الأســرة ، والتوسّــل بالعــادات والقيم الجاهلية ، أمّا الــرادع الأهم والذي ينمّيه الدين في نفوس أتباعه ، ويعتمده في النظام الاجتمـــاعي والسياسي والاقتصـــادي ، فهو تقـــوى الله وخشيته ، الذي يتأسّس على

الإيمان به ، والإحســاس النفسي برقابته الدائمة والدقيقة لأعمالنا.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

يعــني ليس يعلم الظــاهر فقط ، وإنّما يعلم البــاطن أيضا ، كالنوايا والدوافع الخفية للإنســان ، وكثـيرا ما تـأتي الإشارة إلى رقابة الله بعد بيان حد ، أو قـانون ، أو نظـام لمنع أيّ محاولة للالتفاف عليه والتملّص من المســؤولية ، فــإنّ الإنســـان مهما اســتطاع ذلك في مقابل الآخـــرين (المجتمع ، والحاكم الشرعي) فإنّه لن يجد إلى ذلك سبيلا أمام الله ، لأنّه أخبر به حتى من نفسه.

ومن الجــدير ذكــره هنا أنّ الكفّــارة تســقط لو أراد الطلاق بعد الظهار ، ولعـلّ البعض يصـطنع طلاقا للتهـرّب من الكفّـــــارة المفروضة عليه ثمّ يعـــــود ، إلّا أنّ ذلك لا يسقطها عنه في هذه الحالة ، ويحذّر الله أحدا أن يتوسّـل بــذلك للاحتيــال على شــريعته. عن يزيد الكناسي قــال : «ســـــألت أبا جعفر (ع) عن رجل ظـــــاهر من امرأته ثم طلّقها تطليقة ، فقــــــــال : إذا طلّقها تطليقة فقد بطل الظهار ، وهـدم الطلاق الظهـار ، قلت : فله أن يراجعهـا؟ قــال : نعم هي امرأته ، فــإن راجعها وجب عليه ما يجب على المظاهر من قبل أن يتماسّا» [1]

بلى. إذا طلّقها عن صدق ، أو تزوّجت غيره بعد العدّة ثم طلّقها الغير ، فله الرجـوع إليها من دون كفّـارة ، حيث انتفى قصد الاحتيال. قال الإمام الصـادق (ع) : «**إن كـان إنّما طلّقها لإســــــقاط الكفّـــــــارة عنه ثم راجعها فالكفّارة لازمة له أبدا إذا عاود المجامعة ، وإن كان طلّقها وهو لا ينـــوي شـــيئا من ذلك فلا بـــأس أن يراجع ولا كفّارة عليه**» [2]

(1) الوسائل / ج 5 ص 518 نقلها الكافي في فروعه / ج 2 ص 192 ، ومن لا يحضره الفقيه / ج 2 ص 173 وتهذيب الأحكام / ج 2 ص 254

(2) المصدر / ص 519 نقلها الكافي في فروعه / ج 2 ص 2

وقد نستلهم من الآية بصيرة أخرى : أنّ الله خبير بالتشريع المناسب لهذه الظاهرة ، فهو حينما عالج الظهار فرض تحرير رقبة للكفّارة فإنّ ذلك كان مناسبا لحلّ المشكلة ، إذ أنّه الخبير الذي يعلم بمدى خطر الظهار الذي يهدم كيان الأسرة ويفككها ، وما يؤدّي إليه من المفاسد الفردية والاجتماعية والحضارية ، والمرأة الأنصارية (خولة) قد أشارت إلى جانب من تلك المفاسد إذ قالت بحضرة الرسول (ص) : «وإنّ لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا» [1] ، فالأب عنده القدرة المالية لقوتهم ولكنّه يفقد القدرة الكافية لتربيتهم ، والأمّ بالعكس.

وهناك ملاحظة نجدها في الآية وهي : إنّ الله لم يجعل لظهار المرأة أيّ اعتبار ، إنّما جعلها مظاهر منها ، وقال «الذين» يعني الرجال ، لأنّها أقرب إلى الانفعال ، وأسرع تأثّرا بعامل العاطفة. عن السكوني قال أمير المؤمنين (ع) : «إذا قالت المرأة زوجي عليّ كظهر أمّي فلا كفّارة عليهما» [2] ، وهذه الرواية تؤكّد بالإضافة إلى ظاهر الآية أنّ ما يترتب على الظهار (الكفّارة ، والامتناع عن الجماع إلّا بعدها) مجرّد عقوبة يقرّها الشرع ، وليس من باب الاعتراف بهذه العادة.

[4] (**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ**)

رقبة يعتقها ، إمّا لعدم وجدان ثمنها أو لعدم وجودها أساسا ..

(**فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ**)

متصلين لا ينقطعان إلّا بسبب مشروع ، ولو انقطعا يوما واحدا وجب عليه تجديد

---

(1) التفسير الكبير / ج 29 ص 249

(2) الوسائل / ج 5 ص 534

الصوم كلّه ، حتى يتبع الشهر الثاني بالأوّل ولو ليـوم واحد [1] ، وتبقى العقوبة النفسـية الجنسـية قائمة بحـدودها وشروطها.

(**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا**)

ولو اخترق هـذا الحد فإنّه تجب عليه كفّـارة الظهـار ، وكفّارة الخرق ، فعن زرارة ، وغير واحد ، عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله الصادق (ع) أنّه قال : «**إذا واقع المرة الثانية قبل أن يكفّر فعليه كفّارة أخرى ، وليس في هذا اختلاف**» [2]

وتتوجّه كفّـارة الصـوم لشـهرين متتـابعين إلى تربية نفس المظـاهر وعقابه من زاوية نفسـية ، لا مالية كما هو الحـال في كفّـارة العتق ، وكـلّ ذلك ليفـرض الله حرمة الأسـرة على عبـاده ، ويعـرّفهم قيمة شـريكة حيـاتهم وحرمتها.

(**فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ**)

الصيام لسبب وعذر مشروع.

(**فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً**)

وهنـــاك علاقة وثيقة وعميقة بين الصـــيام شـــهرين متتابعين (60 يوما) وإطعام ستين مسـكينا ، فهنـاك جـوع وهناك إشباع ، وأهمّ أهداف الصـوم أنّه يحسّـس الإنسـان المؤمن بالمعوزين والمحتاجين والجــوعى من حوله عمليّا ، فـــإن لم يســـتطع مواســـاتهم بجوعه مثلهم بالصـــيام فليواسهم بإشباعهم مثله بالإطعام ، إزاء كلّ يوم مسكينا

---

(1) شرائع الإسلام

(2) المصدر / ص 256

يطعمه على المائدة ، أو يعطيه مـدّا من الطعـام يتصـرّف فيه.

وإذا كان ظاهر الأمر في هذه الكفّارات أنّها تستهدف ردع الإنسـان عمليّا عن التـورّط في الظهـار ، وتحصـين الأســـرة عنه ، وتحســـيس كـــلّ واحد بقيمتها عند الله وضرورة المحافظة عليها ، فـإنّ أسـمى موعظة وغاية لها هي الإيمان بالله والرسول.

(**ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**)

باعتبار الإيمان الحلَّ الجذري الأشمل لمشكلة الظهار وكـلّ مشـكلة ، وإنّما يتـورّط المـؤمن فيه متـأثرا بعوامل أخـرى غـير الإيمـان ، ومنطلقا من غـير قيمة ، كالجاهلية والذاتية والانتقـــام ، فلا بد أن يرجع إليه بالكفّــارة. ولكنّ السؤال : كيف تقود الكفّارة إلى الإيمان؟

والجـــــواب : إنّ الإيمـــــان روح في القلب تنمّيها الممارسة العملية ، وكلّما اتبع المسـلم رضـوان الله كلّما زاده الله هـــدى وإيمانا ، وكلّما كـــان العمل أصـــعب والإخلاص أنقى كلّما كان أنمى للإيمـان ، وأجلى للبصـيرة والهـــدى ، ولا ريب أنّ عتق رقبة (بما يكلّف من إنفـــاق كبـير) ، وصـيام شـهرين متتـابعين (بما فيه من صـعوبة بالغـــة) ، وإطعـــام ســتين مســكينا (بما فيه من إنفـــاق ومواساة للمحرومين) إنّ كلّ أولئك ممارسات مستصـعبة تمتحن قلب المسلم بالإيمان وتزكّيه وتطهّره.

(**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ**)

المفروضة في المجتمع والعلاقات الأسرية ، ولا يحـقّ لأحد أن يتجاوزها.

(**وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

سواء أولئك الـذين يكفـرون بالله وبرسـالته وحـدوده كفرا محضا ، أو أولئك

الذين يكفـرون عمليا ، فلا يلـتزمون بـأوامره ونواهيه ، ولا يقيمون حدوده. ومع أنّ عذاب الآخرة هو المصداق الأكـبر لهذه الآية إلّا أنّه يحلّ بالكـافرين في الـدنيا أيضا ، ذلك أنّ حدود الله إنّما شرّعت وفرضت لصلاح المجتمع وسـعادته ، فهي الـتي توقف الظلم والفسـاد ، وتحصّـن المجتمع والأسرة منهما.

والحـدود (سـواء العملية الرادعة ، أو التشـريعية كـالنظم والقيم) بعضـها يكمل بعضا ، ترسم مسـيرة المجتمع وتضعه أمام خريطة واضـحة محـددة ، إذا تحـرّك على أساسها وصل إلى الإيمـان والسـعادة وإلّا انتهى إلى ألوان من العذاب ، النفسي والاجتماعي والحضاري ، لأنّها هي الـتي تحافظ على حقـوق النـاس وترعـاهم ، وتنفّذ النظـام بينهم. والمجتمع الـذي يسـوده القـانون ويحكمه النظام مجتمع عزيز ، يشعر كلّ أفـراده بكـرامتهم وأمنهم وحرمتهم ، وإنّهم ما لم يتجاوزوا الحـدود لا يمكن لأحد أن يعتـدي عليهم ، على العكس من ذلك المجتمع الـذي تحكمه الفوضى ، ويكون هوى الأمير أو الـرئيس أو الملك هو القانون ، فإنّه لا يحس بالأمن ولا يستشعر الكرامة.

هكذا كان فرض الحدود بهدف تحكيم القيم لا الأفـراد في المجتمع ، حتى لا تضيع حقوق الناس.

[5 ـ 6] (**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ**)

معناه يقفون خصما لله ولرسوله ويستخدمون الحديد في ذلك (أي الحـرب السـاخنة) ، وقـال البعض : إنّ أصل الكلمة من الحد بمعـنى الفاصل ، ومعنـاه إذا المواجهة بكـلّ أشـكالها حيث يقف المتنـازعون كـلّ على حـدّ بـإزاء خصمه ، وهذا المعـنى أقـرب حيث أنّ المحـادة في ضـوء السـياق الـذي أشـار إلى حـدود الله أن يخـالف الإنسـان الحـدود الإلهية فيختـار لنفسه حـدودا أخـرى تشـريعية وعملية ، كالـذي يأخذ بالجاهلية وعمـوم النظم البشـرية القديمة أو المعاصرة ، بدلا عن شريعة الله ، وبالذات

أولئك الذين يقصـدون العنـاد والجحـود والمحاربة ، فـإنّهم سوف يلقون جرّاء محـاددتهم الإهانة والـذل المركّز الـذي ينضـــغط في النفس حـــتى لتكـــاد تنفجر ، «**أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ**» [1]

(**كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

ممّن ســاروا بســيرتهم تجــاه ربّهم ورســلهم. وفي المنجد : كبته لوجهه أي صرعة ، وأهلكه وأخـزاه ، وأذلّه ، يقال : كبت الله العدو أي أهانه وأذلّه وردّه بغيظه ، ويقال : كبت فلان غيظه في جوفه أي لم يخرجــه. [2] إذا فــالعزّ والكرامة لا يأتيان بمخالفة حدود الله لأنّ ذلك لا يـورث إلّا الـذل والهـوان في الـدنيا نتيجة لاتبـاع النظم والقـوانين الفاسدة والضالة ، بما فيها من معطيـات سـلبية ، وغضب الله وحربه ، وفي الآخـــرة نتيجة عذابه المهين الـــذي قد ينزله عليهم بأيدي عباده المؤمنين.

وهذه الحقيقة ليست خيـالا ولا وهما ، بل هي واقع له شـواهده في التـاريخ والواقع ، يهـدي إليه العقل وتؤيّـده الآيات الواضحة.

(**وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ**)

بالغة الحجة ، ظـاهرة الدلالة ، تنـذر الإنسـان ذا اللب من محادة الله ، وتهديه إلى ضرورة الإيمان به وبرسوله ، فمن اتعظ بها انتفع وعـــزّ ونجى من كبت الله ، وإلّا وقع في العذاب والذل.

(**وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ**)

والملاحظ أنّه قـال في الآية الماضـية «**عَـذابٌ أَلِيمٌ**» وهذا يتناسب مع العقوبة

---

(1) المجادلة / 20

(2) المنجد / مادة كبت

التي هي موضـوعها ، بينما وصف العـذاب هنا بأنّه مهين ، لأنّ من يحـادون الله ورسـوله يطلبـون بـذلك العـزّة لأنفسهم ، والـذل للحـقّ وأتباعه ، وليس صـفة أنسب في عذابهم من الإهانة والذل.

(**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً**)

للجـزاء على أعمـالهم ، وقـال «جميعـا» لأنّهم ربما تعاونوا على محادة الله والكفر ، واغترّوا بقوّتهم وعددهم.

(**فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا**)

من السيئات عـبر الحسـاب ، ومن خلال العـذاب لأنّه هو الآخر صورة حقيقية لما عملـوا. كما أنّ إخبـاره تعـالى لهم بأعمـالهم يؤكّـده لهم شـهادته على خلقه ، وأنّه أخـبر وأبصره بالإنسان حتى من نفسه ، لأنّه معرّض للنسيان.

(**أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**)

وحينئذ ليس يتـبيّن لهم صـدق آيـات الله ، وخطأ أعمـالهم ومسـيرتهم في الحيـاة فقط ، بل يصـيرون من العلم على عين اليقين بـأنّ الله شـاهد على كـلّ شـيء ، وأنّه حين تـركهم في الـدنيا يفعلـون ما يشـاءون من معصيته ومحادته فليس عن غلبة له ، (**وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غـافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ**). [1]

وإنّما يذكر الله بيوم البعث وشـهادته على كـلّ شـيء هنا لأنّ محـادّة الله ورسـوله وعمل السـيئات ينطلق في الأسـاس من الكفر بـالآخرة والجـزاء ، ومن الاعتقـاد بالقدرة

---

(1) إبراهيم / 42 ـ 43

على تـبرير السـيئات ، والتملّص من مسـئوليتها بالأسـباب المختلفـة. فليس يلقى أحد هنـاك إلّا عمله الـذي أحصـاه الله وشهد عليه ، لا يستطيع إخفاءه عنه ، ولا إنكـاره ، ولا يخلّصه منه شفيع ولا نصير.

وفي الـدرس القـادم سـنتعرّف كيف ضـرب الله مثلا بهذه الآية بالنجوى (الأحاديث التي تتم في الخفـاء) فأنـذر منها لأنّه شـاهد على كـلّ شـيء ظـاهرا كـان أو باطنا ، صغيرا كان أو كبيرا. وما دام الإنسان معرّضا للنسـيان فلا ينبغي لأحد أن يأخذه الغرور بما هو فيه ، وربما بدا له في الآخـرة ما لم يحتسب من الـذنوب ، ويعلّمنا الإمـام زين العابدين (ع) في صحيفته هـذا الـدرس إذ يقـول : «**آه إذا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصـيها ، فتقول : خذوه ، فيا له من مـأخوذ لا تنجيه عشـيرته ، ولا تنفعه قبيلته**»

أَلَمْ تَــرَ أَنَّ اللــهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً

---

8 [النجوى] : الحديث السرّ ، يدور بين اثنين أو أكثر.

إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ (10) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجـالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَــعِ اللــهُ الَّذِينَ آمَنُــوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُــوا الْعِلْمَ دَرَجـاتٍ وَاللـهُ بِما تَعْمَلُـونَ خَبِـيرٌ (11) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيْ نَجْـواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْـفَقْتُمْ أَنْ تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَــدَيْ نَجْـواكُمْ صَـدَقاتٍ فَـإِذْ لَمْ تَفْعَلُـوا وَتـابَ اللـهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُـوا اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

---

11 [انشزوا] : أي تفرّقوا ، وقومـوا عن أمـاكنكم ليجلس غـيركم ، من نشز : أي ارتفع ، والنّشاز : المميز القبيح ، والناشز : المــرأة تنشز عن زوجها وتتمنع عنه.

وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى

هدى من الآيات :

لكي يتحسس القلب شـــهادة الله على كـــلّ شـــيء فيتجنّب خـــواطر الســـوء ، ويتقي وســـاوس الشـــيطان ، ويتحصن ضد النفـــاق والتـــآمر ضد الإســـلام والقيـــادة الشـــرعية ، جـــاءت آيـــات الـــذكر ترينا علم الله بما في السموات وما في الأرض ، وتبصّرنا بحضـورنا عنـده ، فما من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ، ولا خمسة إلّا هو سادسـهم ، وأنّه جـلّ شـأنه معنا أينما كنّا ، ثم تحـذرنا من حسـابه وجزائه يوم القيامة.

ولعلّ هذه الآية هي محور سورة المجادلة الـتي تـذكّر بالحضور الإلهي ، وما أعظمه رادعا عن المعاصي ، وباعثا نحو الطاعـات؟ ولكن لا يـدع السـياق القضـية بلا شـرائع تتجلّى فيها شـــهادة الله ، إذ يرينا كيف تـــآمر المنـــافقون (الذين لم يراقبوا ربّهم) فتناجوا بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، ولم يراعوا آداب التعامل مع الرسـول ، ثم نهى القرآن المؤمنين من التنـاجي بـالإثم والعـدوان ، وأمـرهم بـــأن يتنـــاجوا بـــالبر والتقـــوى ، وذكّرنا بـــأنّ النجـــوى من الشيطان ، وهدفه من ذلك بعث الحزن في قلوب

المؤمنين ، الذين طمأنهم السياق بأنّه ليس بضارّهم شـيئا إلّا بإذن الله ثم أمرهم بالتوكل عليه. لأنّ هدف المنـافقين من تآمرهم التعالي على المؤمنين كما يبدو فـإنّ السـياق أشـار إلى سـيئة من سـيئات سـلوكهم متمثلة في اختيـار صــدر المجــالس والتســمّر فيها ، فــأمر الله المؤمــنين بالتفسح في المجـــالس ، وذكّــرهم بـــأنّ العـــزة ليست بالمجالس القريبة من الرسول ، وإنّما بالإيمان والعلم.

كما أشـــار إلى مــزاحمتهم للرســول بــالنجوى معه (لإظهار أنّهم الأقرب إليه) فأمر المؤمنين بدفع الصــدقات قبل النجـــوى معه ، ثم ألغى هـــذا الأمر بعد أن عـــرف المنــافقون ، بل علم خــواء كثــير من نجــوى غــيرهم مع الرسول ، وعدم أهميتها عند أصـحابها ، لأنّهم أشـفقوا من تقديم الصدقات قبلها.

بينات من الآيات :

[7] كدليل لشهادة الله على كلّ شيء ـ هذه الحقيقة التي ذكرتها الآية الأخيرة من الدرس الفائت ـ يـذكّرنا الله بأنّه حاضر ، ذلك لكي لا يظن المنــــافقون والـــذين في قلوبهم مرض أنّهم يحيكون مـؤامراتهم السـرية بعيـدا عن علمه ، وبالتـالي أنّ مكـرهم فـوق مكـره ، كلّا .. فهم إن استطاعوا التنـاجي بـالإثم والعـدوان والمعصـية بعيـدا عن ســمع القيــادة والمجتمع وعلمهما ، فــإنّ الله يعلم بكــلّ شـيء ، وسـيؤيد المؤمـنين وينصـرهم رغم المـؤامرات ، وعــدم إيمــان أحد بهــذه الحقيقة لا ينفيها ، بل ســيعلمها الجميع يقينا يوم القيامة ، حينما يخبرهم الله بما عملوا.

والرسـول (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) وكـذلك كـلّ مؤمن يعرف ربّه حق المعرفة ويعقل هــذه الحقيقة بعمق ، وبالتــالي فهو لا يخشى من نجــوى الأعــداء ، بل يتوكل على ربّه ، ويطمئن إلى أنّها لا تضـرّه إلا بإذنه عــزّ وجل ، وأنّ الغلبة ستكون للحق رغم المؤامرات.

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللــهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)
وهذا الاستفهام للتقرير ، فالمعنى : أنّك لا بد أن تعلم يقينا ، كما يعلم الـذي يـرى شـيئا بعينه ، ولكن كيف نعلم بهذه الحقيقة علم من يـرى شـيئا؟ إنّما بـالنظر في آيـات الله في الخليفة ، فكـلّ ما في السـموات والأرض يشـهد على أنّه سبحانه حي قيّوم شاهد حاضر. أو يمكن لأحد أن يدبّر هذه الكائنـات بهـذا النظـام الحسن الـدقيق من دون أن يحيط علما وقدرة بها؟
(**ما يَكُـونُ مِنْ نَجْـوى ثَلاثَـةٍ إِلَّا هُـوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ**)
وتصـريح السـياق بعـدد الثلاثة والخمسة ، وإن كـان ينبغي حمله الآن على التمثيل ، إلّا أنّه لا ريب له حقيقة خارجية في التـــاريخ من واقع المنـــافقين ، على أنّ الجلسات تتمّ عادة بالثلاثة والخمسة وأيّ عدد وتر لما فيه من إمكانية التصويب بسهولة. وقال بعضهم : إنّ في هـذا التعبير بلاغة نافـذة إذ لم يتكـرّر العـدد ، ونجد نظـيره في القرآن ، ولكنّ القرآن لم يحصر علم الله بهذا العدد فقال :
(**وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَـرَ إِلَّا هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا**)
خارجا عن الحد عـددا وزمانا ومكانا ، لأنّه سـبحانه قد تعـالى عن الكيف والأين والعـدد الـتي هي من صـفات المخلوق.
قال الإمام علي (عليه السـلام) : «**فإنّما أراد بـذلك استيلاء أمنائه بالقدرة الـتي ركّبها فيهم على جميع خلقه ، وأنّ فعلهم فعله**» [1]

---
(1) نور الثقلين / ج 5 ص 258

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله عزّ وجلّ «الآية» : «هو واحد أحديّ الذات ، باين من خلقه ، وبذلك وصف نفسه ، وهو بكل شيء محيط بالإشـراف والإحاطة والقـدرة ، (**لا يَعْزُبُ عَنْـهُ مِثْقـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّـماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا أَصْـغَرُ مِنْ ذلِـكَ وَلا أَكْبَـرُ**) ، بالإحاطة والعلم لا بالـذات ، لأنّ الأمـاكن محـدودة تحويها حدود أربعة ، فإذا كان بالذات لزمه الحواية» [1]

وجـاءت الرواية أنّ بعض أحبـار اليهـود جـاء إلى أبي بكر فقال له : أنت خليفة نبي هذه الأمّـة؟ قـال له : نعم ، فقـال له : إنّا نجد في التـوراة أنّ خلفـاء الأنبيـاء أعلم أممهم فخبّـرني عن الله أين هو في السـماء أم في الأرض؟ فقال له أبو بكر : هو في السـماء على العـرش ، فقال اليهـودي : فـأرى الأرض خالية منه ، وأراه على هـذا القول في مكان دون مكان؟ فقـال له أبو بكر : هـذا كلام الزنادقة. اغرب عني وإلّا قتلتك ، فقال له أمـير المؤمـنين علي بن أبي طـالب (ع) : يا يهـودي قد عـرفت ما سـألت عنه وأجيب عنه به ، وإنّا نقـول : إنّ الله جـلّ وجلاله أيّن الأين فلا أين له ، وجلّ أن يحويه مكان ، هو في كلّ مكان بغـير مماسة ولا مجـاورة ، يحيط علما بما فيها ولا يخلو شيء منها من تـدبيره تعـالى ، وإنّي مخـبرك بما جـاء في كتاب من كتبكم تصدق ما ذكرته لك ، فـإن عرفته أتـؤمن به؟ قال اليهـودي : نعم ، قـال : ألسـتم تجـدون في بعض كتبكم أنّ موسى بن عمران كان ذات يوم جالسا إذ جـاءه ملك من المشرق فقال له موسى : من أين أقبلت؟ قـال : من عند الله ، ثم جاءه ملك من المغرب فقـال له : من أين جئت؟ قـال : من عند الله ، ثم جـاءه ملك فقـال له : قد جئتك من السماء السابعة من عند الله ، ثم جاءه ملك آخر فقال هل : قد جئتك من الأرض السفلى من عند الله ، فقـال له موسى : سـبحان من لا يخلو منه مكـان ، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان ، فقال اليهـودي ، أشـهد أنّ هذا هو

---

(1) المصدر / ص 258

الحق ، وأنّك أحقّ بمقام نبيّك ممّن استولى عليه [1]

وقال (عليه السلام) يحدّث عن الله : أوّل الدّين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثنّاه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن قال «فيم» فقد ضمّنه ، ومن قال «علام» فقد أخلى منه ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كلّ شيء لا بمقارنة ، وغير كلّ شيء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحّد إذ لا سكن يستأنس به ، ولا يستوحش لفقده [2]

بهذه البصائر الإيمانية ينبغي أن نفهم أسماء الله ، وبها نفسّر كتاب الله ، وبالذات قوله في هذه الآية (رابعهم ، وسادسهم ، ومعهم أينما كانوا) ، بعيدا عن التصورات البشرية المحدودة والفلسفات الضالة المنحرفة ، والعقائد الشركية.

(**ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ**)

لا يعزب عنه مثقال ذرّة أبدا.

(**إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

وهذه الآية تنطوي على تحذير للمنافقين والمتآمرين على الحق على مرّ التاريخ ،

---

(1) المصدر

(2) نهج خطبة (1) ص 39 ـ 40

كما أنّها تنمّي عند المؤمنين روح الحذر والتقوى.

[8] ولأنّ الله محيط بكلّ شيء علما فإنّه لا يدع مكائد هم تلعب دورها المشؤوم في مسيرة الأمة ، وإنّما يبطلها بإرادته وعلى أيدي المؤمنين ، ويفضحها بوسيلة أو بأخرى ، كأن يلقي أمرها روع المؤمنين.

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ**)

إصرارا على مكائدهم المشؤومة ، والتناجي هو الحديث على غير مسمع من الآخرين ، وليست النجوى محرّمة في الدين إلّا إذا كانت مضامينها وآثارها لا ترضي الله عزّ وجل ، أمّا إذا كانت تنطوي على الخير والصلاح فهي مباحة ، بل قد تكون واجبة كما في عصر الطاغوت ، باعتبارها تحفظ خطط المؤمنين ، وأشخاصهم ، وإمكاناتهم ، بعيدة عن علمه وكيده وردّات فعله ، لذلك لم ينه الله الذين آمنوا عنها بل نهاهم من جهة عنها إذا كانت ذات مضامين سيئة ، وأمرهم بها إذا كانت مضامينها إيجابية ، بينما نهى المنافقين عنها لأنهم اتخذوها وسيلة لمحاربة الحق.

(**وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**)

هذه إشارة إلى ثلاثة أنواع من الذنوب المحرّمة وهي :

أوّلا : المعاصي التي يخالف الإنسان بها الشريعة في سلوكه ، كشرب الخمر ، وأكل الحرام ، والكذب ، والغش ، والإدلاء بالأموال إلى الحكّام الظلمة ، قال تعالى : (**اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**) [1] أي ذنب ، وقال : (**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً**) [2] ،

(1) الحجرات / 12
(2) النساء / 112

وقال : «**مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْمـاً عَظِيمـاً**» [1] ، وفي المنجد : الإثم فعل ما لا يحل. [2]

ثانيا : التجـــــاوز على حرمـــــات المجتمع والأمة ، كالاعتداء على حقوق الناس وأموالهم وأعراضهم.

ثالثا : شـقّ عصبي الطاعة للقيـادة الرسـالية الـتي يمثّلها يومئذ الرســـول الأعظم (صــــلى الله عليه وآله وسلم) ، وهي لا تزال معصـيتها رغم تبـدّل مصـاديقها في الواقع الاجتماعي معصـية للنـبي ، لأنّها امتـداده الطـبيعي في أجيال الأمة.

وهذه الذنوب الثلاثة تعدّ اعتداء على حـدود الله ، وقد جعلها المنــافقون محــور نجــواهم ، وهي متتالية ، إذ أنّ مجالس المتآمرين ـ أنّى كانت ، وأنّى استهدفت ـــ تنطلق من الإثم ، من العصبية والعنصرية ، من الكذب والافتراء ، من تحقـير القيم لحسـاب الـذّات ، وإثـارة الحساسـيات ، وكــوامن الشر تنطلق من كــلّ ذلك لتنتهي إلى العــدوان واغتصــاب حقــوق الآخــرين ومحاولة التسـلّط والتعـالي عليهم ، وفي ذلك خــرق لســنن الله العادلة ، ومخالفة للقيادة الشرعية.

إنّ هــذه الجلســات المشــؤومة هي رحم الشــبكات الحزبية الضـالة الـتي تخطط للسـيطرة على الأمة ولـولا غيــاب الإحســاس برقابة الله ، وغيــاب التقــوى من الله ، وبالتالي الإنصاف والعدالة ، لما ولدت هذه الجلسات التي لا يهدف المشاركون فيها إلّا تحقيق شهواتهم الرخيصة.

وعملية التناجي هي تفاعل بين المنـافقين حيث يـدفع بعضهم بعضا ، ويدعوه

---

(1) المصدر / 48

(2) راجع مادة أثم

إلى الضـلال والتجـاوز على الحق ، وتشـكيل حركة سـرية ترتكز على المبادئ الثلاثة التي تضمنتها النجوى.

(**وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ**)

إذ كانوا يقولون : السـام عليكم ، بمعـنى السـأم ، أي أنّك يا رسـول الله سـوف تسـأم من رسـالتك ، أو السـام بمعنى الموت عند اليهود ، ومن الطـبيعي أنّ المسـلّم إذا كان بعيدا ولا يظنّ أحد فيه سـوء لا يتضح قصـده في مثل هذه العبارة القريبة من السـلام في ظاهرها وحروفها ، إلّا أنّ الرسـول كـان متنبها للمنـافقين واليهـود ، وكـان يـردّ عليهم بكلمة واحـــــــــــدة «وعليكم» أي أردّ عليكم ما رميتمــوني به ، وقد فضــحهم الــوحي بعد ذلك عند كــلّ المسلمين ، ولكي يعلموا هم أنفسهم أنّ الله بكـلّ شـيء عليم ، وأنّه يعلم القضـــايا الظـــاهرة كقضـــية المجادلة ، والأخـرى الباطنة كنجـواهم. وهنا لك تفسـير آخر للتحية ، وهي أنّهم يحيون الرسول ب (أنعم صباحا ، وأنعم مسـاء) وهي تحية أهل الجاهلية ، مع أن الله أمرهم بتحية الإسلام في محضر الرسول (السلام عليكم).

وهناك تفسير ثـالث أنّهم لم يكونـوا يحيّـون الرسـول بصـــفته قائـــدا للأمّة ، وإنّما بصـــفة شخصـــية كقـــولهم : (السلام عليك يا أبا القاسم) وهذا التفسير أنسب لمفهوم السـياق ، بـالرغم من أنّ التفســير الأوّل قد وردت به نصـوص تاريخية ، فقد روي عن عائشة أنها قـالت : جـاء أناس من اليهود إلى النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقلت : السام عليكم وفعل الله بكم ، فقال عليه السـلام : «مه يا عائشة فـإنّ الله لا يحبّ الفحش ولا التفحّش» ، فقلت : يا رسول الله ألست ترى ما يقولـون؟ فقـال : «ألست تـرين أردّ عليهم ما يقولون؟

أقول : وعليكم»[1]

وربّنا لم يفضح ظـــاهر نفـــاقهم وحسب ، بل فضح نوايـاهم وسـرائرهم الخبيثة أيضا ، حينما أخـبرهم بالـذي يدور في داخلهم.

(**وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ**)

أي لو كـان الرسـول صـادقا بالفعل فلما ذا لا يغضب الله له؟ ويتخـذون عـدم حلـول العـذاب بهم ذريعة لإثبـات سلامة خطهم ، والإصرار عليـه. ويبطل القـرآن كـون هـذا دليلا على صـدقهم ، حـتى لا يتـأثّر المؤمنـون بـدعاياتهم وأفكارهم المضلّلة ، مؤكّـدا بـأنّهم يجـازون ما يكفيهم من العذاب على ذلك ولكن بعد حين.

(**حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ**)

والآية تشـــير إلى أربعة ذنـــوب رئيســـية اقترفها المنـافقون وهي : تجـاوز نهي الله بـالعودة إلى النجـوى ، وممارسة النجـــوى بـــالإثم ومعصـــية الرســـول ، والتحية السـيئة المخالفة للحق ، والافـتراء على الله بقـولهم في أنفسهم : «**لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ**».

[9] ولا يحـــرّم الله النجـــوى (كتمـــان الحـــديث) على المؤمـنين ، إنّما يحـرّم اشـتمالها على الواقع والمضـامين المحرّمة ، وإلّا فهي مباحة ، بل قد تكون مطلوبة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**)

لأنّها مناجاة المنافقين ، وبهذا النهي يقف الإسلام ضدّ تنامي حركات سرّية مناهضة للنظام الإسلامي.

---

(1) القرطبي / ج 17 ص 292

والقرآن يحرّم المضـامين الباطلة والسـيئة للنجـوى ، وفي نفس الـوقت يـدعو إلى التنـاجي بـالخير والصـلاح ، فيما إذا أرادوا التناجي.

(**وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى**)

والـبر هو الحق والإحسـان وسـائر المضـامين الخيّـرة المرضـيّة عند الله والـتي تقـرّب إليه ، وهو نقيض الإثم ، قال تعالى : (**وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعـاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ**) [1] ، كما أنّ التقوى نقيض العدوان ، وذلك أنّ العـدوان ينبعث من انعـدام الـورع عن محـارم الله ، والخـــوف منه ، ولا بد أن يقاومه المؤمنـــون من الجــذور في شخصــيتهم ، وذلك بتركــيز تقــوى الله في نفوسهم ، كما أنّ العدوان صورة للتعـدي على حـدود الله في العلاقة مع المجتمع ، والتقــوى هي الــداعي الأكــبر للالتزام بأحكامه وشرائعه وحدوده.

وتــأتي أهمية التنــاجي بين المؤمــنين على الصــعيد الاجتماعي كوسـيلة فضـلي إلى النقد البنّـاء ، بالنصـيحة ، قـال الإمـام العسـكري (عليه السـلام) : «من وعظ أخـاه سرا فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه» [2] ، وعلى الصـــــعيد السياسي كاســـــتراتيجية مهمة في مواجهة الظالمين والأنظمة الطاغوتية.

ثمّ يؤكّد القــرآن ضــرورة أن لا تخــرج المناجــاة بين المؤمنين عن سياق التقوى ، الأمر الذي يتحقّق بتحسّــس رقابته ، وتذكّر البعث والجزاء.

(**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**)

إنّ الإحساس بشهادة الله وحضوره مع المتنـاجين هو الضمان الوحيد لإنباذ

---

(1) المائدة / 2

(2) بح / ج 78 ص 374

وساوس الشيطان من جلسات المؤمــنين الخاصة ، وذلك أنّ أكــثر الــروادع الــتي تمنع الســقوط في وادي الغيبة والتهمة والتعصّب لجماعة ضد أخرى تتلاشى في جلسـات الخلسة والخلـــوة ، هنا لك يحسّ الإنســـان برفع الكلفة والتحرّر من ضـغط المجتمع ، ولكن أليس الله ينظر إليهم ويسمع تحاورهم. أليس يحاسـبهم غـدا على الملاء العـام. أفلا يتقوه؟

حقّا : إنّها جميلة ورائعة حياة جماعة المؤمـنين الـذين إذا انتجى اثنان منهم تواصيا بـالبرّ ، ورسـما خطة لتقـديم الخير لغيرهما ، وتناصحا بالتعاون مع الآخرين.

[10] ويعـود السـياق إلى التأكيد على حرمة النجـوى السـيئة ، ووقـوف الشـيطان وراءها ، وبيـان أهم أهـدافها الخبيثة ، وضـــرورة التوكّل على الله لمقاومتها لإبطـــال مفعولها السلبي في النفوس وفي واقع المجتمع.

(**إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ**)

العـدو الأوّل والأخر للإنسـان المـؤمن ، وإنّما يتنـاجى المنـافقون مع بعضـهم بتلك المضـامين السـيئة لأنّه كـان يأمرهم بذلك ، وكلّ نجوى سلبية فهي بـدوافع شـيطانية ، كالهوى ، والطمع ، والمصـالح المادية ، وحبّ التفريق بين المؤمــنين. ولعـلّ الآية تـدل على أنّ الأصل في النجــوى الكراهة ، لأنّها مظنّة الغيبة والتهمة ومركز المــؤامرة ضد النظام ، ولأنّ الشيطان يكون عند النجـوى أقـوى منه في أيّ حــــال آخر ، ومن هنا يحسن تجنّب النجــــوى إلّا عند الحاجة.

(**لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**)

إنّهم يحزنـــون حينما يلاحظـــون التكتلات الســـرية المعادية لمبــادئهم ومصــالحهم ، خوفا من غلبتها وحكمها في المستقبل ، فإنّ ذلك يطفئ شعلة الإسلام في الأمّة.

وربّنا يعــالج حــزن المؤمــنين بإعطــائهم المزيد من الثقة بإرادته ومشــيئته المتصــرّفة في الخلق ، وبــدعوتهم إلى التوكّل عليه ، لأنّ الأمّة الــــتي تتوكّل على ربّها لا تهزمها المؤامرات.

(**وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**)

بلى. إن المنـافقين وأعـداء الأمّة الإسـلامية يحيكـون المؤامرات ضدها في الخفـاء وبعيـدا عن علم المؤمـنين ، ولكنّها ليست غائبة عن علم الله ، ولا هي أكـبر من إرادته ، حتى يستطيعوا الإضرار بالمؤمنين ، إلّا بعد أن يـأذن الله بذلك. ولكن مـتى يـأذن الله بـذلك؟ إنّما حين تغـرق الأمّة في غمــرات الصــراع أو الســبات أو توافه الأمــور ، أمّا الموحّـدة الجدّية الطامحة والسـاعية في سـبيل الله فلن يترها الله أعمالها ، ولن يضيع جهودها. وما دام الله يـدافع عن رسـالته وأوليائه وعبـاده فلن يسـمح أن يطفئ نـوره أبدا.

(**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)

وليس التوكّل باللسـان وحسب ، إنّما هو الثقة بالله ، ونبذ أغلال اليأس والخوف والـتردّد عن النفس ، والتسـلّح ببصـائر الـوحي في السـعي والاجتهـاد والتفـاؤل ، وتنفيذ منـاهج الـوحي في التحـرّك من الحكمة والتـدبير وحسن الخلق والتعاون والإخلاص ، فـإنّ ذلك كفيل لو الـتزمت به الأمّة الإسلامية بإفشال كلّ المؤامرات ، وحينـذاك تسـعى الأمّة وبتوجيه من قيادتها الرشــيدة المقاومة مــؤامرات شياطين الجنّ والإنس.

وهنــاك نــوع من النجــوى السـلبية المنهي عنها في الإسـلام ، وهي تختص بتنـاجي المؤمـنين مع بعضـهم في المجالس ، بغض النظر عن مضامينها ، فقد كـرّه الإسـلام أن

يتناجى اثنان بحضور ثـالث ، قـال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) : «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتنـاجى اثنـان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه**» [1]

[11] لكي يتحسّــس المــؤمن بــأنّ الله رقيب عليه حاضر معه شـاهد عليه يبصّـره القـرآن بـآداب الخلـوات ، عند ما يختلي بزوجته (عليه ألا يظـاهر ، وإذا ظـاهر فعليه ألّا يعاشرها كزوجة إلا بعد كفّارة) ، وعند ما يقرّر التنـاجي وينشط الشيطان في قلبه لكي يحـرف التجـاه تناجيه إلى الفسـاد ، وعند ما يجلس ، كيف يجلس متواضـعا ، مراعيا للقيم الإسلامية.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذا قِيـلَ لَكُمْ تَفَسَّـحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا**)

لكي تســتوعب الحــدّ الممكن من الحضــور ، فتعمّ الفائدة ، ويحسّ الجميع بالاحترام والتقـدير المتبـادل. وإنّ ذلك يسـتتبع توسـيعا من قبل الله للمتفسـحين تقريبا لهم منه ، وإثابة على الاستجابة له.

(**يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا**)

أي قوموا وقوفا ، أو تركا للمكان في المجلس ..

(**فَانْشُزُوا**)

وإذا كـان هـذا الأدب يعمّ المؤمـنين جميعا فإنّه يكـون أهمّ بالنســــبة إلى المؤمـــــنين أولي العلم ، لأنّهم أولى بالقرب من القيادة ، وبتصدّر المجالس من غيرهم.

(**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ**)

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 262

درجات بمثل درجاتهم الإيمانية والعلمية.

وهـذه الآية تنفي مقـاييس التفاضل المادية ، كما أنّها تعطي المكانة وزمام القيـادة في الأمّة لأصـحاب الكفـاءة الحقيقة (المؤمنون العلماء) وليس لأصحاب المال والأولاد ، وهـذا التأكيد على مكانة المؤمـنين والعلمـاء ، وأنّه أولى بالقيـادة ، يـأتي في مقابل ظنـون المنـافقين وتصـوّراتهم الضالّة عن القيادة والأفضلية ، حيث اعتبروها لأولي المال والأولاد والأتباع الأكثر ، وهذا ما دفعهم للتـآمر على قيـادة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والتخطيط للعصيان والتمـرّد ضـدّها ، إذ قـالوا : كيف يصـبح هو القائد وليس أكثرنا مالا وولدا؟!

وفي ختـام الآية يـذكرنا الله بكـلّ ما يعمله الإنسـان ، لكي نزداد حذرا منه وتقوى.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**)

قـال قتـادة : نـزلت هـذه الآية في مجـالس الـذكر ، وذلك أنّهم كـانوا إذا رأوا أحـدهم مقبلا ضـنّوا بمجالسـتهم عند رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) ، فـأمرهم الله تعــالى أن يفسح بعضــهم لبعض ، وقــال مقاتل ابن حيّان : أنزلت هـذه الآية يـوم الجمعة ، وكـان رسـول الله (صــلّى الله عليه وآله وســلّم) يومئذ في الصــفة ، وفي المكـان ضـعيف ، وكـان يكـرم أهل بـدر من المهـاجرين والأنصــار ، فجــاء نــاس من أهل بــدر وقد ســبقوا إلى المجالس فقاموا حيـال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وســلم) فقــالوا : السـلام عليكم أيّها النــبي ورحمة الله وبركاته ، فردّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسـلم) عليهم ، ثم سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي (صـلّى الله عليه وآله وسلم) ما يحملهم على القيـام ، فلم يفسح لهم ، فشــقّ ذلك على النــبي (صـلّى الله عليه وآله وســلم) فقال لمن حوله من المهاجرين

والأنصـار من غـير أهل بـدر : قم يا فلان ، وأنت يا فلان ، فلم يزل يقيمهم بعـدّة النفر الـذين هم قيـام بين يديه من المهاجرين والأنصـار أهل بـدر ، فشـقّ ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمـون أنّ صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء. إنّ قوما أخذوا مجالسهم ، وأحبّوا القـرب من نـبيّهم ، فأقـامهم وأجلس من أبطأ عنـه! ... فبلغنا أنّ رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) قـال : «**رحم الله رجلا يفسح لأخيه**» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لإخوانهم [1]

وفي كتـاب الإحتجـاج للطبرسي روي عن الحسن العسكري (عليه السلام) أنّه : اتصل بأبي الحسن عليّ بن محمد العسكري (عليه السلام) أنّ رجلا من فقهاء شـيعته كلّم بعض النصّاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته ، فـدخل على عليّ بن محمد (عليه السـلام) وفي صـدر مجلسه دست عظيم منصـوب وهو قاعد خـارج الدست ، وبحضرته خلق من العلويين وبـني هاشم ، فما زال يرفعه حـتى أجلسه في ذلك الدست ، وأقبل عليه ، فاشـتد ذلك على أولئك الأشراف ، فأمّا العلويون فأجّلوه عن العتاب ، وأمّا الهاشـميون فقـال له شـيخهم : يا بن رسـول اللـه! هكـذا تـؤثر عاميّا على سـادات بـني هاشم من الطـالبيين والعباسيين؟ فقال (عليه السلام): «إيّاكم وأن تكونـوا من الذين قال الله تعالى : (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِـيباً مِنَ الْكِتـابِ يُـدْعَوْنَ إِلى كِتـابِ اللـهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ**) أترضون بكتاب الله عز وجلّ حكما؟» قالوا بلى : قال : أليس الله يقول : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجـالِسِ فَافْسَـحُوا يَفْسَـحِ اللـهُ لَكُمْ**» .. إلى قوله : (**وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجـاتٍ**) فلم يـرض للعـالم المـؤمن إلّا أن يرفع على

(1) في ظلال / ج 1 ص 19

المـؤمن غـير العـالم ، كما لم يـرض للمـؤمن إلّا أن يرفع على من ليس بمؤمن ، أخبروني عنه قال : «**يَرْفَـعِ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ**» أو قال : يرفع الله الـذين أوتـوا شـرف النسب درجـات؟ أوليس قال الله عزّ وجلّ : (**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**) فكيف تنكرون رفعي لهذا لما وفقه الله؟! إنّ كسر هذا فلان الناصب بحجج الله الـتي علّمه إيّاها لأفضل له من كلّ شرف في النسب [1]

[12] وتعود الآيات إلى الحديث عن النجوى ولكن من زاوية أخـرى ، وهي النجـوى مع رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) ، لتـأمر المؤمـنين بـدفع صـدقة قبلها مؤكّدة بأنّ ذلك خير وأطهر لهم ، يقول تعالى :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُـولَ فَقَـدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً**)

من أجل التعـــالي على النـــاس كـــان فريق من المســـلمين يتخـــذون مواقع متقدّمة في المجـــالس ، ويشغلون صدرها القريب من الرسول ، وكانوا يتظـاهرون أنّهم أقرب إليه من غيرهم ، فكانوا يتنـاجون معه ، وعـادة لم يكونوا يقولون له ما ينفع أو ما يقتضي السـرية ، وربما كـانوا يسـتغلّون أوقـات الرسـول الثمينة بتوافه الأمـور ، لذلك أمر الله المسلمين بإعطاء الصدقة قبل التناجي.

ولكن لما ذا فرضت الصـــدقة بالـــذات؟ لعلّه للحكم التالية :

1 ـ لأنّ وقت الرسـول للأمّة كلّها وعلى من يسـتغلّه أن يـدفع ضـريبة لصـالح المجتمع ، فـإنّ الصـدقة لا ريب سوف لا يستهلكها النبي وهي عليه حرام ، إنّما سـيوظّفها من أجل رفع الحرمان ، وإصلاح شؤون المسلمين.

---

(1) الاحتجاج / ج 2 ص 455

2 ـ ولأنّ المتناجين مع النـبي كـان أكـثرهم من طبقة الأغنياء ، فلكي لا يشـعر الفقـراء بـالغبن فـرض الله على الأغنياء صدقة لصالحهم.

3 ـ ثم أنّها كانت إشارة لأولئك الذين يزاحمون النـبي بالتنـاجي في أمـور لا تجـدي نفعا ، أو من أجل التفـاخر ، بـأنّ الأمر ليس مرضـيّا ولا طبيعيا عند الله ولـدي رسـوله (ص) ، وبالفعل أدرك الكثــير هــذه الحقيقة ، واســتطاع القرآن علاج تلك الظاهرة في مواردها السلبية.

4 ـ ولأنّ البعض اتخذ التنـــاجي مع النـــبي أمـــام المسـلمين للتفـاخر عليهم والتظـاهر عنـدهم بالشخصـية الهامّة المقرّبة ، وهـذا أمر سـلبي جـاءت الصـدقة علاجا وتطهيرا للنفوس من هذه الخلفيّات السيئة.

(**ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ**)

ولم يغفل الله وهو الحكيم طبقة الفقـــراء الـــذين لا يطيقـــون دفع الصـــدقة ، لـــذلك أعـــذرهم وســـمح لفهم بالتناجي مع النبي ، فقال يخاطبهم.

(**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

وفي هذه الآية إشارة بأن المعني بتقديم الصدقة كان طبقة الأغنياء ، لأنّهم يستطيعون دفعها ، وقد رأيناهم كيف كفّـوا عن التنـاجي ، فتـبيّن للمسـلمين طـبيعتهم وطبيعة أحاديثهم التي يزاحمون بها النبي (ص) والمسلمين أيضا.

وبقي الإمام علي (ع) مسـتمرّا في تناجيه مع رسـول الله (ص) لأهمية ما يتباحثه معه ، ولعلمه بسلامة ما يقوم به ، وأنّ التنـاجي مع النـبي يسـتحقّ أن يقـدّم له المـؤمن أكـــثر من ذلك ، ولم يكن ثريّا ، بل لم يكن يملك يومئذ إلّا دينارا واحدا لهذا

الشــأن ، قيل أنّه اقترضه من أحد المســلمين ، فصــرّفه عشــرة دراهم ، قــدّمها كلها بين يــدي عشر نجــوات مع رسـول الله (ص) ، حـتى قـال عمر بن الخطـاب : «كـان لعليّ (رضي الله عنــه) ثلاث ، لو كـانت لي واحــدة منهنّ كـان أحبّ لي من حمر النعم : تزويجه فاطمة (رضي الله عنها) وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجـوى» [1] وقـال الإمـام علي (ع) : «إنّ في كتـاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعـدي : آية النجـوى. إنّه كـان لي دينار فبعته بعشر دراهم فجعلت أقدّم بين يدي كلّ نجــوى أناجيها النبي (ص) درهمـا» قـال : فنسـختها قوله : «الآية 13». [2]

[13] وحيث تفهّم المعــنيّون خلفيــات الحكم الإلهي بالصدقة قبل النجوى ، وبالذّات أولئك الـذين يكـثرون من التناجي مع النبي (ص) ، والذين امتنعوا الآن عن ذلك بخلا ، ولو كــانت أحــاديثهم الــتي يســرّون بها إليه (ص) ذات أهمّية لما رجّحـوا الكـفّ عنها وهم الأغنيـاء خشـية تقـديم الصــدقات ، نسخ الله برحمته ومنّه حكم الضــريبة ، ممّا دلّ على أنه وضع لعلاج ظــاهرة التنــاجي الســلبي. ووجّه القرآن عتابه للذين امتنعـوا عن التنـاجي ذلك إشـفاقا من تقديم الصدقة ، أو تنـاجوا ولم يقـدّموا صـدقة كما أمـرهم الله ، أو للذين لم يطيقوا ذلك بسبب الفقر وقلّة المال :

(**أَأَشْفَقْتُمْ**)

قالوا : الإشفاق الخوف من المكروه ، فيكون معناه : هل شقّ عليكم إعطاء الصدقة قبل التنـاجي مع الرسـول (ص)؟

(**أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ**)

(1) تفسير روح البيان / ج 9 ص 306
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 265

ولم يقل صـــدقة ممّا يـــدلّ على وجـــود فريق من المســـلمين يكـــثرون التنـــاجي مع النـــبي ممّا يســـتلزم الصدقات الكثيرة. وحيث أنّه تعالى لا يعارض ذات التناجي ، لعلمه بضـــرورته وحقّانيّته من قبل المخلصـــين ، وفي بعض موارده ، رحم الـذين لا يجـدون ، وتـاب على الـذين أشفقوا.

(**فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ**)

ممّا يـــدلّ على تقصـــير لـــدى المعـــنيّين بهـــذه الآية الكريمـــة. ومن مصـــاديق الرحمة هنـــاك والتوبة هنا نسخ فريضة الصدقة عند النجوى ، وبالتـالي إرجـاع المسـلمين إلى واجبـــاتهم الأولية ، وأهمّها الصـــلاة كرمز للجـــانب العبـادي والـروحي عند الإنسـان المـؤمن ، والزكـاة كرمز لتعبّـده الاقتصـادي الاجتمـاعي ، والطاعة لله وللرسـول كرمز للالتزام السياسي في الحياة.

(**فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**)

بتمام المعنى ، إذ لا يقوم إلّا الصحيح ، وإقامة الصلاة فيما يعـني انعكاسـها على السـلوك والالـتزام بقيمها في سائر أبعاد الحياة.

(**وَآتُوا الزَّكاةَ**)

تكـــافلا مع المعـــوزين ، ودعما لاقتصـــاد المجتمع ، وبالتالي تطهيرا للمجتمع من الآثار السلبية للعوز والحاجة ، وتزكية للنفس من أعقد مشاكلها وهي الشح.

(**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**)

ولعـلّ في هـذه الآية بـدائل للمضـامين السـيئة في النجوى الحرام ، فبإقامة الصـلاة يتطهر الإنسـان من الإثم ، والزكاة (العلاقة الإيجابية مع المجتمع) بديل للعدوان

عليه ، والطاعة بديل لمعصـية الرسـول ، فهنـاك نهي عن تلك ، وهنا دعــوة لنقائضــها ، كما أنّ الآية تفســير عملي لمعنى البرّ والتقوى وتقوى الله الواردة في الآية.

(**وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

فإن التزم بـالأمر الإلهي أثابه وجـزاه خـيرا في الـدنيا والآخرة ، وإلّا عاقبه وعذّبه.

أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمـاً غَضِـبَ اللـهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُـــونَ عَلَى الْكَـــذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمـانَهُمْ جُنَّةً فَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ فَلَهُمْ عَـذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْـوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللـهِ شَـيْئاً أُولئِكَ أَصْـحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللـهُ جَمِيعـاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُـونَ لَكُمْ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَــيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكـاذِبُونَ (18) اسْــتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ

---

16 [جنّة] : ترسا وسـترا ، والجنّة : السـترة الـتي تقي البليّة ، وأصـلها السـتر ، ومنها المجنّ : أي الـترس ، وسـمي الجـنين جنينا لأنّه مسـتور في الأرحام ، وكذا سميت الجنّ جنّا لاستتارها.

[اسـتحوذ] : اسـتولى وتسـلّط على مجـامع قلـوبهم ، والاسـتحواذ : الاسـتيلاء على الشـيء وتملّكه بالاقتطـاع له ، وأصل الاسـتحواذ : حـاذ يحوذ حوذا فهو مستحوذ.

اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِــرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَـادُّونَ اللــهَ وَرَسُــولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لا تَجِدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِاللــهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آبـاءَهُمْ أَوْ أَبْنـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ خالِـدِينَ فِيها رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللــهِ أَلا إِنَّ حِـزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22))

أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ

هدى من الآيات :

في سـياق الحـديث عن مصـدر الإيمـان في واقع الإنسان ، وضـرورة تحسسه الـدائم بشـهادة الله سـبحانه عليه ، نتسائل : ما هو المقيـاس الحق للإيمـان الصـادق ، وللانتماء الصحيح إلى تجمّع المؤمنين؟

يـزعم الكثـير أنّه يتلخّص في الممارسـات القشـرية للـدّين ، ولأنّه يصـلّي ويصـوم ويحج يحسب أنّه من أوليـاء الله ، ومن حزبه المفلحين ، بينما ينبغي لنا أن نرجع إلى القرآن الحكيم الذي هو الفرقان والميزان في كلّ قضيّة ، ونتخذ المقـاييس من آياته ، وإنّه ليؤكّد في هـذا الـدرس وفي الكثير من الآيـات والمواضـيع أنّ أهم وأبـرز محتـوى ومقياس للإيمان وللانتمـاء الحقيقي للمؤمـنين هو التـولّي الصادق والعملي الحـزب المؤمـنين وقيـادتهم الرسـالية ، أمّا أولئك الـذين يـدّعون الإيمـان في الظـاهر ولكنّهم يحتفظـون بوشـائج حميمة نفسـية وسياسـية مع حـزب الشـيطان (أعـداء الرسـالة من الكفـار والمشـركين والمنافقين) فإنّهم وإن حلفوا بالإيمان المغلّظة ، وتكلّفـوا إظهار صدق

الايمان والانتماء والولاء ، ليسوا إلا من حـزب الشـيطان ، وســوف يعــذّبهم الله ، دون أن يســتطيعوا التهــرّب من عذابه بوســيلة ، ولا خداعه بيمين وحلف ، لأنّه الشـــاهد على كلّ شيء والعليم الخبير به ، وهو يعلم بواقعهم الذي ينطــوي على الــولاء لأعــداء الله والرســالة ، وأعــداء المؤمنين والقيادة الرسـالية ، بحثا عن العـزّة والشـرف ، فكيف يكون هؤلاء من المؤمـنين الصـادقين وهم يحـادّون الله ورسـوله بهـذا العمل القـذر ، ويتخلّفـون عن حـدوده وأحكامـه؟ أم كيف ينـالون عـزّة وليست إلّا لله ولرسـوله وللمؤمنين؟ كلّا .. إنّهم ليسوا من المؤمنين ، ولن يصـيروا إلا إلى ذلّ بعد ذل.

بلى. إنّ هؤلاء المنافقين المزدوجين الشخصـية كـانوا يبحثــون عن المناصب والرفعة باعتبــارهم الأكــثر مــالا ، وأتباعا ، ولما في نفوســـهم من المـــرض ، وليس لأنّهم الأكفاء ، فراحوا يطلبون العزّة ، ويسعون لهـذه المطـامع من خلال التعاون مع أعداء الأمّة الإسلامية ، وبيع أنفسهم عمالة لهم ، لعلّهم ينتصـــــرون جميعا على الرســـول ، ويطفؤون شـعلة الرسـالة ، فتتحقق مطـامعهم ، وينـالون أغراضهم المشـؤومة ، وقد غـاب عن هـؤلاء أنّ الله صـاغ الوجود على أساس انتصار الحق ، وكتب ذلك في سـننه ، وحتّم تنفيذه بقوته ، وأراد لنفسه ولحزبه العزّة ، ولأعدائه الهزيمة والذل.

وختاما للســـورة ولهـــذا الســـياق يحـــدّد الله أهمّ المواصـــفات للمؤمـــنين الحقيقـــيين ، الـــذين هم حزبه المفلحون ، وأهمها بعد الإيمان بالله واليـوم الآخر التـبرّي من أعداء الله ورسوله ورسالته ، لا يميّـزون في ذلك بين أحد وأحد ، إنّما يعادون من أجل تولّيهم وانتمائهم كلّ عدو «**وَلَــوْ كــانُوا آبــاءَهُمْ أَوْ أَبْنــاءَهُمْ أَوْ إِخْــوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**» ، ممّا يـدلّ على تجـذّر الإيمـان في قلـوبهم ، وإخلاصهم للحق ، وتأييد الله لهم بروح منه ، لأنّهم أولياؤه بحـــــــــــــــــقّ وصـــــــــــــــــــــــدق.
«**أُولئِكَ حِـزْبُ اللــهِ**» الــذين يسـتحقّون تأييــده وجناته ورضوانه ، وذلك هو الفلاح.

بيّنات من الآيات :

[14] كما يكنّ المنـافقون العـداء للأمّة الإسـلامية ، وللرسـول والرسـالة ، ويتحرّكـون على الصـعيد الـداخلي لإيجـاد حركة سـرّية معارضة للحركة الرسـالية المباركة ، وتيّـار اجتمـاعيّ عـاص لقيادتها ، فـإنّهم على الصـعيد الخـارجي يعقـدون ولاءهم للقـوى المعادية للأمّة ، وبازدواجية الـولاء تطمع هـذه الفئة تثـبيت مركـزهم الاجتماعي والسياسي.

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ**)

وذلك أنّ المنـافقين يومئذ تحـالفوا مع اليهـود ، وأظهـروا العمالة لهم (الـولاء) ، بـالقلب حبّا ، وبالعمل طاعة. واليهود ليسوا إلّا مصـداقا للـذين غضب الله عليهم ، كما أنّ الذين تولّوهم من مصـاديق النفـاق والمنـافقين ، وإلّا فهذا الواقع قائم بكلا مصـداقية في عصـرنا الحاضر ، ولكن بصـور ومصـاديق مختلفة ، فهنـاك الأحـزاب والشخصيات الضالّة الـتي تـوالي أعـداء الأمّة في الغـرب والشرق.

ومن طبيعة المنـافقين أنّهم لا يفصـحون عن ولاءاتهم الحقيقية ، إنّما يتظـاهرون بين المسـلمين ولـدي القيـادة بمظهر المخلص ، حتى أنّهم يتكلّفون أكثر من غـيرهم في ادّعـاء الإيمـان والإخلاص خشـية الفضـيحة. ولكنّ ذلك لا يغيّر من الواقع شيئا ، وماذا يبقى للذي يـوالي أعـداء الله من الإسـلام حـتى يدّعيـه؟ بلى. قد يصـلّي المنـافقون ويصـومون ويحجّـون وما أشـبه ، ولكنّ ذلك كلّه لا يسـوى عند الله شيئا ما دامت العبادات مفرغة من أهم مضامينها وقيمها يعني التـولّي ، ولـذلك ينفي القـرآن انتمـاءهم إلى المسلمين رغم المظاهر الدينية في سلوكهم.

(**ما هُمْ مِنْكُمْ**)

لأنهم يفقـدون أهم قيم الانتمـاء الحقيقي وشـروطه وهو التـولّي لله وللقيـادة الرسـالية وللمؤمـنين ، وكيف تكـون الأحزاب والحكومات والشخصيات الخائنة جـزءا من الأمّة وهي تقف حربا عليها مع الأعداء؟! أترى من يتولّى حـزب الشـيطان (القـوى الاسـتكبارية) الـذي غضب الله عليهم ، ويبيع إنسانيّته وأمّته وثروات شعبه لهم ، يكـون مسـلما؟! كلّا .. إنّما هو مشمول بغضب الله مثلهم.

(**وَلا مِنْهُمْ**)

ماذا تعني هذه الكلمة؟

إنّ الأعـداء لا يتعـاملون معهم كأنـداد ، فـإنّ اليهـود لا يقبلـون بعنصـريتهم أن ينتمي أحد إليهم ، وكـذلك القـوى الاسـتكبارية اليـوم تتعامل مع عملائها من الحكّـام الظلمة على أنّهم ليسوا سـوى كلاب تحمي مصـالحها ، ثمّ أنّهم لا يدافعون عن مبدء أو خط سياسي واضح ـ كما الأعـداء ـ إنّما يـدافعون عن أنفسـهم ويسـعون وراء مصـالحهم فلا أحد يقبلهم ، بلى. إنّهم في النهاية يلحقـون بالأعـداء في نظر الإسـلام كما قـال ربّنا سـبحانه :

(**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**). [1]

(**وَيَحْلِفُونَ**)

بكـلّ ما يـؤدّي غـرض الحلف ، من قسم ، وتظـاهر بالإسلام تكلّفا من خلال الشعارات.

(**عَلَى الْكَذِبِ**)

يعني ادّعاء الإسلام والإيمان.

---

(1) المائدة / 51

(**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**)

أنّهم ليسوا على شيء من الإسلام ، وليسوا من المسلمين ، إنّما يريدون بذلك تضليل الآخرين عن أهدافهم الحقيقية لعلمهم بأنّ وعي الأمّة بواقعهم كفيل بإسقاطهم ، وإحباط مؤامراتهم ، وإنّنا لنشاهد اليوم صورة لهذا الخط يمثّلها الحكّام المنافقون ، والحركات المتغرّبة الذين يتظاهرون بشعارات إسلامية مكرا وكذبا.

[15 ـ 16] وهؤلاء جميعا وأمثالهم يتوعّدهم الله بالعذاب الشديد جزاء أعمالهم السيئة.

(**أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً**)

وإعداد الله لا يعني التكلّف تعالى عن ذلك علوّا كبيرا ، إنّما هم يقبلون على عذاب مهئ ينتظرهم ، وإذا استطاعوا الهرب عن لومة اللائمين في الدنيا ، وردّات فعل المؤمنين ، فإنهم لن يفلتوا من جزاء الله على أسوأ الأعمال وأقذرها وهو النفاق والازدواجية في الشخصية والانتماء.

(**إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

إذ يتولّون أعداء الأمّة الإسلامية ، وأعداء الله ، ويتسترون بالنفاق ، والحلف بالأيمان ، وقد جاء في الأخبار أنّهم كانوا يتجسسون لصالح اليهود ، فيرفعون لهم أخبار الأمّة وأسرارها الحساسة ، كما هو حال المنافقين في كلّ عصر ومصر ، وجاء في بعض الأخبار أنّهم كانوا يكتبون ما في التوراة وينشرونها بين المسلمين ممّا يحدث عندهم بلبلة فكرية.

(**اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً**)

أي تـدرعوا بـالحلف والأقسـام المغلّظة ، واسـتتروا بمظـاهر الإيمـان ، حـتى لا تنكشف سـرائرهم وحقيقتهم للأمّة الإسلامية ، وراحوا يعملون لتحقيق أهدافهم الخيانية السـيئة ، ويـزدادون بـذلك ضـلالا إلى ضـلالهم ، ويضـلّون بأساليبهم المـاكرة من يسـتطيعون من النـاس ، وبالـذّات أولئك البسطاء الذين تخدعهم المظاهر لقلّة وعيهم.

(**فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

أنفسهم وغيرهم ، وهم إنّما نافقوا وتسـتروا بالأيمـان لكي يبعدوا عن أنفسهم ذلّ الدنيا بالفضـيحة والخـزي عند المؤمنين ، ولكي يبلغـوا ما يتصـور ونه عـزّا وكرامة ، من المناصب والمغـانم الدنيوية ، ولـذلك فـإنّهم يسـتحقّون إضافة إلى الشدة في العذاب أن يكون مهينا.

(**فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**)

ويبقى سؤال : ما هو سبيل الله الـذي صـدّوا عنـه؟ لا ريب أنّ كلّ خير هو سـبيل الله بيد أن أقـرب السـبل إليه الجهاد في سبيله ، وهو الأشـهر اسـتخداما في النصـوص. وإنّها لسمة بارزة لخط النفاق تقاعسه عن الجهاد ، وصـدّ الناس عنه بالإشاعات الباطلة أو بوسائل أخرى.

ولقد أوضح القرآن في هـذه الآيـات ملامح المنـافقين لكي نميّـزهم عن الصـادقين ، ونقضي بـذلك على أعصى عقدة في المجتمع الإسلامي وأكبر خطر.

[17 ـ 18] أمّا عن جـذر مشـكلة النفـاق ، والتـولّي لأعـداء الله ، فإنّه حطـام الـدنيا وزينتها ممّا يلهث وراءه الإنسـان بطبعه وهـواه ، وحينما نتـدبّر القـرآن ، ونقـوم بدراسة للواقع الاجتمـاعي والسياسي لتـأريخ الأمم فإنّنا نجد أنّ طائفة كبيرة من

المنــافقين ، وبالــذات الــرؤوس فيهم ، هم من أصــحاب المـال والقـوّة ، ويؤكّد ربّنا أنّ شـيئا من حطـام الـدنيا لن ينفعهم إذا حــلّ بهم عذابه ، أو عرضــوا على النّــار يــوم القيامة ، لأنّ ما ينفع الإنســان هنالك عمله الصــالح وليس المال والأعوان.

(**لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْــوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللــهِ شَيْئاً**)

ولو افتــــــدوا بملىء الأرض ذهبا ، ولو اجتمع الإنس والجنّ لنصــــرتهم ، ولعلّنا نفهم من الآية أنّهم يوظّفــــون الأمــوال والأنصــار من أجل أهــدافهم القــذرة ، أو أنّهم يتحصــنون بهما ـــ كما يفعل الطــواغيت والظلمة ـــ عن الفضيحة والأذى في الدنيا.

(**أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**)

نعم. إنّ المنـافقين قد يتنعّمـون في الـدنيا ، وينـالون نصــيبا من زينتها ، ولكنّهم في الآخــرة لا نصــيب لهم إلّا العـذاب المسـتمر ، وقوله تعـالى «لن تغـني» نفيا قاطعا مؤكّدا مؤبدا ، فيه إشارة إلى كونها تغـني عنهم في الـدنيا شيئا محدودا.

ثم يضع القرآن أمامنا صورة للمنـافقين في الآخـرة ، إذ يحلفــــون لله طمعا في النجــــاة بالمخادعة ، ذلك أنّ الحلف والأيمان ربما تصلح جنّة في الـدنيا وأمـام النـاس ، أمّا الله فإنّه قد أحــاط شــهادة وعلما بكــلّ شــيء ، ولو أدرك الإنسان هذه الحقيقة بعمق لترك النفاق.

(**يَــوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللــهُ جَمِيعــاً فَيَحْلِفُــونَ لَــهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ**)

فيقولون : (**وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْــرِكِينَ**) [1] إصــرارا على النفــــاق المتأصّــــل فيهم ، وطمعا في الخلاص من الفضــيحة والعــذاب. وهــذه الآية تهــدينا إلى حقيقة مهمّة وهي

---

(1) الأنعام / 23

أنّ الإنســان يبعث بخلقياته وطبائعه الــتي يمــوت عليها ، بلى. ليس يبعث الإنســان بجســمه وحسب ، بل وبكــلّ خصائصه النفســية والســلوكية ، فــترى الكــاذبين يومئذ بــأفواه نتنة ، والمتكبّــرين في صــورة ذرّ يطــأهم النــاس بالأقــدام ، والمنــافقين بــوجهين لازدواج شخصــيتهم في الدنيا.

(**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ**)

أي شيء من شأنه يمضي مكرهم وخـداعهم عند الله ، قدرة ، أو مالا ، أو نصـيرا ، أو ما أشـبه ، كلّا .. فـإنّ الله لا تخدعه المظاهر ، ولا الإعلانات ، ولا .. ولا ... لأنّه شهيد على سرّهم وجهـرهم ، عليم بحقيقتهم ، خبـير بما عملـوا وما يعملون.

(**أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ**)

عند أنفســـهم إذ «**يَحْلِفُـــونَ عَلَى الْكَـــذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**» ، وعند الله الذي لا تخفى عليه خافيــة. وحلفهم الباطل هو جزء من كذبهم.

والآية تهدينا إلى نسف قاعدة النفـاق ألا وهي الـزعم بأنّ الإيمـان هو هـذه الممارسـات القشـرية ، هـذه اللحى المرســلة ، والثيــاب القصــيرة ، والشــعارات الفارغة ، والأيمان المغلّظة ، والمبالغة في ادّعـاء الالـتزام بالـدّين ، كلّا .. إنّ كلّ ذلك ليس من الإيمـان في شـيء ما دام في القلب مودّة للكفّار ، وولاء لهم!

لأنّ الإيمان ـ أصل الإيمان ـ هو تـولّي الله وأوليـاءه ، والبراءة من أعداء الله.

[19] ثم يــبيّن القــرآن واحـــدا من العوامل الخفية والمهمة الـــتي تقف وراء شخصـــيتهم التافهـــة. إنّه استسلامهم للشيطان ، يسوقهم سوقا حثيثا حيث يشاء.

(**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ**)

لأنّهم ضـعفوا أمـام إغراءاته وتحريضـاته وأسـاليبه ، والشـيطان ليس الجنّي وحسب ، بل هو كـلّ أحد يـدعو الإنسان إلى معصية ربّه ، كعلماء السوء ، ووسائل الاعلام المضـلّلة ، والأنظمة المنحرفة ، وكـذلك الأحـزاب والحركـات الضـالّة. ولا يتسـلّط على أحد ما دام يملك الإيمان. أو ليس الإيمان حصن الاسـتقلال؟ أو جنّة للفـؤاد من الفتن والشـهوات ، فـإذا فقد البشر ثقته بالله وتوكّله عليه عند عصف الشـهوات ، وتواصل الضـغوط ، فـأنّى له الصمود؟ إنّه يضحى كما الريشة في بؤرة الزوبعة ، فاقـدا لأيّة إرادة أو أصـالة وتفكـير ، يستسـلم لمن يسـوقه من شياطين الجنّ والإنس.

والإنسـان لا يمكن أن يعيش فراغا قياديّا ، فهو إن لم يناصر الحق ، ويـوالي قيادته ، وينتمي إلى تجمّعه ، نصر الباطل ووالى رمـوزه ، وانتمى إلى تيّـاره ، وقد رفض المنـافقون الخـطّ الأوّل ، واتبعـوا أهـواءهم وشـهواتهم ، فوقعـوا في أشـراك الشـيطان ، وتمكّن منهم إلى أقصى حـد. وقـالوا في معـنى كلمة «اسـتحوذ» أنّها من أحـوذ الشيء أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقـوي عليهم.وقـال بعضـهم : إنّه من الحـوذ وهو ظـاهر فخذ الإبل حيث تسـاق من خلال ذلك المحـل. والمراد واضح وهو الغلبة عليهم.

(**فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ**)

في قلوبهم وسلوكهم وواقعهم العملي. وحيث أنّ في ذكره تعـالى فـإنّ نسـيانه خسـارة عظيمة للإنسـان ، وإنّه ليبـدأ في الإضـلال من أصـغر الأمـور خطـوة بعد خطـوة يتمكّن من صـاحبه ، بشـتّى الأسـاليب المـاكرة ، وأهمّها تـزيين الـدنيا والـذنوب لديه ، وإثـارة التمنّيـات في قلبه ، وبعثه نحوها ، ومزج الحقّ بالباطل قال أمير المؤمنين

(عليه السلام) : «أيّها النـاس إنّما بـدء وقـوع الفتن أهـواء تتّبع وأحكـام تبتـدع .. فلو أنّ الباطل خلص لم يخف على ذي حجى ، ولو أنّ الحق خلص لم يكن اختلاف ، ولكن يؤخذ من هذا ضـغث ومن هـذا ضـغث فيمزجـان فيجيئـان معا ، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ، ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» [1]

ويتمّ اســــتحواذه حينما ينسي الإنســــان ذكر ربّه وشــهادته عليه ، وعقابه وثوابه وســعة رحمته ، وشــدّة عذابه ، وما أشــــبه ، لأنّ ذكر الله هو الــــذي يعصم عن الذنب ، ويدفع إلى الطاعة والتوبة ، قـال الإمـام الصـادق (عليه الســلام) : «لمّا نــزلت هــذه الآية : (**وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُـوا فاحِشَــةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَـرُوا اللـهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**) صـعد إبليس جبلا بمكّة يقـال له : ثور ، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فـاجتمعوا إليه ، فقـالوا : يا سيدنا لم دعوتنا؟ قـال : نـزلت هـذه الآية ، فمن لهـا؟ فقـام عفـريت من الشـياطين فقـال : أنا لها بكـذا وكـذا ، قال : لست لها ، فقام آخر فقـال مثل ذلك ، فقـال لست لها ، فقال الوسواس الخنّاس : أنا لها ، قال : بماذا؟ قـال : أعـدهم وأمنّيهم حـتى يواقعـوا الخطيئة ، فـإذا واقعـوا الخطيئة أنسـاهم الاسـتغفار ، فقـال : أنت لها ، فوكّله بها إلى يوم القيامة» [2] ، وإذا نسي أحد ذكر الله ليس يبقى على خطئه وضــــلاله وحسب ، بل ويظل دون منقذ في ربقة الشيطان وأسـره يهـوي به دركا بعد آخر إلى أسـفل سافلين.

(**أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ**)

في الــدنيا لأنّهم يتولّونه ويطيعونه ويتوجّهــون حيث يريد ، وفي الآخرة لأنّهم سيصيرون معه في النـار ، وهـذا تقرير من قبل الله بأنّهم ليسوا من حزبه ، بالرغم من

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 267

(2) بح / ج 63 ص 197

انتمـــائهم الظـــاهر إليه ، وكيف يكونـــون من حزبه وهم يفقــدون أهمّ شــروط ومضــامين الانتمــاء الحقيقي وهو التـــولّي لأوليائه والطاعة للإمامة الرســـالية؟! وحـــزب الشــــــيطان ليس تجمّعا ولا تنظيما بذاته ، بل هو الجبهة العريضة والممتــدة عــبر الــزمن لقيم الباطل ورمــوزه وتجمّعاته بشتى مصاديقها وطبائعها ، والــتي يناصــرها في الظــاهر القيــادات المنحرفة ، السياســية والاقتصــادية ، والفكرية والعسكرية ، و.. ، وفي الخفاء تنتمي إلى إبليس الرجيم.

(**أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

في الدنيا لأنّهم يواجهون ذلّ الانحـراف والهزيمة على أيدي المؤمنين (حزب الله) ، وتتجسّد خســارتهم العظمى في الآخــرة ، حيث يصــيرون جميعا هم والشــيطان إلى عذاب الذلّ والهوان خالـدين فيـه. وقد أكّد الله خسـارتهم لأنّهم إنّما تولّوا رموز حزبهم ، وانتموا إليه رغبة عن حزب الله وأوليائه ، وتركـــــوا الحـــــقّ إلى الباطل ، من أجل المكاسب والربح ، ولن يفلحوا في بلوغ ذلك أبدا.

[20 ـ 22] ويؤكّد القرآن الحكيم مرّة أخـرى خسـارة حـزب الشـيطان ، والـذين ينتمـون إليه ، لمعـاداتهم الله بترك رسالته ، ومعاداتهم رسوله بمعصيته وتـرك التسـليم لقيادته ، حيث يصيرون من أكثر الناس ذلّة وصغارا.

(**إِنَّ الَّذِينَ يُحَــادُّونَ اللـــهَ وَرَسُــولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ**)

لأنّ الله اختص بـالعزّة وخصّ بها رسـوله والمؤمـنين (حـــــــــزب اللـــــــــه) وليســـــــــوا منهم ، (**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكـافِرِينَ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِ الْمُـؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعـاً**) [1] ، ثمّ أن السـبيل إلى العـزة الحقيقية هو تطـبيق الحق ، وليس اتباع الباطل والأهواء ، وقد نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتبعوا الشيطان

(1) النساء / 139

ولعلّ الآية تهدينا إلى أنّ هؤلاء المنافقين يعيشون في داخلهم شعور الضعة والحقارة والـذل ، ممّا يـدفعهم بنـاء على ظنونهم وتصوّراتهم الخاطئة إلى التـولّي لأعـداء الله بحثا عن القـوّة والعـزّة ، ويتمسّـك المؤمنـون الصـادقون بولائهم وانتمائهم لله ولحزبه وقيادته ، لاعتقـادهم الراسخ بانّ ذلك هو السبيل إلى العزّة والقوّة (الفلاح).

وتظهر ذلّة الكفّـــار بصـــورة أجلى حينما يصـــبّ الله عليهم العـذاب المهين ، فلا تبقى لهم كرامة بين النـاس ، ولا في أنفســهم ، إلّا أنّ مشـيئته تعـالى بـإذلالهم ليست محصـــورة في الآخـــرة ، وكـــذلك عزّته لحزبه ، بل هما مفروضـتان ومحتومتـان في الـدنيا أيضا ، وتتجلّيـات في نصـــره ســبحانه لحزبه ، وإنّ ذلك حــقّ محتّم ، خلق الله الحياة على أساسه ، وفرضه بإرادته.

(**كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**)

أي فــرض وأثبت ، كقوله : (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّــيامُ**) [1] ، و(**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ**) [2] ، ولا مبدّل لما يكتب الله ، لأنّه الإرادة المطلقـــة. وفي الآية تأكيـــدات أربعة : الفعل «كتب» ، ولام التوكيد ، والنـون في «لأغلبنّ» ، والضـمير المنفصل «أنـا» ، وكل ذلك حـتى يطمئنّ المؤمنـون بنصر الله لهم رغم كلّ التحدّيات ، والظــروف المعاكسة ، حيث يقفــون بالعــدد القليل ، والعــدّة المحــدودة ، في مقابل حـــزب الشـــيطان بأعـــداده الكثـــيرة وإمكاناته المادية والمعنوية الهائلة ، ويعلمــــون أنّهم سينصــــرون عليه ، وســـتكون الغلبة لصــــالحهم ، لأنّهم إن قلّـــوا ، وقلّت إمكاناتهم ، مؤيّدون بإرادة الغيب المطلقة.

(**إِنَّ اللهَ قَوِيٌ**)

---

(1) البقرة / 183

(2) البقرة / 216

لا يغلبه أحد ، وينتصر على كلّ عدو.

(**عَزِيزٌ**)

لا يقبل الذلّة لنفسه ولا لرسـوله وأوليائه والمؤمـنين (حزبـه). وهـذه تأكيـدات ثلاثة أخـرى : «إنّ» ، «قـوي» ، «عزيز» ، وما أحوج الحركات الرسـالية الـتي تقف اليـوم بإمكاناتها المحـدودة تقاتل الشـرق والغـرب وأذيالهما من الأنظمة الفاسـدة ، ما أحوجها أن تتطلّع إلى هـذه الآية الكريمة ، وتجعل منها بلسما لكـلّ عوامل اليـأس والـتردّد والانسـحاب ، بلى. إنّهم مـدجّجون بمختلف الأسـلحة وأحـدثها (عسـكريا ، وسياسـيا ، وإعلاميا ، ومعلوماتيّا ، واقتصاديا) ، ولكنّنا منصورون بعزّة الله وقوّته.

ومن الطـبيعي أنّه لا يصح الاعتمـاد في الصـراع على أنفسنا بعيدا عن الإيمـان بـالغيب ، لأنّ المعركة خطـيرة ، والتحـدّيات كثـيرة وصـبعة ، كما لا يجـوز أن نعتـبر الغيب بـديلا عنّا في إدارة الصـراع ، إنّما يجب أن نبـذل ما نسـتطيع من أجل الغلبة ، ثمّ نتوكّل على الله ، ويبـدو أنّ في الآية إشـارة إلى ذلك ، فـإنّ الله لم يقل : «**لَأَغْلِبَنَّ أَنَا**» وحسب ، إنّما أضـاف : «ورسـلي» ، كما تـذكّر الآية التالية بحـزب الله ، تأكيـدا على أنّ لنصر الله شـرطين : (القيادة الرسالية+ حزب الله) ، ولا يعـني أنّه لا يسـتطيع نصر الحق وتنفيذ رسـالته في الحيـاة من دون الرسـول والمؤمنين ، كلّا .. ولكنّه خلق الحيـاة على أسـاس الابتلاء والامتحان.

وباعتبـار الآية جـاءت بعد الحـديث عن الـذين يتولّـون أعـداء الله نسـتوحي منها أنّ تحـالف المنـافقين مع جبهة الشـيطان ضـدّ حـزب الله لا يمكنه أن يغيّر من المعادلة شـيئا ، فـإنّ ذلك لن يضـعف حزبه تعـالى ، ولكن يكسب أعداءه نصرا على الحـق. وقـال : «أنا ورسـلي» ، ثمّ أكّد بعدها قوّته وعزّته وحده ، لكي يؤكّد بأن غلبة الحق

ليست مرهونة في الدرجة الأولى بنصرة أحد من الناس ، إنّما تتحقّق بإرادته سبحانه ، فلو تنصّل الجميع جدلا عن مسئوليّاتهم ، بل وتحالفوا مع أعدائه ، فإنّه ينتصر للحق.
وقال : «ورسلي» ولم يذكر المؤمنين ، مع أنّهم معنيّون بالآية والغلبة ، ربما للدلالة على أنّ نصر الله للمؤمنين إنّما هو لا لاتباعهم خط الرسل ، ولم يفرد بالقول : «ورسولي» ممّا يهدينا إلى أنّ الرسالة الإسلامية امتداد حقيقي للرسالات السابقة كلّها ، وأنّ انتصارها هو انتصار لمسيرة الحقّ في الحياة ، والتي حمل مشعلها الأنبياء في التاريخ ، ونصرة الله لا تتوقّف بعد الأنبياء ، إنّما تستمر في تأييده للحركات الرسالية الصادقة (حزب الله) باعتبارها الامتداد الطبيعي لحركة الرسل ، فنصرها نصر لمسيرتهم.

وهناك ثلاثة سبل :

الأوّل : القوّة الغيبية المباشرة أو عبر الملائكة ، كما نصر نوح (عليه السلام) بإهلاك قومه ، وموسى (عليه السلام) بإغراق فرعون وجنده ، وكذلك النبي صالح والنبي شعيب (عليهما السلام) ..

الثاني : الحجة البالغة التي يسدّد بها أولياءه ، فيقتنع الناس بكلامهم ، ويعرفون أنّ رسالات ربّهم هي الحق ، كما أتمّ الحجة لنبيّه الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلم) فدخل الناس في دينه أفواجا.

الثالث وهو الذي يهمّنا : نصر الحق بالمؤمنين المتوكّلين عليه عزّ وجل ، الراغبين في الشهادة المعتصمين بحبل الوحدة والقيادة الرسالية ، والذين لا يعرفون إلّا السعي الحثيث من أجل إعلاء كلمة الحق ، وهم حزبه بحقّ وصدق.

وأهم ما يميّز حزب الله هو تجرّد أفراده للحق تعبّدا لله ، وتسليما لرسوله عن قناعة

ثابتة ورضى ، فإنّك لو فتشت في قلــوبهم ، وســلوكيّاتهم السياسية ، وحتي الاجتماعية لما وجدت أثرا لتولّي أعـداء الله في حياتهم أبدا ، لأنّ تحزبهم مخلص له وحده تعالى ، لا يتنازلون عن هذه القيمة الأساسية ، ولا يساومون عليها أحدا مهما كان قريبا منهم ، لـوعيهم العميق بـدور التـولّي في تحديد شخصية الإنسـان ، وهويّته الحقيقية ، وانتمائه ، كما قال الله :

(**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ**)

إيمان قناعة وتوحيد ، أو يوقنون بالحساب والجزاء.

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**)

إنّك لا تجد من هذه صفتهم ،

(**يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**)

فـذلك شـرك وكفر لا تقبله نفوسـهم المؤمنة بالله ، وذنب عظيم يخشون غضب الله عليهم بسببه في الآخـرة ، والحال أنّهم يبحثون عن السعادة والفلاح فيهـا. وبـالنظر إلى الآية من زاوية أخرى يكون المفهـوم أنّ الـذي يتـولّى أعـــداء الله أو يحبّهم ليس من المؤمـــنين ، وأنّ أهم العوامل الــتي تـدفع المنـافقين ومرضى النفـوس إلى الإقـدام على ذلك هو شـكّهم في الله والجـزاء ، وكفـرهم بهما ، وأنّهم اسـتبدلوا الإيمـان بالله بالشـرك والكفر ، والدنيا بالآخرة. أمّا المؤمنون الصادقون (حزب اللـه) فهم يتولّـون ربّهم وخلفـاءه من القيـادات الرسـالية ، ويمنعهم إيمانهم به وبالآخرة أن يتولّوا من حادّه.

(**وَلَـوْ كـانُوا آبـاءَهُمْ أَوْ أَبْنـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**)

لأنّهم لا تعمل العواطف ولا الضـغوط في شخصـياتهم وسلوكيّاتهم ومواقفهم ،

إنّما يبحثـون عن الحق ويطيقونه ، وعن القيـادة الكفـوءة المحقّة فيوالونها ، وعن التجمّع الرســالي فينتمــون إليه ، ويسـخّرون كـلّ إمكانـاتهم من أجل ذلك ، لا تأخـذهم في الله لومة لائم. ولا ريب أنّ ذلك أمر تصــــــــعب دونه التحــدّيات الــتي تحتــاج إلى الإرادة القويّة ، والتوفيق من الله ، ولذلك أكد القرآن بالقول :

(**أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ**)

أي أثبت الله الإيمـان في نفوسـهم ، لما وجـده فيهم من الأهليّة ، حيث تجــردوا له وللحق عن كــلّ شــيء ســواهما. والإيمــان الــذي يكتب في القلب هو الأهم والأرسخ والاصدق من الذي يظهر في الجوارح.

(**وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**)

فاجتمعت فيهم ثلاث قوى : (إرادتهم+ قوّة الإيمان+ تأييد الله) ، فإذا بهم ينتصرون على التحدّيات ، ويخرجـون من أمتن الصلاة وأعمق الانتمـاءات تجـذّرا (الصـلة بالآبـاء والأبنــاء والإخــوان ، والانتمــاء إلى العشــيرة والــوطن والقوميـة) إلى الانتمـاء الرسـالي والصـلاة بـالحق وأهلـه. ويبدو أنّ هذه الكلمة تعاكس تلك التي ذكـرت في صـفات المنافقين من أن الشيطان اسـتحوذ عليهم فأنسـاهم ذكر الله ، فهنـاك لا تجد ذرّة من الاسـتقلال والعـزّة والإرادة ، بينما لا تجد هنا شيئا من التراخي والضعف والذل ، وليس الفاصل بينهما إلّا الإيمان الحقّ بربّ العزّة.

أمّا عن الـروح الـتي يؤيّـدهم بها الله ، وتثبّت الإيمـان فيهم ، وينتصــرون بها على التحــدّيات ، فإنّها تعبــير عن الشيء الذي يعطي الحياة الحقيقية للإنسـان ، وحياته في التزامه بـالحق ، ومن أظهر مصـاديقها روح الإيمـان الـتي تحملها إليهم وتركزها فيهم آيـات الله ، ويبعثها في روعهم الإيمان المكتوب في القلوب ، قال تعالى : (**يا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذا دَعـاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ) [1] ، ومن مصاديق روح التأييد الإلهي ملائكة الله ، وإليك جانبا من النصوص الواردة في تفسـير تلك الكلمة :

قال الإمام الصادق (عليه السلام) : «**هو الإيمـان**» [2].

وقـال : «ما من مـؤمن إلّا ولقلبه أذنـان في جوفه : أذن ينفث فيه الوسواس الخناس ، وأذن ينفث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك» [3] ثمّ تلا الآية.

وقال الإمام أبو الحسن الهـادي (عليه السـلام) : «**إنّ الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح منه تحضره في كـلّ وقت يحسن فيه ويتقي ، ويغيب عنه في كـلّ وقت يذنب فيه ويعتدي ، فهي معه تهتزّ سرورا عند إحسانه ، وتسيح في الثرى عند إسـاءته ، فتعاهـدوا عبـاد الله نعمه بإصـلاحكم أنفسـكم تـزدادوا يقينا ، وتربحـوا نفيسا ثمينا ، رحم الله امـرءا أهمّ بخـير فعمله ، أو هم بشر فارتـدع عنه ، ثم قـال : نحن نؤيّد بالروح بالطاعة لله والعمل له**» [4].

ولقد تجلّت مصـاديق الإيمـان الثـابت والتأييد الإلهي في الصـحابة المخلصـين لرسـول الله ، إذ خرجـوا من العلاقـات العاطفية والاجتماعية والسياسـية ، وكـذلك الانتماءات القبلية والعرقية و.. و.. لتكـون علاقتهم بـالحقّ وحده ، وانتمـاؤهم إلى حـزب الله ، ومن أجل ذلك وقفـوا يقـاتلون آبـاءهم ، وأبنـاءهم ، وإخـوانهم ، وقبـائلهم ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقول أمـير المؤمـنين (عليه السلام) : «ولقد كنّا مع رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسلم) نقتل آباءنا ، وأبناءنا ، وإخواننا ، وأعمامنا ،

---

(1) الأنفال / 24
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 269
(3) المصدر
(4) المصدر

ما يزيــدنا ذلك إلّا إيمانا وتســليما ، ومضــيّا على اللقم ، وصبرا على مضض الألم ، وجدّا في جهاد العدو» [1]

وجـــاء في الســـيرة أنّ عبد الله بن عبد الله بن أبي جلس إلى النـبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، فشـرب النـبي مـاء ، فقـال له : بالله يا رسـول الله ما أبقيت من شـرابك فضـلة أسـقيها أبي ، لعـلّ الله يطهّر بها قلبـه؟ فأفضل له ، فأتاه بها ، فقال له عبد الله : ما هذا؟ فقال : هي فضلة من شراب النبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) جئتك بها تشربها لعلّ الله يطهّر قلبك بها ، فقال له أبوه : فهلّا جئتـني ببـول أمّك فإنّه أطهر منهـا!! فغضب (ابنـه) وجاء إلى النبي ، وقال : يا رسـول اللـه! أما أذنت لي في قتل أبي؟ فقال النبي : «بل ترفق به ، وتحسن إليه» [2]

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِـدِينَ فِيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)

لصـــدقهم معه ، وإخلاصـــهم له ، ونصـــرتهم لدينه ورسـوله ، «وَرِضْـوانٌ مِنَ اللـهِ أَكْبَـرُ» من كـلّ ثـواب وجزاء غيره .. وهم بدورهم سلّموا له.

(وَرَضُوا عَنْهُ)

معرفة به ، ورغبة في ثوابه ، فهم لا يتـــذمّرون ممّا يصيبهم ويتعرّضون له من المصـاعب والأذى في سـبيله ، لأنهم يبحثـــون عن رضـــوانه أنّى وجـــدوه ، فهو تطلّعهم الأعظم الـــــذي لا يبـــالون بالتضـــحيات من أجله ، ويسترخصون كـلّ شـيء سـواه ، لأنّهم بـاعوا أنفسـهم له تعالى ، وجعلوها رهن رضاه ، فتحزّبوا (ناصـروا وتوحّـدوا) من أجله ، تحت لـواء الحق ، والقيـادة الرسـالية ، وفي تجمّع المؤمنين ، تحبّون ما يحب

(1) نهج البلاغة / خ 56
(2) القرطبي / ج 17 ص 207

ويعملـــــون به ، ويبغضـــــون ما يبغض ويتنـــــاهون عنه ، ومقياســـهم في معرفة الباطل ومصـــاديقه (أعـــداء الله ورسوله) هو الحق المتمثّل في الرسالة ، والقيـادة الإلهية المتجسّـدة في الرسـول ، والأئمة ، والعلمـاء المخلصـين من بعدهم.

(**أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ**)

لأنّهم متجرّدون له وللحق ولقيـادة الصـالحين ، أعمق حـــتى من تمحّض المنـــافقين للشـــيطان وللباطل ولأئمة الكفر ورموزه. والـذي يبحث عن الخط الرسـالي الأصـيل ويريد الانتمـــاء إليه ، فإنّه متجسّـــد في الحركـــات الإلهية المخلصة ، القائمة على مقاطعة أعداء الله وحربهم بعيـدا عن العلاقات والتحالفات المشبوهة ، وعلى أسـاس الحق لا العنصـرية ، والقومية ، والإقليمية ، وما أشـبه ، ولا على أسـاس الصـنمية لأحد ، فـذلك كلّه شـرك خفي. وكما أنّ أفراد حزب الله الحقيقيين لا يوادّون من حادّ الله ، فـإنّهم من جـــانب آخر لا يحـــادّون من وادّه وأحبّه ، فليس من حزبه أولئك الذين ينصبون العـداء لأوليائه والمؤمـنين به ، ولا الـــذين يتخـــذون تجمّعهم بذاته مقياسا لمعرفة الحق والباطل ، لأنّها قيمة جاهلية يرفضها المؤمنـون من حـزب الله ، إنّما مقياسـهم الحق نفسه ، والقيـادة الـتي تلتزمه وتصيبه في آرائها ومواقفها. وقوله تعالى : (**أُولئِكَ**) يشير إلى الصفات الآنفة الذكر يهـدينا إلى أنّ الإنسـان والتجمّع لا يكـون من حـزب الله في شـيء بالمظـاهر كالشـكل والاسم ، إنّما بالمضـامين والصـفات ، وعليه فـإنّ حـزب الله ليس كـلّ حركة تتبنّى هـذا الاسم ، بل الحركة الـتي تجسّد تلك الصـفات في واقع الحيـاة فرديّا وجماعيا ، ولو أنّ شخصا انتمى إلى التجمّع المؤمن ، ولكنّه لم يجسـدها ، فهو ليس منه أبدا رغم انتمائه الظاهري.

ومن كلمة «حـزب» نهتـدي إلى أنّهم منسـجمون مع بعضـهم متـألفون ، تـربطهم الوشـائج المتينة الإنسـانية والإيمانية ، فإنّك لا تجد في أنفسهم حقدا ولا غلا ولا إصرا

على بعضهم وعلى إخوانهم المؤمـنين ، ولا مظهـرا لـروح الفرديـة. وعلى أسـاس هـذا التعريف الواسع لحـزب الله فإنّه لا يمكن أن نحصر مصـــاديقه في جماعة معيّنة ، إنّما هو جبهة كـلّ المؤمـنين الصـادقين. وتلك القيم والصـفات هي التي يتحصّلون بها السعادة.

(**أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

والفلاح هو السعادة بالنجاح في الوصول إلى الأهداف الحقيقية للإنسـان ، وفلاح حـزب الله في الـدنيا بالإيمـان وثمـار تطـبيق الحق والالـتزام به ، وبالانتصـار على حـزب الشيطان ، وفي الآخرة بجنّات الله ورضوانه.

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : «**من قرأ سورة الحشر لم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي ولا الحجب والسماوات والسبع والأرضون السبع والهواء والريح والطير والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلّا صلّوا عليه واستغفروا له ، وإن مات في يومه أو ليله مات شهيدا**».

نور الثقلين / ج 5 ص 271

قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : «**من قرأ هذه السورة كان من حزب الله المفلحين**».

ثواب الأعمال / ص 209

الإطار العام

تفتتح السورة بتسبيح الله وبيان عزّته التي تجلّت في دحر الكـــافرين ، وتختتم بأســـماء الله الحســـنى ، وفيما بينهما تــبيّن الأخــوة الإيمانية الــتي تشــدّ المســلمين إلى بعضهم ، بينما الكفّار تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ..

ففي الســورة إذا محــور إن يتصــلان ببعضــهما اتصــال الرافد بالينبوع ، والدوحة بجذورها الضاربة في العمق ..

ذلك أنّ تسبيح الله وتقديسه عن الشركاء ، والــذوبان في بوتقة توحيــده ، والاســتظلال تحت راية حمــده الــتي ترفــرف بأســمائه الحســنى .. كــلّ ذلك أســاس التجمّع الإيمــاني المتســامي عن حــواجز المــادة ، وجــذر لدوحة الصفات المثلى كالتكافل والإيثــار ، وينبــوع روافد الحكمة والجهاد والعزّة الإلهية.

وهكــذا تنســاب آيــات الســورة في الآذان الواعية ، فتطهّر القلوب من أضغانها ،

وتزرع الحبّ في أرجائها.

تعـــالوا نســـتقبل زخّـــات النـــور المنبعث من آياتها المباركات :

لأنّ الله قـدّوس يسـبّح له ما في السـموات والأرض فهو العزيز الحكيم.

ولأنّه عزيز فإنه قهر الذين كفـروا بالرسـالة وحاربوها من أهل الكتاب ، وأخرجهم حتى يـوم الحشر من ديـارهم بالرغم من تجذّرهم فيها ، فلم يظنّوا بأنّهم خارجون منها ، كما لم تظنوا ذلك. لمـاذا؟ لأنّهم شـاقّوا الله حينما كفـروا برسالته ، وبما شـاقّوا الرسـول. ومن آيـات عـزّة الله أنّه شديد العقاب بالنسبة إلى من يشاقّ الله.

ويشرع السـياق في بيـان أصـول التكافل الاجتمـاعي بين المسلمين عبر نقاط متواصلة :

الأولى : إنّ ما أفاءه الله على رسوله من دون حـرب فهو لله وللرسول وللمستضعفين من المسلمين.

الثانية : إنّ الهـدف من توزيع الـثروة منع تراكمها بين الأغنياء فقط.

الثالثة : الفقـراء من المهـاجرين الـذين أخرجـوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله ونصروا الله ورسـوله أولئك هم الصادقون فهم يستحقّون الفيء.

الرابعة : الذين سبقوهم إلى دار الإيمان وهم الأنصـار لا يجـدون في أنفســهم حاجة ممّا أوتـوا ، لأنّهم يـؤثرون على أنفسهم ولو كـان بهم خصاصة ، ولأنّ الله قد وقـاهم شـحّ أنفســهم ، (**وَمَنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**).

وهكـــذا تتـــدرّج آيـــات الســـورة ابتـــداء من التكافل الاجتماعي لتبلغ أسمى

مراحل الأخوة الإيمانية المتمثلة في الإيثار. ويبدو أنّ هـذه البصيرة هي محور السورة كلّها.

الخامسة : لكي تبقى مسيرة الأخوة عبر الأجيال فإن المؤمنين يستغفرون الله لمن سبقهم بالإيمان.

السادسة : إنّ المؤمـنين يـدعون ربّهم دوما أن يـنزع من صدورهم أيّ غلّ تجاه إخوتهم المؤمنين.

السـابعة : وكما يضـرب القـرآن لنا مثلا أعلى للأخـوة بين أبنـــاء البشر في قصة الأنصـــار (من أهل المدينـــة) والمهاجرين (من غيرهم) وما كـان بينهم من إيثـار وحب ، يســـوق أمثولة من واقع المنـــافقين (من أهل المدينـــة) وكفّـار أهل الكتـاب (من غـيرهم) وكيف سـادت علاقـاتهم الخيانة ، فقد وعـدوهم بـأن ينصـروهم إن هوجمـوا والله يشـهد أنّهم لكـاذبون ، كما يسـوق أمثولة أخـرى من واقع اليهـود وكيف أنّهم يفقـدون التمسك بعـزّة الله فـتراهم يرهبون منكم ، كما أنّ قلوبهم شتى فيما بينهم لأنّهم قوم لا يعقلون.

وهكـذا علاقة الشـيطان بمن يتبعه ، يـأمره بـالكفر (ويمنّيه بالنصر) ولكنّه يخذله ، ويقول : (**إِنِّي أَخافُ اللـهَ رَبَّ الْعالَمِينَ**) ، فيكون عاقبتهما النار خالدين فيها.

الثامنة : ولكي تنمو في الامّة روح التقـوى الـتي هي أصل كلّ خير فـإنّ الله يأمرنا بـأنّ ننظر مـاذا نقـدّم لـدار مقرّنا التي ننتقل إليها غدا ، ويأمرنا بـذكره أبـدا ، لأنّ من ينسى الله ينسيه الله نفسه ، وأن نسعى لنكـون من أهل بالجنة (الـتي سـبقت الإشـارة إليهم ، وكيف يـؤثرون على أنفسـهم ولو كـان بهم خصاصـة) ، وأن نحـذر مصـير أهل النار فهما لا يستويان مثل ، أصحاب الجنة هم الفائزون.

وفي ختـام الآية يتحف ربّنا رسـوله والمؤمـنين ببيـان أسـمائه الحسـنى عـبر آيـات لو أنـزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله ..

وإذا تفكرنا في هذه الأسـماء ووعيناها فـإنّ الإنصـهار في بوتقة التوحيد والخـروج من شـحّ الـذّات يكـون ممكنا بإذن الله.

سورة الحشر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُـوَ الَّذِي أَخْـرَجَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ مِنْ دِيـارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْـرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُـوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مـانِعَتُهُمْ حُصُـونُهُمْ مِنَ اللــهِ فَأَتـــاهُمُ اللـــهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـــبُوا وَقَـــذَفَ فِي قُلُـوبِهِمُ الـرُّعْبَ يُخْرِبُـونَ بُيُـوتَهُمْ بِأَيْـدِيهِمْ وَأَيْـدِي الْمُؤْمِنِينَ**

---

1 [الحشر] : الجميع مع سوق ، والمحشر : موضع الحشر ، وفي كتـاب مقـاييس اللغة : أن الحشر بمعـنى الحشر ، وفيه زيـادة معـنى ، وهو السوق والبعث والانبعـاث ، وسـميت الحشـرة حشـرة لكثرتها وانبعاثها لطلب الـرزق ، وفي مفـردات الـراغب : الحشر : إخـراج الجماعة عن مقـرهم وازعـاجهم عنه إلى الحـرب ونحوها ، ولا يقـال الحشر الا في جماعة.

فَـاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصـارِ (2) وَلَـوْ لا أَنْ كَتَبَ اللـهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَـذَّبَهُمْ فِي الـدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُـولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللـهَ فَـإِنَّ اللـهَ شَـدِيدُ الْعِقـابِ (4) ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللـهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5) وَما أَفاءَ اللهُ

---

3 [الجلاء] : هو الانكشــاف ، وأجلي عن البلد : أبعد وأخــرج ، وقيل أن الجلاء في الآية : هو رفع المانع عنهم حتى يجلوا ويخرجوا ، وفي مجمع البيان : الجلاء : الانتقال عن الديار.

5 [لينة] : النخلة ، وأصل اللينة واوا فقلبت ياء ، وقيل اللينة من الليونة ، وهي كل ثمر ليّن ، وقــــوى ذلك الـــــراغب في مفرداته ، وجمع بين المعنيين فقال : هي النخلة الليّنة الناعمة.

عَلى رَسُــولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْـهِ مِنْ خَيْـلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُـلَهُ عَلى مَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ (6) ما أَفـاءَ اللـهُ عَلى رَسُـولِهِ مِنْ أَهْـلِ الْقُـرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُــولِ وَلِــذِي الْقُـرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما

---

6 [أوجـف] : سـرعة السـير ، واوجفت الخيل أسـرعته. وقيل الوجـوف سـرعة مع اضـطراب ، واسـتدلوا بقوله : «**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَـةٌ**» أي مضطربة.

ركاب : هي الإبل ، وفي التحقيق في كلمات القرآن : الركـاب : مصـدر بمعــنى اســتقرار شــيء على آخر ، ثم صــار أســماء لكل ما يتحقق بوسيلته الحمل والنقل ، وقديما قيل هو الجمل لقوته وتحمله وصـبره ، وفي الصــحاح : يقــال : مر بنا راكب .. إذا كــان على بصــير خاصة ، والرّكاب : المطيّ واحدتها راحلة ، والمركب السفينة ، وجمعها مـراكب ، والركبان : الجماعة من راكـبي الإبل ، وقيل : ان المـركب السـفينة ، والجمل يسمى سفينة.

7 [دولة] : تداول القوم الشيء تداولا ، وهو حصـوله في زيد هـذا تـارة وفي يد هذا أخرى ، والأصل هو الانتقال.

نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ
(7) لِلْفُقَراءِ الْمُهـاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُـوا مِنْ دِيـارِهِمْ
وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُـرُونَ
اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ

هدى من الآيات :

هاجر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى يثرب ، ليتسنى له أن يبني في جوّ من الاطمئنان حركته الحضارية ، ويعدّ المؤمنين للدّور التاريخي الهام الذي ينتظرهم. ولكنه وجد مدينته محاطة بمجاميع من الأعداء لا يقولن خطرا عليه وعلى الرسالة من طغاة قريش ، وهم بنو النضير ، وبنو قريضة ، وبنو قينقاع من قبائل اليهود ، وقد أهمهم الدين الجديد باعتبارهم أصحاب رسالة سابقة ، واعتبروه خطرا على مصالحهم وكيانهم ، وربما يدفعهم العداء مع دين الإسلام الى الدخول في الحرب ضده.

وحيث لا تغيب هذه الحتميات عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقد سعى لإبراهيم المعاهدة الأمنية معهم لتحييدهم ، وليتوجّه إلى بناء الأمة الجديدة ، واعدادها لدورها الحضاري.

ولكن اليهــود نقضــوا العهد عــداوة لله ولرســوله ، وحسدا من عند أنفسهم ، وكان ذلك أن أتاهم رسول الله يستلفهم دية رجلين قتلهما رجل من أصحابه ، وكان بينهم كعب بن الأشــرف ، فلما دخل على كعب قــال : مرحبا يا أبا القاسم وأهلا ، وقــام كأنه يصــنع له الطعــام ، وحــدّث نفسه أن يقتل رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) ويتبع أصحابه ، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك ، فرجع رسـول الله (صــلّى الله عليه وآله وســـلم) الى المدينة (وقيل : انهم قالوا : نعم. يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت ، ثم خلا بعضـهم ببعض ، فقـال (كعب بن الأشـرف) : انكم لن تجــدوا الرجل على مثل حالته هــذه ، ورســول الله الى جـانب جـدار من بيـوتهم قاعد ، فقـالوا : من رجل يعلـوا على هذا البيت يلقي عليه صـخرة ، ورسـول الله في نفر من أصحابه فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقــام وقـال لأصـحابه : «لا تـبرحوا» فخـرج راجعا الى المدينة ، ولما استبطأوا النـبي (صلّى الله عليه وآله وسـلم) قـاموا في طلبه .. حـتى انتهـوا اليه فـأخبرهم الخــبر بما أرادت اليهـود من الغـدر وأمر رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسلم) محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الأشرف (فقتلــه) وأخذ رأسه [1].

وعزم (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) على قتـالهم لما وجده فيهم من العداوة والغدر ، بالذات وقد علم بالطابور الخــامس للمنــافقين الــذي يتصل بهم فقــال لمحمد بن مسلمة الأنصاري : «اذهب إلى بني النضير فـأخبرهم : أنّ الله عـزّ وجـلّ قد أخـبرني بما هممتم به من الغـدر ، فاما أن تخرجـوا من بلـدنا ، وأمّا ان تـأذنوا بحـرب» فقــالوا : نخــــــرج من بلادك ، فبعث إليهم عبد الله ابن أبي (رأس النفاق) : لا تخرجوا ، وتقيموا ، وتنابـذوا محمـدا الحـرب ، فاني أنصركم أنا وقومي وحلفائي ، فـان خـرجتم خـرجت معكم ، وان قاتلتم قـاتلت معكم (وكـان يطمع في غلبتهم على المؤمنين لما فيه من المصـلحة الماديّة له ولأعوانـه) فأقاموا وأصلحوا بينهم حصونهم ، وتهيأوا

---

(1) مجمع البيان / ج 9 ص 257

للقتـال ، وبعثـوا إلى رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسلم) : انّا لا نخرج فاصنع ما أنت صانع ، فقام رسول الله ، وكبّر وكبّر أصحابه وقال لأمير المؤمنين (عليه السلام): تقدم على بني النضير ، فأخذ أمير المؤمنين الراية وتقدم ، وجاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأحاط بحصنهم (يحاصرهم اقتصاديا ومعاشيا واجتماعيا ليستسلموا ، ولكي لا يتصلوا بقريش فتدعمهم) وغدر بهم عبد الله بن أبى ، وكان رسول الله إذا ظهر بمقدم بيوتهم حصنوا ما يليهم ، وضربوا ما يليه (حتى لا ينتفع به في شيء) وكان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خرّبه (كما تفعل الكثير من الجيوش حينما تنسحب من أي مدينة أو منطقة) وقد كان رسول الله امر بقطع نخلهم (حتى لا يستفيدوا منها في أكل ولا تحصن) فجزعوا من ذلك وقالوا : يا محمد! ان الله يأمرك بالفساد؟ ان كان لك هذا فخذه ، وان كان لنا فلا تقطعه ، فلما كان بعد ذلك قالوا : يا محمد! نخرج من بلادك فأعطنا مالنا ، (مما دل على ضعفهم وتنازلهم عن موقفهم السابق) فقال : «لا ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل» فلم يقبلوا ذلك ، فبقوا أياما ، ثم قالوا (وقد ضعفوا وتنازلوا أكثر) : نخرج ولنا ما حملت الإبل ، فقال : «لا ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئا ، فمن وجدنا معه شيئا من ذلك قتلناه» (وكان هذا الموقف الحازم والمتصلب من القيادة الرسالية يؤكد في نفوسهم الضعف وقوة المسلمين) فخرجوا على ذلك ، ودفع منهم قوم الى فدك ، ووادي القرى ، وخرج قوم منهم الى الشام [1].

وتحققت للرسول بذلك ثلاثة اهداف : قضاؤه على عدو خطير أولا ، وقطع دابر المنافقين المعتمدين عليهم وآمالهم ، وأضعاف جهتهم ثانيا ، وكسب الهيبة بين الأعداء المتبقين كقريش ثالثا. وفي البعد الاستراتيجي طهّر شبه الجزيرة من الوجود اليهودي.

---

(1) تفسير القمي / ج 2 ص 359

بينات من الآيات :

[1] معرفة الله أعظم بـــاعث للإنســـان نحو عبادته والتسليم له ، وخـير ضـمانة للاسـتقامة على ذلك ، ومنهج معرفته تنزيهه عن الشــريك ، ومعرفة أسـمائه الحسـنى لنعرف أنه سبحانه أهل للعبادة فتسلم له نفوسـنا وعقولنا وجوارحنا وقد ألهم ربنا كلّ شيء قـدرا من نـور معرفته ، فاذا بكل شيء يسبح بحمده ، «**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**».

(**سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

تسـبيحا تكوينيا بما فيها من عجز ومحدودية ، اللـذان يعنيان افتقارها الى الخالق والمدبر ، وتسبيحا عمليا حيث خضع كلّ شيء لإرادته وسـننه ، واسـتجاب لأمـره ونهيه ، تســـبيحا ناطقا كل بلســـانه ، ولو أن مخلوقا مختـــارا كالإنسان تمرد فلم يستجب لله ، ولم يتلفظ بذكره ، فانه لا يستطيع الخروج عن تسبيحه بصـورة تكوينية كما يقـاوم إرادته وسـننه ، بل ولا يمكنه البقــاء على ذلك إلى الأبد ، فــإذا لم يســتجب بإرادته واختيــاره فســوف يخضع بكل وجوده في القيامة حيث يكون الدين لله.

وشـذوذ الإنسـان عن مسـيرة الوجـود من حوله إذا رفض الاسـتجابة لربه لا يغيّر من شـأنه عـزّ وجـلّ شـيئا ، فهو بذاته مـنزّه سـواء سـبحه خلقه أم لا ، ذلك لأن تعاليه وسـموه عن الشـريك والعجز والمحدودية حقـائق ذاتية وليست مكتسبة.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

تتجلى عزته وحكمته في الوجـــود ، وفي مســـيرة البشـــرية ، وفي كتابه الـــذي تجلى فيه لخلقه ، ويؤكد القـرآن هـاتين الصـفتين في مطلع السـورة وخاتمتها لما في آياتها من

تجلياتهما ، ففيها الحـــديث عن هزيمة أعدائه ، وعن غلبته ورسـله عليهم الـذي يعكس عزته ، وفيها بيـان التـدبير ، وحكمة بعض أحكامه وتشريعاته.

[2] ويذكّر القـرآن بإحـدى الحـوادث التاريخية ، الـتي تعكس بأحـــداثها وآثارها عـــزة الله وحكمته ، حيث يضع أمامنا صـورة واقعية لغلبته ورسـله ، ويفصل فيها القـول مما يجلّي عزته وحكمته ، فبعزته كتب الهزيمة على أعدائه ، والنصر لرسوله وللمؤمنين ، وبحكمته أعطى هذا النصر الكبير للمسلمين من دون تضحيات.

(**هُـوَ الَّذِي أَخْـرَجَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ**)

والحشر هو الجمع والســـــــــوق الى جهة ما ، وفي المنجد حشرة عن بلاده : جلاه ، والجمع أخرجه من مكان الى آخر [1] وفي هـــذه الآية والآية الثالثة إشـــارة الى أنه الإخــراج «**ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُـوا**» والاجلاء «**كَتَبَ اللـهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ**» والمعـنى : انه تعـالى أخـرج اليهـود لأول جلاء لهم من شبه الجزيرة كمرحلة أولى ، يتبعها جلاء بعد آخر حــتى لا يبقى منهم أحد ، وقد حــدث ذلك بالفعل لمّا قـويت شـوكة المسـلمين ، وأحس اليهـود بـالخطر ، وأن جلاءهم يمتد الى حشر القيامة دون رجعة إلى ديارهم.

وقد قال تعالى : (**الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ**) ولم يقل : أهل الكتـاب. لمـاذا؟ لعل ذلك لأن حـرب الله عليهم ، وموقف حزبه منهم لا ينطلق من عنصـــــرية ولا حسد ، باعتبـــــارهم أهل كتــــاب آخر ، انما ينطلق من موقفهم العدائي تجاه الله والقرآن والرسول ، فقد تآمروا على النــبي ونقضــوا عهــدهم مع المســلمين ، وســعوا للتحالف مع كفّار مكة والمشركيها ضـدهما ، وذلك انه لما هزم المسلمون يوم أحد

---

(1) راجع مادة حشر

ارتابوا ، ونكثوا ، وطمعوا فيهم ، فخرج كعب بن الأشـرف في أربعين راكبا الى مكة وحالفوا أبا سـفيان عند الكعبة [1] ، فأهل الكتاب إذا التزموا بكتابهم ، وعهودهم ، فـإنهم محـترمون في الإسـلام ، أما إذا كفـروا ، وتـآمروا ، فقد خرجـوا من ذمة الإسـلام ، ووجب قتـالهم ، واجلاؤهم عن بلاد المسـلمين ، وهـذا ما حـديث بالضـبط مع يهـود بـني النضير وغيرهم ، وهذا الرأي أقـرب من تفسـير «كفـروا» بأنه عدم اعتنـاق الإسـلام ، لان الله لا يكـرههم عليه ، ولا يعتبر كونهم من النصارى أو اليهـود مـبررا لقتـالهم. أبـدا ، بل يفـــرض لهم حق العيش بـــأمن في ذمة الإسـلام والمسـلمين ، ويـدافع عنهم كـأي مـواطن مسـلم ضـمن عهود وحدود مفصلة في كتب الفقه ، فهذا أمير المؤمـنين (عليه السـلام) يتـألم للمسـلمة المتعـدى عليها في ظله كتألمه على الأخـــرى الكتابية لا يفـــرّق بينهما فيقـــول : **«ولقد بلغـــني أن الرجل منهم كـــان يـــدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهـدة فينـتزع حجلها وقلبها وقلائـدها ورعثها .. فلو ان امـرء. مـات من بعد هـذا أسـفا ما كـان به ملوما ، بل كـان به عنـدي جديرا»** [2].

هذا هو واقع الإسلام ، والمنطلق السليم الـذي ينبغي اعتبـاره في تحليل التـاريخ ، ومواقف المسـلمين من أهل الكتـــاب ، أما الأحقـــاد الموجهة ضد هما من الصـــهيونية والصـــليبية فهي لا تأسس إلّا على الحسد والأهـــواء والمصـالح ، وبالـذات بعد ارتبـاط الكنيست والفاتيكـان بعجلة الاسـتكبار العـالمي. بلى. إذا حـرّف أهل الكتـاب كتـابهم ، وتحولـوا الى مسـيرة مناقضة لقيمة الحقيقة ، وإلى حـرب الإسـلام وقيادته واتباعه وجبت محـاربتهم ، لأنهم حينئذ ليسوا من رسالات الله وأنبيائه على شيء.

ونعود إلى أول الآية عند قوله : «هو» ونتساءل لمـاذا يثبت الله إرادته ويؤكدها في هذا الموضع بالذات؟

---

(1) التفسير الكبير / ص 278 عند الموضع

(2) نهج / ج 27 ص 69

أولا : لأن الانتصـــــارات والمكاسب الــــتي يحرزها المؤمنون إنما هي بإرادة الله.

ثانيا : وتأكيد القــرآن على هــذه الحقيقة يكــون أشد ضرورة خاصة وان هذه الآيـات تبحث حـادث اجلاء اليهـود الــذي تم من دون قتــال عســكري ، وما تلاه من احكــام توزيع الفيء ، الـذي خص به النـبي (صـلّى الله عليه وآله وســلم) فريقا من النـــاس دون آخـــرين ، واثـــار حولها المنافقون الشـبهات ، فـان تـذكير المسـلمين بـأن الإجلاء جاء نتيجة إرادة الهية ، ومن دون قتال يوحي بــان الله هو الــذي أخــرج الأعــداء ، وأن المكاسب المادية في الفيء يتصرف فيها النبي كيف يشاء ، الأمر الـذي يبطل شـبهات المنافقين حول تقسيم الفيء.

ثم يؤكد دور الارادة في نصـــرة المســـلمين وجلاء اليهــود ، وكيف أنّها رغم الظــروف والظنــون المعاكسة غيّرت المعادلة ، فلم يكن المسلمون وهم يلاحظون قــوّة اليهــود ويلاحظــون قــدراتهم المحــدودة من جهة أخــرى يظنـون بـأن اليهـود سـوف يخرجـون ، ثم أن اليهـود من جـانبهم وهم المـدججون بالسـلاح ، وأصـحاب الخـيرات ، والمحصـنون بـالقلاع ما كـان يخطر على بـالهم بـأن قـوة تستطيع الإنتصار عليهم وإخراجهم.

(**مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا**)

كما أن الغرور بلغ باليهود حدّا تصـوروا أنهم يمتنعـون حـــتى من قـــدرة الله وإرادته ، أما المنـــافقون واليهـــود أنفســـهم والـــذين ينظــرون الى الحيــاة بمقــاييس مادّية ظاهرة ، ولا يحسبون للغيب حسابا ، فقد جزمـوا بانتصـار جبهتهم وهزيمة حــزب الله ، بل راح المنــافقون يكــاتبون بني النضير ، يشجعونهم على الصمود.

ولو أننا درسـنا قضـية الصـراع الإسـلامي الصـهيوني القائم اليوم بكل أبعاده

لوجـــدناه صـــورة أخـــرى لهـــذه الآية الكريمة ، فبعض المسـلمين اليـوم يزعمـون بـأن اليهـود لا يخرجـون من فلسـطين. الأمر الـذي دفع الكثـير منهم الى الاستسـلام ورفع راية التطـبيع. والصـهاينة الـذين تـدعمهم القـوى الاستكبارية يجدون أنفسهم محصنين ضد أي قـوة ، وأنّهم أقويـاء ، ويـدفعهم هـذا الغـرور ليس إلى الإصـرار على البقـاء في فلسـطين ، بل يثـير فيهم الأطمـاع التوسـعية أيضا.

ولكن قـوة الله فـوقهم وسـوف يهـزمهم بجنـده «**وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً**» [1].

وسـيأتي اليـوم الـذي يتأكد للصـهاينة الغاصـبين ومن يـدعمهم ان قـوتهم لا تغـني عنهم شـيئا ، فـان الله يعلم نقاط ضعفهم ، ولديه من الأسـاليب والمكر ما لا قبل لهم به ، فقد إغتر آباؤهم وأسلافهم ،

(**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ**)

فاعتمـــدوا على العوامل الظاهرية ، وخططـــوا على أساســـها ، بما هو في نظـــرهم خطة محكمة ، لا يمكن تحديها ، ولكن غاب عنهم الكثـير من الحتميـات والحقـائق فلم يحسـبوا لها حسـابا ، وما عسى يبلغ البشر من العلم حتى يحيط بكل شيء؟!

(**فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**)

قال أغلب المفسرين : بأن قذف في قلوبهم الـرعب ، والـذي يظهر بـأن ما لم يحتسـبوه كـان شـيئا آخر غـير الرعب إذ لو كان الـرعب لاتى التعبـير «فقـذف» والحـال انه قـال بعـدها (وقـذف) ولعله اغفلـوا في خططهم حـتى بعض الجوانب الظاهرة مما

---

(1) الإسراء / 7

يــدل على ان القــوى الظــاهرة المســتكبرة والطاغية لا تستطيع سد كل الثغرات في كيانها مما يسـمح للمؤمـنين دحــرهم من خلالها ، فمثلا حصــون اليهــود في أطــراف المدينة المنورة كانت تقاوم بعض الحملات الطائشة الـتي تشنها الأعراب ضدّ المناطق الآهلة ولكنها لم تكن لتصـمد أمام قوة رسالية يقودها قائد فذ.

ثم انها كـــانت قائمة ضــمن معـــادلات سياســـية ، وتحالفات عسـكرية انهـارت جميعا بعد اسـتقرار الرسـول في المدينة ، وربما يشــير الى ذلك السـياق في الآيــات التالية.

وهكذا حاصر المسلمون تلك القلاع أكثر من عشـرين ليلة مما اضطرهم للاستسلام.

(**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**)

إذا فهناك عاملان لهزيمتهم : الأول : ظاهري مــادي ، وهو إتيـــان الله لهم من خـــارج حســـاباتهم وخططهم ، والثــاني : خفي وهو الــرعب ، لأن الســلاح مهما كــان متطورا فتّاكا لا يجدي نفعها إذا سلب صاحبه إرادة القتـال ، وتضعضع جانبه المعنوي ، ولذلك يعتبر السـلاح المعنـوي (تقوية معنويات الجندي وتضـعيف العـدو) من أهم عوامل النصر ، ومن أجله يرصد المتحاربون الأمـوال والإمكانـات الطائلة ، ويخصصــون له الوســائل والخــبرات الكثــيرة المؤثرة ، ويسعون للإبداع فيه ما أمكنهم. وسـلاح الـرعب والخوف ، وسـلب المعنويـات من أمضى وأظهر الأسـلحة التي أيّد الله بها نبيّ الإسـلام ، واعتمـدها المسـلمون في حـروبهم ، وفي مواجهة النـبي مع بـني النضـير القى الله الرعب في قلـوب اليهـود حـتى اسـتوعبها كلها ، فتغـيرت المعادلة من الكبرياء والغرور الى الهزيمة النفسـية ، وقد عمد النـبي نفسه الى اسـتخدام سـلاح الـرعب حيث امر باغتيـــال كعب بن الأشــرف ، ولعل هدمه لبعض دورهم ، وقطع نخيلهم كــــان في بعض جوانبه جـــــزء من خطّة إرعابهم.

وحينما يهيمن الـرعب على القلـوب فانه يفقد العـدو القـــدرة على التخطيط السـليم ، لأن من أهم ما يحتاجه الإنسـان لكي يكـون تفكـيره منطقيا ومعقـولا الاسـتقرار والاطمئنـان الـداخلي ، وقد فقد اليهـود ذلك فخرجـوا من التعقل الى الانفعـال ، فصـاروا يخططـون ويعملـون ضد أنفســهم من حيث لا يشـعرون ، حيث راحـوا يهـدمون بيـوتهم بأيـديهم حـتى لا ينتفع بها المؤمنـون ، وقيل حـتى يصبح ركام الخرائب حائلا دون تقـدم المسـلمين ، وقيل : ليفسح لهم المجـال للمنـاورة في الحـرب ، وغـاب عنهم انهم أظهروا بذلك التصرف هزيمتهم للمسلمين مما قـوى معنويات عدوهم فصـاروا متيقـنين بالنصر بعد أن كـانوا لا يظنون بأن اليهود يخرجون ، وأنهم أعـانوا المؤمـنين على تحقيق أهمّ أهــــدافهم من المواجهة معهم وهو تقــــويض كيانهم ووجودهم.

(**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ**)

وهــــــــذه الحادثة التاريخية وأمثالها حريّة بالدراسة والتحليل لما فيها من المنفعة الدنيوية والأخروية للإنسـان ، والمؤمنـون أولى من غـيرهم بدراسـتها لأنها جـزء من تاريخ حضارتهم ، ولأنها تعنيهم وتهمهم أكثر من أيّ أحد.

(**فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ**)

والإعتبار هو العبور من الظـواهر إلى الحقـائق ، ومن الأحــداث إلى خلفياتها ، والعــبرة الحقيقية ليست بــأن يستفيد الإنسـان من دراسـته لأي حـدث أو قضـيّة أفكـارا علميّة ونظريـات وخططا وحسب ، بل هي بالإضـافة إلى ذلك أن تنعكس على ســلوكه الشخصي في الحيـــاة ، ويهتدي بها إلى أهمّ العبر والمواعظ وهي الإيمان بالله عزّ وجلّ. ولا يصل الى هذه الغاية إلّا أولو البصـائر السـليمة ، فقد قــال الإمــام الصــادق (عليه السـلام) : «ولا يصح الاعتبار إلّا لأهل الصفا والبصيرة» [1] ثم

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 274

تلا الآية.

ومن أهمّ العــبر الــتي نســتفيدها من هــذا الحــادث التـــاريخي هو معرفة حكمة الله وعزته ، والثقة بنصــــره للمؤمنين رغم الظروف والعوامل المعاكسة ، وما أحوجنا ونحن نقف اليـــوم في جبهة الصـــراع ضد أعـــداء الأمة الإسـلامية ، وبالـذات ضد الصـهاينة الغاصـبين أن نتسـلح بهذه البصيرة ، وننتفع من دراسة تلك التجربة التاريخية.

[3 ـ 4] وتـأتي الآية الثالثة لتضـعنا أمـام النتيجة الـتي انتهى إليها الصراع ، حيث سلط الله رسوله على اليهـود ، فكتب للمؤمـــنين النصر ولهم الجلاء عن المدينة الى بلاد الشــام وغيرها ، ويلفتنا القــرآن إلى ســماحة الإســلام ، وكيف انه لا يدفع أبناءه الى الصراع من منطلقات الحقد ، وإنما يدفعهم اليه بـدوافع إلهية وانسـانية ، فمع استسـلام اليهـــود ، وتمكن المؤمـــنين منهم ، لم تنـــدفع القيـــادة الرسالية الى الانتقـام ، إنّما أمضت حكم الله في القضـية بإجلائهم ومصادرة ممتلكـاتهم ــ الا ما يلـزمهم للطريق ــ وهـــذا بذاته تأكيد آخر على أن موقف الإســـلام من أهل الكتاب لا يتأسس على المطامع أو العنصرية أو أيّ شــيء غير الحق ، والا لقتلوهم ، واستعبدوهم ، وسبوا نساءهم.

(**وَلَـوْ لا أَنْ كَتَبَ اللـهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَـذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا**)

على أيـــدي المؤمـــنين أو بطريقة أخـــرى ، دون ان يقتصر الأمر في إجلائهم ، أو يؤخر عذابهم إلى الآخرة.

(**وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ**)

ونهتـدي من هـذه الآية الى أن العـذاب الـذي يلقـاه المجرم المصرّ في الدنيا لا يرفع عنه عذاب الآخــرة ، إنّما يواجه الاثنين معا.

وهل كتب الله عليهم الجلاء ونفذ المســـلمون حكمه فيهم لمجرد كونهم يهود كما يـزعم الصـهاينة الحاقـدون ، ويوغرون صدور يهود العـالم بالعـداء والحقد عـبر إعلامهم المضـــلل ومنـــاهجهم التربوية المنحرفة ضد الإســـلام والمسلمين؟!! كلّا .. إنما الذي حـدث كـان نتيجة خيـانتهم العهد ، ومحاربتهم الله ورسوله.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ**)

اي وقفـوا قبالتهما على شـقّ آخر ، ناصـبين أنفسـهم للحرب ضد هما ، ضاربين عرض الحائط كـلّ المعاهـدات. إلى هذا الحضـيض بلغت العنصـرية ونظـرة التألية للـذّات بـاليهود ، انهم يعطــون لأنفســهم الحق في محاربة الله وأوليائه ، ونقض العهد ، ومــتى شــاءت أهــواؤهم ، لأنهم وهم يعتبرون أنفسـهم أبنـاء الله وشـعبه المختـار ، يـرون أنفسهم فـوق الحـقّ والـدين ، وأن لهم الـرأي والتصـرف المطلق في كـلّ أمـر. وهـذه صـفة كل من تتضـخم ذاته عنــده ، أو ليس اليهــود يزعمــون بــأنهم النخبة ، وان كل النـاس خلقـوا لخـدمتهم؟! ثم أليسـوا هم الـذين قـالوا : «**لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَـــــبِيلٌ**»؟! بلى. ولكن هل يستطيعون مواجهة سنن الله وإرادته؟ كلا ...

(**وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

ولم يقل العــذاب ، لأن كلمة العقــاب تنطــوي على معـنى العـذاب والجـزاء معا ، وهي أصـلح لهـذا الموضع ، وفي الآية تحــذير لكل من يعــادي الحق ورمــوزه ، بغض النظر عن صـفته وانتمائه ومذهبه ، وهـذه العبـارة كـانت في يومها ولا تــزال تحــذيرا لكــلّ من تســوّل له نفسه محاربة الحق ، وقد قال تعالى : (**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ**) ثم قال (**وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ**) دون ذكر الرسول ، وذلك ليهــــدينا إلى أن الموقف الســـلبي من القيــــادة الرسالية يعتبره الرب موقفا ضده ، وبالتـالي فإننا نعـرف أعداء الله من خلال مواقفهم من القيادة الرسالية.

[5 ـ 6] ويقــدّم الله هــذه الحقيقة : أن الجلاء كــان نتيجة مشـــاقّة اليهـــود لله ولرســـوله ، والتأكيد على أن العقاب الشديد سوف ينال كلّ مشاقّ له سبحانه ، يقدمها كمـدخل لعلاج شـبهتين أثارهما اليهـود والمنـافقون حـول النـبي (صـلّى الله عليه وآلـه) ومكانته القيادية وهما قطع النخل ، وتقسـيم الفيء ، ذلك لكي يحصن المؤمـنين ضد الاعلام المضلّل ، وليعلموا أن المشاقّة لا تتحـدد بـاليهود ، ولا تنحصر في حمل الســـيف ، بل إن الشك في قيـــادة النـــبي والتخلف عن طاعته هو الآخر مشـــاقة يســـتحق صاحبها العقاب الشديد كما استحق ذلك اليهود.

فقد ســعت اليهـــود بعد أن أمر النـــبي بقطع النخيل لاسـتغلال الحـدث من أجل تشـكيك المؤمـنين في قيادته (صــلّى الله عليه وآلـــه) فقـــالوا : ما ذنب شـــجرة وأنتم تزعمـون انكم مصـلحون [1] ، وتلقّفت ألسن المـرجفين المنـافقين هـذه الشـبهة تشـيعها في صـفوف المؤمـنين ، فسفه الوحي هذه الشبهة ورد شائعات المنـافقين بالتأكيد على أن القرار في هذه القضية لم يكن من عند النـبي ولا بهواه انما هو امر الله سبحانه.

(**ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَـــةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَـــةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللهِ**)

واللينة هي كل نخلة لينة لما تمت وتيبس ، وقيل : هو اسم لنـــوع من أجـــود التمر في المدينة ونخلتها تســـمى اللينة فالرسول إذا يعمل بـــأمر الله وحكمه ، وإذا ما طبق المؤمنـــون أوامـــره وأطـــاعوه فإنما ينفـــذون إرادة الله ، ويجـــرون أحكامه وشـــرائعه ، فلا داعي أن يصـــغوا لتلك الشـــبهات والشـــائعات لأنّها تجعل الإنســـان مشـــاقّا له ولرســـوله ، وما دام أمر القيـــادة الرســـالية هو أمر الله فالمسـلمون ملزمـون بالتسـليم له ، ثم إن هـذا القـرار لا يـــدور في الفـــراغ والعبث ، إنما يرتكز على خلفيـــات واهداف أهمها أنه الجزاء

---

(1) الدر المنثور / ج 6 ص 187

الأنسب لأعداء الله.

(**وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ**)

ولعلنا نفهم من هذا المقطع أن استئصال النخل. كان يـدخل في سـياق تضـييق الحصـار ، وإدخـال الـرعب الى قلــوبهم ، واستئصــال وجــودهم من المدينة ومن حولهــا. جـزاء فسـقهم ومشـاقتهم ، فمع أن الإسـلام دين الصـلاح والإصــلاح ، وينهى عن الفســاد في الأرض ، ويعتــبره من صـفات الرجل الطاغية الـذي لا يحبه الله ، قـال تعـالى : (**وَإِذا تَـوَلَّى سَـعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيها وَيُهْلِـكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللـهُ لا يُحِبُّ الْفَسـادَ**) [1] (**وَاللـهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**) [2] وقال (**فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**) [3] ولكن الإسلام يبيح إهلاك الزرع وحـــتى النسل إذا توقف نصر الحق وإجـــراء العدالة على ذلك ، لأنه حينئذ سـوف يصـبح جـزء من خطّة الإصـلاح ، وإنما يحرم إذا كان فسادا ، وحينما يدرك المسلمون هـذه الخلفيـــــات والقيم الهامّة فلن تـــــؤثر فيهم الشـــــبهات والشائعات ، وسوف يسلمون لقيــادتهم ودينهم عن قناعة راسخة.

اما الشبهة الثانية : فقد انطلقت من أفواه المنـافقين ، لما تصــرف الرســول في فيء بــني النضــير وصــرفه للمهـاجرين دون الأنصـار ، إلا اثـنين منهم هما : سـهل بن حنيف وأبو دجانة ، فاتهم المنافقون الرسول بالانحياز الى قومه من المهـاجرين ، وحـاولوا بـذلك إيجـاد الفرقة بين الفــريقين ، وفصل الأنصــار عن النــبي (صــلّى الله عليه وآلـه) وبالتـالي إضـعاف قيادته وحركته ، والـذي يظهر أن أكثرهم كـانوا من أهل المدينة الـذين لم يعطـوا حصة من الفيء ، فاندفعوا بهذا العامل وبعامل النفاق المتأصل

(1) البقرة / 205
(2) المائدة / 64
(3) الأعراف / 74

فيهم للوصول الى أهـدافهم المشـؤومة هـذه المـرة على مطية حادث القسمة ــ وليس ذلك جديـدا في سـلوكهم ــ فهم يتربصــون الــدوائر بالإســلام وبالقيــادة الرســالية ، وينتظـرون حـدوث أدنى شـبهة ، أو ما يمكن تحـويره الى شبهة للنيل من مكانتها.

ولقد جاء القرآن ببيان الحكم الفصل في هذه القضية ، وليضع تشـريعا في المغـانم الـتي ينالها المسـلمون من الأعداء بأنها على نوعين :

الأول : ما يتسلطون عليه بالقتـال ، فيكـون للرسـول وللإمام من بعده الخمس من صفو المـال قبل القسـمة ، وما بقي يقسم على مقاتلي المسلمين ، ويسمى الغنيمة.

الثـــاني : ما يتســـلّطون عليه من دون قتـــال وهو للرسول وللإمام من بعده خاصّة يتصرّف فيه كيف يشاء ، ويسـمّى الأنفـال. قـال الإمـام الصـادق (عليه السـلام) : **«الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، أو قوم صالحوا ، أو قـوم أعطـوا بأيـديهم ، وكل أرض خربة وبطون الأودية فهو لرسول الله ، وللإمام من بعـده يضعه حيث يشاء»** [1]

وعن معاوية بن وهب قـــــال : قلت لابي عبد الله : السرية يبعثها الإمام فيصيبون غنـائم كيف تقسـم؟ قـال : ان قـاتلوا عليها مع أمـير أمـره الإمـام عليهم أخـرج منها الخمس لله وللرسول ، وقسم بينهم أربعة أخمـاس ، وإن لم يكونوا قاتلوا عليها المشركين كان كل ما غنموا للإمـام يجعله حيث يحب [2].

والذي ظفر به المسـلمون من بـني النضـير كـان مما سـلط الله عليه الرسـول بقدرته ، ولم يقاتل المسـلمون عليه ، فهو للنـــــبي خاصة من عند الله ، وليس لأحد أن يطالب

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 275

(2) وسائل / ج 11 ص 84

فيه بشيء ، أو يعترض على قسمته ، فله مطلق التصرف فيه من قبل الباري عز وجل.

(**وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ**)

أفاء : أرجع وردّ ، وقالوا : انما سـمي فيئا لأن الله قد جعل الخــيرات للرســول ، وإنما تصــرف فيها الآخــرون لمصــلحة فــاذا حازها الرســول فقد عــادت اليه ، والله العالم.

(**فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ**)

استعدادا وسيرا لقتـالهم وحـربهم ، والإيجـاف السـير السريع والعدو ، والمعنى : أنكم ما كـررتم ولا فـررتم في ساحة قتـال مع العـدو بـأفراس ولا بإبل ، تقـاتلون عليها ، وتحملون مؤنكم وأنفسكم عنوة للحرب ، حتى يكـون لكم نصيب من الفيء جـزاء قتـالكم ، إنما تحقق النّصر بـإرادة إلهية مباشــرة ، عملت في الغيب ، ودفعت اليهــود الى الاستســلام ، ولا يملك أحد يومئذ انكــار هــذه الحقيقة الواقعية حتى يجادل ، ولو كان المؤمنـون قـاتلوا لما حكم اليهود بالجلاء ، انما كانوا يسبون ويستعبدون جميعا. وهـذا علاج موضوعي معقول للقضية.

(**وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ**)

ينصـره عليهم ويصـرّفه فيهم وفي ما يملكـون مطلق التصـرف (تكوينيا وتشـريعيا) وهـذه الصـلاحية تنتقل إلى الإمام الصالح من بعده ، وهي حق وصلاحية له في الحكم بفرض الله عزّ وجلّ. وتسليط الله لرسله وللمؤمنين على أعــدائهم يجلّي إرادته المطلقة للنــاس ، ولو كــان النصر والتمكين وليد القتال بالسيف ، ولكنها تكـون أظهر وأجلى حينما ينتصــرون ولم يوجفــوا خيلا ولا ركابا ، ولم يتحملــوا تبعات قتال.

(**وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

والمؤمنـون مطـالبون بـالتفكر في هـذا الجـانب من تـــاريخهم والإعتبـــار به ، فـــإن ذلك يعمق فيهم المعرفة بربّهم ، ويؤكد لهم سلامة خطهم ، ويعطيهم الثقة بـدينهم ، وبأنفسهم ، وكيف تعرف الهزيمة أمة تتيقن بأنها مؤيــدة لإرادة الله المطلقـــة؟ بلى. إن الأمة الإســلامية وكـــذلك الكثير من الحركات في التـاريخ انهـزمت وتـراجعت حينما ضعف إيمانها بالغيب ، وهي تخوض صراعا قاسـيا ، وغـير متكافئ ماديا مع الأعداء.

وقبل ان نمضي الى رحـاب الآية اللاحقة نـورد حـديثا مفصلا عن الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى الفيء كما يـراه الإسـلام ، يقـول فيه : ان جميع ما بين السـماء والأرض لله عـزّ وجـلّ ولرسـوله ولأتباعهما من المؤمـنين من أهل هـــذه الصّـــفة فما كـــان من الـــدنيا في أيـــدي المشـــركين والكفـــار والظلمة والفجـــار من أهل الخلاف لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) والمـولى عن طاعتهما ، مما كان في أيديهم ظلمـوا فيه المؤمـنين من أهل هـذه الصّـفات ، وغلبـوهم عليه ، مما أفـاء الله على رسـوله ، فهو حقهم أفـاء الله عليهم ورده إليهم وإنما معـنى الفيء كلما صار الى المشـركين ثم رجع مما كـان قد غلب عليه أو فيه ، فما رجع الى مكانه من قول أو فعل فقد فاء مثل قول الله عزّ وجلّ : (**فَإِنْ فاؤُ فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**) أي رجعـوا ثم قـال : (**وَإِنْ عَزَمُـوا الطَّلاقَ فَـإِنَّ اللـهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ**) وقـال : (**وَإِنْ طائِفَتـانِ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ اقْتَتَلُـوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَـإِنْ بَغَتْ إِحْـداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ**) «أي ترجع» فإن فـاءت «أي رجعت» «**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**» يعـني بقوله «تفيء» ترجع فدل الدليل على أن الفيء كلّ راجع الى مكان قد كان عليه أو فيه ، ويقـال للشـمس إذا زالت قد فاءت الشمس حين يفيء الفيء عند رجـوع الشـمس إلى زوالها ، وكذلك ما أفاء الله على المؤمنين من الكفار فانما هي حقوق المؤمنين رجعت إليهم بعد ظلم الكفار

إياهم [1].

[7] ويبين القـرآن حكم الفيء بوجه عـام والخلفيـات الموضوعية لتقسيمه يومئذ.

(**ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى**)

كبني النضير والرسول مسلط من قبل الله على أهل القرى «**يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ**» وعلى أموالهم.

(**فَلِلَّهِ**)

كل ذلك ، إذا هو الخـالق الـذي له ملك السـموات والأرض وما بينهما وما دونهما ، وقد اسـتخلف في ملكه نبيه وسـلطه عليه ، لعلمه بأنه لا ينطق عن الهـوى ، إنما يتبع الـوحي والعقل ، ويحكم بحكمه ، حيث أدبه وعصـمه وأيده حتى بلغ قمة الكمـال فهو إذا أهل وكفو ، لأن يملّكه الله ما له من الفيء فيقول :

(**وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى**)

منه وهم أهل بيته ، قال الصادق (عليه السلام) : «لنا سهم الرسول وسـهم ذي القـربى ، ونحن شـركاء النـاس فيما بقي» [2] وإنما كان للرسـول باعتبـاره الشخصي عند الله حيث القرب والمنزلة الخصيصة له عنـده ، وباعتبـاره القيـادي ، وهـذا الإعتبـار (الأخـير) يبقى للأئمة ، والقيـادة الصـالحين من بعـده ، وللـولي الفقيه في غيبة الإمـام المعصوم يتصـرف فيه كما يـراه على ضـوء النص والعقل والمصـلحة ، وقد ذكر المفسـرون أن الآية تخصّ قرابة الرسـول من بـني هاشم ، وقد استفاضت نصـوص أهل البيت (عليهم السلام) على ذلك.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 274 ـ 275

(2) المصدر / ص 278

(**وَالْيَتامى**)

هل هم من ذوي القربى أم من غيرهم.

جاء في مجمع البيان : روى المنهـال ، عن عمر ، عن الإمـام علي بن الحسـين (عليه السـلام) أنه قـال : قلت : قوله «**وَلِـذِي الْقُـرْبى وَالْيَتـامى وَالْمَسـاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**» قال : «هم قرباؤنا ، ومساكيننا ، وأبناء سـبيلنا» ثم قال : وقـال جميع الفقهـاء : هم يتـامى النـاس عامة ، وكـذلك المسـاكين ، وأبنـاء السـبيل ، وقد روي ذلك أيضا عنهم [1].

(**وَالْمَساكِينِ**)

الذين لا يجدون قوت يومهم من شدة الفقر من ذوي القربى.

(**وَابْنِ السَّبِيلِ**)

الذي انقطع به في السفر من ذوي القربى.

ولهذه القسمة ثلاثة معطيات :

1 ـ أنها ترفع حاجة المعـوزين مما يحبّبهم في الـدين وفي القيـادة ، وينفي أسـباب الجريمة والسـرقة ، وبعض الخلقيات التي تدفع إليها الحاجة.

2 ـ كما أنها تسـاهم في رفع الطبقية من المجتمع بوسيلة مشروعية.

3 ـ وعلى صـعيد التنمية الاقتصـادية تحـرك اقتصـاد المجتمع في دائرة أوسع ،

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 278

وبصـــورة أنفع وأكــثر فاعلية ، فالإســلام لا يريد الحركة الاقتصـادية تنحصر في طبقة معينة ، في أصـحاب رؤوس الأموال ، وتبقى الطبقات الأخرى رهينة الفقر والاسـتغلال ، لأن ذلك ليس نظاما اقتصاديا سـليما ، إنما يحـرص على رفع الحاجة والطبقية ، وتحريك المـال بوسـائل مختلفة ، يفـرض بعضـها ، كـالخمس والزكـاة والإرث ، ويحضّ على بعضها الآخر ، كالصدقة والقرض والدين.

(**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ**)

أي محصور تـداولها بين الفئة الغنية ، ومن هـذه الآية الكريمة نهتـدي إلى أنّ الإسـلام لا يحـرم الملكية الفردية كما في الأنظمة الاشـــــتراكية ، ولا يطلقها تماما كما في الأنظمة الرأسمالية ، انما يجعل للمحرومين نصيبا محدودا في أمـوال الأغنيـاء ، ويضع حــدا للملكية الفردية بـأن لا تتجاوز حقوق المحرومين الى الحـدّ الـذي تحتكر الـثروة ، وتتسلط على اقتصـاد المجتمع ، وتعتـبر هـذه الحكمة من الأصول العملية التي نستطيع أن نسـتنبط منها الكثـير من الأحكـــام الفرعية مثل تحديد مجــالات الملكية ، وســبيل مقاومة الاحتكـار ، ووضع ضـرائب متصـاعدة كل ذلك إذا رأى الفقيه الحكم ضرورة في ذلك.

ولأن مقاومة طغيـــان الـــثروة من أعظم إنجـــازات الحكم الاسـلامي ، وأهم مقاصـده وأصـعب مهامّة فـان السـياق القـرآني أوجب التسـليم التـام للقيـادة الشـرعية وقال :

(**وَما آتــاكُمُ الرَّسُــولُ فَخُــذُوهُ وَما نَهــاكُمْ عَنْــهُ فَانْتَهُوا**)

لأنه مفـوّض بـذلك من قبل الله ، الا عـرف بأحكامه في كل شـيء ، ولا فـرق من حيث الإلـزام بين أمر الله وأمر رسوله ، والقيادة الشـرعية الـتي تخلفه ، وفي هـذه الآية

ردّ محكم على محـاولات المنـافقين التشـكيك في قيادته (صلّى الله عليه وآله) وللإمام الصادق (عليه السـلام) في هذه المسألة حديث مفصل جاء فيه :

إن الله عـزّ وجـلّ أدب نبيه فأحسن أدبه ، فلما أكمل له الأدب قال : «**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**» ثم فوض إليه أمر الدين والأمة ليسـوس عبـاده ، فقـال عـزّ وجـلّ : (**ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهـاكُمْ عَنْـهُ فَـانْتَهُوا**) وإن رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) كـان مسـدّدا موفّقا مؤيّـدا بـروح القـدس ، لا يـزلّ ولا يخطئ في شـيء ممّا يسوس به الخلق ، فتأدّب بآداب الله. ثمّ إنّ الله عزّ وجل فـرض الصـلاة ركعـتين ركعـتين عشر ركعـات ، فأضـاف رسول الله (صلّى الله عليه وآله) الى الركعتين ركعـتين ، والى المغـرب ركعة ، فصـارت عـديل الفريضة لا يجـوز تركها إلّا في السـفر ، وأفـرد الركعة في المغـرب فتركها قائمة في السـفر والحضر ، فأجـاز الله عـزّ وجـلّ له ذلك كله ، فصارت الفريضة سبع عشرة ركعة ، ثم سنّ رسول الله (صـــلّى الله عليه وآلـــه) النوافل أربعا وثلاثين ركعة مثلي الفريضة ، فأجـاز الله عـزّ وجـلّ له ذلك ، والفريضة والنافلة إحـدى وخمسـون ركعة ، منها ركعتـان بعد العتمة جالسا تعـدّ بركعة مكـان الـوتر ، وفـرض الله في السـنة صوم شهر رمضان ، وسن رسول الله صوم شعبان وثلاثة أيام في كل شهر مثلي الفريضة فأجاز الله عزّ وجــلّ الله له ذلك ، وحرم الله عزّ وجلّ الخمر بعينها ، وحرم رسـول الله المسـكر من كل شـراب فأجـاز الله له ذلك ، وعـاف رسول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) أشـياء وكرهها ولم ينه عنها نهي حـــــرام ، إنما نهى عنها نهي إعافة وكراهة ، ثم رخص فيها فصار الأخذ برخصته واجبا على العباد كوجـوب ما يأخـذون بنهيه وعزائمه ، ولم يـرخّص لهم رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) فيما نهـاهم عنه نهى حـرام ، ولا فيما أمر به أمر فرض لازم ، فكثير المسـكر من الأشـربة نهـاهم عنه نهي حـرام لم يـرخّص فيه لأحد ، ولم يـرخّص رسول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) لأحد تقصـير الركعـتين اللتين ضـمهما الى ما فـرض الله عـزّ وجـلّ ، بل ألـزمهم ذلك إلزاما واجبا ،

لم يــرخّص لأحد في شــيء من ذلك إلّا للمســافر ، وليس لأحد أن يرخص ما لم يرخصه رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه) فوافق أمر رسـول الله (صلّى الله عليه وآلـه) امر الله عــزّ وجــلّ ، ونهيه نهي الله عــزّ وجــلّ ، ووجب على العباد التسليم له كالتسليم لله تبارك وتعالى [1] لقوله عــزّ وجلّ : (**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ**) [2].

ويحــذر الله الــذين يشــككون في القيــادة الإلهية ، والـذين يتخلفـون عن طاعتها والتسـليم لأمرها ونهيها من عذابه الشديد باعتبارهم من صف المشاقين لله ولرسوله ، المستحقين لجزائهم فيقول :

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**)

ونهتدي من الأمر بالتقوى الى كونها الصفة التي ترفع الإنســان إلى مســتوى التســليم والطاعة للقيــادة ، وأن الطاعة لها امتداد للتقوى في حياة الإنسـان ، ودليل عليها ، وليست التقــوى هنا الخـــوف من الله وحسب إنّما هي تلك القمة السامقة من الإيمـان والمعرفة بالله ، والـوعي بالحق.

وعقاب الله الذي يتوعد به الأمة التي تشـاقّ قيادتها ، وتخالف أوامرها ليس عذاب الآخرة وحسب إنما تلقاه في الدنيا أيضا متمثلا في التفرّق ، لأن الطاعة ضمانة الوحـدة ، لأن الطاعة للقيــادة الإلهية طريق التقــدم ، وفي عــدم طاعتها تتسـلط الطغـاة ، ويعم الباطل ، وبتعبـير القـرآن تنقلب الأمة على أعقابها ، فتبـدأ المســيرة التراجعية إلى الوراء بدل التقدم ، وهذا مصـير كـلّ أمة تخـالف قيادتها :

(**وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ**

---

(1) المصدر / ص 280 ـ 281

(2) النساء / 80

يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْـهِ فَلَنْ يَضُـرَّ اللـهَ شَـيْئاً وَسَـيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ) [1].

[8] أما عن الفيء فقد قال رسول الله الأنصار : «إن شـــئتم دفعت إليكم فيء المهـــاجرين منها وإن شـــئتم قسمتها بينكم وبينهم ، وتركتهم معكم قالوا : قد شـئنا أن تقسمها فيهم ، فقسمها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بين المهـــاجرين ، ودفعها عن الأنصـــار ، ولم يعط من الأنصـار إلّا رجلين : سـهل بن حـنيف ، وأبا دجانة فإنهما ذكرا حاجة» [2] وبهذا تحمل الرسول مسئولية الفقراء من المهـاجرين ، ووضع إصـرها عن الأنصـار من أهل المدينة برضى منهم ، فكانت الفيء كما ذكر الله :

(**لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ**)

الـذين فـروا من أجـواء الكبت والإرهـاب والكفر ، والتحقوا بصفوف الحركة الرسالية والقيادة الصالحة الـتي استقرت آنذاك في المدينة المنوّرة ، ولا ريب أنهم تحملوا بسـبب هـذا القـرار ألـوان الضـغوط المعنوية والمادية ، ولكنهم تجرّعوا مضض الألم ، ورضوا بكل ذلك في سـبيل الوصـول الى أهـدافهم السـامية ، الـتي تسـتحق أكـبر التضحيات.

(**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ**)

إنهم مهاجرون خرجوا من بيوتهم وأموالهم بإرادتهم ، ولكن الله يلفتنا إلى حقيقة مهمة : إذ يعتبرهم مخـرجين ، وهي أن العامل الرئيسي في هجرتهم هو الظلم والفسـاد وأجـــواء الكتب الـــتي يصـــنعها الطـــواغيت ، حيث أنهم يرفضون مبادئهم ،

---

(1) آل عمران / 114

(2) تفسير القمي / ج 2 ص 360

والعيش الــذليل في ظل حكمهم ، كما أنهم لا يســمحون لهم بممارسة شعائرهم ، وتطبيق دينهم ، ووجدوا أنفسهم مجــبرين على الهجــرة كــواجب شــرعي لقوله تعــالى : (**وَالَّذِينَ آمَنُــوا وَلَمْ يُهــاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَــيْءٍ حَتَّى يُهــاجِرُوا**) [1] ولقوله (**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قــالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قــالُوا كُنَّا مُسْتَضْــعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قــالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللــهِ واسِــعَةً فَتُهــاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَــأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصِيراً**) [2] ولأنهم يعلمــون بــأنهم مسـئولون عن تطبيق أحكام الله ، والالتزام بها ما دامت في الأرض بقعة متحــررة ، كما يــدركون بــأن الحرية لا يمكن المســاومة عليها فهاجروا.

ثم يحدد القرآن الأهـداف السـليمة للمهـاجر الصـادق وهي ثلاثة :

الأول : البحث عن الفضل ، ونتســـــــاءل : هل في مفارقة الأهل والأوطان ، وتجرع الفقر من الفضــل؟ بلى. لأن المستقبل الكريم ليس بتوافر الوسائل المادية وحدها ، وهل في الغــنى والرفــاه فضل إذا فقد الإنســان الحرية والكرامة ، واســتلبه الطغــاة الأمن والســلام؟ كلا .. أما المؤمنــون الصــادقون الواعــون فــإنهم يــرون الفضل في المزيد من الإيمــان والعلم ، والالــتزام بــالقيم والعيش بحرية واســــتقلال وكرامة في كنف القيــــادة والحركة الرسالية ، وكل ذلك يجدونه في الهجرة.

ثم إنهم لا يقتصر نظــرهم على الحيــاة الــدنيا ، بل ينفذون ببصائرهم إلى دار الآخرة ، حيث المستقبل الأبدي الذي ينبغي السعي للفلاح فيه ، ولو تطلب الأمر التضـحية بكل ما في الــدنيا من الأمــوال والأولاد والأنفس ، ولــذلك يسترخص المؤمنون المهاجرون حطام الدنيا.

---

(1) الأنفال / 72

(2) النساء / 97

(**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ**)

(**وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللـهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشـاءُ وَاللـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) [1]

الثـاني : إنهم لا يتعـاملون مع ربهم بمقيـاس الـربح والخســارة ، إنما يتعبــدون بــالتزام القيم تعبد الأحــرار الواعين ، فلا يشبع طموحهم المستقبل المـادي حـتى ولو كـان هو الجنة ، بل تـراهم يبحثـون من خلال الهجـرة عن هدف أكبر وهو رضوان الله عزّ وجلّ.

(**وَرِضْواناً**)

مهما كان ثمن ذلك الرضوان ، من الاعتداء والتعـذيب والقتل ، ولو خالف هوى النفس ورضى الأسـرة والمجتمع والحاكم ، بل ولو وجدوا أنفسهم بسـببه محـاربين من كل العــالم (كما هو حــال الحركــات الرســالية الاصــيلة ، والقيادات المؤمنة المخلصة المهـاجرة ، الـتي تحاربها كل القــوى الاســتكبارية في العــالم ، سياســيّا واجتماعيّا ، واقتصاديا ، وإعلاميا).

الثالث : نصرة الحق لأنها الطريق إلى رضــوان الله ، بالانتمــاء الى صــفوف الحركـات الرسـالية المجاهـدة ، والانضواء تحت راية القيادة الرسـالية الـتي تسـعى لإقامة حكم الله ، وطمس معــــالم الباطل من على وجه الأرض وفي المجتمع والنفــوس ـــ باعتبــار انها القنــاة الأصح والأفضل لنصرة الحق ـ فإن المؤمنين لا يعتبرون مصادرة ممتلكـاتهم أو هجـرتهم عنها يسـقط عنهم الـواجب ، ولا يعتــبرون دار الهجــرة نهاية المطــاف ، ومحلّا مناســبا للممارسة الشعائر والعبادات الاعتيادية كالصـوم والصـلاة والخمس ، وانما يعتبرونها منطلقا لمسيرة جهادية مباركة.

---

(1) الحديد / 29

(**وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ**)

لتطبيق الحق وتحكيمه ، ومن طبيعة المؤمن الصادق انه لا يفكر في حدود نفسه فاذا وجد الأمن والسلام نسي الآخـــرين ، إنما يحمل ألم مجتمعة وأمته ويعتـــبره ألمه ، ويجاهد من أجل خلاصـــــهم من ربقة الجهل والفســــاد والظلم من منطلق شـــرعي وانســاني ، وحيث يصل دار الهجرة لا يتفـرج على الصـراع الـدائر بين الحق المتجسد في الحركـات الرسـالية وقياداتها ، والباطل المتجسد في القـوى والأنظمة والمؤسسـات الاسـتكبارية ، إنما يعتـبر نفسه معنيّا بالصراع ، ومسئولا عن الإنتصار للحق.

(**أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**)

في إيمانهم ، والمصـداق الحقيقي للمهـاجر كما يـراه الإسـلام. أمّا الـذي يبحث في المهجر عن حطـام الـدنيا ، وراحة النفس ، ولا ينصر الحق فليس بصـادق في دعـوى الهجرة ، ولا مصداقا للمهاجر.

ولقد كـانت قسـمة الرســول في الفيء حيث جعله للمهـــاجرين قســـمة منطقية ، لأنهم فقـــراء من الناحية المادية ، ولأنهم صـودرت أمـوالهم ودورهم ، ولأنهم كـانوا صادقين.

ولعل هـــذا الموقف النبيل من الإســـلام والقيـــادة الرســالية في التــاريخ من المهــاجرين ، وكــذلك موقف الأنصار يهـدينا الى ضـرورة اعتنـاء الأمة الإسـلامية بأولئك الــذين يهـاجرون في سـبيل الله ، ولخيرها ، بـأن تتحمل قســـطا من دعمهم المـــادي ، ودعم حـــركتهم لتتواصل مسـيرتهم ، ويتفرغـوا للجهـاد بصـورة أفضل ، ويحـافظوا على استقلالهم ، فإنهم ومشاريعهم أولى بالدعم.

وَالَّذِينَ تَبَـوَّؤُا الـدَّارَ وَالْإِيمـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هـاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِـدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حاجَـةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كـانَ بِهِمْ خَصاصَـةٌ وَمَنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (9) وَالَّذِينَ جـاؤُ مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونا بِالْإِيمـانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10) أَلَمْ تَرَ إِلَى

---

9 [تبوؤا الدار] : الحط والـنزول كما في قوله : (**وَبَـوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ**) وقوله : (**وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْـراهِيمَ مَكـانَ الْبَيْتِ**) وقوله : (**نَتَبَـوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ**).

الشح : بخل في حرص ، و

في الحديث : «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب مسلم » والشح أشد من البخل لأنه بخل عما في أيدي الناس.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نـافَقُوا يَقُولُـونَ لِإِخْـوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتـابِ لَئِنْ أُخْـرِجْتُمْ لَنَخْـرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيـعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُـرَنَّكُمْ وَاللـهُ يَشْـهَدُ إِنَّهُمْ لَكـاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُـوا لا يَخْرُجُـونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُـوا لا يَنْصُـرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَـرُوهُمْ لَيُـوَلُّنَّ الْأَدْبـارَ ثُمَّ لا يُنْصَـرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَـدُّ رَهْبَـةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لا يَفْقَهُـونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَـبُهُمْ جَمِيعـاً وَقُلُـوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لا يَعْقِلُـونَ (14) كَمَثَـلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَـلِ الشَّـيْطانِ إِذْ قـالَ لِلْإِنْسـانِ اكْفُـرْ فَلَمَّا كَفَـرَ قـالَ إِنِّي بَـرِيءٌ مِنْـكَ إِنِّي أَخـافُ اللـهَ رَبَّ الْعـالَمِينَ (16) فَكـانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)

---

15 [وبال أمرهم] : عاقبة كفرهم.

وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ

هدى من الآيات :

يركز السـياق في هـذا الـدرس على بحث العلاقة الداخلية في جبهة المؤمـنين من جهة ، وفي جبهة أعـداء الله وأعـدائهم من جهة ثانية ، ففي البداية ينطلق من خلفيات قسمة الفيء الذي صـار نصـيبا للمهـاجرين بحكم النـبي ، وبإيثـار الأنصـار أنفسـهم ، فيمتـدح حب هـؤلاء لبعضـهم وطهـارة قلـوبهم ، وإيثـارهم على أنفسـهم مما يؤكد خـروجهم من زنزانة النفس ، كما يسـجّل موقف المهاجرين الإيجابي من الأنصـار ، ومـدى تحـرّرهم من أيّ إصر أو عقـدة ، ويضع ذلك نموذجا سـاميا للعلاقة الـتي ينبغي ان تحكم التّجمعـات والمجتمعـات الإيمانية أفرادها وجماعاتها ، وشـعوبها وأجيالها ، فـإن الهيبة والإنتصـار ، والتّقـدم ، والفلاح يرتكز على الـذوبان في بوتقة الإيمـان والتسليم للقيادة الرسالية ، وبتعبـير القـرآن : الوقاية من شح النفس ، واتباع بصـائر الـوحي ، بعيـدا عن كـلّ هـوى ومصلحة.

ثم يضع القـــــرآن صـــــورة ثانية عن طبيعة العلاقة الداخلية في جبهة الباطل ، ويؤكد لنا بأنها قد تـــــــتراءى للمراقب الخارجي بأنها جبهة متماسكة إلّا أنّها تفتقر لأهم عوامل الوحدة والتماسك وهي وحـدة القلـوب ، والسـبب هو اتبــاعهم الباطل والأهــواء والمصــالح ، ونبــذهم الحق المتمثل في الرســـالة وهـــدى العقل ، وكل ذلك فـــان الإنسان لا يجد دوافع حقيقية للتضحية والتفاني من أجله ، ولهذا فـإن جبهة الباطل تضـعف وتتمـزق بمجـرد تعرضـها للتحـديات الحقيقية ، وقد رأينا كيف استسـلم بنو النضـير من دون قتال ، وكيف تنصّل المنافقون عن نصـرتهم رغم العهـود والأيمـان المغلظة بينهما ، وهكـذا هي العلاقة بين أهل الباطل (أفرادا وجماعـات ودولا) يتناصـرون ما دامت ثمّة مصــلحة مشــتركة ، أما إذا انعــدمت أو وجــدت في مكـــان وموقف آخر فـــإنهم يميلـــون حيثما تميل ، وهي بالضبط تشبه العلاقة بين الشـيطان وبين آدم ، حميمة ما دامت للشيطان مصلحة فيه ، أما إذا آن عـذاب الله فكأنه لا يعرفه «**فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَـرِيءٌ مِنْـكَ إِنِّي أَخـافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ**».

بيّنات من الآيات :

[9] بعد ان مكث النـبي ــ صـلّى الله عليه وآله ــ في المدينة واســـتتب له الأمر تقـــرر في الحركة الرســـالية المباركة ان يهـــــاجر المؤمنــــون من مكة إليها ، وحيث تواردوا أفواجا استقبلهم الأنصـار وأوسـعوا لهم صـدورهم ودورهم ، وتقاسموا معهم الأمـوال وحـتى الأزواج ، ولكن الخط المنافق من أهل المدينة وغـيرهم ما كـان يرضـيهم أن يحتضن الأنصــار المهــاجرين ، فلما أجلى المســلمون اليهــــود وقـــــرر الرســـول القائد (ص) أن يعطي الفيء للمهاجرين طفحت أحقادهم ، واتخذوا الأمر فرصة سانحة ليلعبوا دورهم الخبيث ، فمشـوا في الصـفوف بالشـائعات ليضربوا زعامة النبي (ص) الـذي يكنّـون له الحقد الـدفين باعتبــاره لم يكن من أهل المدينة ، وذلك بالتشــكيك في سلامة نيّته ، حيث اتهمـوه بأنه انحـاز لقومه (المهـاجرين) على حساب الأنصار ، ومن جهة

أخرى استغلوا القسمة لهدف إيجـاد الاختلاف والفرقة بين المؤمنين ، بالذات باعتبـار أن الظـاهر كـان يمكن تجيـيره لصــالح التفرقة لاختلاف المهــاجرين والأنصــار ، وعموما تتأسس سياســـات التفرقة دائما على المظـــاهر المادية كـــاللون والمـــذهب والقومية والطائفية ، وطالما أظهر المنـافقون وعلى رأسـهم عـدو الله ابن أبي للأنصـار أنهم يريدون خيرهم من وراء موقفهم ، وطالما اســتثاروا فيهم الوطنية وشح النفس ليكســبوهم ، ولكنهم رفضــوا ذلك لأنهم كـانوا أصـحاب البصـيرة النافـذة ، والإيمـان الرفيع ، والتسليم المطلق لقيادة الحق.

أما الرسـول فقد جمعهم وقـال : إن شـئتم قسـمتم للمهـــاجرين من دوركم وأمـــوالكم ، وقســـمت لكم من الغنيمة كما قســمت لهم (أي أســاوي بينكم) وإن شــئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم (أي يخرجـون من أموالكم ودوركم ويصير لهم الفيء خالصـا) فقـالوا : لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشــاركهم في الغنيمة [1] ففشل المنـافقون ، وهكـذا تنتصر كل أمّة على محـاولات التفرقة حينما تتبع قائدها ، وتلـتزم بـالقيم الحق ، وتعيش فيما بينهما الألفة والحب والإخــاء ، وقد ســجل ربنا هــذا الموقف الجليل كرامة للأنصـار ، وليكـون نموذجا على ما يصنعه الإسـلام بـالنفوس ، وليـبين للبشـرية جيلا بعد جيل وللأمة الاســلامية بالـــذات سر انتصــاراتها في التــاريخ وسـبيلها الى ذلك ، وأنّ الرعيل الأول من المخلصـين إنما قـاد العـالم يومئذ بهـذه الـروح الإيمانية السـامية ، فقـال عزّوجلّ :

(**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

يعني الأجيال المؤمنة السابقة من الأنصـار ، وقـالوا : معـنى الآية : تبـوؤا الـدار ، وأخلصـوا الإيمـان ، أو اتخـذوا الإيمـــان وطنا ، وتمكنـــوا منه ، مثلهم مثل ســـلمان لما سألوه

---

(1) التفسير الكبير / ص 287 الموضع

عن نسـبه ، فقـال : أنا ابن الإسـلام ، ثم تسـاءلوا : كيف قـال ربنا : انهم آمنـوا قبل المهـاجرين ، أو لم يسـبقوهم بالإيمـان؟ فأجـابوا : بلى. ولكن إنما سـبقهم بعضـهم ، والتحق بهم آخـرون ، إذ أن كلمة «من قبلهم» خاصّـة بالإيمان.

ويبدو لي أن المعنى أنهم تبـوؤا دار الإيمـان ، فيكـون معـنى الـدار التقـارن كما لو قلنا : ركبت البحر والـريح الهائجة ، أي مقارنا مع هيجان الريح.

وقد اشتهر في الأدب الاسلامي التعبير بدار الإسلام ، ولعله مستوحى من هذه الآية.

فقد جـاء في الحـديث عن الإمـام الصـادق (عليه السـلام) : «**والايمـان بعضه من بعض ، وهو دار ، والكفر دار**» [1].

فيكـون المعـنى انهم الاسـبق الى تكـوين التجمع الإيماني المتكامل.

(**يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ**)

ونسـتوحي من الآية أنه إذا انتصر المؤمنـون في بلد ، وكوّنـوا المجتمع الإسـلامي فلا يعـني أن الـذين في تلك البلاد من المسـلمين أفضل من غـيرهم ، ولا يجـوز أن يستأثروا بالمكاسب ، أو يفرضـوا وصـايتهم على غـيرهم ، كلا .. فكل ما عند المؤمـنين حـتى أنفسـهم ملك للإسـلام ولأهله ، الـذين هم إخـوانهم ، وينبغي لهم أن لا يأخـذهم غرور الإنتصار ، أو العجب بـالنفس ، بل يفعلـون كما فعل الأنصار ، فلقد بلغ بهم الإيمان والحبّ لإخوانهم أن آثروهم على أنفسـهم ، لأنهم انتمـوا للإسـلام ابتغـاء فضل الله ورضـوانه وليس بحثا عن المكاسب الماديّة ، ولأنهم يقـدرون ظـروف إخـوانهم المهـاجرين ، حيث ضـحّوا بأموالهم وبيوتهم ومستقبلهم

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 284

المــادي من أجل الــدين ، وحبّا في الانتمــاء إليهم ، وضم جهودهم وطاقاتهم إليهم لتقوية مجتمع الحقّ وجبهته.

والسؤال : كيف يجب أن تكون علاقة الأجيال المؤمنة (الســابقة والســؤال : كيف يجب أن تكــون علاقة الأجيــال المؤمنة (الســــابقة باللاحقة والأنصــــار بالمجاهــــدين ، والمنتصــرين بالحركــات الــتي تســعى للانتصــار فتهــاجر إليهم)؟

أوّلا : الحب القلبي الصادق .. فلا يــرون اللاحقين بهم من سائر الفصائل الرسالية غرباء أو دخلاء ، ولا يريدونهم أن يكونوا عملاء لهم ، ولا يســتثير وجــودهم وتنافســهم ولا حتى انتقادهم أيّ حقد وحسد ولا أيّ لون من الحساسيات الســلبية ، لأنّ رابطتهم ببعضــهم أكــبر من كــلّ ذلــك. إنّها رابطة الإيمان والجهاد.

وهكــذا يحــدّد القــرآن محــور التواصل بين فئــات المؤمنين : الأنصار الــذين ســبقوا غــيرهم في بنــاء التجمّع الإيمــاني ، والمهــاجرين الــذين تجــرّدوا عن مصــالحهم في سبيل الله ، فيبيّن أنّ الحبّ هو ذلك المحور.

ولا يصل الإنســـان إلى هـــذا المســـتوى الرفيع من الأخلاق إلّا إذا تمكن الإيمــان من نفسه فتجــاوز شح نفسه (الأهواء والشهوات ، والمصالح) وتحرر عن أغلال الوطنية والقومية والعنصـــرية والطبقية والحزبية ، وأصـــبح مثلما قــال الإمــام الصــادق (عليه الســلام) : «**من أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فهو ممن كمل ايمانه**» [1] بلى. ان الحب في الله من أوثق عرى الإيمــان ، قال رسول الله (صــلّى الله عليه وآلــه) : «**ودّ المــؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان**» [2].

(1) المحاسن للبرقي / ج 1 ص 263

(2) المصدر

وقد اعتبر أئمة الهدى الحب هو الدين ، ويجيب الإمام الصادق (عليه السلام) سائلا سأله عن الحبّ : هل هو من الإيمان؟ فيقول : ويحك وهل الدّين إلّا الحبّ؟ ألا ترى إلى قــول الله : (**إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللــهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللـهُ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ**)؟ أولا تـرى قـول الله لمحمد (صلّى الله عليه وآله) : «**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُـوبِكُمْ**»؟ وقـال : «**يُحِبُّونَ مَنْ هـاجَرَ إِلَيْهِمْ**» فقـال : «الــــدين هو الحب ، والحبّ هو الــــدين» [1] وعنه (عليه السـلام) قـال : «قـال رسـول الله لأصـحابه : أيّ عـرى الإيمان أوثق؟» فقالوا : الله ورسوله أعلم ، وقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصوم ، وقال بعضـهم : الحج والعمـرة ، وقـال بعضـهم : الجهـاد ، فقال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) : «لكل ما قلتم فضل وليس به ، ولكن أوثق عـرى الإيمـان الحب في الله ، والبغض في الله ، وتولي أولياء الله ، والتبري من أعداء الله عزّ وجلّ» [2] وكيف لا يحب المهاجرون ، والمنتصرون ، والســـابقون الى الإيمــــان من يلحق بهم ، وقد جـــاؤوا ليحققوا أهم أهدافهم وهو نصرة الدين؟!

وكلمة أخـيرة : إن المـؤمن الصـادق محكـوم بمعادلة التولي والتبري ، وبالتالي فإن نسبة تبرية من الأعـداء هي من وجهها الآخر تـولي للمؤمـنين : (**مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللـهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ**) [3].

واننا اليوم نسعى من أجل المجتمع المسلم فلا بد أن نبدأ بأنفسنا ، ونجعل تجمعنا ربّانيا إلهيا ، يدور على محـور الحب في الله ، والبغض في الله ، حــــتى يباركه الله من فوق عرشه ، ويرعاه بنصره وتأييده.

---

(1) المصدر
(2) المصدر / ص 264
(3) الفتح / 29

وكلما ازداد صـراعنا مع أعـداء الله شـدّة وعنفا كلما ازددنا تلاحما وتماسكا وانصهارا في بوتقة التوحيد.

ثانيا : التجــرد عن الحسد للاحقين .. مهما أوتــوا من شـيء مـادي أو معنـوي ، فصـدورهم صـافية طـاهرة ، لا تنطـوي على غـلّ ولا حساسـية تجـاه إخـوانهم ، كما أنها واسعة لا تضيق بتقدمهم أو تقديمهم ، لما هي معمورة به من الإيمان والوعي ، والواحد منهم متجـرّد عن ذاته للقيم ، وللأمة كلها ، فلا يرى أن الإنتصار أو الدولة أو المغانم أو المناصب حكــرا له أو لفريق دون آخر ، انما هي للجميع ، كما يرى أن تقدم أي فرد أو جهة هو تقدّم له أيضا.

(**وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا**)

لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشـاء ، والـرأي للقيـادة الرسالية تقرّر ما تراه مناسبا ، والحق لصـاحب الكفـاءة ، وليست لأحد الوصـــاية في فضل الله وما له وما للأمة ، فلما ذا الحسد والتقاتل على المكاسب والمــــراتب؟! ان المؤمـنين يسـعون بكل ما أوتـوا لـدعم إخـوانهم ، ورفد مســيرتهم لكي يتقــدموا ويعلو شــأنهم ويعلو من خلالهم شأن الدين والأمة ، وما يؤسف له اليوم أن نرى في الأمة فريقا من مرضى القلوب الذين يجهدون بكل ما أوتوا من حول وطول ومكر من أجل تحطيم كل قيادة ناشـئة تـبرز في الســاحة ، وتــرى في صــدورهم الف الف حاجة مما أوتي أولئك من الفضل والسمعة.

وقد وقف الإســلام موقفا صــارما من الحسد حــتى عدله بالشرك والكفر والنفاق. قال الإمـام الصـادق (عليه السـلام) : «يقــول إبليس لجنــوده : ألقــوا بينهم الحسد والبغي (يعني المؤمنين) فإنهما يعدلان الشـرك» [1] وقـال (عليه السلام) محذرا :

---

(1) بح / ج 75 ص 278

«**إيـاكم أن يحسد بعضـكم بعضا ، فـإن الكفر أصـله الحسد**» [1] وقـــــال : «ان المــــــؤمن يغبط ولا يحسد ، والمنـافق يحسد ولا يغبـط» [2] وقـال الإمـام البـاقر (عليه الســـلام) : «ان الحسد ليأكل الإيمـــان كما تأكل النـــار الحطب» [3] وقال الرسول (صلّى الله عليه وآلـه) (يعـني الحسـد): «ليس بحـالق الشـعر ، لكنه حـالق الـدين» [4] وقال الله عزّ وجلّ لموسى بن عمران : «يا ابن عمــران! لا تحسد النــاس على ما أتــاهم من فضــلي ، ولا تمــدّن عينيك إلى ذلك ، ولا تتبعه نفسك ، فــإن الحاسد ســاخط لنعمي ، صادّ لقسمي الذي قسّمت بين عبـادي» [5] وقوله تعالى : (**لا يَجِـدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ**) يؤكد لنا أنّ الحسّـاد هم أصحاب الصدور الضيّقة ، والقلوب المريضة.

وأهم الحاجات التي يضمرها الحاسدون في صدورهم هو تحطيم إخوانهم ، ولا ريب أنها سـوف تتضـخم فـتراكم العقد في نفوسهم ، وتدفعهم إلى سلوك اجتماعي خطـير تجاه الآخرين ، ولذلك جاء في الرواية عن الإمام الصــادق (عليه الســلام) : «**للحاسد ثلاث علامــات : يغتــاب إذا غاب ، ويتملق إذا شهد ، ويشـمت بالمصـيبة**» [6] ولك ان تتصـــور مجتمعا متحاســدا يكـــاد يتمـــزق داخليّا كيف يتسنى له أن يتقدم حضاريّا ، وكيف ينتصر أمام التحـديات الكبيرة.

ثالثا : الإيثــــــار .. وهو علامة الإيمــــــان ، والمظهر الخـارجي للحب الصـادق تجـاه الإخـوان ، وقمّة التماسك في جبهة الإيمان ، حيث التفاني والتضحية من أجل الغير

(1) المصدر / ج 78 ص 217
(2) المصدر / ج 73 ص 250
(3) المصدر / ص 144
(4) المصدر / ص 253
(5) المصدر / ص 249
(6) المصدر / ص 251

لوجه الله ، والمؤمن الصادق هو الذي يقدم نفسه للخطر ليسلم الآخرون ، ويؤخرها عند المكاسب ليغنموا. أوليس يبحث عن القمّة السامقة من الإيمان والفلاح التي تتمثل في الإيثار؟ بلى. وهو لا يقيم وزنا لحطام الدنيا حتى يتقاتل عليه أو ينفرد به.

والأنصار ليس أحبوا إخوانهم المهاجرين ، وتطهروا من الحسد تجاههم ، بل وآثروهم على أنفسهم ، ووصلوا من الإيثار سنامه ، حينما تنازلوا عن حظهم من القسمة رغم حاجتهم الشديدة.

(**وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ**)

فهم لم يجعلوا عوزهم وحاجتهم الشديدة تبريرا لترك الإيثار ، وقد اهتم أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ببيان فضيلة الإيثار ، والدعوة إليها ، فقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) انه قال : «خياركم سمحاؤكم ، وشراركم بخلاؤكم ، ومن صالح الأعمال البرّ بالإخوان ، والسعي في حوائجهم ، وفي ذلك مرغمة الشيطان ، وتزحزح عن النيران ، ودخول الجنان. يا جميل! أخبر بهذا الحديث غرر أصحابك ، قال : قلت جعلت فداك من غرر أصحابي؟ قال : هم البارون بالإخوان في العسر واليسر ، ثم قال : يا جميل! ان صاحب الكثير يهون عليه ، وقد مدح الله عزّ وجلّ صاحب القليل ، فقال : «**وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**»» [1].

وجاء في حديث آخر مأثور عن الإمام الصادق (عليه السلام) فيما رواه عنه أبان بن تغلب قال : سألته فقلت : اخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال : «يا أبان! دعه لا ترده» قلت : بلى. ــ جعلت فداك ــ فلم أزل أرد عليه ، فقال :

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 286

يا أبان تقاسمه شطر مالك. ثم نظر الي فـرأى ما دخلـني ، فقــال : «يا أبــان! أما تعلم أن الله عــزّ وجــلّ قد ذكر المـؤثرين على أنفسـهم؟» قلت : بلى. ــ جعلت فـداك ــ فقال : «**اما إذا أنت قاسمته فلم تـؤثره بعد إنما أنت وهو سواء ، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف**» [1].

وقد حفل تاريخ صدر الإسلام بمصاديق رائعة للإيثـار ، أحــدها إيثــار الأنصــار للمجاهـدين على أنفســهم ، والآخر أولئك النفر السبعة من مجاريح المؤمـنين في الـيرموك ، الذين حمل إليهم المـاء فكـان واحـدهم يـؤثر إخوانه على نفسه رغم الظمأ الذي يحس به المحتضر حتى استشهدوا عن آخرهم عطاشا ، وقد روى أبو حمزة قـال : جـاء رجل الى النبي (صلّى الله عليه وآله) فشكا اليه الجوع ، فبعث الرسول (صلّى الله عليه وآله) الى بيوت أزواجه ، فقلن : ما عندنا إلا الماء ، فقال الرسول (صلّى الله عليه وآلـه) : «من لهذا الرجل الليلة؟» فقال علي بن أبي طالب (عليه الســلام) : «انا له يا رســول اللـــه» وأتى فاطمة (عليها الســلام) فقــال لها : «ما عنــدك يا ابنة رســول اللــه؟» فقـالت : «ما عنـدنا الّا قـوت العشـية لكنّا نـؤثر ضـيفنا» فقـال (عليه السـلام) : «**يا ابنة محمـد! نـوّمي الصـبية واطفئي المصباح**» [2]

وجاء في حـديث آخر أن رجلا جـاء الى النـبي (صـلّى الله عليه وآله) وقال : أطعمني ، فـاني جـائع ، فبعث إلى أهله فلم يكن عندهم شيء ، فقـال : «**من يضـيّفه هـذه الليلة**؟» فأضــافه رجل من الأنصــار وأتى به منزله ، ولم يكن عنـده إلّا قـوت صـبية له ، فـأتوا بـذلك اليه وأطفئـوا السراج وقامت المـرأة الى الصـبية فعلّلتهم حـتى نـاموا ، وجعلا يمضـغان ألسـنتهما لضـيف رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلــه) فظن الضّــيف أنهما يــأكلان معه حــتى شــبع الضّيف ، وباتا طاويين ، فلما أصبحا غدوا الى

(1) المصدر / ص 287
(2) المصدر / ص 286

رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فنظر إليهما وتبسم وتلا هذه الآية [1].

هكـذا ينبغي للمؤمـنين وبالـذات المجاهـدين منهم ان يتساموا إلى هـذا الخلق الرفيع في تعـاملهم مع بعضـهم ، ولن يبلغوا ذلك حتى يتجاوزوا أصـعب عقبة تربوية وعملية وحضـارية ، تغـلّ الأفـراد والتجمعـات والأمم عن النهـوض والارتفاع في آفاق التقـدم والفضـيلة وهي النفس ، الـتي يعدها الإسلام (قرآنا وسنّة) أعدى أعـداء الإنسـان ، الـذي إذا انتصر عليها صار الى السعادة والفلاح.

(**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)

فبالقدر الذي يسـعى الإنسـان إلى المزيد من العلم ، ينبغي ان يسعى بأضعافه إلى تزكية نفسه وكمال أخلاقه ، وإنما اعتبر القـرآن الوقاية من شح النفس هي الفلاح لأنه رأس كل خطيئة وانحـراف في حيـاة البشر ، فهو أسـاس الكفر والشـرك والظلم والحسد و.. و.. إلخ ، قـال أمـير المؤمنين علي بن أبي طـالب ـ عليه السـلام ـ : «البخل جامع لمساوئ العيوب ، وهو زمام يقاد به إلى كلّ سـوء» وهل أنزل الله رسالاته وبعث رسله إلا ليخرج الإنسان من سـجن شح النفس؟ وإنّ الشـحيح لا يـرى إلّا ذاته ، كما لا يـرى المسـجون الا جـدران زنزانتـه. ولكن ما هو السـبيل الى التحـــرر من هـــذه التهلكـــة؟ انه التوكل على الله والاسـتعاذة من شر النفس الأمـارة بالسـوء ، والانفتـاح على هدى القرآن وبصائر السنة ، وتقبل نصائح الواعظين ، والتعبـير القـرآني بليغ للغاية إذ يقـول : «يـوق» مبـني للمجهـول ، أي أن الله هو الـذي يحـرر الإنسـان ، وينقـذه من ذلك.

ومشكلة الإنسان أنه يحسب السعادة تتمثل في اتباع الأهواء ، وإشباع شح

---

(1) مجمع البيان / ج 5 ص 260

النفس ، ولكنه لا يعلم أن ذلك يجعله عبــدا ضــعيفا لهــا. أليس محب الرئاسة يتبع هــــــــوى المنصب أنّى اتجه ، ويلخص كل كيانه فيه ، حــــتى عواطفه وعقله وصـــــلاته الإنسانية يجعلها جميعا وقفا للمنصب!

كـذلك المولع بـالثروة يـرى الـدنيا من خلالها فلا يجد حرجا من مسخ شخصيته الإنسانية من أجل المال ، فيولد إنســـانا متكـــاملا ، ويمـــوت وهو لا يملك من خصـــائص الانسانية شيئا.

ان التحرر من حب الرئاسة ، وحب الثروة ، والخروج من شح النفس ، جعل المؤمــنين أحــرارا ، منطلقين في رحاب الحياة ، بلا قيود ولا أغلال.

وبما أن الإيثــار قمّة الفضــيلة فــإن بلوغها بحاجة إلى عملية تربوية متواصــلة ، وذلك بالاســتعاذة بالله ســبحانه من الحــرص والبخل وشح النفس .. فقد جــاء في الخــبر المروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) فيما رواه عنه أبو بصير قال : قلت لأبي جعفر (عليه السلام) : كـان رسـول الله (صلّى الله عليه وآله) يتعوذ من البخل؟ فقــال : نعم. يا أبا محمد في كل صـباح ومسـاء ، ونحن نتعـوذ بالله من البخل لقول الله : (**وَمَنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)[1].

وفي الحــــديث : «**لا يجتمع الشح والإيمــــان في قلب رجل مسـلم ، ولا يجتمع غبـار في سـبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم**» [2].

وروى الفضل بن أبي قرة السندي انه قال : قــال لي ابو عبد الله (ع) : أتدري من الشحيح؟ قلت : هو البخيل ، فقــال : «**الشح أشد من البخل ، ان البخيل يبخل بما في يده ، والشحيح يشح بما في أيدي النــاس وعلى ما في يده ، حتى لا يرى**

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 390
(2) المجمع / ج 9 ص 262

في أيدي النـاس شـيئا إلّا تمـنى أن يكـون له بالحل والحرام ، ولا يقنع بما رزقه الله عزّ وجلّ» [1].

وقال رسول الله (صـلى الله عليه وآلـه) : «**ما محق الإسلام محق الشحّ شيء ، ثم قـال : ان لهـذا الشح دبيبا كدبيب النمل ، وشعبا كشعب الشرك»** [2].

وقـال أمـير المؤمـنين (عليه السـلام) : «**إذا لم يكن لله عزّ وجلّ في العبد حاجة ابتلاه بالبخل»** [3].

وقـال علي بن إبـراهيم : حـدثني أبي عن الفضل بن أبي قـرة قـال : رأيت أبا عبد الله (عليه السـلام) يطـوف من أول الليل الى الصـباح وهو يقـول : اللهم قـني شح نفسي فقلت : جعلت فـداك ما سـمعتك تـدعو بغـير هـذا الدعاء؟ قال : وأيّ شيء أشد من النفس ، ان الله يقـول : «**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» [4]

[10] تلك كـانت العلاقة النموذجية الـتي ينبغي أن يتحلّى بها السـابقون تجـاه اللّاحقين ، وقد جعل الله الأنصـار الصـادقين مثلا لها ، فما هي العلاقة من طرفها الآخر (اللاحقين بالسابقين)؟ يضع القـرآن أمامنا قواعـدها الرئيسية ونموذجها من حياة المهاجرين المخلصين.

(**وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ**)

المهـاجرون بعد الأنصـار في المدينة ، والثـوار المهاجرون إلى إخوانهم المنتصرين في

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 291

(2) المصدر

(3) المصدر

(4) المصدر

أيّ بلد ، واللاحقــون من الأجيــال في الحركة الرســالية ، فــإنهم يحــترمون أولئك ، ويعــون قيمة دورهم الريــادي ، وانعكاسه الإيجــــابي عليهم ، ويريــــدون لهم الخـــــير كما يريدونه لأنفسهم.

(**يَقُولُـونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونا بِالْإِيمانِ**)

فهم لا ينســون جميل الســابقين إليهم ، وتلك الجهـود والتضـحيات الـتي بـذلوها لصــالحهم ، ويقـدّرون بالـذات سبقهم إلى الإنتصار ، وتأسيسهم دار الإسلام (دولتـه) مما يتيح لهم الهجرة إليهم ، والتحــرك بفاعلية أفضل وأوسع ، وسبقهم إلى الإيمـان الـذي تأسس به إيمـانهم ، وعلاقتهم بهم تتأسس على نظرة الاحترام والحب والتقدير.

وللآية بصـيرة هامّة تـبين موقف التقـييم السـليم من قبل الأجيال اللاحقة تجاه الأجيـال السـابقة ، فهنـاك ثلاث نظريات تستتبع ثلاثة مواقف متباينة :

1 ـ الـذين اعتـبروا السـابقين متخلّفين وسـببا لتخلف اللّاحقين ، ووقفــوا منهم موقفا ســلبيّا للغاية ، وســموهم رجعيين ، ودعوا إلى بناء الواقع والمستقبل من جديد على انقــاض الماضي ، ويمثل هــؤلاء اليــوم في المســلمين المتغربــون والسـلبيون الـذين أصـيبوا بـردات فعل تجـاه الواقع الذي نشأوا فيه ، وبلغ الأمر ببعضهم أن اتهموا دين الإسـلام ذاته لأنهم رأوا بعض السـلبيات فيمن اعتنقه من آبائهم ، كما قال تعالى : (**وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْـهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُـولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**) [1].

2 ـ وهنـاك فريق آخر وقفـوا موقف القبـول المطلق وهم يردّدون

---

(1) الأحقاف / 17

(«**إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ**) [1] فهم يقدسون التراث إلى حدّ العبادة ، ونجد صورة لهذا الفريق في الــذائبين في الســلف وأفكــارهم ، يرحبــون بحسناتهم وسيئاتهم على السواء ، ولا يقبلون أدنى انتقــاد لسـلوكهم وأفكــارهم ومــواقفهم ، ويعــدّون الشـخص ذا فضل وعظمة لمجــرد كونه من الأولين ، الــذين أدركــوا الرسول والخلفاء ، أو عاشوا في صدر الإسلام.

3 ـ اما الفريق الثالث فهم الـذين يقيّمـون السـابقين بواقعية ، ويعرضــون أفكــارهم ومــوافقهم على مــوازين الشـرع (القـرآن والسـنة والسـيرة) فما وافقها احـترموه وتأسّــوا به ، وما خالفها ضــربوا به عــرض الحائط ، وهم الذين تشير إليهم هذه الآية الكريمة. كيف؟

انهم ــ حسب الآية ــ يعـترفون بأخطـاء السـابقين ، ويتبعـون القيم بـإخلاص وشـجاعة ، سـواء وافقت حيـاة أولئك أم خالفتها ، ولكن النقد والانتقــاد لا يســقطهم في أعينهم ، بل يظلمون أصحاب الفضل عليهم ، الذين يكنّون لهم الود والاحترام.

وفي الــوقت الــذي يعـترفون بأخطـاء الســلف ، ولا يتابعونهم فيها ، يسـعون بكـلّ ما أوتـوا (بالـدعاء والعمـل) لإصلاح أخطـائهم في الواقع الخـارجي ، ويسـتغفرون لهم عند الله ، وانه سـبحانه ليسـتجيب دعـاء الأخ لأخيه ، فقد روي عن الإمام البـاقر (عليه السـلام) انه قـال : «**أسـرع الــدعاء نجحا للإجابة دعــاء الأخ لأخيه بظهر الغيب ، يبـدأ بالـدعاء لأخيه فيقـول له ملك موكل به : آمّين ولك مثلاه**» [2].

وقد ظهرت بدعة جديدة في عصرنا الحاضر تتخذ من السلف الصالح شعارا لتأسيس حزب سياسي معين .. إن هؤلاء يرفضون أي تطوير في مناهج الدّين لأن

---

(1) الزخرف / 23

(2) بح / ج 76 ص 60 وللمزيد راجع مــــيزان الحكمة / ج 3 ص 280 الباب (1210)

أسلافهم لم يشهدوه ، ويخلطون بين قيم الدين وواقعيّات الــتراث ، وقد يقدســون الــتراث أكــثر من الــدين ، ولا يفكرون بأن التراث الذي يشكله سـلفهم ليس كيانا ثقافيّا وحضاريّا واحدا ، فما الـذي يقدسـونه فيـه؟! لقد تناقضت سـيرة السـلف إلى درجة كبـيرة فهل يمكنهم العمل بكل المذاهب والمـدارس الفكرية الـتي اتبعها أولئك السـلف ، أم انهم يجتهـــدون في اختيـــار مـــذهب واحد ومدرسة واحدة؟! وهم كذلك يفعلـون مما يثـير التسـاؤل : إذا جـاز لهم الاجتهــاد في اختيــار أصل المــذهب فلما ذا لا يجــوز الاجتهــاد في فروعـــه؟ وأساسا إذا كــان للاجتهــاد قيمة عندهم فما الذي يمنعهم من توسيع نطاقه؟!

وإذا جاز لهم التطوير في شؤون حيـاتهم المادية فـاذا بهم يركبــون الســيارات المرفّهة ، ويســكنون القصــور الفخمة ، ويأخذون بكل معطيـات العلم الحـديث ، فلما ذا لا يجـوز لهم التطـوير في فهم دينهم حسب تقـدم العلم ، وتوسع نطاق العقل؟!

وإذا كـانوا يسـتندون في تقــديس الـتراث إلى بعض الأحـاديث المتشـابهة فلما ذا تـراهم يـتركون كتـاب ربهم الذي يصرح : بـأن المسـتقبل أفضل من الماضي وان الله يورث الأرض عباده الصالحين.

وقد ســاق المؤلف الشــهير محمد ســعيد رمضــان البــوطي [1] أدلة عديــدة على أن الســلف (في القــرون الثلاث الأول) قد طوّروا منهج فهم الـدين بأنفسـهم ، وقد أخــذوا بالوســائل الجديـدة ، ثم عــاب على هــذه الطائفة المستحدثة انتماءهم للسلفية قائلا : ننتهي من هـذا الـذي أوضـحناه إلى أن كلمة الســلفية ليس لها من المضــمون العلمي أو الواقع الإســلامي ما يجعلها تنطبق على جماعة من المسلمين بعينها ، ويضيف قـائلا : ان السـلف الصـالح الذي تنتسب إليهم كلمة السلفية لم يجمدوا

---

(1) في كتابه : السـلفيّة مرحلة زمنية مباركة لا مـذهب سياسي الـذي طبع عام (1988)

في قــرونهم الثلاثة ، بل حــتى في قــرن واحد منها على حرفية أقوال صدرت منهم أو واقع آراء أو عـادات تلبسـوا بها بحيث يصـبح ذلك الجمـود هو دسـتور الانتمـاء إليهم ، والتقوقع في حزبهم [1].

والآية الكريمة من خير دعاء المؤمنين لإخوانهم سواء السابقين أو المعاصرين والأنداد ، وإن المؤمن الصادق هو الـذي تتجلى له الأخـوة بلحـاظ الإيمـان اعمق من تجليها بلحاظ النسب ، فأخوه كل مؤمن وأخته كل مؤمنة ، مهما اختلف اللّون واللّسان والحسب ، ومهما اختلفت المسافة الزمنية والمكانية بينهما أو اختلفت الطبقـــــات ، وهو لا ينظر إلى نفسه كفـــرد ، انما جـــزء من امة بكاملها ، بتاريخها وحاضــرها ومســتقبلها فيــدعو لنفسه ولها على السواء ، ويسعى لتحقيق أهدافه ، كما يسـاهم في تحقيق أهــداف إخوانه ، ويســعى نحو تطهــير نفسه من رواسب الحقد والحسد والشحناء تجاه إخوته في الدين.

(**وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا**)

من حقد أو حسد أو أيّ أمر يـــدفع الإنســـان إلى معـادات إخوانه ، وهـذا من أهم الطموحـات الـتي يسـعى المؤمنون نحوها متوكلين على الله ، لأن الخــروج من شح النفس الفردية ، والتخلص من الأغلال تجـاه الآخــرين من الأمور الصعبة التي تحتاج الى توفيق إلهي ، وارادة قويّة ، ولأن ذلك عنوان بلوغ الإنسـان درجة رفيعة من الإيمـان ، فقد جاء في الحديث الشريف : «آخر ما يخرج من قلـوب الصديقين الحسد» والمؤمنون يـدركون ذلك ويعلمـون أن بلوغهم درجة التخلص من الأغلال تجاه إخوانهم دليل رأفة الله ورحمته بهم ، ولذلك يثنون عليه في دعائهم فيقولون :

(**رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

---

(1) المصدر / ص 22

وهذان الاسمان لله يتجليان في سلوك المؤمنين عبر تعـــاملهم مع بعضــــهم ، وهم يســـألون ربهم المزيد من التوفيق للتخلق بهما ، وأن يـــرأف بهم بــــنزع الأغلال من قلوبهم تجاه بعضهم ، ويرحمهم بالغفران.

[11 ـ 12] تلك كـانت صـورة المؤمـنين في تـوادهم وتــراحمهم ، وهنـــاك صـــورة معاكسة تمثل المنـــافقين والكافرين ، وتحكي تفتّت علاقاتهم ، ويحـدثنا السـياق عن أمثولة لها من علاقة منافقي المدينة مع كفار بني النضـير ، فبالرغم من العهود والمواثيق التي أعطاها أولئك لهـؤلاء ، ورغم التحالفات الـتي عقـدوها مع بعضـهم ضد الإسـلام والرسـول إلا أن ذلك لم يضف إلى تماسـكهم شـيئا ، إنما تقطعت بهم الأســـــباب مع أول مواجهة تمّت بينهم وبين المســـــلمين. وهـــــذه الأمثولة جــــديرة بالتأمل من قبل المؤمنين بالذات وهم يخوضون الصراع مع الأعداء ، فــان ذلك ينفخ فيهم روح الثقة والاطمئنـــان بالنصر ، ولـــذلك يدعو الله نبيّه وكل مؤمن إلى دراسة ذلك بقوله سبحانه :

(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا**)

وسـمي المنـافق منافقا اشـتقاقا من نافقـاء الـيربوع (جحـــره) فإنه يخفي نفسه فيها ، كما يتخذ المنـــافق نفقا من التّصنع والتكلّف والكذب يخفي فيه شخصيته الحقيقية ، ولقد كان المنافقون على مرّ التاريخ مزدوجي الشخصية ، فهم بين المسـلمين يتظـاهرون بأحسن صـور الإسـلام ، وبين الكفار يظهـرون على حقيقتهم المعادية للحق ولأهله ، ويتخـــــذون ذلك مطيّة لنيل الغنيمة والمصـــــلحة من الفريقين.

(**يَقُولُـــونَ لِإِخْــوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَــرُوا مِنْ أَهْــلِ الْكِتابِ**)

هـــؤلاء هم إخـــوانهم الحقيقيـــون لأن شخصـــيتهم ومصالحهم وأهدافهم واحدة ،

بالرغم من تظـاهرهم بـالأخوة للمؤمـنين ، وليس إخـوتهم كل أهل الكتاب ففيهم المؤمنون ، انما إخوانهم الكـافرون والمشركون منهم ، وجزء من مسيرة النفـاق تـربّص أهله الـــدوائر بـــالمؤمنين بحثا عن المصـــلحة الـــتي لا تتحقق بسيادة الحق وأتباعه المخلصين ، لذلك ارتـأى المنـافقون وقد بدت علامات الحرب بين بني النضـير والمسـلمين أن يؤججــوا الصّــراع طمعا في انتصــار الباطل ، وصـعودهم داخليّا الى ســـــدة الحكم ، أولا أقل تجنبهم المخــــــاطر المترتبة على هزيمة المؤمــنين لو حســبهم أولئك منهم ، ولكنهم ـ وهذا ديدنهم في كل زمـان ومكـان ــ لم يضـعوا البيض كله في سلة اليهود ، انما وضعوا احتمال هــزيمتهم فخططوا ومكروا على أساسه بأن تبقى تحالفـاتهم مخفيّة ، حـتى لو انهزمـوا لا يفقـدون كـلّ شـيء بين المسـلمين المنتصــرين ، فراحــوا يتســللون لهم فــرادى وجماعــات ، ويكاتبونهم مؤكدين :

(**لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ**)

اي لو قرر المسلمون إخراجكم فسـنخرج ، ومصـيرنا وإياكم واحد على كلّ حال ، ولعل في الآية اشـارة إلى أن مصير المنافقين ووجودهم مرهون بدعم القــوى الخارجية بحيث لا يبقى لهم كيـــان ولا مـــبرر وجـــود من دونها ، ويؤكدون لهم صدق مـوقفهم ، ويحرّضـونهم بصـورة أكـبر ببيـان اسـتعدادهم للتمـرد الـدائم على قـرارات القيـادة الرســالية ودعــوة إخــوانهم لو أنهم حــاولوا دفعهم الى الوقوف ضد اليهود.

(**وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً**)

أي لن يسـتجيبوا لـدعوة المحاربة ضـدهم مهما كـان الداعي ، وأنى كـانت صـورة الـدعوة ، وأن هـذا الأمر من الثوابت التي لن تتغـير ، وحيث يؤكـدون لليهـود هـذا الأمر بالذات فلأنهم يعلمون مدى طاعة المؤمـنين لرسـول الله (صــلّى الله عليه وآلــه) يومئذ ، وان هــؤلاء ربما تتغــير مواقفهم لسبب ما.

ثم ان المنافقين يخـبرون بـني النضـير أن المسـلمين قد يتخـــذون قـــرارا بـــالحرب ضـــدهم ، ويؤكـــدون لهم استعدادهم للوقوف معهم فيها.

(**وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ**)

ضد المسـلمين ، ويفضح الله هـذه الدسـائس الـتي تدور في الخفاء :

(**وَاللهُ يَشْهَدُ**)

وان كـانت مـؤامراتهم المشـؤومة تحـدث في السر بعيدا عن علم الرسول القيادة والمؤمنين.

(**إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ**)

فهم إذا حـان القتـال لا يوفـون لهم بشـيء من ذلك ، وإن الـــذي بـــاع المؤمـــنين وبـــاع دينه من أجل اهوائه ومصالحه الدنيوية لمسـتعد أن يـبيع أيّ أحد كـان من أجل سلامته.

(**لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ**)

فهم غـير مسـتعدين للتضـحية بـدورهم وأمـوالهم ، ولتحمل ألـوان المشـقّة في سـبيل حلفـائهم ، لأنهم قد كرسوا إمكاناتهم من أجل راحة الدنيا ، وما ذا يدفعهم الى تحمل ذلك والالـتزام بعهد لهم مع فريق من النـاس ، وقد نقضوا عهودهم مع الله ومع رسوله وحاربوهما والمؤمنين من أجل الدنيا؟ فهم إذا كاذبون.

(**وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ**)

لأنهم ليسـوا في مسـتوى التضـحية بالمـادة ، فكيف التضحية بالنفس ، وبالأخص

إذا كـــان ظـــاهر المعركة انها تنتهي الى انتصـــار الحق واهلـــه؟! فهم غـــير مســـتعدين لخـــوض معركة تـــذهب بفضيحتهم وخسارتهم ، وقد صنعوا المستحيل من أجل أن يلعبـوا على الحبلين ، ولا يصـنفوا في جهة وجماعة ما من أجل سلامتهم ، وهب ان المنافقين جازفوا ودخلوا الحرب ضد المسلمين فما ذا سوف يغيرون في الواقع؟!

(**وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ**)

هزيمة ، لهم ولأولئك ، لأنهم لا يملكـــون مقومـــات الثبـــات في القتـــال ، وأهمها روح التضـحية والشـــهادة ، والمتـوفرة عند اتبـاع الحق دونهم ، ولأن إرادة الله أقـوى من أن يثبت أمامها أحد ، وحينها يخسر الكـــــــــافرون أنصارهم ، وسوف يخسر المنافقون مستقبلهم.

(**ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ**)

أي لا أحد يمنع عنهم سطوة الحق وأهله.

[13] وانما ينهزم المنافقون وحتى الكافرون عسكريّا أمـــام المســـلمين لأنهم يعيشـــون الهزيمة النفســـية في داخلهم أيضا ، ودليل ذلك توسلهم بالنفاق بين المســـلمين لأنهم لا يملكون الشجاعة الكافية للظهور على حقيقتهم ، وكـان الأولى لهم أن يخـافوا الله الشـاهد عليهم لو كـانوا يعلمون ويؤمنون بالغيب.

(**لَأَنْتُمْ أَشَـدُّ رَهْبَـةً فِي صُـدُورِهِمْ مِنَ اللـهِ ذلِـكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**)

أي لا يعرفون الحقائق بعمق ، والى حـدّ اليقين ، وإلّا لكـانوا يـتركون النفـاق والتعـاون مع أعـداء الحق خشـية سطوة الله وعذابه في الدنيا والآخرة. وهذه الصفة

متأسسة على النظــرة المادية للحيــاة ، فهم لا يعيشــون حقائق الغيب ، ولذلك لا يخشون ما يتصل بها كالخالق عزّ وجــلّ ، وقــال ســبحانه : «صــدورهم» لبيــان خلوها من الإيمان بالله.

[14] ومن مظاهر خوفهم وهـزيمتهم الداخلية أنهم لا يملكـون شـجاعة المواجهة المباشـرة مع المؤمـنين ، إنما يتوسلون بألوان الـدفاعات الممكنة خشـية المـوت ، ومن أسـباب ضـعفهم بالإضـافة الى روح الهزيمة هـذه التفتت في الجبهة الداخلية اجتماعيا.

(**لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً**)

صفّا واحدا متكاتفا (المنـافقين والكـافرين ، أو أفـراد الجبهة المعادية بصورة عامة) لأنهم لا يجتمعـون ـ بسـبب الخوف ، أو بسبب اختلاف المصـالح والأهـواء ـ على رأي وموقف واحد أبـــدا ، أنّى كـــانت الوحـــدة هي الصـــورة الظاهرة فيهم.

(**إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ**)

يأمنون بحصونها على أنفسهم من الهزيمة ، أو لا أقل من الموت ولو بصورة نسبية.

(**أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ**)

والجــدر جمع جــدار وهو الحائط ، وانما يحــاربون من ورائه لخشـيتهم من المـوت ، وجبنهم من المواجهة ، وهو يشبه جدار النفاق الذي يسـترهم عن الفضـيحة والجـزاء ، ولعل ذلك يفسر خلفيات قرار الرسـول (ص) بهـدم بعض بيوت بني النضير ، وقطع نخيلهم بأنهم كـانوا ينتفعـون بها في الحرب للتستر والتسلل والتحصن ، وهب أنها تـوفرت الحصـون والجـدر وتجمعـوا ظاهريّا في صـفّ واحد ، ومن أجل غاية واحدة ،

فان ذلك لا يعني أنهم متوحدون ، فانك لو فتشت قلــوبهم وقلبت آراءهم لوجــدتها متفرقة ومتناقضة ، بل لوجــدتهم متناحرين في كثير من الأحيان ، والسـبب انهم لا يـدورون على محـور واحد ، ولا يسـعون نحو هـدف واحد كما يـدور المؤمنــون مع الحق أينما دار ، ويســتهدفون إقامة الحق في الأرض. وأساسا الفـرق بين الحق والمصـالح : هو أن الحق واحد ، بينما الأهـواء والمصـالح تتنـاقض وتعـود الى صراعات داخلية جذرية ودائمة.

(**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ**)

أي أنهم يعـادون بعضـهم عـداوة شـديدة ، حـتى أنهم يقتلون بعضهم بشـدة ، وهـذه صـفة معروفة عن اليهـود ، وقيل معناه : أنهم حينما يتحدثون بينهم يتظاهرون بالشدّة ، ويكيلـون الوعيد على أعـدائهم ، بينما قلـوبهم خاوية من الشــجاعة. والمعــنى الأول أقــرب الى الســياق. لقوله سبحانه :

(**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً**)

متحدين ، كما يتظاهرون بذلك أو يظهره اعلامهم.

(**وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**)

متباينة ، وان الاختلاف الجــذري والحقيقي هو الــذي يبدأ من القلوب المتشتتة.

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**)

أي لأنهم لا يتبعــون هــدى العقل والّا لتوحــدوا ، لأن الحقائق التي تهدي إليها العقول السليمة المجردة واحـدة في كل زمان ومكان ولدي كل الناس ، وقد اتبعوا الباطل الـذي لا يتفق معه النـاس ، فتفرقـوا وتشـتتوا ، ولو كـانوا يتبعون العقل لقادهم

إلى الحقّ الواحد.

[15] وهــذه المســيرة الــتي لا تقــوم على التفقه والتعقّل لا ريب انها ســتقودهم إلى المصــير الســيء في الدارين.

(**كَمَثَــلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبــاً ذاقُــوا وَبــالَ أَمْرِهِمْ**)

في الدنيا.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

في الآخــرة. وقد يكــون المعــنى : أنّ أولئك لقــوا جــزاءهم ، ولهــؤلاء أيضا عــذاب اليم مثلهم ، والوبــال هو ســـــوء العاقبة [1] وقيل في «**الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» : انهم عموم أعداء الحقّ ، وقيل : هم المشركون الذين هــزمهم الرســول في بــدر ، وقيل : هم بنو قينقــاع وهو الأقــرب والأشــهر بين المفســرين ، وهم أول فريق من اليهــود نقضوا عهدهم مع الرسول (صــلّى الله عليه وآلــه) وأرادوا حربه حسدا من عند أنفسهم ، لما يرونه من تعــاظم قوته ، وقد نصــحهم (صــلّى الله عليه وآلــه) بــان يــتركوا ذلك ، ولكنهم أصروا وقالوا : لســنا مثل قومك العــرب الجبنــاء ، الــذين هــزمتهم في بــدر ، فاســتعدوا للحــرب الــتي دارت رحاها بذريعة بســيطة : حيث أن امــرأة من المســلمين ذهبت لصائغ منهم تشتري منه ذهبا ، فاجتمع اليهــود عليها وأصــروا ان تكشف عن وجهها لهم فلم تفعل ـ مما يــدل على اشتهار الحجاب أيام الرسول بحيث كان يستر الوجه ـ فبــادر الصــائغ بشــدّ ثوبها الــذي عليها ، بحيث ينكشف بعض بدنها للحاضرين ، وكان اليهود يتضاحكون كلما بــدت سوأتها.

وفي الأثنــاء التفت رجل من المســلمين للأمر فأخذته الغيرة للحق فقتل الصائغ

(1) المنجد / مادة وبل

لما فعله ، ولكن اليهـــود الجالســـين معه اجتمعـــوا عليه وقتلوه ، فثار المسـلمون جميعا ، وقـرر الرسـول الأعظم (ص) ان يحـاربهم ، فحاصر حصـونهم وقـراهم ، وأمـرهم بـالجلاء فما وجـدوا بـدّا من التسـليم لأمـره ، ورحلـوا عن المدينة «وقــال عبد الله ابن أبي : لا تخرجــوا فــإني آتي النبي فأكلمه فيكم ، أو ادخل معكم الحصن ، فكان هـؤلاء أيضا في إرسال عبد الله ابن أبي إليهم ، ثم ترك نصرتهم كأولئك» [1].

هكذا كانت حساسية المسلمين تجاه الظلم وإلى هذا الحد ، بحيث يجهـزون الجيـوش ، ويجلـون قوما بـأجمعهم لأنهم هتكوا عرض امـرأة مسـلمة وحرمتها ، ولا ادري اين هم الآن؟!

[16] ويضــرب القــرآن لنا مثلا عن علاقة المنــافقين بالكفـار من أهل الكتـاب والـتي هي علاقتهم مع الآخـرين في كل زمـــان ومكـــان ، فهم يحرضـــون الأعـــداء على المسلمين بأساليبهم المـاكرة ما دامـوا يرتجـون مكسـبا ، ولكنهم بمجرد أن يجدوا أنفسهم أمام خطر جادّ يتهــددهم من قبل المؤمنين أو يشعرون بالهزيمة يتبرءون منهم.

(**كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ**)

وزين له الأمر حـــتى كفر ، ووجد نفسه في عـــذاب الله.

(**فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْـكَ إِنِّي أَخـافُ اللـهَ رَبَّ الْعالَمِينَ**)

وكذلك المنافقون حرضـوا بـني قينقـاع وبـني النضـير حـتى تورطـوا في حـرب مع المسـلمين ، فلما انهزمـوا انسلخوا عنهم ، وتركوهم وحدهم يلقـون جـزاءهم ، وجـاء في النصوص الاسلامية : أن الشيطان ليملي فم الإنسـان المخـدوع به بالبصـاق ، ويبصق في وجهه يـوم القيامة إذا عاتبه أو سأله الخلاص.

---

(1) مجمع البيان / ج 9 ص 264

[17] وماذا تكون النهاية حينما يتبع الإنسان الشيطان ، ســواء شــيطان الجن أو الإنس كالمنــافقين؟ بلى. قد يحصل على بعض المصــالح المادية المحــدودة ، ويحقق بعض أهوائه ورغباته الدنيوية ، ولكن يخسر المســـــتقبل الأبدي.

(**فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها**)

إلى الأبد يــذوقا ألــوان العــذاب ، وما هي قيمة بعض من حطام الدنيا إذا كانت هذه هي عاقبته؟!!

(**وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ**)

الذين يظلمون أنفسهم وغيرهم باتبـاع هـوى النفس ، ووسواس الشيطان ، وفي التـاريخ صـور كثـيرة عن هـذه العاقبة المشــينة. إليك واحــدة منها : جــاء في الأثر : انه جيء لعابد زاهد من بــني إســرائيل بشــابة جميلة أصــابها الجنون كي يدعو لها بالاسم الأعظم فتشــفى ، فلما صــار عليهما الليل حدثه الشــــيطان عن الفاحشة ، وايقظ فيه الهوى والشهوة ، ووسوس له حتى واقع المــرأة ، وكــانت هذه الخطوة الأولى. ثم عــاوده على قتلها حــتى لا يفتضح امـره بقولها أو بحملها فقتلها ودفنهـا. ولما أصـبح الصـباح جاء إخوتها يسألون عنها فـأخبرهم بأنها خــرجت الى حيث لا يعلم ، فرجعــوا ، إلا أن الفلاح الــذي دفنت في مزرعته وقع على جسدها وهو يحرث الأرض فـأخبرهم ، وترافعـوا معه لدى القاضي واعترف بالجريمة فحكم بالشنق. ولكن الشيطان لم يتركه الى هنا انما تابع مسيرته ، فقد جاء له عند حبل المشنقة وأوعده بخلاصه واشترط عليه السجود له ، فســجد للشــيطان ولكن الشــيطان لم يف له وانما تركه يشنق ، وهكذا صار الى نـار جهنم ، وهـذه عاقبة كل من يتبع خطوات الشيطان.

**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ
لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللـهَ إِنَّ اللـهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُـونَ (18) وَلا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللـهَ فَأَنْسـاهُمْ أَنْفُسَـهُمْ أُولئِكَ
هُمُ الْفاسِـــقُونَ (19) لا يَسْـــتَوِي أَصْـــحابُ النَّارِ
وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفـائِزُونَ (20) لَـوْ
أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَـهُ خاشِـعاً مُتَصَـدِّعاً
مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْـكَ الْأَمْثـالُ نَضْـرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ (21) هُـوَ اللـهُ الَّذِي لا إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ عـالِمُ
الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الـرَّحِيمُ (22) هُـوَ اللـهُ
الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِـكُ الْقُـدُّوسُ السَّـلامُ الْمُـؤْمِنُ
الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيـــزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُـــبْحانَ اللـــهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (23) هُـوَ اللـهُ الْخـالِقُ الْبـارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ
الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)**)

هدى من الآيات :

هكذا بصرتنا الآيـات السـابقة بالصـفات الرفيعة الـتي يتحلّى بها المؤمنون الصادقون ، والتي هي ركـيزة فلاحهم ، كما حـــدثتنا عن العلاقة الســـيئة بين المنـــافقين وبين حلفــائهم من أعــداء الأمة ، وفي ختــام الفصل فضــحت دورهم في تضليل الناس ، وانهم كالشيطان الغوي ، الذي يقود أتباعه الى النار ثم يتبرأ منهم.

وحيث أن اشراك إبليس منصـوبة لكل إنسـان وحـتى المؤمـــنين فلا بد من التحصّـــن عنه بـــالتقوى ، كما أن المنافقين الذين يمثلون دور الشيطان في الأمة الإسلامية ســـيعملون على تجريد المؤمـــنين من صـــفة الإيثـــار ، وتفريقهم ، ثم جر بعضهم إلى حزبهم ، لذلك يدعو الوحي في هـذا الـدرس الى تقـوى الله ، والتفكـير في مسـتقبل الآخــرة ، والإحســاس بهيمنة الله عــبر ذكــره الــدائم مما يحفظ الإنسان عن الانحراف ، ويحصّنه ضد الشيطان.

وتشـير الآيـات باختصـار الى الفـرق الكبـير بين أهل الجنة وأصحاب النار ، ثم يثني السياق على عظمة القرآن وفاعليته في التـأثير باعتبـاره النهج الـذي يربط المخلـوق بربه ويـذكره به ، فهو لو أنـزل على جبل لخضع وتصـدّع من خشـية ربه ، ولك أن تعلم كم ينبغي أن يكـون قلب الإنسان قاسيا إذا لم يتأثر بآياته الحكيمة. ولكن هذا الكنز الإلهي العظيم لا يكتشـفه الإنسـان إلّا إذا اسـتثار عقله للتفكر في آياته ، والتدبر في أمثاله وقصصه.

ويكتسب القـرآن عظمته الكـبرى من كونه كلام الخـالق ، والتجلي الأعظم له إلى خلقه ، وهـذه الحقيقة هي التي تكشف لنا العلاقة بين الكلام عن عظمة القـرآن في الآية (21) والحـديث عن صـفات الله في الآيـات (22) ، فإن عظمة القرآن من عظمة خالقه المتجلية في أسمائه وصفاته. ولن تتحقق خشية الله لأحد إلا إذا سـمى الى آفـاق المعرفة به سـبحانه ، وذلك بـالتعرف على أسمائه الحسنى التي تتجلى في كتابه وفي خلقه ، ولذلك يختتم الله سورة الحشر بـذكر مجموعة منها لكي يتعـرف إلينا ونعرفه كما يريد.

بينات من الآيات :

[18] يتميّز المؤمنون عن غيرهم بخصال ثلاث هي :

1 ـ تقـوى الله الـتي تسـوقهم الى الطاعة وتحجـزهم عن المعصية ، وهي روح الإيمان.

2 ـ الإيمـان بـالآخرة كـدار للبقـاء والسـعي الجـاد والمسـتمر من أجل إعمارها باعتبارها دار مقـرّ الإنسـان ، فلا يصـدهم عن الاسـتعداد لها والـتزود إليها شـخص ولا شيء.

3 ـ الإحسـاس العميق برقابة الله على أعمـالهم ، وهذا ما ينمّي فيهم روح التقوى والإتقان.

ويسعى الشيطان (إنسيا كان أو جنيا) إلى مسخ شخصيتهم بسلبهم هذه الصفات الفاضلة ، وجرهم إلى الفسوق بأساليبه الخفيّة كالوساوس ، والظاهرة كالدعاية المضللة ، لذلك يوجه الوحي نداءه إلى المؤمنين بلطفه وعظيم منته ، لكي يظهر هذا النداء الرباني على ما يلقي الشيطان من نداءاته الخبيثة في القلب ، ووساوسه الداعية الى التمرد والعصيان ، وإلى نسيان الآخرة فيقول عز من قائل :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ**)

والتقوى درجة أرفع من الإيمان ، وفي الآية تحريض الى كل مؤمن بأن ينمّي إيمانه ليصل به إلى درجة التقوى لأن الإنسان بحاجة إلى درجة رفيعة من الإيمان ليواجه بها الضغوط والتحديات الشيطانية ، فحتى المؤمن قد ينحرف عن الصراط المستقيم خشية الطاغوت أو الآباء أو المجتمع ، ويمكن القول بأن التقوى هي : التحصن دون أسباب عذابه وسخطه ، أو الحرمان من رحمته ، والتعرض لعقابه ، مما تتسع الكلمة للعمل بالواجب والمندوب وترك المحرم والمكروه.

(**وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ**)

بلى. إن الشيطان وهوى النفس يدعوان الإنسان إلى المزيد من التركيز في حاضر الدنيا ، والاسترسال في لذات العيش من دون حدود أو قيود ، وعلى المؤمنين أن يقاوموا ذلك بالتفكير في مستقبل الآخرة الذي يرتكز على سعيهم في الدنيا ، وما على الإنسان الذي يريد أن يعرف مستقبله إلّا مراجعة حساباته ، والنظر في أعماله ، وضرورة هذه المحاسبة تنطلق من أننا نستطيع التغيير والاستزادة ما دمنا

نعيش فرصة الحيـاة الـدنيا ، أمّا بعد المـوت فلا تجـدينا التوبة شـيئا. وما أحـوج الإنسـان إلى النقد الـذاتي البنـاء للمســتقبل ، فإنه في عرصة القيامة حيث المحاســبات الحاسـمة يحتـاج إلى أقل من مثقـال الـذرة من أعمـال الخير ، فقد قال رسول الله (ص) : «**تصدّقوا ولو بصـاع من تمر ، ولو ببعض صـــاع ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، ولو بتمـرة ، ولو بشـقّ تمـرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن أحدكم لاقى الله فيقال له : ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سـميعا بصـيرا؟ ألم اجعل لك مالا وولدا؟ فيقول : بلى. فيقـول الله تبـارك وتعـالى : فـانظر ما قـدمت لنفسك ، قـال : فينظر قدّامه وخلفه ، وعن يمينه وعن شـــماله فلا يجد شيئا يقي به وجهه من النار**» [1].

وكما يجب على الإنســــان النظر الى ما يقدمه الى مستقبله الأخروي ، فانه مسـئول عن النظر إلى ما يقدمه لمسـتقبله الـدنيوي أيضا (مفـردا أو جماعة أو جيلا) ومن الخطأ أن يعيش لحظته الراهنة بمعـــزل عن المســتقبل واخطـاره ، لان هـذه اللحظة جـزء من المسـتقبل ، ولأنه والجيل الحاضر رقم في مسيرة الآتين شاء ذلك أم أبى.

ولكي لا يقيّم البشر ما يقدمه للمســـــتقبل من بعد الكم وحسب ، يدعونا القرآن لتركيز التقوى التي تأتي من الإحســاس بالرقابة الإلهية ، فــان الــذي يشــعر بمعاينة الخالق له ، وخبرته بسعيه لا شك سوف لن يكتفي بـالكم بل سيجتهد بإحراز النوع المرضي عنـده عـزّ وجل ، وذلك بالإخلاص في النية والإتقان في العمل.

(**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

ولك أن تتصـور فاعلية الإنسـان وسـعيه (كما ونوعـا) وهو يتحـــرك بشـــعور الحضـــور تحت رقابة رب العمل والحسـاب والجـزاء. إنه سـيجتهد حقّا لإحـراز مرضـاته ، وبلوغ

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 292

ثوابه ، وتجنب غضبه.

[19] وانما يـــدعو الله المؤمـــنين الى خشـــيته ، والاستعداد للقائه وتقـواه بتحسس رقابته على الأعمـال ، لأن ذلك مما يمـيزهم عن غـيرهم ، فيصـدق عليهم اسم المؤمنين ، فلو أنهم تجـرّدوا عن هـذه الخصـال الثلاث لما أصـــبحوا في عـــداد أهل الجنة وحـــزب الله ، ومن هنا نكتشف العلاقة بين الآية السابقة وهذه ، فان ما اشتملت عليه تلك يمثل أهم مضـامين الشخصـية المؤمنة المتمثلة في ذكر الله ، الذي يجعل الفرد من أصحاب الجنة.

(**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ**)

اي لم يتقـوه ، ولم يسـتعدوا للقائه في الآخـرة ، ولم يستشـــعروا رقابته على أعمـــالهم ، إذا فنســـيان الله لا ينحصر في الكفر المحض به تعالى وحسب ، بل يمكن ان يكون المـؤمن ناسـيا له لو تـورط في واحـدة أو أكـثر من هذه الأمـور الثلاث. وتعبـيره عنها بالنسـيان يهـدينا الى ان الإيمان به وذكره مودع في فطـرة البشر وذاكرته ، ولكنه يحيد عن ذلك بسبب الغفلة أو الشهوة وغيرهما.

وقد أوضح أئمة الهدى معنى هذه الآية الكريمة ، قـال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : «يعني إنّما نسوا الله في دار الدنيا لم يعملوا بطاعته» [1] وذلك جـرهم الى عـواقب خطيرة هي الضلال والنار.

(**فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ**)

كنتيجة طبيعية لنسيانه سـبحانه ، فـان الـذي لا يـؤمن بربه ، ولا يعتقد بالآخرة ، لا يجد قطبا ثابتا يدور حوله ، ولا هدفا حقيقيا يسعى إليه ، إنما تتجاذبه التيارات

---

(1) بح / ج 93 ص 99

المختلفة ، فيتبع يوما مجتمعة ، وثان : المحتلّين الأجانب ، وثالثا : التاريخ ، ورابعا : شهوة الرئاسة ، فيصـير مثل ذرة تائهة تسـير حسـبما تسـير الـريح ، ولا يعمل لمصـلحته الحقيقية ، ولا انطلاقا من غايـات وجـوده ، فـإذا به وقد حـان يـوم القيامة «**يَـوْمَ تَـأْتِي كُـلُّ نَفْسٍ تُجـادِلُ عَنْ نَفْسِها**» ولم يقدم لنفسه شيئا.

وبعبـارة : ان الـذي يثبت للإنسـان وجـوده ، ويعرفه بمصـلحته ، وهو ايمانه بربه ، فالإيمـان يمنحه الاسـتقلال ويعطيه الرؤية السليمة تجاه نفسه والثقة بها ، وهـذه من مميزات بصائر القرآن التي تحرر البشر من سلطة الهوى وهيمنة الشـهوات ، وعبودية الطغـاة والمـترفين الـذي يمنّونه بـالهوى ، ويرهبونه بصـده عن الشـهوات ، كلا .. المؤمن يتجاوز هواه ليكرس وجوده ولا يستسلم لجـواذب الشـهوة فيثبت اسـتقلاله ، ويتحـدى سـلطة المسـتكبرين ليعي ذاته ، ويعـــود الى كيانه ، بينما الثقافة الجاهلية بألوانها واتجاهاتها تفقده هذه القيم ، وتحدوه إلى الـذوبان في محيطه ، فيضل عن سواء السبيل.

(**أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**)

الذين خرجوا عن حصن القيم فتخطفتهم ذئاب الهوى وسباع الطغيان.

[20] بلى. نسـيان الله يسـبب الضـلال ، ويجعل الإنسان من أهل النار ، لأن أصحاب الجنّة هم الذين تتوفر فيهم الخصـال الثلاث (تقـوى الله ، والاسـتعداد للآخـرة ، والإحساس برقابته) ، وكما يختلف الفريقان في الدنيا في صفاتهم فإنهم يختلفون في العقبى في مصائرهم.

(**لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ**)

إذا فلنبحث عن صفات هذا الفريق ونسعى لتقمصها ، ونبحث عن تجمعهم فننتمي اليه حـــتى نفـــوذ معهم في الدنيا والآخرة.

وهكذا تتوالى آيات الذكر تبصرنا بمدى تميّز المؤمنين عمن ســواهم لكي لا يغرنا إبليس بأنهما ســواء. كلا .. لا تسـتوي الجنّة والنـار ، ولا تسـتوي الحسـنة والسـيئة ، ولا يسـتوي النـور والظلام ، ولا الظل ولا الحـرور ، كـذلك لا يسـتوي الصـالحون أصـحاب الجنة ، والمسـيئون أصـحاب النار ، بالرغم من أنهما في الـدنيا يتعايشـون في بلد واحد ، وربما تحت سقف واحد ، ويتراءى للمعاين أنهما سـواء ، بل ويحاول المسيئون تمييع الفرق بينهم وبين الصـالحين ، والدعاية بـأنهم ما دامـوا في الـدنيا لا يؤاخـذون بسـوء أفعـالهم فهم في الآخـرة كـذلك بمنجى منها ، كلا .. إنهما ليســوا ســواء ، ومعرفة هــذه الحقيقة تســاهم في بعث الإنسان الى الصلاح.

[21] وإذا كـان أصـحاب الجنة هم الفـائزين ، فكيف نبلغ درجـاتهم؟ إنما بـالقرآن الـذي لن يـأتي مثله مـذكرا للإنسان بربه ، ومربيا له على روح الإيمان والتقوى ، ذلك أنه لو نـزل على الجبـال لتصـدعت فكيف لا يسـتجيب له قلب الإنسان؟!

(**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُـرْآنَ عَلى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خاشِـعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**)

والتدبر في هذه الآية يهدينا إلى عدة حقائق :

الأولى : أنه تعـالى أضـاف اسم الاشـارة «هـذا» الى القرآن. لماذا؟ ربما لأنه أراد أن يـذكّر قـارئ القـرآن بـأن المعنى بالكلام هو كتابه الـذي بين يديه ، وأنه يتضـمن من الآيات والحقائق ما يصدع القلب ، فـإذا لم يخش تاليه ربه بسببه فليعلم

أن قلبه أقسى من الجبال.

وإذا كانت الاشارة متوجهة إلى القرآن كلّه فهي تشير بصـــورة خاصة إلى ذات الآيـــات القرآنية الـــتي تقع في سياقها من سورة الحشر ـ بصـفة أخص ـ وكيف لا تكـون كـذلك وهي تشـتمل على تجـلّ لله للمؤمـنين بأسـمائه الحسنى؟!

الثانية : جـاء اسم القـرآن بالـذات في هـذا السـياق لماذا؟ ربما لأن بلوغ الخشية والنفع بالآيات يكـون بتلاوتها وكونها مقـــروءة ، وليس بمجـــرد اقتنائها أو الـــتزين بها ، فالجبل يخشع ويتصدع لو أنزلت عليه الآيات التي تقرأ.

الثالثة : أن الجبل لا يخشع ولا يتصـــدع من القـــرآن بحروفه وورقه ، إنما يصـــير الى ذلك نتيجة المضـــامين العظيمة الـــتي تشـــتمل عليها آياته ، وأهمها وأعظمها انطواؤها على تجلّي الخالق عزّ وجلّ. لـذلك كـان القـرآن هو المــنزل ، بينما كـانت الخشـية من الله سـبحانه. اذن فعظمة القـــرآن مكتســـبة من ذلك التجلي ، الـــذي ظهر بصورة أخرى للجبل فاندك وخرّ موسى صعقا.

(**وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ**)

ولنا ان نهتدي من هذا المثل الى تصور مدى القسـوة التي ينبغي أن يبلغها قلب الإنسـان حـتى لا يتـأثر بـالوحي خشية وتقى. لا شك أنه سيكون أشد قسـوة من الحجـارة ، «**وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهـارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**» [1] هكذا يضرب الله الأمثال للناس.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)

---

(1) البقرة / 74

فيهتـدون إلى عظمة كتـاب ربهم ، فتلين به قلـوبهم ، وتأكيد القرآن على إثارة العقل بالتفكير لـدليل واضح إلى أنه ليس بديلا عن عقل الإنسان إنما هو مكمل ومرشد له الى الحق في أقــوم صــوره. وهــذه الآية تهــدينا إلى أن عظمة القــرآن لا تتكشف لأحد إلا بـالتفكر بآياته وأمثاله ، ذلك أنه كلما تقـدم بالإنسـان الـوعي والعلم كلما عـرف عظمته وأحس بالحاجة إليه ، وأن الرسـالة الالهية جـاءت لتحرك عقـول البشـرية ، وترفع تخلفها الفكـري ، ذلك أن الحركة الحضـارية الحقيقية تبـدأ باسـتثارة العقل وترتكز عليه ، والعقــــول الــــتي لا يحركها القــــرآن نحو التفكر والخشــــية من الله وهو أعظم محـــرك لهي أقـــرب إلى الموت من الحياة.

[22] أسماء الله وسائل معرفته ، ومعرفة الله سبيل قربه ، والقـرب من الله غاية كمـال الإنسـان ، وإنما خلق الله أسماءه لكي ندعوه بها ، ولولا تلك الأسماء كيف كان يتسنى لنا معرفته؟

هكذا جاء في حديث شريف عن الإمـام الرضا ــ عليه السلام ـ يسأله ابن سـنان عن معرفة الله بنفسه ، ومـتى خلق أسماءه؟ فيقول : «**هل كان الله عـزّ وجـلّ عارفا بنفسه قبل ان يخلق الخلـــق؟ قـــال : نعم ، قلت : يراها ويسمعها؟ قال : ما كـان محتاجا الى ذلك لأنه لم يكن ســـألها ولا يطلب منها ، هو نفسه ، ونفسه هو ، قدرته نافـذة فليس يحتـاج أن يسـمي نفسه ، ولكنه اختار لنفسه أسماء لغيره يدعوه بها ، لأنه إذا لم يدع باسمه لم يعرف**» [1].

ولكن كيف نــدعو الله بأســمائه؟ انما يتم ذلك حينما نجعلها وســـــيلة الى معرفته ، فلا نجمد عند حروفها ، ولا ندعو بالأسماء كأسـماء ، بل نجعلها سـبيلا الى ذلك الـرب الـذي نشـير اليه ب «هـو» ذلك الـذي تجلت آياته في كل شيء ، ولكن تعالت ذاته عن العقول.

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 295

وهكذا جاء في حديث مأثور عن الإمام الصـادق (عليه السـلام) حين يجيب هشـام بن الحكم حين يسـأله عن أسماء الله واشتقاقها : «**يا هشام! الله مشـتق من إله ، وإله يقتضي مألوها ، والاسم غير المسمى ، فمن عبد الاسم دون المعـنى فقد كفر ولم يعبد شـيئا ، ومن عبد الاسم والمعـنى فقد أشـرك وعبد اثـنين ، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد**» [1].

ويبـدو لي ان كثـيرا من البشر يضلّون حين يجمـدون على حـدود الأسـماء والحـروف الدالّة عليه أو على حـدود آيات الله دون أن ينفذوا ببصـائرهم وحقـائق إيمـانهم إلى المعنى ، ولعل أساس طائفة من أقسـام الشـرك هو هـذا الجمـود ، ومن هنا جـاءت آيـات الـذكر لتوجهنا الى الله بإشارات فطرية.

(**هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

وسـيأتي إنشـاء الله بعض التـدبر في هـذه الكلمـات المضيئة.

(**عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ**)

جـاء في الحـديث المـأثور عن الإمـام البـاقر (عليه السلام) : «الغيب ما لم يكن ، والشهادة ما كان» [2].

وإحاطة الله بـالغيب علما آية قدرته النافـذة ، أو لم يقل ربنا سـبحانه : «**وَعِنْدَهُ مَفـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ...**... الآية» [3].

أو تدري كيف نسـتدل على ان ربنا عـالم الغيب؟ لأنه تعالى قبل أن يخلق

---

(1) المصدر / ص 296
(2) المصدر
(3) الانعام / 59

الخلائق علم كيف يخلقها بلا مثال سبق ، ولا نقص لحق ، فلو لا علمه السابق كيف كان يخلقها بهذه الدقة والمتانة؟

(**هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ**)

وسعت رحمته كل شيء ، وتفضل على المؤمنين برحمة خاصة.

[23] في كل أفق ومع كل شارقة وغاربة ، وعلى كل صغيرة وكبيرة آياته ، فمن هو وما هي صفاته؟ أنى ألقيت ببصرك شاهدت آثار ملكه وعظمته ، وأيّ شيء رأيت أنبأك بقدرته وحكمته ، واي حدث شاهدت لامست تجليات عزته وجبروته ، فمن هو وما هي أسماؤه؟

سؤال يرتسم على كل شفة ، وبكل مناسبة ، ويأتي الجواب : انه «هو» ويلتقط الفكر هذه الإشارة ليجمع بها خيوط معارفه ، بلى. هو غيب كل شاهد ، وباطن كل ظاهر ، هو نور كل ظلام ، وخالق كل مخلوق.

«هو» وكفى بذلك تذكرة لمن كان له قلب ، أو ليس في القلب فطرته ، وفي أغوار كل فؤاد أشعة من نور معرفته؟

ولكن ما هي أسماؤه الحسنى؟ أولا : «اللـه» فهو الإله الحق ، الذي اجتمعت فيه كل صفات الألوهية ، فأشرنا اليه ب (الألف واللام) وقلنا : «اللـه» ولم نقل : «إله» فهو الإله الحق الذي لا يحق لغيره ادعاء الألوهية ، وهكذا تكون الأسماء التالية تفسيرا لاسم «الله» وبالذات الجملة التالية له.

(**هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

فلأنه «لا اله الا هو» فهو «الله» ولا غيره إله ، ولكن ما هي مظاهر ألوهيته

وتجلياتها؟

أولا : إنه «الملك» يملك ناصية القدرة في كل شـيء ، فلا حول لشيء ولا قـوة له إلا به ، ولا يقع حـدث إلّا في دائـرة علمه وقدرته ، وله مفـاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .. تصور نملة صغيرة في غابة واسـعة تنتقل في ليلة ظلمـاء من موقع لآخر ، يعلم الله بسرها وهـدفها ، وحركة الـروح بين أضــلعها ، ووســاوس الشــهوة في قلبها ، وانبعــاث الغرائز في نفسها .. يعلم كل ذلك ويحيط بها ملكوته.

إن الله يملك حركة الأشـــــــياء ، ويملك ذاتها ، فله ملكوت السموات والأرض ، تعالى ربنا وعظم ملكه.

انه ملك لا يزول ملكه ، ولا تحدده الحدود الجغرافية ، ولا تقيّده المعـادلات الكونيـة. هل سـمعت قصة المـأمون العباسي عند ما دنت منه الوفـــــاة كيف أشـــــرف على معسـكره العـريض ، وتنفس الصـعداء ، وقـال : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه؟

هكـذا قهر ربنا الجبـار عبـاده بـالموت والفنـاء ، حـتى وضع الملوك على رقـابهم نـير العبودية فهم من سـطواته مشفقون ، ومن عزته خائفون.

ثانيا : للقدرة حين تكـون عند البشر سـكرها ، وسـكر القـــــدرة أعظم من أيّ ســـــكر ، وحين تلعب بـــــرأس المقتدرين خمرة القدرة يفسـقون عن حـدود المشـروع ، وينســابون في الأرض انســياب الأفعى يزرعــون الســمّ والموت ، وقد قـال ربنا سـبحانه : (**إِنَّ الْإِنْسـانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**) [1] وقال سـبحانه : (**فَهَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ**) [2] ولكن ربنا سبحانه قدوس منزّه عن

---

(1) العلق / 7

(2) محمّد / 22

الظلم والحيف ، والقـدوس الطـاهر ، وسـمي الـدلو عند أهل الحجـاز ب (القـدس) لأنه يتطهر بـه. ولعل معـنى القدوس : أنّه سـبحانه طـاهر بذاته ، ومطهّر لغـيره ، كما نقـول في قيـوم : أنّ معنـاه القـائم بذاته الـذي تقـوم به الأشياء.

ثالثا : ومن تجلّيـات اسم القـدوس أنّه سـلام ، فهو لا يعتـدي على أهل مملكته ، ولا يؤاخذ أهل الأرض بـألوان العـذاب ، أما إذا التجأ اليه العبد فإنّه يجد دار السـلام ، حيث يحيطه من فضله بسكينة في قلبه يمنحه بها سـلامة من وسـاوس الشـيطان ، وسـلامة من همزاته ودفعاته ، وسلامة من الخـوف والقلق والـتردد ، وسـلامة من الحقد والحسد وظن السـوء ، ويحيطه من فضـله بعافية في حياته وسلام من الأخطار ، إلّا حسـبما تقتضـيه حكمته من ابتلائه وفتنته ، ويرجيه من فضله بعاقبة حسـنى ، فيها كل أمنة وسلام.

وهكذا جاء في الدعاء :

«**اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، وإليك يعود السلام**».

رابعا : ويشـتق من السـلام اسم «المـؤمن» حيث يؤمن من التجأ إليه من شـرّ نفسه وشـرّ الشـيطان وشـرّ كل ذي شرّ هو أخذ بناصيته.

ولـولا الأمـان الـذي وفـره رب الرحمة والقـدرة لهـذا الإنسان ـ ولكل الخلائق ـ كيف كـان ينمو هـذا المخلـوق الضعيف عـبر الأطـوار المتلاحقة من حيث كـان نطفة من مـنيّ يمـنى ، حـتى خلقه في رحم أمه علقة فمضـغة فعظاما ، حـتى جعله خلقا سـويّا ، والى أن أحاطه برعاية أمه وعناية أبيه ، ووفر له الحماية بالحفظة الذين سـاقهم بين يديه ومن خلفه حـتى قـال ربنا سـبحانه : (**إِنْ كُـلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِـظٌ**) [1] وهـذا أقـرب معـنى لكلمة «المؤمن» ، وقد استشهدوا عليه بقول النابغة :

(1) الطارق / 4

والمـؤمن العائـذات الطـير ركبـــــــان مكة بين الغيل
يمســــــــــــــحها والســــــــــــلم

اي قسـما بالـذي أعطى الأمـان للطيـور الـتي عـاذت بالبيت الحـرام فـاذا بـالحجيج يمسـحون عليها بين غابـات الشوك وكثبان الرمل.

وقـال بعضـهم : ان معـنى «المـؤمن» : انه سـبحانه شــهد أنه لا إله الا هو ، وروي عن ابن عبــاس قوله : «إذا كان يـوم القيامة أخـرج أهل التوحيد من النـار ، وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نـبي حـتى إذا لم يبق فيها من يوافق اســمه اسم نــبي قــال الله تعــالى لبــاقيهم : أنتم المســلمون وأنا الســلام ، وأنتم المؤمنــون وأنا المــؤمن فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين» [1].

خامسا : ولكن هل يـــؤمن النــــاس من الشــــرور الا المليك المقتدر الذي اسـتوى على عـرش القـدرة تمامـا؟ كذلك ربنا سبحانه فهو «المهيمن» الحفيظ الرقيب ، الذي لا يضيع عنده أحد.

وقد قــالوا في معـنى «المهيمن» أنه الأمين ، وقيل : الشاهد ، وقيل : هو المؤمن في المعنى ، لأن أصل اللفظ المـــؤيمن ، إلّا أنه أشــــدّ مبالغة في الصـــفة ، وقيل : هو الرقيب على الشيء ، يقـال : هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيبا على الشيء» [2].

ويبدو أن أصل معنى المهيمن المسـيطر ، وأنّ سـائر المعاني مشتقة منه ، فإن من سـيطر كـان رقيبا وشـاهدا وحفيظا ..

سادسا : وهيمنة الله على الخليقة بلا معــــــارض أنه يقهر ولا يقهر ، ويسأل ولا يسـأل ، ويجـير ولا يجـار عليه ، وهو المنيع الذي لا يرام ، وهو شـديد المحـال .. وكل هـذا ينـــبئ عن عزته ، وهي غاية الهيمنـــة. كما ان في الهيمنة كما الإيمان.

---

(1) مجمع البيان / ج 9 ص 267
(2) القرطبي / ج 18 ص 47

والايمان قمة السلام.

سابعا : هل تريد ان ترى تجليا لاسم «العزيز»؟ انظر الى جبروت الخالق ، وكيف انه قهر خلقه بما ألـزمهم من سـننه ، فهم لا يخرجـون عن الحـدّ الـذي رسم لهم الا بما شـاء ، فلا يملك أحد يـوم ولادته ولا سـاعة وفاته ، ولا ما قدر له من رزق ، ولا ما سـيّر عـبره من قضـاء .. انه الله «الجبار».

و «الجبـار» اسم من الجـبر ، وهو القهر والسـلطة ، وإذا أطلق على عباد الله كان ذمّا ، لأن الحاكمية المطلقة لله ، أما خلقه فخـير صـفاتهم الالـتزام بحاكمية الله ، اما إذا قهروا الناس فقد اعتدوا عليهم ، ونازعوا الله سلطانه.

وقيل : ان معنى الجبار الذي يجير الكسير ، ويبدو أن المعنى الأول أظهر.

ثامنا : وليست صـفة الجبـار كامنة عند الله ، ولكنها تتجلى في تكبره حيث لا يدع أحدا يعتدي على سلطانه الا بقـدر ما تقتضـيه حكمة الابتلاء ، فهو «المتكـبر» ، ولـذلك جاء في الحديث القدسي المـأثور عن رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) : «**الكبريـاء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نـازعني في واحد منهما قصـمته ، ثم قذفته في النار**» [1].

وجـاء في حـديث مـأثور عن الإمـام الصـادق (عليه السلام) انه قال : «**والكبريـاء رداؤه فمن نازعه شـيئا من ذلك أكبه الله في النار**» [2].

هذه هي أسماء الله التي لو تدبر فيها الإنسـان وتفتح قلبه على نورها ازداد ايمانا بربه وعرفانا.

---

(1) القرطبي / ج 18 ص 47
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 298

(**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**)

فهل في خلقه أحد يمكن ان يـدّعي هـذه الأسـماء ، حتى يكون شريكا له في ملكه؟ كلا ..

(**سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

هل أنبـأت عن إله مثل رب العـزة في أسـمائه الحسـنى يشـرك بـه؟ كلا .. إنما هم مخلوقـون مربوبـون عاجزون محدودون فانى يذهبون؟!

ترى بعضهم يعبد بقرة ، والآخر يعبد طاغوتا ، هو أقل شأنا من البقرة؟ والثالث يعبد صنما أصمّ. أفلا يعقلون؟!

حقـا! ان الـذين يشـركون بـربهم لا يعرفـون الله بأسمائه وصفاته ، ولو عرفوا شيئا منها لأدركـوا تفاهة من يشركون به ربهم وسفاهة عقول من يشرك.

وقد جـاء في الأثر المـروي عن الإمـام علي (عليه السلام) في معنى وفضيلة (سـبحان اللـه) أنه سـأل رجل عمر بن الخطاب ، فقـال : يا أمـير المؤمـنين : ما تفسـير (سبحان اللـه)؟ فقـال : إنّ في هـذا الحائط رجلا إذا كـان سئل أنبأ ، وإذا سـكت ابتـدأ ، فـدخل الرجل وإذا هو علي بن أبي طالب ، فقال : يا أبا الحسن! ما تفسـير (سـبحان الله)؟ قال : «**هو تعظيم جلال الله عزّ وجـلّ وتنزيهه عما قـال فيه كل مشـرك ، فـإذا قالها العبد صـلّى عليه كلّ ملك**» [1].

[24] ذكـرت الآية المتقدمة بصـفات الله ، ويبـدو أن هذه الآية تذكر بأفعاله

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 297

الحميدة ، وتلك الأسماء المشتقة منها.

اولا : الخلق ، ويبــدو ان معنــاه صــنع الأشــياء بعد ابتـداعها ، ولـذلك يمكن أن يسـمى غـير الله خالقا ، وقد قـال ربنا : (**فَتَبـارَكَ اللـهُ أَحْسَـنُ الْخـالِقِينَ**) [1] وقـال سـبحانه : (**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**) [2].

ثانيا : ونحن إذ نصنع شيئا فانما نغير شيئا موجودا من صـورة لأخـرى ، بينما ربنا سـبحانه أنشأ الخلق انشـاء ، وابتدعه ابتداعا ، لا من شـيء كـان احتـذى به ، ويبـدو أن هذا هو معنى «البارئ» حيث قال المفسـرون : ان معنـاه المنشئ المبتدع ، وبهذا صرح طائفة من اللغويين أيضا.

وقال بعضهم : إن أصل معنى برأ شوفي من مرض ، ثم توسع ليشمل من يصنع شـيئا بلا نقص أو عيب ، وعلى هذا فان «البارئ» هنا الذي اتقن خلقه فلم يدع فيه ثغـرة أو فطورا.

ثالثا : وقد خلق الله الأشـياء بعد ان ابـدعها ، وبعد أن قدرها تقديرا حسنا ، ولعل هذا هو معـنى «المصـور» فقد قدّر في علم الغيب العالم بما شاء ثم أبدع مادة العـالم لا من شيء ، ثم خلقه وصنعه بأحسن الصنع سبحانه.

وقيل : ان التصوير هو التشـكيل والتخطيط ، وهو يتم بعد الإنشاء والصـنع ، فيكـون المعـنى انه سـبحانه أحسن صنع الأشياء ، وأحسن صورها.

رابعا : ليست أسماء الله محدودة بهذه الكلمات على عظمتها ، بل «**لَـهُ الْأَسْـماءُ الْحُسْـنى**» جميعـا. أفليست الخلائق آياته؟ أو ليست آياته تجليات أسمائه ، فهو نور

---

(1) المؤمنون / 14

(2) المائدة / 110

السـموات والأرض ، وله المثل الأعلى؟! وإذا نظـرت الى آية من آيات قدرته وعظمته وبهائه وجلاله فاتخذها وسيلة الى معرفة ربك ، وادعه بها لأن الذي تدعوه ..

(**هُـوَ اللـهُ الْخـالِقُ الْبـارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الْأَسْـماءُ الْحُسْنى**)

وجاء في الحديث المأثور عن رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) : «لله عزّ وجلّ تسعة وتسعون أسماء من دعا الله بها استجاب له ، ومن أحصاها دخل الجنة» [1]

إنّ معرفة الله بأسمائه الحسـنى تحصن الإنسـان من الإلحاد فيها ، والتنكّب عن صراطه القويم ، ذلك أن جهالة الإنسان ، ووساوس الشيطان تدفعه نحو تقديس غير الله ، أو اتبــــاع الشـــــركاء من دونه ، مما يهلكه ويجعله من الخاســرين ، وإنّما النجــاة عن ضــلالة الشــرك الظــاهر والخفي بتسـبيح الله وتقديسه ، وذكر أسـمائه الحسـنى ، فإذا عظم الخالق في قلب الإنسـان تلاشى عنه غـيره. أو ليس النــور نجــاة من الظلام كــذلك التوحيد نجــاة من الشرك.

وحين نقدس ـ نحن البشر ـ ربنا العزيز فإنّنا ننسـجم مع سنة العالم ، فكل ما في السموات والأرض يسبح له ، وهكذا تخـدم سـنن العـالم من يسـبح الله ويوحـده ، بينما الذي يشرك به يبقى وحده فيتخطفه الشيطان ويلقيه في سواء الجحيم.

(**يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ**)

وهكــذا تختم الســورة بتســبيح الله كما افتتحت به ، وبين تلك الفاتحة وهذه

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 299

الخاتمة رفعت آياتها الكريمة أهل البصـــائر الى آفـــاق المعرفة الـــــتي تتصل فيها معرفة المجتمع وما فيه من صراع بين الكفر والإيمان بمعرفة آفاق السموات والأرض وما فيها من أسماء الله الحسنى.

ولهذه الآيات الثلاث الأخـيرة من سـورة الحشر فضل كثير حسب النصوص المأثورة. أو ليست تهدينا الى أسماء الله الحسنى التي بها خلق ربنا سبحانه السّموات والأرض ، وبها صلح أمر الأولين والآخرين؟ تعالوا نستمع الى النبي (صلّى الله عليه وآله) والى أوصيائه (عليهم السـلام) كيف يعظمون شأن هذه الأسماء ، الـتي لو قرأها المـرء بتـدبر ووعي ، وجعلها وسيلة لدعاء ربه فانها تصنع الكرامات.

روي عن رسول الله (ص) انه قال : «**من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله من الشـيطان الـرجيم ، وقـــرأ الثلاث آيـــات من آخر الحشر ، وكل الله به سـبعين ألف ملك يصـلّون عليه حـتى يمسي ، فـإن مـات في ذلك اليـوم مـات شـهيدا ، ومن قـال حين يمسي كان بتلك المنزلة**» [1].

وروي عن أبي هريـرة قـال سـألت خليلي أبا القاسم (ص) عن اسم الله الأعظم؟ فقـــال : «**يا أبا هريـــرة! عليك بـآخر سـورة الحشر فـأكثر قراءتها ، فأعـدت عليه فأعاد عليّ ، فأعدت عليه فأعاد عليّ**» [2].

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قـال لعبد الله بن ســنان : يا بن ســنان! لا بــأس بالرقية والعــوذة والنشرة [3] إذا كانت من القـرآن ، ومن لم يشـفه القـرآن فلا شـــفاء له ، وهل شـــيء أبلغ من هـــذه الأشـــياء من القرآن؟ أليس الله تعالى

---

(1) المصدر / ص 293

(2) القرطبي / ج 18 ص 49

(3) نور من الرقية

يقـول جل ذكـره «**لَـوْ أَنْزَلْنا هـذَا الْقُـرْآنَ عَلى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**» [1].

وقد وردت نصوص كثيرة في الاستشفاء بهذه الآيـات من مختلف الأمراض [2]

ويجدر بنا أن نستمع في خاتمة هذه الســورة الكريمة إلى قلب نابض بالتوحيد ، تنساب من ثناياه معرفة الرب ، ذلك عليّ بن أبي طـالب (عليه السـلام) الـذي انعكست عليه آيات الكتاب حتى انغمست نفسه في بحـار المعرفة فقـال : «والله لو كشف لي الغطـاء ما ازددت يقينـا». تعـالوا نسـتمع إليه وهو يخطب في مسـجد الكوفة فينبهر النـاس من حسن صـفته ، فيقـول : الحمد لله الـذي لا يموت ، ولا تنقضي عجائبه ، لأنّه كـلّ يـوم في شـأن ، من إحـداث بـديع لم يكن ، الـذي لم يولد فيكـون في العـزّ مشـاركا ، ولم يلد فيكـون موروثا هالكا ، ولم تقع عليه الأوهام فتقدّره شبحا ماثلا ، ولم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حـائلا ، الـذي ليست له في أوّليته نهاية ، ولا في آخريّته حـدّ ولا غاية ، الـذي لم يسـبقه وقت ، ولم يتقدّمه زمان ، ولم يتعـاوره زيـادة ولا نقصـان ، ولم يوصف بـأين ولا بما ولا بمكان ، الذي بطن من خفيّـات الأمـور ، وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التـدبير ، الـذي سئلت الأنبيـاء عنه فلم تصـفه بحد ولا ببعض ، بل وصـفته بأفعاله ، ودلّت عليه بآياته ، لا تستطيع عقـول المتفكّـرين جحده ، لأنّ من كانت السموات والأرض فطرته وما فيهن وما بينهن وهو الصـانع لهن فلا مـدفع لقدرته ، الـذي بـان من الخلق فلا شـيء كمثله ، الـذي خلق الخلق لعبادته ، وأقـدرهم على طاعته بما جعل فيهم ، وقطع عـذرهم بالحجج ، فعن بيّنة هلك من هلك ، وعن بيّنة نجا من نجا ، ولله الفضل مبدءا ومعيدا ، ثم إنّ الله ـ وله الحمد ـ افتتح الكتاب بالحمد

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 294
(2) راجع ذات المصدر / ص 294 ـ 295

لنفسه ، وختم أمر الـدنيا ومجيء الآخـرة بالحمد لنفسه ، فقـال : «**وَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ بِـالْحَقِّ وَقِيـلَ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**).

الحمد لله اللابس الكبريـــاء بلا تجسد ، والمرتـــدي بـــالجلال بلا تمثيل ، والمســتوي على العــرش بلا زوال ، والمتعالي عن الخلق بلا تباعد ، القــريب منهم بلا ملامسة منه لهم ، وليس له حد ينتهى إلى حـــــــده ، ولا له مثل فيعرف بمثله ، ذلّ من تجـبر عنه ، وصـغر من تكبّر دونه ، وتواضـعت الأشـياء لعظمته ، وانقـادت لسـلطانه وعزّته ، وكلّت عن إدراكه طـروف العيـون ، وقصـرت دون بلـوغ صـفته أوهـام الخلائق ، الأول قبل كل شـيء ، والآخر بعد كل شــيء ، ولا يعد له شــيء ، الظــاهر على كل شــيء بالقهر له ، والمشاهد لجميع الأمـاكن بلا انتقـال إليها ، ولا تلمسه لامسة ، ولا تحسه حاسة ، وهو الـذي في السـماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ، أتقن ما أراد خلقه من الأشياء كلها بلا مثال سبق إليه ، ولا لغـوب دخل عليه في خلق ما خلق لديه ، ابتدأ ما أراد ابتــداءه ، وأنشأ ما أراد إنشـــاءه على ما أراد من الثقلين (الجن والانس) لتعرف بذلك ربوبيته ، ويمكن فيهم طواعيته» [1].

---

(1) موسوعة بحار الأنوار / ج 4 ص 265 ـ 266

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتـــاب ثـــواب الأعمـــال بإســـناده عن عليّ بن الحســـين (عليهما الســـلام) قـــال : «**من قـــرأ ســـورة الممتحنة في فرائضه ونوافله امتحن الله قلبه للإيمـان ، ونـوّر له بصـره ، ولا يصـيبه فقر أبـدا ولا جنون في بدنه ولا في ولده**»

نور الثقلين / ج 5 ص 299

الإطار العام

الصورة المثلى التي تبشّـر بها رسـالات الله لحضـارة الإنسان في المستقبل ، هي صورة ذلك المجتمع المبدئي الذي يتعالى عن مؤثرات المادة السلبية ، ليسمو إلى أفق القيم الربانية ، آنئذ تنصـهر كل القـوى في بوتقة الـوحي ، بعيـــدا عن عصـــبية الإقليم والقـــوم ، وحـــزازات الطائفة والطبقة والحزب.

ولكي تسعى البشرية نحو تحقيق هذه الصورة المثلى فإنّ الوحي يصنع نموذجا بشريّا رائعا ممن يسميهم بحزب الله أو الأمة الشـــاهدة والصـــفوة الخالصة .. لكي تكـــون سيرتهم قـدوة لغـيرهم ، ولكي يكونـوا كما الـدرع الواقية تحيط بالأمة وتمنعها عن التمزق والتشرذم ..

أرأيت كيف جعل الله الجبال أوتادا للأرض تحميها من القواصف والعواصف والهزات والزلازل ، كذلك حزب الله المنتشـرين في أوسـاط الأمة يمنعـونهم من التقاتل تحت ضغوط المصالح والأهواء ، وعن الاختلاف والتمزق.

ويبدو أنّ سورة الممتحنة تربي في الأمة تجمّع حـزب الله ثم الأمثل فالأمثل ممّن يتبع نهجهم ويقتـدي بسـيرتهم ، وهكـذا الخطـاب يتوجه في فاتحتها الى المؤمـنين لكي يبتعدوا عن مودة الكفار المعادين للرسول ولكم لأنكم قد تفـــرغتم للجهـــاد في ســـبيل الله ، ولأنكم تبحثـــون عن مرضـاته ، ولأن الله يعلم ســركم ونجــواكم ، ولأنّ هــذه المودة ضلال عن الصراط السوي ، ولأنّهم قد يتظـاهرون اليـــوم بـــالمودة ولكنهم إن يأخـــذوكم يشـــبعونكم أذى بألسنتهم وأيديهم ، وأخيرا : لأنّهم لا يزيـدونكم عند الله إلّا خبالا ، هنالك إذ يتميّز المؤمنون عن الكافرين.

ولمزيد من التحـريض على الكفـار المعـادين يـرغّب الـرب المؤمـنين بالتأسي بـإبراهيم ـــ عليه السـلام ـــ والمؤمنين في عهده الذين تـبرّأوا من قـومهم الكـافرين ، ونابذوهم العداء ، وتوكلوا على الله.

إنّ هذا الموقف الصـلب قد يجعله الله سـبحانه سـببا لانتصـار المسـلمين على الكفـار أو لتحييـدهم لا أقل مما يسمح للمؤمنين يومئذ بمـودة من يشـاءون منهم لأنّ الله لا ينهى عن المـبرة إلى غـير الأعـداء من الكفـار والقسط إليهم لأنّ الله يحب المقسطين.

وينعطف السياق الى الحـديث عن المهـاجرات ، ربما لأنّ المعـروف التحـاق المـرأة بالرجل بينما صـلة الـدين أقـرب من علاقة الزوجية ، وهكـذا كـانت المـرأة تـترك زوجها للالتحاق بأبناء دينها ، ولكن يـأمر القـرآن امتحانها ، فـإذا عـرف منها الإيمـان انفصـلت عن زوجها ، ومن جهة ثانية إذا آمن الرجل لم يجز له الإبقـــــــــاء على زوجته الكافرة.

وبعد بيـان جملة أحكـام تخص هـذه المفارقة يـبيّن القـرآن بنـود بيعة النسـاء ، وأبرزها نبذ الشـرك (والـذي يعـني نبذ كل حاكمية مخالفة لحاكمية اللـه) ، والأمانة في المـال والعـرض ، والمحافظة على الأولاد ، والتـورع عن اتهام أحد (فيما يتصل ظاهرا

بالأمانة في النسب) ، والطاعة للقيادة.

وفي خاتمة السـورة يـذكّرنا الـرب بضـرورة الطالعة للقيادة الرشيدة ، وينهى عن اتباع القيادات الضالة.

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَـدْ كَفَـرُوا بِما جـاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُـوا بِاللـهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَـرَجْتُمْ جِهـاداً فِي سَـبِيلِي وَابْتِغـاءَ مَرْضـــاتِي تُسِـــرُّونَ إِلَيْهِمْ بِـــالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ

---

2 [يثقفوكم] : في المفردات : أن الثّقف : الحـذق في إدراك الشـيء ، وثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ، وفي المصـباح : ثقفت الشيء أخذته ، وثقفت الرجل في الحرب :
أدركته ، وثقفته : ظفرت به ، وثقفت الحديث فهمته.

بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَـوْ تَكْفُـرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحـامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ يَفْصِـلُ بَيْنَكُمْ وَاللـهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ (3) قَـدْ كـانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُـرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَـدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَـداوَةُ وَالْبَغْضـاءُ أَبَـداً حَتَّى تُؤْمِنُـوا بِاللـهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَـيْءٍ رَبَّنا عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِـيرُ (4) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَـةً لِلَّذِينَ كَفَـرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَـدْ كـانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللـهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

---

4 [أسوة] : الاسوة بالضم أو الكسر : القدوة ، وتأسيت به واتسـيت به : اقتديت ، وزاد الراغب في مفرداته : وهي الحالة التي يكون الإنسـان عليها في اتباع غيره إن حسنا وإن قبيحا ، وإن سارا وإن ضارّا.

لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ

هدى من الآيات :

لكي تتكامل نفس المــؤمن ، وتصــفو من شــوائب الشرك والشك ، وتتعالى عن المؤثّرات المادية ، وبالتالي لكي تتهيّأ للقـاء الله ونيل جنّاته ورضـوانه ، فـإنّ عليه أن يجتاز بنجاح امتحان الولاء ، وتتمحّض علاقاته في الإيمان ، وقد يــدعوه ذلك إلى قطع ووشــائج الــولاء عن أقــرب أرحامه فيقـاوم تيّـار عواطفه الجيّاشة تجـاههم ، ويتحمّل مضاعفات العزلة عنهم وضغوط الحياة دونهم.

وذلك من أصــعب ما يتعــرّض له الإنســان ، ولكنّ القرآن يعالج ذلك علاجا موضـوعيّا من شـأنه تهـوين الأمر في نفوس المؤمـنين ، ودفعهم لخـوض الامتحـان بنجـاح ، ببيان الحقائق التالية :

أوّلا : إن الكفّار لا يوادّون المؤمـنين أبـدا ، بل يكنّـون ضدهم الحقد والعداء ، وإذا كانوا يتظاهرون بالمودّة أحيانا فإنّما لأسباب وظروف ومصالح ، فحيث لا يجدون

القدرة على إظهار العداء للمؤمنين الذين قويت شــوكتهم يخفون كلّ ذلك ، أمّا لو يظفرون بهم فإنّهم ، (**لا يَرْقُبُونَ فِي مُــؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَــدُونَ**) [1] ، ودليل ذلك أنّهم أخرجـــــــوا من قبل الرســــــول (ص) والمؤمـــــنين من مكّة المكرمة ، واســــتحلّوا حرمــــاتهم وأموالهم.

ثانيا : المهم عند المـؤمن الآخـرة فعليه أن يعمل في الــدنيا ما ينفعه يــوم القيامة ، وليس تنفعه تلك الــولاءات شيئا ، فلما ذا التشبّث بها؟

ثالثا : إنّ المقاطعة التي يفرضـها الله على المؤمـنين ليست أمرا مســتحيلا ، فهنـاك من عمل بها وهو نـبيّ الله إبـراهيم (ع) والمؤمنـون معه ، حيث ضـربوا المثل الأعلى في البراءة من قـومهم المشـركين ومن آلهتهم المزيّفة ، وفي الكفر بهم ، وإظهار العـداوة والبغضـاء ضـدّهم ، وما أروعها أسوة لكلّ مؤمن يرجو رضى ربّه ، ويؤمن بالحيــاة الأخرى.

بينات من الآيات :

[1] / قالوا في شأن نزول الآية : «لقد كـانت قـريش تخـاف أن يغـزوهم رسـول الله (ص) فصـاروا إلى عيـال حاطب ـ بن أبي بلتعه ، وكان قد أسـلم وهـاجر تاركا أهله بمكّة ـ وسألوهم أن يكتبوا إلى حـاطب يسـألونه عن خـبر محمّد هل يريد أن يغزو مكّة؟ فكتبوا إلى حاطب يسـألونه عن ذلك ، فكتب إليهم حاطب : إنّ رسول الله (ص) يريد ذلك ، (وفي رواية) : من حـاطب بن بلتعه إلى أهل مكّة : إنّ رسول الله يريدكم فخذوا حذركم [2] ودفع الكتـاب إلى امرأة تسمّى صـفيّة ، وقيل : سـارة مـولاة أبي عمـرو بن صيفي بن هشام ، وكانت قد أتت رسول الله (ص)

---

(1) التوبة / 10

(2) مجمع البيان / ج 9 ـ ص 268

بعد بــدر بســنتين فقــال لها رســول الله (ص) : أمســلمة جئت؟ قالت : لا ، قال : فما جاء بك؟ قـالت : كنتم الأصل والعشــيرة والمــوالي ، وقد ذهب مــواليّ فـاحتجت حاجة شديدة فقـدمت عليكم لتعطـوني وتكســوني وتحملـوني ، قال : فأين أنت من شباب مكّـة؟ ــ وكـانت مغنّية نائحة ــ قـالت : ما طلب مـني بعد وقعة بـدر أحد ــ حيث فجعــوا بأبطالهم وأخذهم الحزن والغم ــ فحثّ رســول الله (ص) بني عبد المطلب فكسوها وحمّلوها وأعطوها نفقة ، وكان رسـول الله (ص) يتجهّز لفتح مكّة ، وأتاها حـاطب بن أبي بلتعه فكتب معها إلى أهل مكّة ، وأعطاها عشرة دنــانير ، وقيل عشرة دراهم ، وكساها بردا على أن توصل الكتــاب إلى أهل مكّــة»[1] فوضــعته في قرونها ومــرّت ، فــنزل جبرئيل على رسول الله وأخبره بذلك ، فبعث رسـول الله أمير المؤمنين (ع) والزبير بن العوّام في طلبها ، «وقيل : معهم عمّار ، وعمر بن الزبير ، والمقداد بن الأسود»[2] ، فلحقوها فقــال لها أمــير المؤمــنين (ع) : أين الكتــاب؟ فقالت : ما معي شيء ، ففتشوها فلم يجدوا معها شيء ، فقال الزبير : ما نـرى معها شـيئا ، فقـال أمـير المؤمـنين (ع) : والله ما كـذبنا رسـول الله (ص) ، ولا كـذب رسـول الله على جبرئيل ، ولا كــذب جبرئيل على الله عــزّ وجــلّ ثناؤه ، والله لتظهرن الكتـاب أو لأردن رأسك إلى رسـول الله (ص) ، فقـالت : تنحّيا عـني حـتى أخرجه ، فـأخرجت الكتـاب من قرونها ، فأخـذه أمـير المؤمـنين (ع) وجـاء به إلى رسول الله (ص) ، وقال رسول الله (ص) : يا حاطب ما هذا؟ فقال حاطب : والله يا رسول الله ما نافقت ، ولا غيّــرت ، ولا بــدّلت ، وإنّي أشــهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّك رســول الله حقّا ، ولكنّ أهلي وعيــالي كتبــوا إليّ بحسن صــنيع قــريش إليهم فــأحببت أن أجــازي قريشا بحسن معاشهم ـ وفي رواية أخرى ــ قـال رسـول الله (ص) : ما حملك على ما صــنعت؟ فقــال يا رســول اللــه! والله ما كفرت مذ أسلمت ، ولا غششتك مذ نصحتك ،

(1) المصدر بتصرّف طفيف
(2) المصدر

ولا أحببتهم مذ فـــــــــــــارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهـاجرين إلّا وله بمكّة من يمنع عشـيرته ، وكنت عريـرا (أي غريبا) وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشــيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد قلت : إنّ الله يــنزل بهم بأسه ، وإن كتابي لا يغني عنهم شيئا ، فصدّقه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وعـذره» [1] فـأنزل الله عـزّ وجـلّ على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) [2] :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**)

والــولي هو الـذي يجعله الإنســان أولى به من ســائر النــاس بحبه وصــلته وطاعته ، وإنّما ينهى الله المؤمــنين عن تــولّي الأعــداء من المشــركين والكفّــار ، لأنّ ذلك ينـاقض تولّيه عـزّ وجـلّ الـذي يقتضي الـبراءة من أعدائه حيث لا يحتمل القلب الواحد ولائين متضادين ، قال تعـالى (**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُـوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كـانُوا آبـاءَهُمْ أَوْ أَبْنـاءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**) [3] .

ولم يقتصر القـرآن على بيـان عـداوة أولئك لله ، بل أثبت عداوتهم للمؤمنين ، مع أنّ المحور هو العــداوة لله ، وأنّ كــلّ عــدوّ له هو عــدو للمؤمـــنين به ، وذلك ليؤكّد عــــداوتهم العملية والمباشــــرة لهم ، والــــتي تظهر في مواقفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من المؤمنين ، كإخراجهم الرسول (صلّى الله عليه وآله) والمؤمنين من بلادهم والمشار إليه في الآيات (1 ، 8 ، 9) ، فإنّ العدوّ لله عـدو للمؤمـنين ، ولكنّه قد لا يجد سـبيلا للتعبـير عمليّا عن عداوته لهم ، إنّما يحفظها ظغـــــائن في صـــــدره. والمــؤمن قد يلقي بــالمودة للأعــداء نتيجة العواطف أو الانهزام النفسي تجاههم ، وسواء هذا أو ذاك

---

(1) تفسير القمي ج 2 ص 361

(2) المصدر 361

(3) المجادلة / 22

فإنّه نـوع من الضـعف النفسي الـذي ينبغي التعـالي عنـه. ولعلّ الباء في قوله «بالمودة» جاء بمعنـاه الحقيقي على أن يكون المفعول لقوله : «تلقـون» متروكا ليفيد الإطلاق ، فلا يجوز إلقاء أيّ شيء بسبب المودة ، فلا يجوز السلام بالمودة ، ولا الكلام بالمودة ، ولا التعاون بالمودة ، ولا أيّ شيء آخر بـالمودة ، بلى. قد يجـوز كـلّ ذلك للضـرورة أو المصلحة ، وليس بالحب والمودة ، والله العالم.

ولكن لماذا كلّ ذلك؟ للأسباب التالية :

أوّلا : الصراع المبدئي بينكم وبينهم.

(**وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِ**)

فهم لا يعترفون بالأمّة الإسـلامية وحقّها في الوجـود ، لأنّ الاعتراف بأيّ مجتمع يبدأ من الاعتراف بقيمه ومبادئه وقد كفروا بهما حينما كفروا بالرسالة الإلهية ، ولا ريب أنّ هذا اللون من الكفر ينطوي على التحدي والعـداء ، بل هو استهزاء بمقدّسات المؤمنين ، فهل يصح بعدئذ للمؤمــنين أن يوادّهم؟ كلّا ..

ثانيا : محاربتهم للقيادة الرسالية وللمؤمـنين ، عـداوة لله ، وترجمة عملية لصراعهم مع الحق.

(**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ**)

إنّهم لا يريــدون إلّا الباطل الــذي يــبرّر وجــودهم ، ويوصـلهم إلى شـهواتهم ، وهـذا هو السـبب لمحـاربتهم المؤمنين ، وليس ما تعكسه وسـائل إعلامهم من ضـلالات يـبرّرون بها بغيهم وفسـادهم ، وليس بالضـرورة أن يبـادر الظلمة إلى اعتقـــال المؤمـــنين وطـــردهم من بلادهم مباشرة ، إنّما يصطنعون أجواء الكبت والإرهاب التي

تضـطرهم إلى الهجـرة. وتسـأل : لمـاذا يلجأ الظلمة على مرّ التاريخ لإخراج المؤمنين من بلادهم؟ والجـواب : لأنّهم يخشـــون أن يســـتجيب المجتمع لمبـــادئهم الحقّة ، ويتبع قيـادتهم ، وينتمي إلى تجمّعهم ، وبالتـالي يصـيرون بـديلا عن أنظمتهم الفاسدة ، وقيادتهم. ولا ينبغي للمؤمن الذي يريد الله له العـــزة وبالـــذات من تعـــرّض لأذى الكفّـــار والظلمة كـــالتهجير والاعتقـــال أن ينسى جراحة ، ويـــودّ عدوّه.

ثالثا : لأن موادتهم نقيض لأهم قيمـتين عند المؤمـنين وهما الجهاد في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته. بلى. الجهـاد لإعلاء كلمة الله ، وتحرير البلاد والعبـــــاد من ربقة الجبت والطاغوت هو صبغة العلاقة بين المؤمنين وأعداء الرسالة ، وهو بحاجة إلى الشدة منهم ، بينما حبّهم وتـولّيهم يفـرّغ الجهاد من هذه الـروح ، ثم لمـاذا مـوادتهم وتـوليهم ، هل لنيل رضاهم فإنّ ذلك لا يرضي الله عزّ وجلّ؟ لأنّ السبيل إلى رضاه باتجاه مناقض تماما لســبيل رضى أعدائه ، كما تشير الآية إلى ذلك في نهايتها.

(**إِنْ كُنْتُمْ خَـرَجْتُمْ جِهـاداً فِي سَـبِيلِي وَابْتِغـاءَ مَرْضاتِي**)

وينطوي هذا المقطع على بيان عميق لمعنى الهجــرة في سبيل الله عزّ وجـلّ في مفهـوم القـرآن ، حيث تعـني الانقطـاع التـام عن الأعـداء ، وهجـرتهم ماديّا ومعنويّـا. أو ليس مقياس المؤمن هو الدّين ، يحبّ عليه ، ويبغض عليه ، حتى ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) :

«**كـلّ من لم يحب على الـدين ، ولم يبغض على الدين فلا دين له**»

وحيث يريد الله أن يســتخلص قلــوب المؤمـــنين له وحده نهاهم بصورة غير مباشرة حـتى عن مجـرد المـودة الخفية الــتي يلقيها إليهم بعيـدا عن علم الآخــرين ، وذلك ببيان

إحاطة علمه بها.

(**تُسِــرُّونَ إِلَيْهِمْ بِــالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ**)

وعبثا يظن بعض الناس بـأنّ مـوادة الأعـداء تصـير به إلى مصلحة حقيقية في الدينا أو في الآخرة ، كلا ..

(**وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ**)

يعني النهج والطريق السليم الذي يوصل الإنسان إلى أهدافه ومصـالحه ، فـإنّ ذلك في اتبـاع كتـاب الله وتـولّي أوليائه ، وليس في موادة أعدائه.

[2 ـ 4] / ويـبيّن القـرآن كيف أنّ من يـواد الأعـداء أو يتولهم يضل سواء السبيل

أولا : لأنّ موادتهم لا تغيّر شـيئا من عـدائهم المبـدئي للمؤمــنين ولــدينهم ، فلربما تظــاهروا بحب المؤمــنين ولكنّهم يكنّون العداء لهم ، ويستهدفون القضاء على الحقّ وأهله ، فهم لو غلبوا المؤمنين أذا قوهم ألوان العذاب.

(**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً**)

والآية تــوحي بــأنّ الكفّــار يســعون للتســلط على المؤمــنين والظفر بهم ، وأنّهم إنّما يتظــاهرون بقبــول المودة ما دام المؤمنون ندا لهم في القوة أو أقــوى منهم ، أمّا لو انعكست المــوازين لصـالحهم فلن يـدخروا جهـدا في إبداء الحقد والعداوة.

(**وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ**)

يعــني بــألوان الأذى المــادي كالقتــال والتنكيل ، والمعنوي كالحرب الإعلامية ،

وقد نـزلت هـذه الآيـات في المدينة بعد ما قـويت شـوكة المؤمـنين ، لـذلك يفـترض تعـالى تمكّن المشـركين منهم افتراضا ، ويعـزّز صـدق قوله عـزّ وجـلّ أنّهم أخرجـوا الرسـول (صـلّى الله عليه وآلـه) والمؤمـنين منذ قبل من بلادهم مكة حيث كانوا أقوياء.

كما أنّ الأعداء لا يعترفون بأنّ المؤمنين أمّة ممـيزة ، بل تجدهم يسعون إلى إعادتهم إلى ربقة الكفر.

(**وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**)

هكـذا يكشف الـوحي طبيعة الأعـداء ، ولعلّنا نسـتفيد من الآية بأنّ موالات الكفّـار ومـودتهم تنطـوي على خطر عظيم قد يقع فيه من يفعل ذلك وهو الكفر بالله سبحانه.

ثانيا : ثم إنّ المـؤمن الحق هو الـذي يعتـبر الإيمـان بالآخرة والتفكير فيها حجر الزاوية في سلوكه ، والصراط المستقيم «سواء السبيل» هو أن يقـدم الإنسـان على ما ينفعه في الآخـرة ، وليس ينفع المـؤمن ولاؤه للكفّـار إذ تتلاشى يومئذ كلّ الروابط غير الإيمانية.

(**لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ**)

وهم أقـرب النـاس إلى الإنسـان فكيف بـالآخرين؟ والسـبب أنّه لا تبقى صـلة بين النـاس لأنّها متأسسة على الإيمـان بالله واليـوم الآخر ، أمّا الأخـرى المصـلحية والعاطفية فهي محدودة بالدنيا وتنتهي عند حدودها.

(**يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ**)

وهنا لك يتضح الانفصـال الحقيقي بين المؤمـنين والكافرين ، وبين الأرحام

بعضها ، وبين الآبـاء والأولاد. ويحـذّر الله من طـرف خفي بأنّ المناورة لا تنفع في الالتفـاف على أحكامه وحكومته ، كأن يودّ المـؤمن أحـدا من الكفّـار أو يتـولّاه ثم يـبرّر هـذا الانحراف بأنّه رحم أو ما أشبه.

(**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

ثالثا : إنَّ سواء السبيل هو خط الأنبياء والذين آمنـوا ، وقد تـبرّأوا من أعـدائهم وعـادوهم وبغضـوهم لوجه الله ، وقد ضرب أبو الأنبياء إبـراهيم (عليه السـلام) والمؤمنـون معه المثل الأعلى في هـذا الجـانب فأصـبحوا خـير أسـوة على امتداد الزمن ، فإنّهم لم يقطعوا حبل المودة والـولاء عن الأبعدين وحسب ، بل قطعوها عن أقرب الناس إليهم وهم قومهم وأرحامهم وآباؤهم.

لقد كـان إبـراهيم يتيما يحتـاج إلى الحماية الاجتماعية والاقتصـادية ، ولكنّه لم يخضع لعمّه آزر طمعا في شـيء من ذلك ، بل مضى قـدما على نهجه الحـنيف ، فلم يتحـدّ الكفّار اعتمادا عليه ولا على قومه ، بل تحـدّى قومه بـدءا من عمّه ، وتحـدّى كـلّ الشـرك بـدءا من قومه ، فأصـبح أسوة المؤمنين ، وهكذا تتحوّل حياة الأنبياء أسـوة حسـنة للأجيـال المؤمنة من بعـدهم ، ويتعـزّز دور إبـراهيم (عليه السـلام) والـذين معه كأسـوة للمخـاطبين بهـذه السـورة حينما ندرك ظـرف نزولها في المدينة حيث تحـوّلت الأمة الناشـئة إلى مجتمع مسـتقل ، وذي قـوّة لا يسـتهان بها ، فـإذا قسـنا ذلك الظـرف بما عاشه المؤمنـون في عهد إبـراهيم كـانت المسـافة عريضة ، حيث قـاطع إبـراهيم والمؤمنـون معه تلك الفئة القليلة المستضـعفة مجتمع الشرك مقاطعة جذرية شـاملة ، فكيف يـزعم البعض من مؤمـني المدينة ومن كـان مثلهم أنّ مقاطعة الكفر غـير ممكنة؟! كلّا .. أولئك أسوة لنا وحجّة علينا.

(**قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**)

لماذا عبّر القرآن الحكيم بهـذه الصـيغة مع تأكيد على شخص إبراهيم ، وكـان من الممكن أن يقـول تعـالى : قد كانت لكم أسوة حسنة في المؤمـنين على عهد إبـراهيم؟ ربما ليؤكّد على دور القائد إبراهيم (عليه السـلام) لأنّه هو الأسوة أوّلا وإنّما المؤمنون أتبـاع له ، وهـذا تأكيد من قبل الله على الدور الريادي للإنسان الفرد في التاريخ.

وهذا هو أبو الأنبياء والمؤمنـون معه يعلنـون مـوقفهم الحـازم والراسخ تجـاره قـومهم المشـركين وضد قيمهم الضـالة ، لم تثنهم قلّتهم ، ولم تلجـؤهم الضـغوط إلى الركون والخضوع لهم.

(**إِذْ قالُوا لِقَـوْمِهِمْ إِنَّا بُـرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**)

وبـذلك تحـدّوا الأشـخاص والمبـادئ معا لما ينطويـان عليه من الضلال ، وكم يكـون الأمر صـعبا والتحـدي مكلّفا إذا كان المتبرّأون هم الأقلية الضئيلة ، ذلك أنّ العزلة عن الآخرين مكلّفة حتى ولو كانت من الأكثرية للأقلية ، فكيف بـالعكس؟! بلى. إنهم أعلنـوا الـبراءة من قـومهم ، وهجروهم ، واشتروا ألوان المحن بقيمة تحديهم ، وصبروا على الحق ، وهكذا ينبغي للإنسان الحر أن يختار طريقه ، بعيـدا عمّا يجد عليه قومه ومجتمعة ، وبالـذات المـؤمن الذي يعتبر الحق هو المقياس الأوّل والأخير. ولعلّ القـول «إذ قالوا» لا يعني مجـرد الكلام ، إنّما يشـمل كـلّ ما من شأنه التعبـير عن مـوقفهم وبـراءتهم ماديّا ومعنويّا ، فلقد أعلنوا بكلّ الوسائل براءتهم منهم ..

(**كَفَرْنا بِكُمْ**)

فلا نـؤمن بنهجكم في الحيـاة ، ولا نتخـذكم مقياسا لمعرفة الحقّ والباطل ، والكفر

بالباطل هو الوجه الآخر لـــولاء الحق ، وقد أكّد الله ذلك في قوله : (**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لَا انْفِصامَ لَها**) [1] ، ويجب أن لا يكتفي المؤمنـون بمجـرّد الكفر البـاطن ، إنّما ينبغي ترجمة ذلك عمليّا في واقع الحيـاة ، كما كـان إبـراهيم (عليه السلام) والمؤمنون معه.

(**وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ**)

هـذه هي الصـورة الحقيقية والسـليمة الـتي يجب أن تكون عليها علاقة المجتمع المؤمن بأعداء الله عزّ وجـلّ ، متمثلة في إعلان العـداء على الاسـتمرار ، لا تقطع ذلك عاطفة ولا شهوة أو مصلحة.

(**أَبَداً**)

بلى. إذ اهتـدى المشـركون والضـالون إلى الإيمـان بـالحق ، لا يبقى بعدئذ مـبرّر لموقف الـبراءة (الكفر ، إظهار العداوة والبغضاء) ، ذلك أنّ المؤمن لا يعـادي أحـدا لعنصـرية أو قومية أو بسـبب أحقـاد متوارثة أو مصـالح متضـاربة ، إنّما تقـوده المبـادئ في كـلّ مواقفه ، وكما يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في صـفته : «قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وإمامه يحل حيث حـلّ ثقله ، وينزل حيث كان منزله».

(**حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ**)

وهـذا المقطع يفسّـر قوله تعـالى في الآية (7) ـ : (**عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً**) بأنّ المودة بين المؤمـنين والأعـداء تكـون إذا آمن أولئك ونبذوا الأنداد والضلال أو سلّموا لقيادة المؤمنين.

---

(1) البقرة / 256

ثم يستثني القرآن لقطة واحدة من حياة إبراهيم (عليه السلام) يعالجها ويرفع ما حولها من غموض ، فيقول :

(**إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ**)

ولهذه الآية تفسيران :

الأوّل : بأن تكون هذه اللقطة من حياة إبراهيم (عليه السلام) مستثناة من عموم التأسي ، فلا ينبغي لمؤمن أن يأتم به فيها. قال بعضهم ذلك ، وبرّر بأحد الأمرين :

الأوّل : أنّ الله سبحانه قد خصّ بذلك إبراهيم (عليه السلام) وأمره به لأسباب يعلمها ولمدة محدودة ، كما أجاز لنبيه (صلّى الله عليه وآله) الزواج بأكثر من أربع ، حيث أنّ إبراهيم (عليه السلام) لم يقف عند حدود الوعد بل استغفر له ، قال تعالى يحكي عنه : (**وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ**) [1].

ثانيا : أو لأنّ القرآن يشير بعض الأحيان إلى التراجعات التي تحدث في حياة الأنبياء لكي لا يتحوّلوا إلى آلهة في نظر المؤمنين بهم وأتباعهم ، بالذات وأنّ هناك سابقة في الاستغفار عند النبي نوح (عليه السلام) حيث قال : (**رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ* قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ**).

الثاني : التفسير الذي نختاره حيث نعتبر اللقطة مما يتأسى به في حياة إبراهيم (عليه السلام) ولكن الوحي استثنى لإلفات الأنظار الى هذه اللقطة وعلاجها ،

---

(1) الشعراء / 86

بالـــذات وأنّ فهمها الخـــاطئ قد يجـــرّ المؤمـــنين إلى سلوكيات خاطئة في علاقتهم مع أعـداء الله ، كـأن تكـون مبرّرا لموادة الأرحام منهم وموالاتهم ، فإنّ إبراهيم (عليه السـلام) حينما وعد عمّه آزر بالاسـتغفار واسـتغفر له لم يكن قد أظهر عداوته لله ، إنّما كـــان ظـــاهره الشـــرك الموروث ، أو العداء الشخصي الموجّه ضد إبـراهيم (عليه السلام) نفسه ، أو لعلّ آزر كـان في بيئة الحنفية كما هي أسـرة إبـراهيم (عليه السـلام) ولكنّه أنهـار أمـام ضـغط المجتمع ، وصار إلى الشرك شيئا فشيئا حـتى تمحض في الضلال عن الحق والعـداء لله ولإبـراهيم (عليه السـلام) ، وإلّا فالاسـتغفار للمشـركين محضـور حـتى على الأنبيـاء ، قـــال تعـــالى : (**مَا كـــانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُـــوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْـدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ* وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**) [1].

من هــذه الآية يظهر أنَّ الاســتغفار له قبل أن يتــبيّن موقفه النهائي جائز ، ويتـأوّل إلى طلب هدايته ، كما كـان الرســول (صــلّى الله عليه وآلــه) يطلبها لقومه بقوله : «**اللهم اهد قـومي فـإنّهم لا يعلمـون**» ، أمّا إذا تـبيّن موقف المشرك وأنّه قد أصبح من أصحاب النـار بجحـوده وإنكاره فإنّ الواجب يومئذ البراءة منه بصراحة.

كما أنّ الاســتغفار ليس بمعــنى التحــتيم على الله سبحانه حيث قال إبراهيم (عليه السلام) :

(**وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ**)

ولم يكن إبـراهيم (عليه السـلام) والـذين معه أقويـاء وأشداء ، حتى لا تكون البراءة بالنسبة إليهم تحديا صـعبا ، إنّما كانوا في غاية الضعف ماديا ، ولذلك جأروا

(1) التوبة / 113 ـ 114

إلى الله في لحظة البراءة ، وأساسا الـدعاء الحقيقي إنّما ينطلق من الإنســان عند الإحســاس العميق بالحاجة إلى العون.

(**رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا**)

والإنابة هي الرجــوع والاســتغفار ، وفي هــذه الكلمة إشــارة إلى أنّ المؤمــنين لا يــتركون الضــلال والمجتمع الفاسد إلى الفــراغ ، إنّما إلى بــديل إيجــابي هو الهــدى وتجمّع المؤمـنين ، فـإن إبـراهيم والـذين معه تـبرّأوا من قومهم المشـركين لـيرجعوا إلى ربّهم ، وذلك يـوحي بـأنّ الــذي يهجر مجتمعا منحرفا بحاجة إلى التطهر بالتوبة إلى ربه ، والرجوع إلى صراطه المستقيم ، ونهجه القـويم في الحياة ..

وبعد التوكل على الله والعـــــــــودة إليه يجب على المؤمن أن يكمل ذلك بالتسليم المطلق لإرادته ، والقبول بما يرضاه له.

(**وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**)

[5] / ولكن لا يعني ذلك أن لا يسـأل المؤمنـون ربّهم السلامة.

(**رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا**)

أي موضع ابتلائك لهم ، كناية عن أذاهم للمؤمــــنين ، فإنّهم إذا تمكّن الكفّار منهم عـذّبوهم ، وأظهـروا تجـاههم عداوتهم للحق ، كما صنع الظلمة بأصحاب الأخدود.

وتبقى نفوس الصالحين توّاقة إلى التوبة.

(**وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

وهذا الوله إلى التوبة ينطلق من شـعورهم بالتقصـير في جانب الله عزّ وجلّ ، وعـدم بلـوغهم حـدّ الإشـباع في التسليم له. ومن الناحية الواقعية لا يضـمن المـؤمن عـدم الوقوع في الأخطاء مائة بالمئة ، لذلك يجعل التوبة ذريعة لتصحيحها واتقاء سلبياتها.

أمّا نهاية الآية فهي غاية في أدب الـدعاء حيث لا يصح أن يحتّم الـداعي على ربه ما يريد ، إنّما يـدع الإجابة رهن مشـيئته ، فـإن شـاء اسـتجاب لهم بعزته ، وإن شـاء لم يسـتجب لهم بحكمته ، فإنّه قـادر على نصـرة المؤمـنين ومنع الكـافرين عن أذاهم بعزّته ، كما أنّه قد يجعلهم فتنة للكـــافرين بحكمتـــه. وليس من تنـــاقض بين حكمة الله وعزّتـه. والمـؤمن الحقيقي هو الـذي يسـلم مصـيره لربه مهما كان قضاؤه.

[6] / وفي خاتمة الدرس يؤكّد القرآن دعوته للإقتداء بـــإبراهيم (عليه الســـلام) والمؤمـــنين معه ، ليكشف لنا أهمية التــبرّي من المشــركين ، وضــرورة الأســوة في مسيرة الإنسان المؤمن.

(**لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**)

فليس المهم أن يختــار الواحد أســوة في الحيــاة وحسب ، بل الأهم أن ينتقي أحسن الأســوات وســنامها ليقتدي بها ، وإبراهيم والمؤمنون معه خير أسوة لمن أراد الـبراءة الحقيقية من أعـداء الله ، ولكن دون التأسي بهم ألـوان التحـديات والمصـاعب الـتي تحتـاج مقاومتها إلى الإرادة الصـلبة والاسـتقامة ، وكـلّ ذلك يسـتمدّه المـؤمن من إيمانه بربّه وبالجزاء.

(**لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ**)

ناصرا يتوكّل عليه ، ووليّا ينيب إليه.

(**وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**)

حيث يلقاه وعنـده يجد رضـاه وما يرضـيه من الجـزاء والثواب.

(**وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُ**)

لا يحتاج إليه.

(**الْحَمِيدُ**)

وفي الآية إنذار مبطّن لمن يتـولّى بأنّه الـذي يخسر ، وليس الله سبحانه.

وكلمة أخيرة :

إنّ صـراع إبـراهيم مع عمّه آزر ــ والـذي يشـير إليه الـوحي في بعض السـور ــ لم يكن صـراعا شخصـيّا بين الأجيـال ، إنما كـان صـراع المبـادئ ، لـذلك نجد أنّه (عليه السلام) كان يودّ بحمله وقلبه الواسع لو يرى عمّه مؤمنا ، وهـذه من اللقطـات الحساسة في حيـاة الأنبيـاء (عليهم السلام).

عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عـادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللـهُ قَـدِيرٌ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (7) لا يَنْهـاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قـاتَلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُمْ مِنْ دِيـارِكُمْ وَظـاهَرُوا عَلى إِخْـــراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَـــوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا إِذا جـــــاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمـانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ

---

9 [ظاهروا] : عاونوا وعاضدوا ، وفي المنجد : ظاهر مظـاهرة وظهـارا عاونه ، وتظاهر القوم : تعـاونوا ، ومنه قيل : تظـاهر النـاس تظـاهرة : أي اجتمعوا وخرجوا الى الشـوارع متعـاونين ، يطـالبون بـأمر يريدونه ، والظهير : المساعد.

مِا أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ وَلا تُمْسِـكُوا بِعِصَـمِ الْكَـوافِرِ وَسْـئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْـئَلُوا ما أَنْفَقُـوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللـهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فـاتَكُمْ شَـيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعـــاقَبْتُمْ فَـــآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْـلَ ما أَنْفَقُـوا وَاتَّقُـوا اللـهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِـهِ مُؤْمِنُـــونَ (11) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جـــاءَكَ الْمُؤْمِنـــاتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْـرِكْنَ بِاللـهِ شَـيْئاً وَلا يَسْـرِقْنَ وَلا يَـــزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَـــأْتِينَ بِبُهْتـــانٍ يَفْتَرِينَـــهُ بَيْنَ أَيْـــدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِـــينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللـهَ إِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (12) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِـبَ اللـهُ عَلَيْهِمْ قَـدْ يَئِسُـوا مِنَ الْآخِـرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13))

---

10 [عصم الكوافر] : لا تمسكوا بنكاح الكافرات ، وأصل العصمة المنع ، وسمي النكاح عصمة لأن المنكوحة تكون في حبال الزوج وعصــمته ، والعاصم : المـانع ، والمعصـوم : الممنـوع من الخطأ والسـهو والزلل ، والله يعصم الرسـول من أن يتناوله الكفـار ، والعصـمة شـبه السـوار ، ولذلك سمي السوار معصما.

لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ

هدى من الآيات :

في هذا الدرس ترسم الآيات الكريمة المنهج السـليم للعلاقة بين المؤمنين والكفار ، وإنما قدّم الله التأكيد على ضـــرورة المقاطعة ، والتأسّـــي بخليله إبـــراهيم (عليه السلام) لأنها الأصل ، وهنا ينثني السـياق لعلاج الموضـوع في بعض تشعباته الأخرى.

فبعد أن يؤمّل المؤمـنين الـذين صـمدوا أمـام الرغبة الجامحة في تـولي الكفــار أو مــودتهم ، وصــبروا على الضغوط المتواصلة من قبلهم ، يؤمّلهم بالعاقبة الحسـنى ، المتمثّلة في تحطيم عنـاد الكفـار على صـخرة الصـمود فينهزمون ، وهنا لك يسمح لهم بإقامة العلاقات الاعتيادية ، ثم ينهى عن اي لون من الولاء للمحـاربين منهم ، سـواء الذين يحاربون مباشـرة ، أو الآخـرين الـذين يعينـون على محاربة الحق وأهله ، ويعــدّ من يتــولاهم ظالمـــا. وفي الآيتين (الثامنة والتاسعة) دلالة واضحة حتى على

حرمة الـبر والإقسـاط لهم. والى جـانب هـذا التفريق بين الصنفين (المحاربين والمسـالمين) هنـاك موقف واحد من قبل الإسـلام تجاههما في الحقل الاجتمـاعي والأسـري ، وبالتحديد في موضـوع هجـرة المؤمنـات الى الإسـلام والمجتمع المـؤمن ، فإنّه لا يعتـبر ولاية الـزوج عقبة في قبـول هجـرتهن إذا تـبين منهن الصـدق ، بل ويحـرم على المؤمـنين إرجـاعهن لأزواجهن الكفـرة ، وهـذا لـون من الحماية التشـريعية والاجتماعية ، فإنّه ليست للكـافر الولاية على المؤمنة ، كما لا يجـوز للمـؤمن أن يـتزوج الكـافرة بالأصل أو بـالردّة ، ويـبيح الـدين الـزواج من الكافرات إذا آمنّ لأن الإسلام يجبّ ما قبله.

ولكن لا تضيع في هـذا المجـال الحقـوق المالية ، إنما يحفظها الإسـلام حـتى للكفـار حيث يقـرر لكـلّ ما أنفـق. للكافر الذي أسلمت زوجته ، وللمؤمن الذي كفرت زوجته ، وذلك شاهد عدل الله وحكمته.

بينات من الآيات :

[7] (**عَسَـى اللـهُ أَنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً**)

أي تتحـول العلاقة بين الفـريقين من العـداء الى المودّة ، إمّا بدخول أولئك الإسـلام ، أو بتحـولهم من حالة المحاربة إلى حالة السلم ، فالإسلام اذن لا يحارب الكفار كعنصر إنما يحـاربهم لمـوقفهم السـلبي من الحق وأهله ، ونهتدي من الآية الكريمة إلى فكرتين :

الأولى : أنّ السلام الـذي ينشـده الإسـلام هو السـلام المـدعوم بـالقوة والعـزة ، لـذلك يـدعو أتباعه لمقاطعة العـدو وتحديه حـتى يسـلموا أو يستسـلموا ، ذلك لأن الخضـوع له ليس سـبيلا الى الإسـلام الحقيقي الـدائم ، وإنما المقاطعة التي تكشف عن العزة

الإسلامية وسيلة لفرض الإسلام.

الثانية : أما كيف يتحــول عــداء الكفــار الى مــودة للمؤمنين ، فإن الإنسان حينما ينبهر بقوة قـاهرة يتحسس بـالود تجاهها ، حـتى لقد ثبت في علم النفس الاجتمـاعي أنّ الشـعوب المغلوبة تـود القـوى القـاهرة ، وتقلـدها في الأفكار والسلوكيات في الغالب ، وحيث كـانت القـوة في بـادئ الأمر للكـافر كـان يخشى أن يميل المؤمنـون إليهم بـالمودة ميلا ، وبالـذات لأنّ فيهم الأرحـام والأقـارب ، أمّا إذا تحول ميزان القـوى لصـالح المسـلمين بالغلبة والقـوة فإنّ المودة تـرتجى أن تكـون من قبل الكفـار لهم ، ولعل التعبير ب «منهم» يشير إلى ذلك.

و «عسى» هنا تفيد الرجاء القـريب ، مما يحـيي روح الأمل بالله في النفوس المؤمنة ، ويلاحظ أنّ القرآن يعبّر بعسى ولعــلّ في مواضع كثــيرة ، دون أن يقطع ويحتم ، مع أنّ كثــيرا من الأمــور هي واقعة في علم الله ، وذلك يهدينا إلى أنّ الطبيعة ليست جامدة ، وإنما تخضع لأمـرين : المشــيئة الإلهية ، وإرادة الإنســان ، ولم يحتّم ربنا نصر المؤمنين ، وتحول ميزان القوى لصـالحهم في المسـتقبل حـتى لا يتواكلـوا ، أو ينتظـروا الإرادة الإلهية تغيّر الأمـور بوحدها.

(**وَاللهُ قَدِيرٌ**)

على صــنع ذلك فيستســلم المشــركون لأوليائه أو يهديهم إلى الإسلام ، فتعود المودة بين الفريقين.

(**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

ومن غــريب ما قاله المفســرون في هــذه الآية هو تــأويلهم لها في أبي ســفيان ، بأنه من المعنــيين بقوله تعـالى (**عَسَـى اللـهُ أَنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ**) ، مع أنّ الآيـات نزلت قبل

فتح مكة ، قبل أن ينطق أبو سـفيان بالشـهادتين فكيف أصبح مصداقا للآية؟!

[8] ويحـدّد لنا القـرآن الموقف المطلـوب تجـاه المسـالمين من الكفـار ــ الـذين لا يحاربوننا ولا يؤذوننا ــ حيث يبيح التعامل معهم إنسانيّا على أساس البر والقسط ، فيقول ،

(**لا يَنْهـاكُمُ اللـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**)

لأنهم مسـالمون ، ويجمع المسـلمين معهم إطـار الإنسـانية ، وهـذا يعـني أن الإسـلام دين السـلام ، فهو لا ينشد الحـروب والعـداوات بذاته ، إنما دعوته للتـبري والمقاتلة تكـون موجهة ضد الكفـار المحـاربين ، وقائمة على أساس موقفهم السلبي ضد الدين وأتباعه.

والـبر عمـوم الإحسـان ، ومنه التواصل ، وتبـادل الاحترام ، ومقابلة الإحسان بمثله ، أما القسط فقد قيل : هو اقتطـاع بعض المـال وإعطائه لهم قرضا أو غـيره. والأظهر أنه العدالة الظاهرية والباطنة الـتي هي أسـمى درجات العدل [1] وهـذا الحكم الإلهي يـبين كيف أنّ مجـرد الكفر واعتناق المبادئ المغايرة للـدين ليس وحـده مـبرّرا لاستباحة حرمة الإنسـان ماله وعرضه ونفسه ، وفي نهاية الآية يحث ربنا على الإقساط إذ يقول :

(**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)

ويريد للمؤمـنين به أن يكونـوا كـذلك ، ولعل قوله «**يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**» تخصيص للقسط بالـذات على وجه الترجيح له على البر. وحيث يبيح ربنا هذا اللون من

---

(1) مر كلام مفصل حـول العلاقة بين العـدل والقسط في سـورة الحجرات.

العلاقة مع الكفار المسـالمين فانه لا يفـرض قيـدا محـدّدا على المؤمـنين ، وذلك يعـني أنهم (قيـادة ، ومجتمعـا) هم الـــذين يشخصــــون الموقف ، وطبيعة العلاقة المطلوبة حسب متغيرات الواقع. وقد جاء في الأثر : أنّ أسماء بنت أبي بكر سـألت النـبي (صـلّى الله عليه وآلـه) : هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال : «نعم» [1]

[9] ويعـود السـياق ليؤكّد الأمر بالمقاطعة وينهى عن التولي :

(**إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قـاتَلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ**)

بالتحـــالف مع الأعــداء المحـــاربين ، أو إعـــانتهم بأيّة صورة ووسيلة ، فإنّه محرّم عليكم أن تتولّوهم أو تـبرّوهم ، ومن يتولهم يشاركهم في كـلّ ظلم يصل إلى المؤمـنين من قبلهم ، ويناله العـــــــذاب من عند الله ، ويجب على المؤمــــنين في الــــدنيا احتســـابه من الجبهة المعادية ، والوقوف منه كموقفهم من الظالمين أنفسهم.

(**أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)

وبالمقارنة بين الآيتين (الثامنة والتاسـعة) نتوصل إلى التالي :

1 ـ إنّ إباحة الـبرّ والقسط تجـاه غـير المحـاربين من الكفار ، وعدم تعرض الآية لذكر التولي لا يعني أنّه سائغ ، كلّا .. إنّما يعـني بـأنّ حـدّ الإباحة هو الــبر والقسط دون التولي.

2 ـ إنّ مجرد البر والإقساط للكفار المحاربين محــرم على المؤمنين ، ولكن لماذا؟

---

(1) القرطبي / ج 18 ص 59

أولا : لأنّ القسط ليس ضروريا مع المحـاربين ، لأن دمهم ومــالهم حلال. أو ليس يســتحلون ذلك منــا؟ وثانيا : إنّ القسط هنا ليس بمعـــنى العدالة إنّما هو فوقها ، وهو في الحقــوق يشــبه الإيثــار في الأخلاق ، ولــذلك كــان حكمه الإباحة «لا ينهى» حــتى مع المســالمين ، بينهما العدالة فهي واجبة تجاههم (أي غير المحاربين) ومثل هذا التعامل غير مناسب مع المحاربين ، حتى ولو كـانت العدالة واجبة تجاههم في بعض الجوانب.

[10] ويمضي بنا السياق شوطا آخر في الحـديث عن ضرورة التمحض في العلاقات الإيمانية فيـبين أنّ الصـلات الزوجية لا ينبغي أن تكـون حـاجزا دون الـولاء الإيمـاني ، لأنّه أســـمى من كــــلّ علاقة ، وهو يفصل بين المؤمنة وزوجها الكافر ، كما يفصل بين المؤمن وزوجته الكافرة ، بــالرّغم من أن أكــثر النــاس يزعمــون أنّ الزوجة تابعة لزوجها في كل شــيء حــتى في دينها وولائها ، بينما يؤكّد القرآن استقلالها في القضايا المتصلة بمصـيرها ، فلا يحق لها أن تبقى رهينة إرادة الزوج الكافر لو اختـارت الإسـلام عن وعي وقناعة ، ولا يجــوز للمؤمــنين أن يرفضــوها أو يرجعوها إلى زوجها فإنها حــرام عليه ، إذ لا ولاية لكــافر على مؤمن ولا على مؤمنة.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا إِذا جــاءَكُمُ الْمُؤْمِنــاتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَ**)

بهدف معرفة صدق نوايـاهن وخلوصـها عن أي هـدف مادي ، كأن تكـون الواحـدة قد هـاجرت هربا من العصـمة الزوجية أو طمعا في مـؤمن ، وتـأتي أهمية الامتحـان من أنّ المجتمع المــؤمن ينبغي أن ينتقي أفــراده انتقــاء ، وبالذات عند ما يواجه التجمع الإيمـاني محـاولات التسـلل والاختراق من قبل أعداء الدين ، أمّا كيفية الامتحـان فـإنّ القــرآن لا يحــددها ، بل يــترك الأمر للمؤمــنين أنفســهم يجتهدون على

أساس معطيات الظروف ، ولكن يجب أن لا يدفعهم ذلك إلى الظنّ السيء ، أو التمنع من قبول انتماء الآخرين إلى صف المجتمع المــؤمن بحجة الخــوف من الاخــتراق ممّا يســبّب في حالة الانطــواء والانغلاق ، فــإنّ الشخصــية الواقعية للناس لا يعلمها إلّا الله.

(**اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ**)

فإنهن إذا خدعن المؤمنين فلن يخـدعن الله ، وهكـذا يجب أن يأخــذون الامتحــان الالهي بعين الإعتبــار ، وربما ظنّ الواحدة منهن أنّها قـادرة على اللعب على المؤمـنين فهل تفلت من عدالة الله أيضـــــا؟ كلّا .. وإنّما يجب على المؤمنين الاجتهاد والحكم على أساس المعطيـات العلمية الممكنة.

أمّا عن كيفية امتحــان الرســول لهنّ فقد جــاء في مجمع البيان : قـال ابن عبـاس : صـالح رسـول الله (ص) بالحديبية مشركي مكة على أنّ من أتاه من أهل مكة رده عليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسـول الله (ص) فهو لهم ولم يردوه عليهم ، وكتبوا بذلك كتابا وختموا عليه ، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب ، والنبي (ص) بالحديبية ، فجاء زوجها مســافر من بني مخزوم ، وقال قاتل : هو صـيفي بن الـواهب في طلبها وكـان كـافرا ، فقـال : يا محمد اردد عليّ امـرأتي فإنّك شرطت لنا أن تـردّ علينا من أتـاك منا ، وهـذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فــنزلت : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جــاءَكُمُ الْمُؤْمِنــاتُ مُهــاجِراتٍ**) من دار الكفر إلى دار الإسـلام فـامتحنوهن» ، قـال ابن عبـاس : امتحـانهن ان يســتحلفن ما خــرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا انما خـرجت حبا لله ولرسـوله فاسـتحلفها رسـول الله (ص) ما خـرجت بغضا لزوجها ولا عشـــقا لرجل منا ، وما خـــرجت الا رغبة في الإســـلام ، فحلفت بالله الذي لا اله الا هو على ذلك ، فأعطى

رســول الله (ص) زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يزدها عليه ، فتزوجها عمر بن الخطاب ، وكان رسول الله (ص) يرد من جـاء من الرجـال ويحبس من جـاء من النسـاء إذا امتحن ويعطى أزواجهن مهورهن. قال الجبائي : لم يدخل في شـرط صـلح الحديبية الا رد الرجـال دون النسـاء ولم يجر للنســاء ذكر ، وان أم كلثــوم بنت عتبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهـاجرة من مكة فجـاء أخواها الى المدينة وســألا رســول الله (ص) ردها عليهما ، فقــال (ص): ان الشرط بيننا في الرجال لا في النسـاء ، فلم يردها عليهما ، قال الجبائي : وانما لم يجر هذا الشـرط في النسـاء لان المــرأة إذا أسـلمت لم تحل لزوجها الكـافر ، فكيف تـرد عليه وقد وقعت الفرقة بينهما؟ [1].

(**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ**)

بعد الامتحان فحينئذ لا يجوز ردّهن لأنه لا مبرر لذلك ، ولأن المجتمع المؤمن ليس حكرا على أحد دون أحد.

(**فَلا تَرْجِعُــوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِــلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَ**)

والســؤال : لمــاذا ذكر الحرمة من الطــرفين مع أنّ نفيها من جهة قد يفيد نفيها من الجهة الثانية؟

والجـــــــــــواب : لعل الحلّية هنا بمعناها الأول وهو الانسجام الذي يعتبر هـدفا وشـرطا أساسـيا في الـزواج ، ومــراد الآية الكريمة تأكيد انعدامه ليس من طــرف واحد بحيث يمكن علاجه والصــبر عليه ، بل من الطــرفين معا مما لا يمكن علاجه أبدا.

وحيث تـــــبين المؤمنة من زوجها الكـــــافر يتحمل المؤمنون إعطاءه ما أنفق عليها ،

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 304 ـ 305

لأنّ المهر ليس موضـــــــــــوعا للوطأ الأوّل بل للعلاقة المســتمرة الدائمة ، وحيث خســرها بغـير إرادته يجب أن يعوّض ، ولعل التعويض منصرف للكافر غير المحارب ، أو في حــال الهدنة ، وهــذا من صــميم العدالة في الإســلام. وفي إيتــاء الكفــار ما أنفقــوا قيمة معنوية هي أن لا تبقى لكافر يد على مؤمن أو مؤمنة.

وتعويض الزوج الكـافر يتحمله بيت مـال المسـلمين ، ولـذلك جـاء الخطـاب موجّها للمؤمـنين عامة ، وهو يحلل المرأة المؤمنة من زوجها الكافر فقط ، وليس يجعلها حلّا للمؤمنين إلّا إذا أعطوا لها المهر.

(**وَلا جُنــاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُــوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُــوهُنَّ أُجُورَهُنَ**)

وكما تحرم المؤمنة على الكافر كذلك تحـرم الكـافرة على المؤمن ، سـواء بالأصـالة أو بـالردة لما في ذلك من اثار سلبيه على حياة المؤمن وتربية الأولاد ... إلخ.

(**وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ**)

والفقهاء اسـتفادوا من هـذه الآية حكما قاطعا بحرمة الزواج من الكافرة ، أو الاستمرار في الـزواج عند إسـلام الـــزوج دون زوجتـــه. وقد طلّق المســـلمون زوجـــاتهم المشركات بعد نزول الآية ، وجـاء في التـاريخ أنّ عمر بن الخطــاب طلّق بعد نــزول الآية امــرأتين له كانتا في مكة مشركتين ، إحداهما قريبة بنت أبي أمية ، فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة ، وأم كلثــوم بنت عمر الخزاعية [1] ، وهكـذا تنفصم العصـمة الـتي كـانت بينهما ، لأنّ عصمة الإسلام من عصمة النكاح.

---

(1) القرطبي / ج 18 ص 65

والسؤال : هل الآية تشمل أهل الكتاب فتكون ناسخة للآية التي نـزلت في سـورة المائـدة ، وهي قوله سـبحانه (**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**).؟

قال بعضهم : بلى ، واستدلوا ببعض الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، وأبرزها الحديث الموثّق التالي المأثور عن ابن الجهم قال : قال لي أبو الحسن الرضا (عليه السلام) : يا أبا محمد ما تقول في رجل يتزوّج نصرانية على مسلمة؟ قلت : جعلت فداك وما قولي بين يديك؟ قال : لتقولن فإنّ ذلك تعلم به قولي ، قلت : لا يجوز تزويج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة ، قال : ولم؟ قلت : لقول الله عزّ وجل : (**وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ**) .. إلخ ، قال : فما تقول في هذه الآية : (**وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ**)؟ قلت : قوله : ولا تنكحوا المشركات نسخت هذه الآية ، فتبسم ثم سكت ..

وهناك روايات أخرى مشابهة ، وفي كثير منها الإشارة إلى أنّ آية الممتحنة قد نسخت آية المائدة ، مما جعل العلامة الشيخ حسن النجفي ـ صاحب موسوعة الجواهر ـ يجد مأخذا عليها بقوله : إنّ التحقيق الجواز مطلقا (أي جواز نكاح أهل الكتاب بصفة مطلقة) وفاقا للحسن والصدوقين على كراهية متفاوته في الشدة والضعف. وأضاف : كما أومأت إلى ذلك كلّه النصوص التي ستسمعها : لقوله تعالى : (**وَالْمُحْصَناتُ**) .. الى آخرها التي هي من سورة المائدة المشهورة (في) أنّها محكمة لا نسخ فيها ..

وساق طائفة من النصوص التي تدل على أنّ هذه السورة هي آخر سورة نزلت

وهي محكمة لا نسخ فيها ، منها حديث مـأثور عن رسـول الله (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال : «**إنّ سورة المائـدة آخر القرآن نزولا فأحلّوا حلالها وحرّموا حرامها**» [1] .

ثم سـاق طائفة كبـيرة من النصـوص عن أئمة أهل الـبيت (عليهم السـلام) واسـتدل بها على أنّ نكـاح أهل الكتاب جائز ولكنه يصبح مرغوبا عنه ومكروها في حـالات معينة ، مثل صحيح ابن وهب المـروي في الكـافي والغنية عن الإمـام الصـادق (عليه السـلام) في الرجل المـؤمن يتزوّج النصـرانية واليهودية ، قـال : إذا أصحاب المسـلمة فما يصـنع باليهودية والنصـرانية؟ فقلت : يكـون له فيها الهوى؟ فقال : إن فعل فليمنعها من شـرب الخمر ، وأكل لحم الخـــنزير ، واعلم أنّ عليه في دينه في تزويجه إيّاها غضاضة [2]

ويبـدو من هـذه الرواية تأويله سـائر الروايـات على الكراهية ، لا الحرمة.

وكما يلزم الإسلام المؤمـنين بإيتـاء الكفـار ما أنفقـوا على زوجاتهم اللائي آمنّ فإنّه يعطي للمؤمـنين الحق في المطالبة بما أنفقوا على زوجاتهم اللواتي يكفرن.

(**وَسْـئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْـئَلُوا ما أَنْفَقُـوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)

وما دام ذلك حكم الله وليس حكم أحد من البشر فهو يجب التقيد به تقيـدا توقيفيا ، فكيف وقد وضـعه الله العليم الحكيم ورب العـــالمين ، ولا ينبغي أن يـــدفعكم بغضكم للمشركين وعداؤكم المبدئي إلى تجـاوز حقـوقهم العادلة.

[11] (**وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ**

---

(1) المصدر / ص 30 نقلا عن كتب الحـديث ومنها الـدر المنثـور / ج 2 ص 252

(2) المصدر / ص 36

ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا)
ولهذه الآية تفسيرات ثلاث :
الأول : إذا تركت زوجاتكم دار الإسلام إلى دار الكفر ، وأعقبتم الكفّار بغزوة بعد أخرى حتى هزمتموهم وغنمتم منهم الغنائم ، فأعطوا الذين تركتهم زوجاتهم من الغنائم ، وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين.
الثاني : إذا «فاتكم» أي لم يعطكم الكفار ما أنفقتم على زوجاتكم اللاتي كفرن ، فخسرتم ذلك ، وعاملتموهم كما عاملوكم عقابا لهم فلم تسلموا لهم ما أنفقوا على زوجاتهم اللائي هاجرن وآمنّ ، فليس ذلك مسقطا للمسؤولية تجاه الذين فاتت زوجاتهم ، بل يجب عليكم أن تعطوهم ما أنفقوا عليهن من مال المسلمين.
الثالث : إنّ معنى التعاقب «فعاقبتم» أراد الذي فاتت زوجته النكاح مجدّدا ، وفي ذلك جاء الحديث المأثور عن الإمام الباقر والإمام الصادق (عليهما السلام) فيما رواه يونس عن أصحابه ، قال : قلت : رجل لحقت امرأته بالكفّار وقد قال الله عزّ وجلّ في كتابه : (**وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا**) ما معنى العقوبة هاهنا؟ قال : إنّ الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة أخرى غيرها يعني تزويجها ، فإذا هو تزوج امرأة أخرى غيرها فعلى الإمام أن يعطيه مهر امرأته الذاهبة ، فسألته : فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها ، وعلى المؤمنين أن يردوا على زوجها ما أنفق عليها مما يصيب المؤمنين؟ قال : «**يردّ الإمام عليه أصابوا أو لم يصيبوا ، لأنّ على الإمام أن يجبر حاجة من تحت يده**» [1].

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 306

وسواء كان معنى (عاقبتم) حصلتم على الغنيمة عـبر تعاقب الحرب مع الكفـار ، أو التقاصي من الكفـار وعـدم اعطـائهم المهر ، عقابا لهم لأنهم لم يـدفعوا المهر ، أو إرادة الزواج المجـدّد (زواجه الأول) ، أقـول : سـواء كـان المعـنى واحـدا من الثلاث فـإنّ الـذي فاتته زوجته إلى الكفّـار يحصل على مهـره من بيت المـال ، وقد نقل المفسـرون أنّ النـبي دفع لسـتة من المسـلمين مهر أزواجهن اللائي فاتن إلى الكفار [1].

(**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**)

من أن يـدّعي أحد بأنّه أنفق على زوجته أكـثر مما أنفق بالفعل لكي يستغل هذا القانون استغلالا سـلبيا ، أو أن يسـتهين النظـام الإسـلامي بحقـوق هـذا الفريق فلا يؤتيهم ما أنفقوا ، كما يـأتي التأكيد على التقـوى باعتبـاره المرتكز في التكافل الاجتمـاعي ، فكلّما كـانت التقـوى عميقة كلّما أصبح التكافل أكثر وأعمق.

[12] وفي سياق حـديث السـورة عن الـولاء وعن أن الـولاء المبـدئي أعظم من الـولاء للـزوج أو الأرحـام يـبيّن السياق استقلالية المـرأة في مبايعتها واختيارها للقيـادة ، فهي ليس كما يتصـوّر بعض الرجـال أو كما تظن بعض النساء تابعة للرجل في كلّ شيء ، كلّا .. إنّها يحـقّ لها بل يجب عليها أن تختـار قيادتها بنفسـها ، وأن تظهر الـولاء وتنشئ عقد الطاعة بينها وبين قيادتها ، وهنا تشـير الآية إلى أهم مفردات عقد البيعة مع القيادة الرسالية من قبل المرأة ، والواجب التزامها بها.

(**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جـاءَكَ الْمُؤْمِنـاتُ يُبايِعْنَـكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً**)

---

(1) راجع القرطبي / ج 18 ص 70

فلا يخضـعن لسـيادة غـير السـيادة الإلهية بالتسـليم المطلق للأزواج والأقــارب ، إنّما يجب أن يخلصن الــولاء والطاعة للقيادة الرسالية وحدها ، وهـذا هو أصل الـولاء ، وهو التجلّي الحقيقي للتوحيد في حياة الفـرد ، ولعل هـذه البصـيرة تهـدينا إلى ضـرورة مشـاركة المـرأة في الحقل السياسي انطلاقا من واجبها في إقامة حكم الله ، ومناهضة قوى الشرك والضلال ، وعليها أن تنتخب الــوليّ الشرعي بمحض إرادتها وكامل حريتها.

(**وَلا يَسْرِقْنَ**)

من أزواجهنّ أو من أبناء المجتمع.

(**وَلا يَزْنِينَ**)

ولعل هــــذين الشــــرطين مــــوجهين بالخصــــوص للمهــاجرات اللائي تــركن أزواجهن ، لأنّهنّ فقـدن المنفق فقد تـدعوهن الحاجة إلى السـرقة ، أو تضـطرهن شـهوة الجنس إلى الزنا ، بينما الآية بلفظها مطلقة تشــــمل كل امرأة مسلمة.

(**وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَ**)

معنويّا ولا ماديّا ، ولعل الإجهـاض من مفـردات القتل المنصرفة إليها الآية الكريمة.

(**وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَ**)

وهاتــان المفردتــان تتصــلان بموضــوع الزنا اتصــالا مباشرا ، فإنّ الزانية التي تتورّط بالحمل تجد نفسها أمام خيــــارين : فأما تتخلّص من عــــار الزنا بقتل حملها ، وأما ترمي به أحدا بأنّه اغتصبها ، ولعل هذه الصفات (السـرقة ، والزنا ، وإتيان البهتان) مما

عرفت به المرأة في الجاهلية ، كما أنّها بصـورة عامة من أبرز المفردات الخلقية والسـلوكية الـتي يمكن أن تتـورط فيها المـــرأة ، وبالــذات البهتـــان ، فـــإنّ موقع المـــرأة الحســاس في المجتمع المســلم يجعلها أمضى أثــرا في النيل من شخصيات الآخرين وأعراضـهم ، كما أنّها مرهفة الإحسـاس فقد تظن السـوء في رجل نظر إليها من غـير قصد.

وقد أجمع أشــهر المفســرين على أنّ المقصــود هو الحمل باعتبـاره يقع بين اليـدين والـرجلين ، وبينهما ينشأ ويرتضع.

(**وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**)

بل يسلمن تسليما مطلقا للقيادة الرسالية ، باعتبارها السلطة الشـرعية والـوليّ الأكـبر في المجتمع المسـلم ، فلا يجوز للمـرأة أن تجعل لأحد مهما كـان (زوجها أو أبوها أو أخوها) ولاية فـوق ولاية قيادتها ، أو أن تعصـيها ولو في معروف واحد.

والمعروف هو عموم الواجبات والخيرات ، قال الإمام أبو عبد الله الصـــادق (ع) : هو ما فـــرض الله عليهن من الصــلاة والزكـاة ، وما أمــرهن به من خــير [1] ، ولعلّنا نستشـــفّ من قوله «في معـــروف» أنّ الولاية الحقيقية للقيـادة واقعة في حـدود ولاية الله ، فلو أنّها ــ جـدلا ــ أمرت بغير المعروف لا يجـوز اتباعها ، بل يكـون عصـيانها هو الأولى ، وهــــذا الأمر محتمل في غـــير القيــــادات المعصومة.

وهذه المفردات التي يفرضها الإسـلام شـروطا للبيعة مع القيادة الرسالية تظهر اهتمام الدّين بـالمرأة ، باعتبـار أن صــلاح المجتمع متأسّـــس على صــلاحها. وإذا قبلت المؤمنــات تلك الشــروط والــتزمن بها هنا لك تبــايعهن القيادة.

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 308

(**فَبـايِعْهُنَّ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُنَّ اللـهَ إِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

واسـتغفار الرسـول لهنّ الأخطـاء السـابقة والجانبية التي قد يتورّطن فيها ، وهذه الآية تعطي المعنى الحقيقي للهجرة بأنّه ليس مجرد الانتقال من مجتمع إلى آخر صالح ، أو الانفصـــال المـــادي عن المجتمع الضـــال ، إنّما هو التطهّر من السلوكيات المنحرفة التي كـانت سـائدة على المجتمع الضـال ، كالسـرقة والزنا والبهتـان و.. و.. الـتي تعرضت الآية لذكر أهمّها.

[13] وفي ختــام الســورة يؤكد ربنا أمــره بمقاطعة أعداء الله فيقول :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمـاً غَضِـبَ اللـهُ عَلَيْهِمْ قَـدْ يَئِسُـوا مِنَ الْآخِـرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ**)

إنّ محور الإنسـان المـؤمن هو رضى الله عـزّ وجـلّ ، فهو لا يضع ولاءه إلّا عند أهله ، أما الـذين يسـخطون الله بأعمـــالهم من الظلمة والضـــالين فإنّه بـــراء منهم. وقد تعـددت أقـوال المفسـرين في بيـان هويّة المعـنيّين ب «**غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ**» فـذهب أكـثرهم إلى أنّهم اليهـود ، لقوله تعالى (**غَيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّـالِّينَ**) وما ورد في تفسيرها وتأويلها من الأخبـار ، والـذي يظهر أنّهم كل من يعمل ما يسـتحق غضب الله ، ولعلّهم أنــاس من داخل المجتمع الإسـلامي كالمنـافقين والحكـام الظلمة والعلماء الفسقة ، وتشبيه الله لهم بالكفّار يهدي إلى أنّهم غير الكفار بل هم الـذين يحـاولون السـيطرة على مقاليد الحكم في البلاد الإسلامية بغير حق!

سورة الصّف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ سورة الصف وأدمن قراءتها في فرائضه ونوافله صفّه الله مع ملائكته وأنبيائه المرسلين**»

نور الثقلين / ج 5 ص 309

الإطار العام

ما هي صبغة التحرك الرسالي واستراتيجيته؟ نستلهم من سورة الصف خمسة بصائر هي تحدد لنا ذلك :

أوّلا : إنّ الحركة الرسالية ربّانيّة الصبغة كما قـال ربنا سـبحانه «**صِبْغَةَ اللـهِ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللـهِ صِـبْغَةً**» ، ولـذلك فهي لا تخضع لأطر عنصـرية أو إقليمية أو حزبيّة ، إنّما تتسـامى إلى حيث المؤمنـون كالجسد الواحد ، يشـدّ بعضهم بعضا.

وهذه الصبغة تتجلّى في تسبيح الله تعــالى في فاتحة السورة ، فكلّ ما في السماوات والأرض يسبّح الله وحده فهو وحده القدّوس ، أمّا غيره فيستمد قداسـته وشـرعيته منه وبقدر قربه منه ومن قيم الوحي.

ثانيا : انعــدام المســافة بين النظرية والتطــبيق ، بين القــول والفعل ، لأنّ هــذه هي مســافة المقت والفشل ، وثغرة يتسرب منها النفاق إلى ضمير الحركة ، كما يتسلّل منها العدو إلى كيانها.

ثالثا : الوحــدة في الظــاهر والبــاطن ، كما البنيــان المرصوص ، لا ترى فيه فطورا يذهب بصـلابته ، ولا خدشا ظاهرا يجعل العدو يطمع في هدمه.

رابعا : التســليم للقيــادة الإلهية المتمثلة في رســول الله وأوصيائه ـ عليه وعليهم سلام الله ـ باعتبارها وسـيلة إلى الله ، ومحور لوحدة عبادة المؤمنين.

خامسا : الجهــاد في ســبيل الله باعتبــاره يمثّل حالة التحدي الشجاع لأعداء الرسالة.

ولعلّ الجهاد محور هذه السـورة الـتي سـميت لـذلك بالصف ، ولكنّ الحديث عنه يدور حول ثلاثة محاور :

ألف / أن يكــون الجهــاد تحت راية القيــادة وبصــفّ مرصوص. وهذا أهم المحاور الثلاث.

بــاء / إنّ الله يظهر دينه على الـدّين كلّه ، ممّا يعطي المجاهدين الأمل ، ويزوّدهم بـروح النصر ، كما يرسم لهم اســتراتيجيات المســتقبل وألّا يكــون الجهــاد ذا أهــداف محدودة.

جيم / التحـريض على الجهـاد بما يـوحي إلى ضـرورة التفرّغ له حتى تتم الصفقة الرابحة بين العبد وربّه.

سورة الصّفّ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ

---

3 [مقتا] : المقت : البغض الشديد ، ومقيت وممقوت : البغيض المبغوض ، وكان يسمى تزوج المرأ زوجة أبيه نكاح المقت.

4 [مرصوص] : الرص إحكام البناء ، يقال رصصت البناء أي أحكمته ، وأصله من الرصاص ، أي جعلته كأنّه بني بالرصاص لتلاؤمه وشدّة اتصاله.

تُـؤْذُونَنِي وَقَـدْ تَعْلَمُـونَ أَنِّي رَسُـولُ اللـهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُــوا أَزاغَ اللــهُ قُلُــوبَهُمْ وَاللــهُ لا يَهْــدِي الْقَــوْمَ الْفاسِــقِينَ (5) وَإِذْ قـالَ عِيسَــى ابْنُ مَـرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُـولٍ يَـأْتِي مِنْ بَعْـدِي اسْـمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُـوَ يُـدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا

بيّنات من الآيات :

[1] كلّ شيء يسبّح لله تكوينيّا وبــالقول ، تكوينيّا لأنّ في كـــلّ شـــيء آية هادية إلى قدرته وعظمته وجلاله ، فنقصه يهــدينا إلى كمــال خالقه ، وحاجة بعضه إلى بعض تهــدينا إلى صــمدانيته ، وأنّه الــذي يؤلّف بين الأشــياء ويزوّجها ويكاملها .. وهو يسبّحه بالقول ولكنّنا لا نعي ذلك لانعدام اللغة المشتركة بيننا وبين الطبيعة.

والتسبيح هو البصـيرة الأصـلية الـتي تنبثق منها سـائر بصائر الـوحي ، وهو أعلى مـراتب العرفـان بالله ، كما أنّ الجهـاد أعلى درجـات العمل ، والقلب المسـبّح هو الـذي يبعث صـاحبه على الجهــاد ، ويجعله مقــاتلا مصــلحا في الأرض ، يسعى بكلّ خـير ، لا مفسـدا ولا أشـرا ولا بطـرا. والتذكير بتسـبيح كـلّ شـيء يهـدي الإنسـان إلى أن عـدم تســبيحه أو طاعته له عــزّ وجل ليست معصــية لأمــره وحسب بل شذوذا عن سنن الطبيعة ومسيرتها.

(**سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

وليس التسـبيح يصـنع منه إلها (كما هو الأمر بالنسـبة للآلهة المزيّفة التي يصـنعها النـاس بانبهـارهم بهـا) بل هو بذاته إله لا يزيده تسبيح أحد شـيئا ولا ينقصه عدمه أمـرا! لأنّه لم يزل عزيزا حكيما.

(**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

تتجلّى عزّته وحكمته على مسرح الخلائق كلّها ، وفي ساحات الجهاد بالذات ، ذلك أنّ نصره العزيز للمؤمنين به مظهر لعزّته ، أمّا حكمته فإنّها تتجلّى حين لا ينصر إلا من نصره واتبع نهجه.

[2] وينهر السـياق المؤمـنين عن صـفة من صـفات النفـاق ألا وهي الطلاق بين القـول والعمل ، وقد تسـاءل بعض المفسـرين : كيف تخـاطب المؤمـنين وتنهـرهم عن الازدواجية في النفاق؟ أو ليسـوا مؤمـنين بينما تلك الحالة من صـفات المنـافقين؟! بلى. بيد أنّ المـؤمن لو لم يكن حذرا وقع في حفرة من حفر النفـاق ، وباسـتثناء الكملين يحمل كلّ فـرد (وحـتى المؤمـنين) بعض صـفات النفـاق ، كالخلف ، والكذب ، وإذا ما بلغ الأمر إلى حد سيطرة هذه الصفات على مجمل حياته لحق بالمنـافقين ، وقبلئذ يبقى المؤمن يجاهد نفسه لتطهيرها من صفات النفـاق جميعـا. والتنـاقض بين القـول والفعل ، بين الشـعار والواقع ، هو من أسـوأ ما يتـورّط فيه المـؤمن ، لأنّ ذلك يضـعف شخصـيته في المجتمع ، وثقة الآخـرين به ، بل وثقته بنفسه أيضا ، لذلك حذّر لله منه فقال :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ**)

وكان هذا بعد واقعة بـدر حيث عمّق النـبي (ص) حب الشهادة في من حوله ،

وبيّن منـــاقب الشـــهداء ومنـــازلهم في الجنة ، فتمنّى الشهادة بعض المسلمين ـ الذين لم يحسـنوا إلّا التمـني ـ وقـالوا : لو هيّأ الله لنا قتـالا نفـرغ وسـعنا فيه ، ونبـذل أرواحنا وأموالنا في ســبيل الله ، فنحصل على مـــراتب المجاهـدين والشـهداء ، وسـرعان ما حـدثت واقعة أحد ، فلم يفوا بما قالوا ، إنّما انهزموا وتركوا النبي في الميدان ، فنزلت حينها هذه الآيات الكريمة.

ولعلّنا نهتـدي من الآية اللاحقة إلى أنّ بلـوغ الإنسـان درجة الاتحـاد بين القـول والفعل من أعلى رتب الإيمـان ، ومن أصـعب الأعمــال ، وذلك يحتــاج إلى سـعي عظيم ومستمر. والجهاد الـذي تحـدّثنا الآيـات التالية عنه وترغّبنا فيه من أبرز مصاديق هذا السعي ، وبالذات إذا كـان تحت راية الوحدة.

[3] وما أعظمها سيئة عند الله أن يقول المؤمن ما لا يفعل ، بلى. لو صدر ذلك من المنافق فهو من طبعه ، أمّا أن يدّعي أحد الإيمـان ثم يتلبّس صـفات النفـاق فإنّه يضع نفسه هدفا لمقت الله.

(**كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ**)

قـال الـراغب : المقت البغض الشـديد لمن تـراه تعـاطى القـبيح [1] ، ويقابله الحب ، ويبـدو لي أنّه البغض المقارن للاحتقار ، ولا ريب أنّ الـذين لا يحـترمون كلمتهم وعهودهم ومواعيدهم و.. و.. يتخلّفون ويـذلون وتحتقـرهم الـــدنيا ، بل ويحتقـــرون أنفســـهم. وهل تتخلّف الأمم إلّا بـالعهود المنقوضة واختلاف القـول عن العمـل؟! ونحن ينبغي أن نبحث عن جـــذور تخلّفنا ، وأســباب انحطاطنا على ضـوء هـذه الآية الكريمة ، والـتي لا ريب نجـدها في التمـني البعيد عن العمل ، والقـول المجـرّد عن السـعي ، والعهد المنقوض ، والوعد المخلف ، واليمين الكاذب. وإذا

---

(1) مفردات الراغب / باب المقت

أرادت الأمة الإسلامية أن تعود إلى عزّها ومجدها ، وتبــني حضارتها ، فلا بد أن تردم الفجوة بين ما تقول وما تفعل ، بأن تنعكس قيمها على مجمل حياتها.

ولا شك أنّ مقت الله على من يقول ما لا يفعل يزداد كلّما عظم الأمر الذي ينقض فيه كلامه وعهده ، وحيث أنّ عهد المؤمن بالتسليم للقيادة الرسـالية هو أكـبر المواثيق في الحيــاة بعد التوحيد فإنّه يكــون عرضة لأشد ألـــوان المقت الإلهي عند نقضه العهد معهـــــا. فلا غرابة إذن أن نقرأ تـأويلا لهـذه الآية في غـدير خم ، لأنّه أعظم المواثيق الـتي أخـذها الله ورسـوله (ص) على المؤمـنين إلى يـوم القيامة.

والآية تعمّ كـــــلّ مصـــــداق للقـــــول دون العمل به كالمواعيد ، قـال الإمـام الصـادق (ع) : «**عـدة المـؤمن أخاه نذر لا كفّارة له ، فمن أخلف فبخلف الله بــدأ ، ولمقته تعرّض ، وذلك قوله :**» [1]. الآيتين 2

[4] وهنـــاك مثل أجلى للفجـــوة بين القـــول والفعل نجده في قضية القتال في سبيل الله.

(**إِنَّ اللهَ يُحِبُ**)

كلّ من يفي بوعده ، ويقف عند كلمته ، ولكن عند ما تكون كلمة المؤمن في القتــال من أجل الله ، ثم يفي بها وفاء تامّا وكاملا (بالقتـال ضـمن شـروطه الشـرعية) فإنه آنئذ فـــردا وجماعة وأمّة يكــون موضع حبّ الله بصـــورة خاصة ، وحب الله يعـــــني توفيقه وكرامته لأهل حبه في الدنيا والآخرة ونصره لهم.

(**الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ**)

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 310

وليس الــذين يرفعــون شــعارات الجهــاد وحســب. والقتال (الجهاد) قمّة العمل الصالح حيث يعـرّض المـؤمن نفسه لألوان المخاطر في سبيل ربّـه. ثم إنّ أحبّـاء الله لا يقـــاتلون ليبلغـــوا مصـــالحهم وشـــهواتهم المادية ، إنّما يجاهدون مخلصين في إطار الحق ولتحقيق أهدافه النبيلة متمحّضين لـذلك ، فلا تـرى بينهم أدنى حقد ضد بعضـهم ، ولا ثغـرة في جبهتهم الواحــدة ، إنّما يقفـون كما يصـفهم الله :

(**صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ**)

فوحـــدتهم ظـــاهرة كالبنيـــان المتصل ببعضه ، وهي حقيقة لأنّها متينة في الواقع ، فليست كـــأيّ بنـــاء إنّما كالبنيان المتماسك تماسكا متينا ، وقيل : كالبنيان المبــني بالرصاص. ولا تعـني هـذه الآية أنّه لا يوجد أيّ اختلاف بين المؤمــنين ، لأنّ الخلاف طـــبيعي ، ولكنّه لا يتحـــوّل إلى صراع بينهم ، ثم إنّه يتلاشى عند ظروف التحـدي فـتراهم جميعا ينصـــهرون في بوتقة الوحـــدة لتصـــبح الجهـــود والطوائف والجماعات كلّها أمة واحدة لا يجد الأعـداء فيها ثغرة ينفذون منها. ويحثّ المؤمنين للتوحّد صفّا واحدا في القتال علمهم بمدى أثر عامل الوحدة واجتماع الجهود في ترجيح مـيزان الصـراع لمصـلحة الحـق. وليس من شـيء يوحّد النـاس كما يوحّـدهم الـوحي والإمـام العامل به إذا سلموا لهما ، وهكذا يحدّثنا السـياق فيما يلي عن ثلاثة من أعظم أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ.

[5] إنّ شرط الإنتصار أن يكون القتـال صـفّا واحـدا ، وشرط الصف أن يكون القتال تحت راية القيادة الرسالية ، وإنّما يكـــون للقيـــادة اعتبارها العملي حينما يســـلّم لها المجتمع ، لذلك فإنّ أعظم ما يمكن أن يلحق القيـادة من الأذى هو عدم الطاعة لها ، وهذا ما لقيه نــبي الله موسى ـــ عليه الســلام ـــ من قومه ، وهم يعلمــون أنّ نــبيهم هو صاحب الولاية الشـرعية من عند الله سـبحانه وأنّ طاعته مفروضة عليهم.

(**وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ**)

وهذا التناقض بين علم بني إسرائيل بضرورة التسليم للرسـول ، وبين مـوقفهم الفعلي حيث العصـيان والأذى ، هو صورة للازدواجية المقيتة عند الله عزّ وجل الـتي حـذّر الله المسـلمين منها ، ولعل أوضح صـورة لها تتمثل في قصة البقـرة. وقد حـذّرهم موسى ـ عليه السـلام ـ من عواقب هـذا الانحـراف لكنّهم أصـرّوا واسـتمروا فسـلبهم الله الهدى.

(**فَلَمَّا زاغُـوا أَزاغَ اللـهُ قُلُـوبَهُمْ وَاللـهُ لا يَهْـدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**)

وهـذه نتيجة طبيعية لعصـيان القيـادة الرسـالية ، ذلك أنّ هدى الله يتجلّى للناس عبر أوليائه والـذي يحـاربهم أو لا يسـلّم لهم لن يهديه الله أبـدا. وإزاغة القلب تعكس مدى الضلال الذي وقعوا فيه ، فهم في بادئ الأمر آذوه ـ عليه السلام ـ ولكن بقي في قلبهم علم بكونه رسول الله ، أي أنّ سـلوكهم العملي منحـرف وهم على شـيء من الهدى معنويّا ، ولكنّهم حينما أصروا على الزيغ سلبهم الله تمـام الهـدى ، وانطفـأت البقية الباقية من شـعلة الإيمـان في قلوبهم ، فصاروا كلّيّا على الضلال والفسق.

ولقد اعترض البعض على هذا التفسير وقـالوا : إنّه لا يمكن أن يهدي الله أحدا ثم يضله ، إنّما المعـنى : حـوّلهم مما كـانوا يحبـون من النصر إلى ما كـانوا يكرهـون من الهزيمة ، وكانوا يحبـون الراحة فأشـقاهم. ولا داعي لهـذا الاعـتراض والتأويل لأنّ التفسـير الأول موافق لظـاهر القرآن وحقائقه.

[6] ويؤكّد القـرآن حقيقة الخط الواحد في رسـالات الأنبياء على لسان نبي الله

عيسى ابن مـريم ـــ عليه السـلام ـــ ، الـذي أعلن لبـني إسرائيل أنّه يشكّل امتدادا لرسـالات الأنبيـاء ، فقد سـبقه موسى وسوف يلحقه محمد ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، فهم صف واحد. وهكذا ينبغي أن تلتحم مسيرة المؤمنين بهم ، ويجتمعوا تحت راية النبوة وقيادة من يحمل تلك الراية.

(**وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَـرْيَمَ يا بَنِي إِسْـرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ**)

إذن ليس هناك أي تنـاقض بين الرسـالات والقيـادات الإلهية ، إنّما يكمل بعضها بعضا ، فعيسى ـ عليه السلام ـــ مصداق للقيم التي جاءت بها التـوراة ، ورسـالته مصـدّقة لها ، ولكن لا تعني التوراة تلك التي بين أيدي الناس اليوم فإنّها محرّفة ، وقد لعبت بها أهـواء اليهـود الـذين سـرّبوا إليها الثقافة العنصرية.

(**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**)

وأحمد على صيغة أفعل فهو أحمد لله من سواه.

قـــالوا : الأنبيـــاء كلهم حامـــدون لله ، ونبينا محمد أكـــثرهم حمـــدا ، وقد نقلت الكلمة من صـــيغة (أفعل للتفضيل) إلى الاسم.

وبـــالرغم من أنّ يد التحريف إمتـــدت إلى العهـــدين المقدّسين عند اليهـود والنصـارى إلّا أن هنـاك إشـارات لا تزال تشهد بـأنّ عيسى ـ عليه السـلام ـ قد بشّـر بـالنبي محمد .. ومنها النص التـالي : «لكنّي أقـول لكم الحق إن انطلق ، لأنّه إن لم أنطلق لا يـــأتيكم (البـــيركلتوس) ، ولكنّي إن ذهبت أرســله إليكم». ويقــول : إنّ لي أمــورا كثيرة أيضا لا أقول لكم ، ولكن لا تسـتطيعون أن تحتملـوا الآن ، وأمّا مــتى جــاء ذاك روح الحق فهو يرشــدكم إلى جميع الحق ، لأنّه لا يتكلّم من نفسه بل كل

ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ، ويمجّدني لأنّه يأخذ ممّا لي ويخبركم [1].

علما بأنّ كلمة (البيركلتوس) تعني في اليونانية : الذي له حمد كثير ممّا يطابق كلمة أحمد ، على أنّ الترجمة الحالية للإنجيل حرّفوها إلى بارقليطا وترجموها ب (المسلّي) ، بينما الأصل اليوناني الموجود غير ذلك.

وعلى أيّ حال فإنّ النصارى كذّبوا به وبالإسلام مدّعين التمسك بدين عيسى ، كما سبقهم إلى ذلك اليهود بالعصبية لما في أيديهم من التوراة.

(**فَلَمَّا جاءَهُمْ**)

النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ

(**بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ**)

قال أبو جعفر (ع) : لم تزل الأنبياء تبشّر بمحمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ حتى بعث الله تبارك وتعالى المسيح عيسى بن مريم ، فبشّر بمحمد (ص) ، وذلك قوله تعالى : (**يَجِدُونَهُ**) يعني اليهود والنصارى (**مَكْتُوباً**) يعني صفة محمد (ص) «عندهم» يعني في التوراة والإنجيل ... وبشّر موسى وعيسى بمحمد كما بشّر الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ بعضهم ببعض [2].

[7] والبشارة بالنبي (ص) موجودة لدى أهل الكتاب لكنّهم أنكروه ورفضوا التسليم لما جاء به حسدا من عند أنفسهم ، فارتكبوا بذلك وزرين ، وزر التكذيب بالدين والنبي الجديد ، ووزر الافتراء بتمثيل الدين السابق لتبرير موقفهم من الحق.

---

(1) للتفصيل راجع تفسير الفرقان للدكتور الصادقي / ج 28 ـ ص 306

(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 315

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَـرى عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ وَهُـوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ**)

فهو إذن يحـارب الـدين باسم الـدين ، ويـرفض الحق بالافتراء على الله.

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

لأنّه إنّما يهـدي الـذي يسـعى للهداية ويأخذ بأسـبابها ، أمّا الظالم الذي يفتري على الله الكذب فإنّه يرفض اتبـاع الهدى فيضلّه الله.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِـأَفْواهِهِمْ وَاللـهُ مُتِمُّ نُـورِهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكـافِرُونَ (8) هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْمُشْـرِكُونَ (9) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ بِـأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصـارَ اللـهِ كَما قالَ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ لِلْحَـوارِيِّينَ مَنْ أَنْصـارِي إِلَى اللهِ

8 [بأفواههم] : «فوه» إذا اقـترنت بـالقول فهي كناية عن الكـذب مثل قوله : «**ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ**» وقوله : «**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ**» وقوله : «**يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ**».

قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللـهِ فَـآمَنَتْ طائِفَـةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (14))

كُونُوا أَنْصارَ اللهِ

هدى من الآيات

مهما تكن للباطل من جولة فـــــــإنّ الدولة للحق ، والنصر والفتح للمؤمـــنين المجاهـــدين وهم أنصـــار الله وجنده ، ولكن هذه الحقيقة لا يمكن أن تحدث في الفـراغ وبعيدا عن السنن الإلهية الحاكمة في الحيـاة ، ومنها سـنة الصراع ضد الكفر والشرك ومجاهدتهما ، فلا بد أن تنـبري للحق فئة تقاتل في سبيل الله صـفّا ، وتحت راية القيـادة الرسالية ، وتتاجر مع الله (تـبيع نفسـها وتشـتري رضـوانه والجنة والفتح) ، كما فعل الحواريّـون الـذين التفّـوا حـول عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ونصـروا الحق فأصـبحوا ظاهرين بإذن الله.

وحينما نتدبر آيات هـذه السـورة المباركة فإنّنا نجـدها تعبق بشـذى الولاية الإلهية ، ففي البداية كـان الكلام عن الأذى الـــذي لقيه كليم الله من قومه ، وربما كـــان ذلك الأذى متمثّلا في رفضـــهم لأخيه ووصـــيه هـــارون (عليهما السلام) لمّا استخلفه وذهب إلى مناجاة ربه ، ثم عبـادتهم للعجل رمز القيادة المنحرفة في

المجتمع آنــذاك ، كما أنّ عيسى ـــ عليه الســلام ـــ بشر بقيادة الرسول (ص) ولكنّ الكفار والمشركين من النـاس رفضوا التسـليم له ، ثم إنّ القـرآن يؤكّد بـأنّ الله سـوف يتمّ نـوره رغما على الكفّـار والمشـركين الـذين يسـعون لإطفائـه. ولا ريب أنّ القيـادة الرسـالية مشـكاة نـور الله ووحيه ، والـتي لا يحصل الإنسـان على الكمـال الإلهي إلّا بالتسليم لها.

بينات من الآيات :

[8 ـ 9] (**يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ**)

والنـور لا يطفـؤه نفخ الإنسـان عليه ، فكيف إذا كـان ينبعث من عند مليك السماوات والأرض؟ وهذا التعبير من بلاغة القرآن وبديعه في تقريب المعنى إلى ذهن المتـدبر. وكلمة الأفـواه يسـتخدمها القـرآن للدلالة على الكلمـات الكاذبة الـــتي لا تنطلق من القلب ولا تملك رصــــيدا من الواقع ، كالثقافات الجاهلية والدعايات المضلّلة الـتي تبثّها أجهزة الاعلام الطاغوتية ضد الحق ورموزه وأتباعه.

وقد اختلف أقوال المفسرين في بيان مصـداق النـور الإلهي ، فقال بعضـهم : إنّه الرسـالة المتمثلة في القـرآن وسائر كتب الله ، وقال آخرون : إنّه الرســول (ص) ، كما أوّلته بعض روايات أهل البيت في الإمامة وصاحب الأمر ـ عجل الله فرجه ـ ، والـذي يظهر لي أنّ الحقـائق الكـبرى تتواصل فيما بينها ، فمثلا العقيدة بالتوحيد مبعث للعقيــدة بالعـدل ، وهـذه تبعثنا نحو الإيمـان بـالآخرة ، وكـلّ هـذه الحقائق تتركّز في الإيمان بالولاية ، وهكذا يحـدّثنا الكتـاب عن الحقائق الكبرى بلا فصل بينها ولا تميـيز ، ممّا نجد لها أكــثر من مصــداق ، فمثلا عند ما يــأتي في القــرآن ذكر لحبل الله أو نـــور الله فإنّنا نجد له أكـــثر من مصــــداق ، فحبله كتابه ، وكـــذلك القيـــادة الـــتي تمثّل امتـــداده في المجتمع ، لا ينفصل أحـــدهما عن الآخر ، ولا يـــؤدي دوره العملي بتمامه

من دونه ، وهكـذا فسـرّنا قوله سـبحانه : «**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً**» بأنّه الوحي الإلهي والقيادة التي تمثّله ، وهكذا أوضح الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ في حديث الثقلين (كتـاب الله وعترتـه) أنهما لن يفترقا حـتى يـردا عليه الحوض ، وكـذلك هنا لا يوجد أيّ تعـارض بين أقـوال المفسـرين ، فنـور الله واحد ولكن له تجلّيـات عديدية ، فهو يتجلّى في كتابه كما يتجلى في الرسـول وفي الإمـام الذي يخلفه ، حسبما مرّ في تفسير آية النور [1].

(**وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ**)

إذن فنوره لا يتم بطوع الناس كلّهم ، إنّما في ظروف من التحـدي والصـراع بين إرادة الحق وأتبـاع الباطل ، ينتصر فيها حزب الله رغم أعدائه ، ورغم كرههم وسعيهم لإطفاء نوره بشتّى الوسـائل والطـرق ، فهو ليس محايـدا في الصراع بين الحق والباطل ، وإن كانت حكمته تقتضي امتحـان المؤمـنين وتعريضـهم للفتنة بعض الأحيـان. ولكنّ السـؤال : هل أنّ نـوره تعـالى كـان يشـكو النقص حـتى يكتمل؟ كلّا .. فلما ذا قال أنّه سيتم نوره؟

والجواب : إنّ للنور كمـالين : الأول في ذاته ، الثـاني فيما يتصل بانتشـاره ، ونـور الـدين كامل في ذاته ، ولكن إنما يتم كمـالا بانتشـاره في آفـاق المعمـورة ، وذلك بإسقاط كل الحجب الـتي تمنع اتصـال النـاس بنـور اللـه. ولعـلّ من مصـاديق إتمـام النـور أن تلتحم مسـيرة العقل المـزكّى بـالوحي المـنزل ، فيتحـوّل القـرآن إلى بـرامج ومناهج عملية مفصّلة تحكم الحيـاة وتسـير البشـرية على سبيل الهدى والصـواب. أفتـدري كيـف؟ بـأن يتكامل عقل الإنسـان بزيـادة علمه في كافة الحقـول حـتى يكتشف المزيد من أسرار الدين ويقتنع الجميع بأنّه مـنزل من عند الله ، فيصبح الدين ضرورة

---

(1) هنا لك تجد بيانا للعلاقة بين قوله تعـالى : (**اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) وبين قوله : (**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ**) ...

علمية بعد أن كـان ضـرورة نفسـية واجتماعية ، وهنا لك يكشف الله الغطـاء عن وجه وليّه الأعظم مهـديّ هـذه الأمّة الـذي وعد الرسـول بظهـوره في آخر الزمـان فيملأ الأرض قسطا وعدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.

إذا كتـاب الله كامل وإنّما النـاس بحاجة إلى الارتفـاع إلى مستواه بالتدبر والتعلم حتى يتم الله نوره.

وهـذه الآية والـتي تليها تحلّان جـدلا حـول مسـيرة البشـرية هل هي نحو التكامل أو الانحطـاط ، فحسب النظرية الدينية قـال بعضـهم : إنّها تتجه نحو الانتكـاس ، واحتجـوا على ذلك بـأنّ حـوادث القيامة الـتي تطـوى بها صفحة الحيـاة الـدنيا إنّما تقع نتيجة لوصـول البشـرية إلى منتهى الانحـراف ، ونقل البعض عن النـبي ما نصه : «إنّ خير القرون قـرني ، ثم الـذين يلـونهم ، ثم الـذين يلـونهم حتى يأتي أناس همج رعـاع أتبـاع كل نـاعق» ، ورووا عن الرسـول ـ صـلّى الله عليه وآله ـ قوله : «إنّما تقـوم السـاعة على كل لكع ابن لكـع» ، وانطلقـوا من ذلك في تقييم مسيرة الأجيال وأنّها تسير نحو الانحطاط.

وقال آخرون : بل الحياة تسير نحو التكامل ، وهذا ما نستلهمه من آيات القرآن ومن بينها هاتان الآيتان ، فإنّهما تنطويـان على بشـارة بـأنّ الكمـال ينتظر البشـرية في المسـتقبل ، وأنّ نـور الله سـوف يتم يوما من الأيّـام ليشمل كلّ الأرض ويهيمن على الناس جميعا. وهكذا جعل ربنا خاتم أنبيائه أفضـلهم. ولا غرابة حينئذ لو قرأنا الأخبـار القائلة بـأنّ آخر أوصـيائه الاثـنى عشر من ولـده هو الـذي ينهض بأعبـاء تلك النهضة العالمية نحو قمة السـعادة والكمال.

قـال علي بن إبـراهيم القمّي (رض) : «**وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ**» بالقـائم من آل محمد (ص) حتى إذا خرج يظهره الله على الـدين كله ، حـتى لا يعبد غير الله ، وهو

قوله ــ عليه السـلام ــ : «يملأ الأرض قسـطا وعـدلا كما ملئت ظلما وجورا» [1] ، وقال أمير المؤمنين (ع) : «حتى لا تبقى قرية إلّا وينــــادى فيها بشــــهادة أن لا إله إلّا الله ومحمد رسول الله بكـرة وعشـيّا» بلى. لو قسـنا مسـيرة البشرية بالساعات والأيّام فقد نجد بعض أمـارات الـتراجع ، وربما واجهتنا بعض الانتكاسات ، ولكن المحصّلة النهائية القائمة على أســاس الأرقــام الإســتراتيجية (بالأجيــال والقرون) تهدينا إلى أنّ المسيرة تتجه نحو الأمام ، فليس من شك أنّ حـال البشـرية الآن خـير ممّا كـانت عليه قبل قرنين من الـزمن لو اتخـذنا مجمل القيم الدينية مقياسا ، كالتقدم العلمي ، والرفاه ، والحرية و.. و..

ونجد في الآيتين الكريمتين بيانا لمسيرة الصــراع بين الأفكــار والأمم ، ففي المرحلة الأولى يــدور الصــراع بين الفلســفات الدينية والقيم البشــرية ، وفتنتصر الفكــرة الدينية على الأخرى. وها نحن نلاحظ بشائر عـودة النـاس إلى الــدين ، ونبــذها للكفر بالله عــزّ وجل ، وأظهر تلك البشــائر ما نجــده اليـوم من تراجع سـريع وواسع للمــدّ الإلحــادي (ومنه الشــيوعية) في ســائر أنحــاء العــالم ، وسوف يستمر هذا التحـوّل حـتى يـأتي اليـوم الـذي تعـود البشـرية بمعظمها إلى الله والـدين. فتبـدأ المرحلة الثانية والـتي يـدور فيها الصـراع بين الـدين الخـالص والأديـان المحرّفة ، وقد تكفّل ربنا بإظهـــار دينه الحق على كـــلّ الأديان. [2]

(**هُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدى وَدِينِ الْحَـقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**)

وعلى خاتمة هــــذه المرحلة ينتصر الله بوليّه الأعظم الإمــــام الحجة بن الحسن ــــ عجل الله فرجه ــــ لدينه الخالص. وحيث حدثتنا الآية الثامنة عن المرحلة الأولى

(1) تفسير القمي / ج 2 عند الآية.
(2) مجمع البيان عند تفسير الآية.

جاءت خاتمتها : «**وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ**» ، بينما اختتم الآية التاسعة بالقول : «**وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**» لأنّ الذين يعاكسونهم إنّما هم أتباع التوحيد الخالص من دنس الشرك والارتياب!

[10 ـ 13] ولأنّ هذا التكامل يتحقّق عبر عشرات الألوف من المواجهات الممتدة عبر قرون متطاولة فإنّه لا يخص عصرا أو طائفة أو جهة ، إنّما هي سنّة إلهية ، كسنّة الضياء الذي ينبعث من الشمس ويهزم جيوش الظلام من كل بقعة .. فهي لا تخص زمانا أو مكانا أو تجمّعا.

وهكذا تكون هذه البصيرة القرآنية شعلة أمل في أفئدة المؤمنين بالله في كلّ مواجهة لهم مع الكفر ، والطغيان ، وتعطيهم روح النصر ، وتزوّدهم بوقود الاستقامة والصبر.

وهكذا كانت هذه البصيرة ـ ضمن السياق القرآني ـ تعبئة روحية لمن يريد التجارة مع الله والتفرغ للجهاد في سبيله ، بأنّه آنئذ يصبح ضمن تيار حركة التاريخ في اتجاه التكامل وإتمام نور الله وإظهاره على الدين كله.

بلى. هذه الحقيقة تهدينا أيضا إلى أنّ ذلك الأمل يتحقّق على أيدي المؤمنين وبما يبذلونه من تضحيات.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ**)

والنجاة من النار أعظم طموحات المؤمنين لعلمهم بأنّ الإنسان واقع في العذاب ما لم يسعى للخلاص منها. ويحدّد القرآن طريق النجاة في الالتزام بثلاثة شروط أساسية هي : الإيمان بالله ، والتسليم للقيادة الإلهية ، والجهاد بالمال والنفس من

أجل الحق.

(**تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**)

ويبدو أنّ الله قدّم الجهاد بالمال على النفس لأنّ الإنسان يبدأ بالجهاد بالمال فيصعد درجات في الإيمان إلى أن يصل إلى الجهاد بالنفس ، كما أنّ الجهاد بالمال يهيء وسائل الجهاد بالنفس. هل رأيت حربا أو مقاومة إلّا ويسبقها الإعداد لهما بالسلاح والعتاد والزاد والاعلام ، وكلّها لا تتحقّق إلّا بالمال .. وحيث يعتبر البعض الجهاد خسارة للأمة يؤكّد القرآن بأنّه خير عظيم للمجتمع ، وأي خير أعظم من العزة ، والاستقلال ، والحرية ، وإقامة حكم الله ، وهي كلّها من ثماره ونتائجه.

(**ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

وخير الجهاد يعمّ الإنسان والمجتمع المجاهد في الدارين : في دار الآخرة متمثلا في الغفران ، وسكنى الجنة وهو أعظم الخير ..

(**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)

جاء في تفسير هذه الآية خبر مأثور عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أنّه قال : «قصر من لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، في كلّ دار سبعون بيتا من زمرّدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون

وصيفة ، وقال : ويعطي الله المؤمن من القـوة في غـداة واحدة ما يأتي على ذلك كلّه» [1]

وفي دار الدنيا متمثلا في النصر والفتح والتحرّر ..

(**وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**)

قيل : بشّـرهم بالنصر لما في ذلك من السـرور ورفع المعنويـات ، ويبـدو لي أنّ البشـارة هنا تنصـرف أيضا إلى أشــياء أخــرى غــير الجنة والنصر ، من أبرزها لقــاء الله ورضـوانه. وهنا ملاحظة نسـتوحيها من أمر الله للرسـول بتبشـير المؤمـنين هي أنّ على القائد أن يثبّت روح الأمل والرجــاء في صــفوف أتباعه على الــدوام ، لــيرفع من معنويــاتهم ، ولكي لا يفقــدوا حماســهم وأملهم بســبب التحديات التي في الطريق.

وهذه الآيات الكريمة تحـدّد الإسـتراتيجيات الأساسـية للجهاد ، فهو على صعيد الآخـرة وقبل كل شـيء يجب أن يسـتهدف النجـاة من النـار وغفـران الله وكـذلك الجنة ، وعلى صعيد الدنيا النصر والفتح ، والفتح أشمل من النصر ، فالنصر هو هزيمة العـدو عسـكريّا وقد يكـون محـدودا ، بينما الفتح هو الإنتصار الشامل وفي كلّ الأبعاد.

وتأكيد ربنا على أنّ الهــــدف الأخــــروي هو الغاية العظمى للجهـاد من شـأنه السـمو بـروح المؤمـنين إلى سماء القرب من الله ، وعلاج أي حالة من حالات التوقف الـتي قد يبتلى بها المجاهـدون بسـبب اليـأس من طـول الإنتصار ، فإنّ الجهاد ليس موضـوعا للانتصـار على العـدو وحسب بل لنيل رضــــوان الله ، وهو واجب شــــرعي وفريضة كالصلاة والصـيام لا يسـقطها عن كاهل المجتمع أو التجمعات الرسالية مجرد أن

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 318

يكون الإنتصار صعبا أو بعيد المنال.

[14] وتــأتي خاتمة الســورة لتشــير إلى المراحل الأساسية في الحركات الرسالية ، وهي أربع مراحل :

الأولى : انبعاث القائد الرسالي في المجتمع ، والـذي يمثل البذرة الأولى والأساسية للحركة والتغيير.

الثانية : التفاف مجموعة من النـاس حوله ، وإيمـانهم بفكره ، وتسليمهم لقيادتهم ، وهم الطلائع.

الثالثة : توسّــع دائــرة الحركة وتيّارها في المجتمع ، الأمر الــذي يقســمه إلى جبهــتين : جبهة الحق ، وجبهة الكفر ، ممّا ينتهي به إلى الصراع.

الرابعة : انتصــــــار الحق وأهله على جبهة الباطل كعاقبة نهائية للصراع.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُـوا أَنْصـارَ اللـهِ كَما قـالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ**)

جمع حواري وهم الخلّص الخــواص من أتباعه ، قيل : سمّوا حواريين لأنّهم كانوا قصّارين حيث أنّ الله ـــ حسب هـذا القـول الـذي ذهب إليه قتـادة ــ أمر عيسى ــ عليه السلام ــ فقـال : إذا دخلت القرية فـأت النهر الـذي عليه القصّارون فاسـألهم النصـرة ، فأتـاهم عيسى وقـال : من أنصــاري إلى اللــه؟ قــالوا : نحن ننصــرك ، فصــدّقوه ونصروه. [1]

(1) القرطبي / ج 18 ـ ص 90 ولعل القصّار الذي يبذل قصـارى جهـده .. وسمّوا بذلك لمبالغتهم في العبادة والطاعة لله.

وقيل : أصل الكلمة من الحـــور وهو البيـــاض ، وإنّما سمّوا كذلك لبياض قلـوبهم أو نقـاء قلـوبهم وصـفائها في الــولاء لعيسى ، ويبـــدو أنّ هـــذا أقـــرب وأبلغ دلالة على معناها المصطلح الذي يدل على أقرب النـاس من الرسل والأوصـياء ، وهـذا المعـنى يقابل النفـاق ويـرادف معـنى المخلص.

وقيل أنّ عيسى ـ عليه السـلام ـ بعث كـلّ واحد من الحواريين إلى منطقة في أنحاء المعمورة لإبلاغ الرسالة ، ممّا يعكس مـــدى تفـــانيهم في ســـبيل الـــدعوة حيث أنّ الواحد منهم كـــان يمثّل أمة في دفاعه عن الحق وتحديه للباطل. [1]

(**مَنْ أَنْصـــارِي إِلَى اللــــهِ قـــالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْـرائِيلَ وَكَفَـرَتْ طائِفَـةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلى عَـدُوِّهِمْ فَأَصْـبَحُوا ظاهِرِينَ**)

وهـذا الشـاهد من التـاريخ يهـدينا إلى أنه تعـالى يؤيّد المجاهدين في سبيله ، وينصرهم على عدوّه وعدوهم.

(1) راجع المصدر تاريخ الطبري / ج 3 ـ ص 737 (طبعة أوروبا).

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله ــ عليه السلام ــ «**الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة وسبح اسم ربك الأعلى ، وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين ، فإذا فعل ذلك فكأنّما يعمل بعمل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ وكان جزاؤه وثوابه على الله الجنة**».

نور الثقلين / ج 5 ص 320

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : «**من أدمن قراءتها كان له أجر عظيم ، وآمنه ممّا يخاف ويحذر ، وصرف عنه كلّ محذور**»

ثواب الأعمال / ص 209

الإطار العام

تـذكّرنا سـورة الجمعة بفضل الله الأكـبر المتمثل في رسالات الله والتي سببت إصلاحا شاملا لحيـاة البشـرية ، وبالذات الذين تنزّلت في محيطهم آيات الله ، فبالرسـالة طهّر النبي أتباعه من أرجـاس الجاهلية وأغلالها ، وعلّمهم الكتاب والحكمة ، ورسم خطا إصلاحيا ممتدا عبر الزمـان والمكـان ، ولـولا الرسـول لكـان البشر يعـود إلى جاهليته الأولى.

لأنّ حملة الرسالة وورثة علمها قد خانوا مسـئولياتهم ، يتعرّض السياق إلى الذين لم يتحملـوا مسـئولية التـوراة بعد أن حملوها مشـبّها لهم بالحمـار الـذي يحمل أسـفار العلم دون أن ينتفع بها في شـيء ، وفي ذلك تحـذير من طـرف خفي للمسـلمين ألّا يصـبحوا مصـداقا آخر لهـذا المثل.

وإذا يـذكّر بشـيء من واقع الانحـراف لـدى اليهـود ـ الـذين من أبـرز صـفاتهم التشـبث بالمـادة والحيـاة الـدنيا (**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ**) [1] ـ يعطينا

---

(1) البقرة / 96

مقياسا دقيقا لمعرفة الداعية للحق عن المـــدّعي له وهو أن من يحمل الرســـالة ويـــؤمن حقّا بمحتواها لا يبـــالي بالموت دفاعا عنها.

ثم يؤكّد أهمية صـــلاة الجمعة لـــيركز في المؤمـــنين التوجه نحو القيم بـــدل اللهو والمـــادة ، ولكي يثبّت للأمة الناشئة تميّزا عن الأمم الاخرى وشخصية مستقلة بفرضها مناســـبة دينية اجتماعية في مقابل ســـبت اليهـــود وأحد النصارى.

وعند ما نتعمق في تدبرنا نجد علاقة وثيقة بين ابتـداء الســورة بالتســبيح وانتهائها بالـدعوة إلى الصـلاة والصـبر عليها أمـــام إغـــراء التجـــارة واللهو ، ذلك أنّ الصـــلاة هي أظهر مصاديق التسبيح في حياة المؤمن.

سورة الجمعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ**

---

5 [أسفارا] : الأسفار الكتب ، واحدها سفر ، وإنّما سمّي بذلك لأنّه يكشف عن المعنى بإظهاره ، يقال سفر الرجل عمامته إذا كشفها ، وسفرت المرأة عن وجهها فهي سافرة ، ومنه :
«والصبح إذا أسفر».

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (5) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (6) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرّازِقِينَ (11))

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ

بينات من الآيات :

[1] لأنّ الله خلق الخلق للعبـــــــــــادة فقد أودع في ضـميرهم الحاجة إليه ، وفطـرهم على الإحسـاس بما هو مرتكز فيه من النقص والعجز ، والمهم المعرفة به حيث لا حـدّ ولا نقيصة ولا ضـعف ، لـذلك فـإنّ الخلق لا يـرون لأنفسهم وجـودا من دون فضـله ولطفه وهباته ، ولا هـدفا أسمى من التقرب إليه عـبر تنزيهه وتسـبيحه والاسـتزادة من فضـله بـذكر أسـمائه الحسـنى ، لـذلك فالخليقة في تسبيح دائم له عز وجل.

(**يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

كـــلّ بلغته وطريقته ، هـــذه هي مســيرة الكائنـــات ووجهتها ، وإذ يضع القـرآن الإنسـان أمـام هـذه الحقيقة الكبرى فلكي يدفعه نحو الالتحـاق بها ، ويـبيّن له أنّ عـدم خضـوعه لله شـذوذ خطـير يضـعه في مسـيرة معاكسة لإرادة ربه وللخليقة جميعا ، وبالتـالي فإنه يواجه تحـديات كبـيرة تسـحقه وتـؤدي به إلى الـدمار ، فلا طريق للنجـاة منها

والوصـول إلى الأهـداف والتطلعـات إلّا بمسـايرة الوجـود بقيمه وسننه في مسـيرته الصـواب ، من خلال الاعـتراف بالعجز والنقص المرتكز فيه والمعرفة بكمال ربّه المطلق ، ومن ثمّ تسبيحه والخضوع له. ولأنّه تعـالى لا تـدرك ذاته الأبصار ولا العقول ولا الأوهام فقد جعل أسـماءه وسـيلتنا إليه وذكّرنا بها فقال :

(**الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)

قـال أبو جعفر (عليه السـلام) : «خلقها وسـيلة بينه وبين خلقه ، يتضرعون بها إليه ، ويعبدونه ، وهي ذكـره» [1] وعن الرضا (عليه السلام) قال : «**هو نفسه ، ونفسه هو ، قدرته نافـذة فليس يحتـاج أن يسـمّي نفسه ، ولكنّه اختار لنفسه أسماء لغيره يدعوه بها ، لأنّه إذا لم يدع باسمه لم يعرف**» [2]

وإذا كنّا نريد معرفته بأسـمائه فلا بد أن نـتيقن بأنّها غـير ذاته سـبحانه ، ففي الخـبر عن الصـادق (عليه السـلام) : «**فلو كـان الاسم هو المسـمّى لكـان كـلّ اسم منها إلها ، ولكنّ الله معـنى يـدلّ عليه بهـذه الأسماء ولكنّها غيره**» [3] ، ولا بد أن يتذكر الإنسان هذه الحقيقة وهو في طريق العرفـان بربه حـتى لا تـذهب به المذاهب ، فيحـاول كما فعل بعض الفلاسـفة والمجسـمة أن يتصـور ربه بوهمه أو بعقله المحـدود فيضـلّ عنه إلى خلقه ، فقد «**تـاهت هنـاك عقـولهم ، واسـتخفت حلـومهم ، فضـربوا له الأمثـال ، وجعلـوا له أنـدادا ، وشبّهوه بالأمثال ، ومثّلوه أشـباها ، وجعلـوه يـزول ويحول ، فتاهوا في بحر عميق لا يـدرون ما غـوره ، ولا يدركون كنه بعده**» [4] ، فسـبحان الله عمّا يصـفون ويشركون. وأنّى للإنسان أن يتصوّر خالقه؟!

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 295
(2) المصدر
(3) المصدر
(4) المصدر عن الإمام الكاظم (ع)

بلى. نحن نقــول الملك والقــدوس والعزيز والحكيم ولكن دون حـــــدّ وتشـــــبيه ، فهو واسع الملك ، عظيم القداسة ، دائم العـــزة ، ونافذ الحكمـــة. وتتجلّى هـــذه الأســـماء حينما يعــود الإنســـان إلى نفسه يتفكر فيها أو يرمي ببصره في الآفاق من حوله.

نعم. إنّ ربنا الملك الــذي لا حــدّ لملكه ، وإنّما يملك كلّ شيء ملكا ، يملك شهوده وغيبه ، حاضره ومستقبله ، ويهيمن عليه بجميع أبعــاده ، ولا يملك شــيء ولا شــخص شيئا إلّا بما يملّكه. وكلّ هـذا آيـات ملكوته وأكـثر من هـذا مما لا يمكن لنا أن نتصوره.

وهو قــدوس بمعــنى النزاهة المطلقة من كــلّ نقص وعيب وحد ، فليس شـــيء ولا أحد أولى منه بالتســـبيح والعبادة. كما أنّه القـادر بـالعزة على ما يشـاء ، والـذي لا يــذل أو يحتــاج إلى غــيره. وحيث نســبّحه أو يــدعونا إلى تســبيحه فليس لحاجة منه إلينا ولا إلى ذلك ، لأنّه ســبّوح وعزيز وملك وقـــدوس بذاته ، وإنّما بحكمته تفضّــل علينا بـــأن جعل تســـبيحه طريقا لنا إلى رضـــوانه وثوابه وهو الحكيم. وهنـــاك علاقـــات متينة بين الأســـماء الحســـنى المـــذكورة في الآية الكريمة بعضـــها مع بعض ، فالملك الحق لا بد أن يكـــون نزيها وقويّا وحكيما ، لكي يكـــون مهيمنا على ملكـــه. والعـــزة لا تكـــون إلّا بالملك ، كما لا يكـون الملك إلّا بها ، وهكـذا تـوجب القداسة العـزة. ولم يقل تعــالى عزيــزا وحسب بل ذكر الحكمة أيضا فهو ملك ذو قــوة في حكمة ، لا يــدبّر الحيــاة بــالقوة وحــدها إنّما يهيمن عليها بالقوة ويدبّرها بالحكمة.

وهنا ينبغي التأكيد على مسألة مهمة وهي أنّ ما تقدم من التحقيق حـــول أســـماء الله لا يعـــدو كونه محاولة محدودة لتقريب معانيها ليس أكـثر ، وإلّا فـإنّ الإنســان لا يستطيع أن يفي بالمعنى حينما يتحدث عنها.

[2] والأســـماء الأربعة الحســـنى لله تجلّت عند ما انبعث إلى الناس رسـولا من أنفسـهم فجـاء ليهـديهم من الضلال ويعيدهم إلى مسيرة الكائنات بعد الابتعاد

عنها ، وهكـذا انطلقت مسـيرة المجتمع الإصـلاحية حيث تحوّل من الشتات إلى الألفة ، ومن الضـعف إلى القـوة ، ومن الجاهلية والتخلف إلى العلم والحضارة.

(**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ**)

قـال كثـير من المفسـرين أنّ «الأمـيين» هم الـذين ينتسـبون إلى مكة أم القـرى ، ويحتمل أنّهم المتفرقـون أمما وقيما ، والأظهر أنّهم الجاهليون ، إلّا أنّه ينبغي القول بأنّ الأمي والجاهلي ليس الذي لا يقرأ ولا يكتب فـإنّ ذلك هو المعـنى الحـرفي الظـاهر للكلمة ، فقد ينسب العـالم الـذي يقـرأ ويكتب إلى الجاهلية والأميّة لأنه لا يتفاعل مع معارفه [1] ، وعــدم القــراءة والكتابة مظهر واحد من مظاهر التخلف والجهل ، وللجاهلية مظـاهر شـتى تصـدق عليها جميعا كلمة الأمي التي يبـدو أنّها غلبت لتشـمل كـلّ أبعــاد الجاهلية ، ونســتوحي ذلك من اســتخدام القــرآن الحكيم لها في سياق حديثه عن أهل الكتاب وهم يقرءون ويكتبـون وفيهم دعـاة العلم إذ قـال : (**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُـونَ الْكِتـابَ إِلَّا أَمـانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**) [2] ، ولكن لماذا بعث الله في الأميين بالذات؟

1 / إذا أخذنا بالتفسـير الأول (أنّهم أهل مكـة) فـذلك تجلّ لحكمة الله حيث يبعث رسـله في مركز البلاد وأكـبر مدنها وأهمها وحيث بؤرة الفساد والضلال ، فإنّ ذلك أكبر أثرا في التغيير.

2 / وعلى التفسـير الأظهر (أنّهم الجـاهليون) نهتـدي إلى أنّ الله يستنقذ البشرية

---

(1) قال الصادق (عليه السـلام) : «كـانوا يكتبـون ولكن لم يكن معهم كتـاب من عند الله ، ولا بعث إليهم رسـول فنسـبهم الله إلى الأمـيين» نور الثقلين ج 5 ص 322

(2) البقرة / 78

حينما تتجه حضارتها نحو الدمار والانتهاء.

ثم إنّ الله حين بعث رسوله في هذا الوسط المتدني في العلم عرفنا بأنّ الرسـالة لم تكن تكـاملا ذاتيّا وصـلت إليه البشرية والمدنية ، كلّا .. إنّها كالغيث الـذي يـنزل من السماء على أرض جـرداء فيملأها خصـبا وجمـالا. إنّها كما أشـــعة الشـــمس تهبط على وديـــان الظلام فتنشر عليها الضــياء والروعــة. إنّها تــأتي من خــارج إطــار الســياق التاريخي فتحدث فيه ثـورة بديعة وتحـولا عظيما لا نجد له أيّ تفسير إلّا في الرسالة ، وليس كما يــدّعي البعض بأنّها حجر وعامل مساعد لعوامل حضـارية لـدى العـرب ، فـإنّ الــدلائل التاريخية كلها تشــير إلى وجــود جاهلية (أميــة) شاملة في كلّ الأبعاد في المحيط الذي بعث فيه الرسول (صــلّى الله عليه وآلــه) عــبرت عنها فاطمة بنت محمد (عليها السلام) بقولها عن أبيها : «ابتعثه الله إتماما لأمـره ، وعزيمة على إمضــاء حكمه ، وإنفــاذا لمقــادير حكمته ، فــرأى الأمم فرقا في أديانها ، عكّفا على نيرانها ، عابــدة لأوثانها ، ومنكـرة لله مع عرفانها ، فأنـار الله بـأبي محمّد (صلّى الله عليه وآله) ظلمها ، وكشف عن القلــوب بهمها ، وجلى عن الأبصــار غممها ، وقــام في النــاس بالهداية ، فأنقذهم من الغواية ، وبصّرهم من العماية ، وهــداهم إلى الــدين القــويم ، ودعــاهم إلى الصــراط المســتقيم» [1] ، وقالت (عليها السـلام) : «**وكنتم على شـفا حفـرة من النـــار مذقّة الشـــارب ، ونهـــزة الطـــامع ، وقبسة العجلان ، ومــوطئ الأقــدام ، تشــربون الطــرق ، وتقتـــاتون القـــدّ ، أذلّة خاســئين ، تخـــافون أن يتخطفكم الناس من حولكم**» [2].

وهناك سؤال : لماذا سـمّي النـبي أمّيّا ، وقـال الـذكر «**رَسُولاً مِنْهُمْ**» فما هي النعمة في أن يكون النبي أميا؟ قال الماوردي : الجـواب من ثلاثة أوجه : أحـدها لموافقته ما تقــدّمت به بشــارة الأنبيــاء ، الثــاني : لمشــاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب

---

(1) الاحتجاج / ج 1 ص 99

(2) المصدر / ص 100

إلى مـــوافقتهم ، الثـــالث : لينتفي عنه ســـوء الظن في تعليمه ما دعا إليه من الكتب الـــتي قرأها والحكم الـــتي تلاها [1].

بيد أنّ الجواب الأفضل هو ما ذكر في حـديث شـريف مأثور عن الامام الباقر (عليه السلام) كما سيأتي.

وهناك شـبهة حـاول البعض أن يدسّـها عند قـول الله عن الرسـول (صـلّى الله عليه وآلـه) : «منهم» إذ نسـبوا إلى النبي الأكرم الأمية والجهل ، وأئمة الهـدى من جهتهم سـعوا لـدفعها بصـورة منطقية ، فقد قيل للإمـام البـاقر (ع) : إنّ النـاس يزعمـون أنّ الرسـول (صـلّى الله عليه وآله) لم يكتب ولا يقرأ ، فقـال : «كـذبوا لعنهم اللـه. أنّى يكـون ذلك وقد قـال عـزّ وجـلّ : (**هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ**) .. (**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ**) فيكـون يعلّمهم الكتـــاب والحكمة وليس يحسن أن يقـــرأ أو يكتب؟» ، فسئل : فلم سمّي النبي الأمي؟ قـال : «نسب إلى مكة ، وذلك قوله عـزّ وجل : (**وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُـرى وَمَنْ حَوْلَها**) فأم القرى مكة ، فقيل أمي لذلك» [2] وقد جاء في حديث مـأثور عن الإمـام الصـادق (عليه السـلام) : أنّ تسـمية العـرب بـالأميين كـان بسـبب حرمـانهم عن كتـاب إلهي ، وعلى هذا فإنّ نسبة الرسول إلى ذلك كان بسـبب انتمائه إلى ذلك القـوم جغرافيّا ونسـبيّا ، وليس لأنّه شخصـيّا لم يـنزل عليه الكتـاب ، فقد نـزل عليه أحسن الكتب فكيف يكـون أميا بهـذا المفهـوم؟! والسـؤال هنا : ما هو منهج الرسـول في الإصـلاح والسـير بالإنسـان نحو الحضـارة والهدى؟

[1] هداية النـاس إلى الله عـزّ وجل ، ببثّ آياته بينهم وبيانها لهم آية تلو آية ، والذي من شـأنه تفجـير الطاقـات الخيرة الكامنة داخل النفس البشرية ، ومن أهمها

---

(1) القرطبي / ج 18 ص 92
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 322

استـثارة العقل في البحث عن الطريق لأنّ الآيـات تـبيّن معـالم الطريق وهي أسـاس الهـدى ، إلّا أنّ هنالك حاجة إلى تتميمها بتذكرة الإنسان بها مما يقوم به الأنبيـاء (عليه السـلام) ، وهكـذا نهتـدي إلى أن أوّل ما يجب على الحركات الرسالية القيام به هو بث الثقافة الصـحيحة بين الناس لكي يقتنعوا بالإصـلاح ويتحسسـوا ضـرورته. ولعـلّ الآية الكريمة تشـير أيضا إلى مـيزة الرسـالات الإلهية عن الدعوات البشرية وهي كونها تبدأ من الله لتنتهي إليه.

(**يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ**)

[2] تطهير الناس من عقد النفس وأغلالها الـتي تمنع انطلاقهم نحو الهـدى كما قـال تعـالى : (**وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كـانَتْ عَلَيْهِمْ**) [1] ولا يمكن لأمة مثقلة بعقد الأحقـاد والأضـغان ، والأغلال والحسد والاسـتئثار ، وأصر الخـوف والتهيّب والانطـواء ، لا يمكن لمثل هـذه الأمة أن تنهض بمسـؤولية الإصلاح والتقـدم أو أن تكـون أهلا لـوحي الله وهـداه ، لـذلك عمد الرسـول (صـلّى الله عليه وآلـه) وهو ينشد النهضة بـذلك المجتمع إلى تطهيره من أدران الشرك والتخلف والجاهلية.

(**وَيُزَكِّيهِمْ**)

قـال ابن عبـاس : يجعلهم أزكيـاء القلـوب بالإيمـان ، وقال بعضهم : يعني يأخذ زكاة أموالهم ، وهو بعيد.

3 ـ وإذا ما تفاعل المجتمع مع الآيـات ، واهتـدى بها إلى غاياتها ، وتزكّى بها

---

(1) الأعراف / 157

وبتوجيهـــات المصـــلح ، أصـــبحت لديه القابلية العقلية والنفســية لتلقّي تعــاليم الرســالة والتفاعل معها ، ولعلّه لذلك تقدّمت تلاوة الآيات والتزكية على التعليم.

(**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ**)

والكتاب هو القرآن الذي كان رسـول الله (صلّى الله عليه وآلـــــه) أوّل مفسر ومـــــؤوّل لمعانيه ، وما أحوجنا وبالذات مجاميعنا العلمية أن نتعلّم ونعلّم كتاب الله الـذي هو حبلة وبابه إلى الهدى والفلاح. إنّ الرسول (صـلّى الله عليه وآله) طهّر النفوس والعقـول من الأغلال والعقد ، ثم راح يعلّم الأمة معاني الكتاب بعد تلاوته عليهم ، ويستخرج لهم منها مناهج الحياة ، في السياسة والإقتصاد والاجتماع والعسكرية ، حتى أصبح القـرآن بـديلا حضـاريّا شـاملا عن المنـاهج الجاهلية الضـالة بقضّـها وقضيضـها. واليـوم حيث نريده العودة إلى الإسلام باعتبـاره الحل الأمثل للمشـاكل المعوزة التي لا تستطيع البشرية الفرار منها لا بد أن نعود من البـاب الـذي ولجه المعلّم الأوّل للرسـالة نبيّنا الكـريم (صـلّى الله عليه وآلـه) ، فنشـرع بآيـات الله نتلوها على الناس ، ونـذكّرهم بـربّهم حـتى ينصـهروا جميعا في بوتقة الوحـــدة الربّانية ، ثم نعلّمهم كتــاب ربهم حـــتى يتشــبعوا بقيمه المتسامية ، ويتسلّحوا برؤاه وبصائره ، وينبعثوا من آياته في كافة تصرفاتهم ومواقفهم.

ليكن القرآن أهم مـادة دراسـية في مجاميعنا العلمية ومدارسنا وجامعاتنا ومراكز دراستنا حــتى ننظر من خلاله إلى كلّ شيء ونصبغ بصبغته كلّ عمل وموقف.

وحيث يريد الرســـول لمن حوله أن يقـــودوا الحيـــاة عمليّا بـــــالقرآن علّمهم الحكمة أيضا ، ليحســـــنوا فهمه وتطبيقه على الواقع حسب اختلاف الظـــــروف وتقـــــدم الحيـــاة وتطورها ، فبالحكمة تســتنبط الحلــول لمشــاكل الحياة ومفرداتها. ولو كان الرسول

(صـــلّى الله عليه وآلـــه) يقتصر على تعليم نصّ القـــرآن للمســـلمين وحسب دون إرشـــادهم لأصـــول الاجتهـــاد ومناهجه لكانوا يقعون في مشاكل لا تنتهي.

ويبدو أنّ الحكمة الإلهية تستوحى من الآيات المحكمة التي يردّ إليها كل آيات القرآن وكل الحـوادث الواقعة في الحياة ، ذلك لأنّ محكمات القرآن هي التي تذكّر الإنسـان بالقيم الفطرية المرتكزة في ضميره ، وتثـير دفـائن عقله بالحقـائق الكـبرى الـتي يعرفها بذاته بعد التبصـير بها .. وبكلمة : المحكمـــــات القرآنية هي مرتكـــــزات العقل الإنساني كالتوحيد والعدل والحرية والمسؤولية وما أشـبه ، وهي الـتي تعتـبر مصـدرا للتشـريع الإلهي ، كما يـزعم المشرّعون الوضعيّون أنّهم يعتمدونها في تشريعاتهم.

وحينما يبلغ الإنسـان درجة متقدمة من الـوعي بهـذه المرتكـزات ، ويعقلها عقل دراية ، ويتعمّق في معرفتها ، هنا لك يصـبح فقيها قد أوتي الحكمة ، وآنئذ يسـتطيع أن يسـتنبط سـائر أحكـام الشـريعة منها ، كما يتمكن من اعتمادها في مواقفه السياسية والاجتماعية المتغيرة.

وأعـرف النـاس بالحكمة ، وأقـدرهم على اسـتنباط الأحكـام الفرعية منها ، وأوعـاهم لبصـائرها ، هو الجـدير بحكم الأمة ، لأنّه أقـرب إلى القـرآن من غـيره ، ولأنّ القرآن هو الحـاكم الأوّل في الأمة الإسـلامية ، وإنّما يمثّله أوعى الناس له وأقرب الناس إليه ..

لـذلك فـإنّ الحكمة هنا تعـني الولاية الإلهيّة والقيـادة الشرعية ، لأنّها وعـاء الحكمة ، وعيبة المعـارف الربّانية ، ومرتكز البصائر القرآنية.

من هنا جاءت النصوص المأثورة عن أئمة أهل الـبيت (عليهم السـلام) تفسّـر من جهة الحكمة بالولاية ، وتـبيّن من جهة أخرى أنّ الحكمة هي التفقّه في الدين.

قال الإمـام الصـادق (عليه السـلام) في تفسـير قوله سـبحانه : «**وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْـراً كَثِيراً**» : «**طاعة الله ، ومعرفة الإمام**» [1]

وقال الإمام الصـادق (عليه السـلام) في تفسـير الآية ذاتها : «**إنّ الحكمة المعرفة والتفقّه في الـــدين ، فمن فقه منكم فهو حكيم ، وما أحد يمـــوت من المؤمنين أحب إلى إبليس من فقيه**» [2]

وروي عن النبي (صلّى الله عليه وآله) أنّه قال : «**إنّ الله آتاني القرآن ، وآتاني من الحكمة مثل القرآن ، وما من بيت ليس فيه شـيء من الحكمة إلّا كـان خرابا. ألا تفقّهوا وتعلّموا ولا تموتوا جهّالا**» [3]

وفي تفسـير آخر مـأثور عن الإمـام الصـادق (عليه السـلام) : «**والحكمة هي النجـاة ، وصـفة الحكمة الثبـات عند أوائل الأمـور ، والوقـوف عند عواقبها ، وهو هادي خلق الله إلى الله**» [4]

وتكاد كلمـات المفسـرين في الحكمة تكـون واحـدة ، فقد فسـرها مالك بن أنس أنّها الفقه في الـدين ، وقـال بعضـهم : ويعلّمهم الحكمة فيـدركون حقـائق الأمـور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصـواب العمل ، وقال آخر : الكتاب : الـوحي ، والحكمة : العقل ، وقـال آخر : إنّ الحكمة هي العلم الـذي يعمل به فيما يجتبي أو يجتنب من أمور الدّين والدنيا ..

وهكـذا تتواصل تفسـيراتهم للحكمة لتوضح أنّها بلـوغ مستوى من علم الدين

---

(1) نور الثقلين / ج 1 ص 287
(2) المصدر
(3) المصدر
(4) المصدر / ص 288

يمكّن الإنسان من معرفة متغيرات الشرائع وهو الفقه.

بلى. لا يمكن فقه الإسلام بعمق من دون فقه الـزمن ، لأنّ حكم الله يختلف من حادثة لأخـــــرى وواقعة وثانية وإنّما أصـبح الفقهـاء مرجعا لأحكـام الـدين لأنّهم يعرفـون الـدين ، ويعرفـون شـروط الـزمن ومتغـيرات الحـوادث ، فيســتنبطون أحكامها منه ، ولــذلك جــاء في الحــديث الشريف : «**وأمّا الحوادث الواقعة فـارجعوا فيها إلى رواة حديثنا**».

وهكذا كانت الحكمة هي العقل المزكّى بالدين ، وهي لا تتأتّى عادة إلّا بعد الإلمام بسـائر أحكـام الشـريعة وقيم الوحي.

ولأنّ القرآن آخر رسالة بعثها الربّ إلى عبـاده ، وهي التي تستمر حتى قيام الساعة برغم تطور الظروف ، فإنّ البشـرية احتـاجت إلى الحكمة المرتكـزة في أئمة الـدّين لملاحقة المتغيرات.

وهكـذا دعا إبـراهيم (عليه السـلام) ربّه أن يبعث في العـــرب من يعلّمهم الحكمة والكتـــاب ، فقـــال هو وابنه إســماعيل : «**رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُــولاً مِنْهُمْ يَتْلُــوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**» ..

واسـتجاب الله لإبـراهيم وبعث النـبي محمـدا (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) إلى أولئك الأمـيين فجعلهم الله به في مستوى رفيع ، حتى قال في بعضهم الرسـول (صـلّى الله عليه وآله) : «**علماء حكمـاء كـادوا أن يكونـوا من الفقه أنبياء**» [1]

(**وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

---

(1) المصدر / ص 288

لقد بلغوا من الضلال أبعد مدى حيث اتسموا بالتخلف في جميع شؤونهم ، فمن وأد البنات إلى قتل الأولاد وإلى التناحر والتطاحن ، إلى الفقر والمسكنة ، وهكذا كانت حركة الرسالة التي أنقذتهم من تلك الوهدة العميقة حركة من خارج السياق التاريخي لمجتمعهم. ولو كانت مجرد تكامل طبيعي داخلي لما استطاعت القفز بهم إلى تلك القيم السامقة وبتلك السرعة الخيالية ..

[3] من غياهب ذلك التخلف البعيد وذلك الضلال المبين تعالى ذلك الصوت الميمون يدعو العالمين إلى ولادة جديدة ، إلى الانبعاث من ضمير الجاهلية ، إلى حياة الحضور الفاعل ، وسوف تتواصل أمواج الملتحقين بالركب من شعاب الأرض وعلى امتداد التاريخ لأنّها ليست دعوة مكية للعرب ، ولا دعوة قريشية لقريش ، ولا دعوة سياسية لذلك العصر. إنّها دعوة إلهية تتجاوز الجغرافيا والعنصر والزمن .. إنّما دعوة رسول الله ربّ العالمين إلى الناس كافّة ..

وسوف تتزود المسيرة الحضارية من القيم التي جاءت بها ، وتظل تأخذ بيد الإنسانية نحو الهدى والخير ، كما تتزود من الخط الرسالي والقيادة الشرعية التي تشكّل الامتداد الحقيقي للرسول قيادة وذكرا ، وهو لا ينقطع في كلّ زمان وجيل ، حيث لا تخلو الأرض من حجّة إلهيّة ، ولذلك يبقى الالتحاق بمدرسة النبي (صلّى الله عليه وآله) مركبه مستمرا مدى الحياة. تنتشر رسالته وتتوسع أمته بين الناس.

(**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

من هم الآخرون الذين يتوقّع التحاقهم بركب الرسالة؟

قالوا : إنّهم سائر العرب الذين آمنوا من بعد. وجاء في حديث مستفيض مأثور

عن رســول الله أنّهم قــوم ســلمان الفارسي .. الحــديث يقول : عن أبي هريرة قال : كنّا جلوسا عند النـبي (صـلّى الله عليه وآله) إذا نزلت عليه سـورة الجمعة ، فلمّا قـرأ : «**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ**» قال رجل : من هؤلاء يا رسول اللـه؟ فلم يراجعه النـبي (صـلّى الله عليه وآلـه) حـتى سـأله مـرّة أو مـرتين أو ثلاثا ، قـال : وفينا سـلمان الفارسي ، قال : فوضع النبي (صلّى الله عليه وآلـه) يـده على سـلمان ، ثم قـال : «**لو كـان الإيمـان عند الثريّا لناله رجال من هؤلاء**» [1]

وجـاء في حـديث آخر عن الرسـول (صـلّى الله عليه وآله) : «**إنّ في أصلاب أمـتي رجـالا ونسـاء يـدخلون الجنة بغير حساب ، ثم تلا هذه الآية**» [2]

وقد اختتمت الآية الكريمة باســــمي العزيز والحكيم لأنّ لحــاق الآخــرين بمســيرة الأمة الإســلامية ، وامتــداد الرسالة فيهم عبر الزمن ، مظهر لهذين الاسمين ، إذ يعزّ الله بهم دينه بين الأمم في سـائر الأزمـان ، وتتجلّى فيهم عزّته بين النـاس ، كما أنّ من حكمته أنّه لم يجعل امتـداد المؤمنين برسالته في المجتمع المعاصر للرسـول وحسب ، إنّما جعله عبر الأجيال والأزمان أيضا ليبقى مشعل الحق يحمله اللاحقون بعد السابقين ، تتوسع بهم الأمّة وتسـتمر مسيرتها.

ومن تجلّيـــات اسم الحكمة لربنا العزيز أنّه لم يخص الجيل المعاصر للرسول بفضل الإسـلام بل جعل الآخـرين شركاءهم في الفضل بقدر درجـاتهم الإيمانية ومسـاعيهم الحميدة ، وهو القائل : «**كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**».

[4 ـ 5] وتنتظم الآية الرابعة في هـذا السـياق لتلغي أيّ تصوّر محدود عرقي أو قومي للرسالة بأنّها تخص أهل مكة أو العرب فقط ، مؤكّدة بأنّ الهداية إلى الحق

---

(1) القرطبي / ج 18 ص 92

(2) المصدر / ص 93

مكرمة إلهيّة يهبها الباري لمن يشاء من خلقه.

(**ذلِكَ فَضْلُ اللهِ**)

أمّا اللغة واللون والحسب وسائر الصفات والمقاييس المادية فليست فضلا بـــذاتها حـــتى يفتخر العـــربي على العجمي ، أو الأبيض على الأســـــود ، أو ذي القرابة على البعيد ، كلّا .. وحيث يختص هذا الفضل بالله عزّ وجل وهو صـاحب الخـيرة الـذي لا يسـأل عمّا يفعل فليس لأحد أن يـدّعي اختصاصه به من دون النـاس ، كما صـنعت اليهـود والنصارى ، واختلقت لذلك ألوانا من الفلسفات الشـركية التي تصوّر الله مغلولا أو رهن إرادات خلقه ، سبحانه عمّا يصف المشركون.

(**يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**)

في إنقـاذ النـاس من الجاهلية والضـلال المـبين إلى نعمة الطهـــارة والعلم والهـــدى ، وليس ما زعمها البعض في تحليله للتغيّر الحضـاري الـذي حـدث في تـاريخ شـبه الجزيـرة بأنّه راجع إلى حالة من التكامل الطـبيعي الـذي يقع عند الأمم ، كلّا .. بل هو فضل إلهي ، وينفي قوله : «**يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ**» أنّ التاريخ ليس بالضرورة في مسيرة هابطة ، كما زعم البعض اعتقـــــادا منهم أنّ الجيل الأوّل يكون أبدا أفضل الأجيـال ، كلّا .. إنّ ربّنا ذو فضل عظيم ، فـــأيّ جيل في أيّ عصر وفي أيّ بقعة اتجه إلى الله عمّه الله بفضله الكبير.

وهذه الآية من جهة أخـرى مـدخل لانعطـاف السـياق نحو الحـديث عن اليهـود ، الـذين زعمـوا بـأنّ فضل الله (رســالته ورســله) خــاص بهم ، ولم يتحمّلــوا مســئولية الرسالة ، إنّما راحـوا يتشـبثون بالقشـور ، وجعلـوا مجـرّد اختيار الله لهم لرسالته فضل ،

يفتخرون به ، ويتهرّبون باسمه من الالـتزام بمسـؤوليّاتهم .. بلى. إنّ رســالة الله فضل عظيم ، ولكنّ أحــدا لا يبلغ الفضـيلة والكرامة بها إلّا بالعمل وتحمّل المسـؤولية ، أمّا أن يكتفي العــرب بمجــرد أنّ الرســول كــان منهم ، وأنّ الآيــات تــنزّلت بينهم ، فإنّه أمر خطــير ينتهي بهم إلى ما انتهى إليه اليهود من قبلهم فصاروا كما وصف الله تعـالى :

(**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَـلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً**)

تحتــوي العلم ولكنّه لا ينتفع بها شــيئا ، وفي هــذا التشــبيه دقة بالغة ، فــإنّ حمل الرســالة ليس باقتنــاء نصوصــها في الجيب ورفــوف المكتبة أو بجمعها وحملها على الرأس والكتف ، كلّا .. وإلّا فالحمار أقــدر على حمل عــدد أكــثر ووزن أكــبر من أســفار الرســالة ، إنما حمل الرســالة بتطبيقها والالــتزام بها في الحيــاة ، لأنّها قيم وليست مادة. ولعل المثل موجّه إلى علماء السـوء الـذين لم يرعوا أمانة العلم والـدين ، بل اسـتغلّوها في الوصـول إلى المصالح الشخصية والشـهوات ، لأنّهم أبـرز مصـاديق المحمّلين لمسـؤولية الرسـالة ، وليس من أحد يشك في أنّ الانحراف الذي وصل إليه اليهود ، ولا زالـوا مرتكسـين فيه ، كـان بسـبب أدعيـاء العلم والـدين. أو ليسـوا اليـوم يحاربون الإسلام باسم التـوراة؟ أو ليسـوا ينتهكـون حرمة المسجد الأقصى باسم الدين وبفتـاوى الأحبـار؟ أو ليسـوا يمارســون الظلم والإرهــاب ضد النــاس؟ بلى. فليست التوراة إذن هي التي تملي عليهم ذلك ، لأنّها رسالة الله ـ رسـالة الألفة والمحبّة والسـلام ــ. إنّ الله كـرّم الإنسـان على كثير ممّن خلق وفضّـله تفضـيلا ، ولكن بـأيّ شـيء؟ هل بضخامة جسـده وقوته الماديـة؟ كلّا .. فـإنّ كثـيرا من الأحياء أقـوى منه جسـدا وأكـبر ، ولكن إنّما كرامة الآدمي بالعقل وباتبـاع رسـالات الله ، فما ذا بقي لـدعاة التـوراة وهم يخالفون هدى العقل ، ويكـذّبون رسـالة الله ، سـوى أن يشبّهوا

بالحمار؟

(**بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ**)

وحيث أنّها النهج الذي يقود الإنسان إلى الصلاح وقيم الخير (الهدى) فقد ضلّوا الطريق إلى ذلك ، وتخبطوا في الضلال والظلم ، وقد نظّم الشعراء في هذا المثال شعرا لعلّ أطرافه قول بعضهم :

إنّ الرواة على جهل بما حملوا	مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له	ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

(**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

لما ذا اعتبر هؤلاء من الظالمين؟ يبدو أنّ السبب أنّ مثل هؤلاء ـ تجّار الدّين وأدعياء العلم ـ إنّما يتركون تطبيق روح الآيات ، ويكذّبونها ، ويحرفونها عن مواضعها ، ليحصلوا على دراهم معدودات من المترفين والمستكبرين ، فيلحقون بهم عند الله ، ويعتبرون من الظالمين. ولأنّ الله لا يهدي الظالمين فإنّهم يخرجون من إطار العلماء بالله ، ولا يمكن أن يكونوا سفراء بين الله وعباده المؤمنين ، ولا تكون آراؤهم حجّة شرعية ، لأنّها تنبعث من وساوس الشيطان وليس من وحي الرحمن ، ومن هنا لا يعتبر الشرع المقدّس الفقيه غير العادل فقيها أبدا.

[6 ـ 7] ولقد تورّط اليهود في التكذيب والظلم بالآيات فكانوا مصداق مثل الله فيهم «**كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً**» ، ولكنّهم سعوا للاحتفاظ بعلاقة ظاهرية مع رسالة الله ليستغلّوا السذّج من الناس باسمها ، فزعموا أنّ الدّين حكرا عليهم ، وأنّهم وحدهم يمثلون الشرعية الدينية ، وأنّ من يجرأ على الكلام في

فضائحهم إنّما هو مـارق يجب قتله ، فهم من دون النـاس شـعب الله المختـار ، بيد أنّ القـرآن يضـعهم أمـام محك وجــداني ليفضح مــزاعمهم ، بامتحــانهم من خلال أعمق الصفات تجذّرا في نفوسهم ألا وهي حب الحياة والبقـاء ، (**وَلَتَجِــدَنَّهُمْ أَحْــرَصَ النَّاسِ عَلى حَيــاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**) [1]

(**قُـلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هـادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيـاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

والسؤال : هل يصلح هذا التحدي محكّاً لمعرفة صدقهم أو عدمه ، فهب أنّهم سألوا الله المـوت فهل يثبت ذلك أنّهم أولياء الله؟ ونجيب أنّ هذا التحدي يحمل على ثلاثة معاني :

الأوّل : أنّ اليهود الـذين بـاهلهم الرسـول (صـلّى الله عليه وآلــه) يومئذ كــانوا يموتــون لو تمنّــوا المــوت تلك اللحظة ، قـال رسـول الله : «**لو تمنّـوا المـوت لمـاتوا عن آخرهم**» [2].

الثاني : أنّ أوليـاء الله بصـدق يموتـون لو طلبـوا منه لقاءه بالموت لثقل دعائهم في ميزانه عزّ وجل.

الثالث : أنّ التمني هنا مقيـاس من زاويته الوجدانية ، وليس مجرد الحديث عنه ، بينما اليهود أشبعوا في قلوبهم حبّ الدنيا وحبّ البقاء بحيث لم يكن يتمنّى أحدهم الموت أبــدا ، وذلك بســبب كفــرهم بــالآخرة وعلمهم بــأنّهم لا يملكـون فيها شـيئا ، وهـذا مقيـاس يميّز أوليـاء الله عن غيرهم ، فإنّه مكتوب في التوراة :

---

(1) البقرة / 96

(2) تفسير البصائر / ج 46 ص 187

أولياء الله يتمنون الموت [1] ، وفي الخبر عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : «جـاء رجل إلى أبي ذر فقـال : يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال : لأنّكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة ، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب» [2] ، أمّا الأولياء الذين عمروا آخرتهم فهم يحبون الانتقـال إليها ، وليس اليهود كذلك.

(**وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**)

وكيف يتمنّـون المـوت وهو الجسر الموصل إلى لقـاء الله والجـزاء من عنـده وقد قـدّموا الخطايا والـذنوب؟ إنّ أعمـالهم وأفكـارهم تؤكّد فيهم حبّ الـدنيا وحبّ البقـاء ، ومن جـــانب آخر تكـــرّه لهم لقـــاء الله والآخـــرة وإذا اسـتطاعوا أن يخـدعوا النـاس بـأنّهم أوليـاء لله ويخفـوا حقيقتهم عنهم فإنّهم لن يخدعوا الله أبدا.

(**وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**)

وإذا كـانت هـذه الصـفة تصـدق في سـائر اليهـود المنحـرفين عن التـوراة فإنّها أصـدق في أحبـارهم الـذين كانوا متشبثين بحياة. أيّة حياة ، في مقابل أيّ ثمن؟! حياة الـذل والتبعية والمهانة ، وبثمن فقـدان دينهم وعـزّتهم ، وربما راحتهم. وأعوذ بالله عند ما يصبح العالم جبانا ، فإنّه لا يجعل نفسه فقط تابعا ذليلا للجبّـارين ، بل وأيضا يجعل من أتباعه مجموعة ذليلة وخاضـعة لكـلّ حـاكم ظـالم ، ويرسم خطّا انهزاميّا تبريريّا في واقع المجتمع بما يبثّه من أفكار سلبية وبما يحرّفه من نصوص دينية.

وهذه السنة جرت في علمـاء اليهـود والنصـارى وفي بعض علماء المسلمين الذين

---

(1) تفسير القمي / ج 2 عند الآية

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 324

ما زالــوا متســكّين على أبــواب الملــوك ســرا وعلنا ، يوقّعون على جرائمهم بكلّ الأصـابع ، ويكيلـون لهم سـيل الفتـاوى الكاذبة أنّى شـاؤوا ، ويـزوّرون إرادة الجمـاهير ، ويحرّفـون نصـوص الـدين. إنّهم بحق قطّـاع طريق الله ، كما جـاء في حـديث قدسي ، وإنّ خطـرهم على الإسـلام أشــدّ من خطر ألف ســيف وألف بندقية ، «**هُمُ الْعَــدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قـاتَلَهُمُ اللـهُ أَنَّى يُؤْفَكُـونَ**». وليعلم هـؤلاء أنّهم مهما خدعوا النـاس أو أنفسـهم فـإنّ الله عليم بهم ، وســيقدّمهم للحســاب حسب علمه ســبحانه لا حسب خـــداعهم أو التباســـهم ، وســـيلقيهم في الجحيم وهم مهانون.

[8] (**قُــلْ إِنَّ الْمَــوْتَ الَّذِي تَفِــرُّونَ مِنْـهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ**)

وفي الخبر خطب أمير المؤمـنين علي بن أبي طـالب (عليه السـلام) النـاس فقـال : «**أيّها الناس! كـلّ امـرء لاق في فـراره ما منه يفـرّ ، والأجل مسـاق النفس إليه ، والهرب منه موافاته**» [1] ، وقال الصـادق (عليه السـلام) : «**تعـدّ السـنين ، ثم تعد الشـهور ، ثم تعد الأيّام ، ثم تعد الساعات ، ثم يعد النفس ، فـإذا جـاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**» [2].

وهكـذا الإنسـان وكـلّ حيّ لعلى موعد مع المـوت ، وإنّما العمر مطية تحثّ بنا الخطى نحو ميعادنا المصيري ، وإنّ كـلّ لحظة تمــرّ بنا لهي تنتقص من أجلنا بقــدرها ، فعلينا ألّا نحسب تقـادم الأيّـام طـولا في أعمارنا ، فنقـول مثلا فلان طويل العمر عمــره ســبعون عاما أو ثمــانون ، وإنّما الحقيقة أنّه انتقص من عمــره هــذا القــدر. ثم هل ينتهي بالبشر المطــاف عند المــوت حــتى يطلق لنفسه العنان ، ويسير في الحياة حيث يريد؟! إنّما الموت قنطرة إلى الحساب والجزاء ، والمحاسب هو الله الذي لا يخفى

(1) تفسير القمي / ج 2 عند الآية
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 324

عليه شــيء ، أمّا الحيــاة الــدنيا فإنّها ليست حيــاة اللهو واللعب ، إنّما هي عرصة المسـؤولية والالـتزام أمـام الله بما يأمر به وينهى عنه.

(**ثُمَّ تُـرَدُّونَ إِلى عـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

وحريّ بالإنسان الذي يواجه تحدّي الزمن والمـوت أن يتســلّح بالإيمــان والعمل ، لأنّهما الطريق الوحيد لانتهــاز فرصة العمر ، وإذا كــان البشر عــاجزا عن الفــرار من المــوت فهو لا ريب قــادر على اختيــار العاقبة الحســنى بالعمل الصالح ، الذي هو سـفينة النجـاة والمـيزان الأوحد عند الله ، لا الحسب والنسب أو الانتماء الظاهر.

[9] وهكـذا مهّد الله ـ بالآية السـابقة ـ للحـديث عن الجمعة واعتبارها عيــــدا للأمة ، ويؤكّد اســــتقلالها في شـعائرها بالإضـافة إلى اسـتقلالها في رسـالتها عن الأمم الأخرى ، كالنصارى واليهود الـذين لهم رسـالتهم (التـوراة والإنجيل) وعيدهم (السبت والأحـد) [1] ، ويعطي القـرآن في هذه السـورة صـلاة الجمعة ويومها الموقع والمفهـوم الحقيقي في منهج الإســــلام ، فالجمعة على الصــــعيد الخــارجي رمز الاســتقلال ، وعلى الصـعيد الــداخلي رمز الوحدة والائتلاف.

ومن هذه الحيثيّات وأخرى غيرها تأتي الــدعوة الإلهيّة بالسعي لصلاة الجمعة وترك كلّ ما سواها لهــوا أو بيعا أو ما أشــبه من شـؤون الــدنيا ، وهكـذا أصـبح السـعي إلى الجمعة لــدى بعض المســلمين (مــذاهب وعلمــاء) أمــرا مفروضا بإجمــاع الأمة عند تــوافر شــروطها ، وجــاء في كتـاب من لا يحضـره الفقيه مـروي : إنّه كـان بالمدينة إذا أذّن المؤذّن يوم الجمعة نادى مناد حرم البيع ، لقــول الله : «آية الجمعة» [2]. وقال

---

(1) وهناك إشارات لهذه الفكرة في الأخبـار : قـال رسـول الله (ص) : «كيف أنتم إذا تهيّأ أحدكم الجمعة عشيّة الخميس كما تهيّأ اليهود عشية الجمعة لسبتهم؟» تفسير البصائر / ج 46 ص 345

(2) نقله نور الثقلين / ج 5 ص 325

الإمـام البـاقر (عليه السـلام) يصف اهتمـام الرعيل الأوّل من المسلمين بالجمعة : «**والله لقد بلغني أنّ أصـحاب النبي** (صـلّى الله عليه وآلـه) **كـانوا يتجهّـزون للجمعة يوم الخميس**» [1] ، وعن جـابر بن عبد الله قـال : أقبل عير (جمال محمّلـة) ونحن نصـلّي مع رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) فـانفضّ النـاس إليها فما بقي غـير اثـنى عشر رجلا أنا فيهم ، فـنزلت الآية : «11»ـ [2] ، وقــال الحسن أبو مالك : أصــاب أهل المدينة جــوع وغلاء ســعر فقــدم دحية بن خليفة بتجـارة زيت من الشــام ، والنــبي (صــلّى الله عليه وآلــه) يخطب يــوم الجمعة ، فلمّا رأوه قـاموا إليه بـالبقيع خشـية أن يسـبقوا إليه ، فلم يبق مع النبي (صلّى الله عليه وآله) إلّا رهط ، فنزلت الآية ، فقال (صـلّى الله عليه وآلـه) : «**والـذي نفسي بيـده لو أنّه تتـابعتم حـتى لا يبقى أحد منكم لسـال بكم الـوادي نارا**» [3].

إلّا أنّ كثيرا من فقهـاء الإسـلام اعتـبروا وجـود الحكم الإسـلامي والإمـام العـادل شـرطا لإقامة صـلاة الجمعة ، ولعــــــلّ ذلك مرتكز على كونها من الشــــــعائر الدينية السياسية الـتي ينبغي أن لا ينتفع منها الظلمة في تضـليل الناس وتمكين أنفسـهم ، فهي من أهم وأبـرز المناسـبات الـتي يجتمع فيها المسـلمون ممّا يسـمح للطغـاة اتخاذها منبرا جماهيريا لتضـليل المجتمع ، ونحن نقـرأ في التـاريخ كيف أصبحت خطبها مركـزا لحـرب أوليـاء الله ، كما فعل ذلك الحزب الأموي تجاه الإمـام علي وأهل الـبيت (عليهم السلام) ، كما ترى اليوم كيف حوّل علماء السوء خطبـتي الجمعة بوقا من أبواق الطغـاة إلى حـدّ صـاروا يتسـلّمون خطبهم من الحكومات نفسها ، ويستلمون لذلك الأجر.

---

(1) المصدر / نقلا عن الكافي
(2) المصدر
(3) المصدر

وهكذا جاء في الحديث المأثور في كتاب الدعائم عن علي (عليه الســلام) أنّه قــال : «**لا يصــلح الحكم ولا الحدود ولا الجمعة إلّا للإمـام أو من يقيمه الإمـام**» [1].

وهكـذا روى سـماعة في موثّقة عن الإمـام الصـادق (عليه السلام) قـال : سـألت أبا عبد الله عن الصـلاة يـوم الجمعة ، فقال : أمّا مع الإمام فركعتـان ، وأمّا من يصـلي وحده فهي أربع ركعات ، وإن صلّوا جماعة [2]

وفي خبر مأثور عن الإمام الرضا (عليه السـلام) قـال : «فــإن قــال : فلم صــارت الصــلاة الجمعة إذا كــان مع الإمام ركعتين ، وإذا كان بغير إمام ركعـتين ركعـتين؟ قيل لعلل شــتى ، منها : إنّ الإنســان يتخطّى إلى الجمعة من بعد ، فأحبّ الله عـزّ وجـلّ أن يخفّف عنهم لموضع التعب الـذي صـاروا إليه ، ومنها : إنّ الامـام يحبسـهم للخطب ، وهم منتظرون للصلاة ، ومن انتظر الصلاة فهو في صلاته في حكم التمام ، ومنها : إنّ الصلاة مع الإمــام أتم وأكمل لعلمه وفقهه وعدله وفضـــــــله ، ومنها : إنّ الجمعة عيد وصلاة العيد ركعتـان ، ولم تقصر لمكـان الخطبـتين. فـإن قـال : فلم جعل الخطبـة؟ قيل : لأنّ الجمعة مشـهد عـام فأراد أن يكون للإمام سبب إلى موعظتهم ، وترغيبهم في الطاعة ، وترهيبهم من المعصـية ، وتـوفيقهم على ما أراد من مصـلحة دينهم ودنيـاهم ، ويخــبرهم بما ورد عليه من الأمان من الأهوال التي لهم فيها المضرة والمنفعـة. فـإن قال : فلم يجعل الخطبتين؟ قيل : لأن يكون واحدة للثنـاء والتمجيد والتقديس لله تعالى ، والأخرى للحوائج والإعذار والإنـذار والـدعاء وما يريد أن يعلّمهم من أمـره ونهيه وما فيه الصلاح والفساد» [3].

---

(1) موسوعة جواهر الكلام ج 11 ص 158 الطبعة الثانية
(2) المصدر / ص 160
(3) المصدر / ص 165

وهكـــذا نقل العلّامة الشـــيخ حسن النجفي إجمـــاع الطائفة على اشـتراط الإمـام العـادل (الحـاكم) حـتى بلغ أربعين شهادة على هذا الإجماع [1] ، منها : قول الكركي : يشـرك لوجـوب الجمعة السـلطان العـادل وهو الإمـام أو نائبه عموما أو في الجمعة. بإجماعنا [2].

ولكنّ السؤال : هل هذا الإجماع يـدل على أنّ شـرط وجوب الجمعة وجود إمام عادل أنّى كان أم إمام معصـوم من أهل الــبيت (عليهم السـلام) خصوصـا؟ يبــدو لي أنّ القضـية تتصل بموضـوع الولاية العامة للفقهـاء العـدول ، فمن رأى أنّهم امتداد لحكم المعصـومين (عليهم السـلام) ينوبون عنهم نيابة عامة ، وأنّ عليهم تطـبيق كـلّ واجبـات الشريعة من إقامة الحدود ، وفرض الجهاد والزكاة ، و. و. ، والظـــاهر أنّ الجمعة ليست أعظم من اقامة الحـــدود ، والدفاع عن حرمات المسلمين ، فهي الأخرى من شـؤون وليّ الفقيه الحاكم ، امّا الـذين لا يتصـورون إقامة حكومة إسلامية في غيبة الإمام المعصوم فـإنّهم لا يـرون الجمعة فيها أيضا لأنّهم في الأغلب يشـــترطون إذن الإمـــام فيها ، ويعتبرونها من شؤونه كالحدود والقصاص والجهاد.

بلى. مســوّغ أغلب الفقهــاء اختيــار الجمعة بالمجتهد العادل أو حـتى بإمـام جماعة عـادل في ظـروف الحرية ، ومع عدم وجـود حكومة إسـلامية عادلة ، من هنا قـال في المعتبر :

السلطان العادل أو نائبه شرط وجــوب الجمعة ، وهو قول علمائنـا. وقـال أبو حنيفة : يشـترط وجـود إمـام وإن كان جائرا. وقال الشافعي : لا يشترط. وردّه بأنّ معتمـدنا فعل النبي فإنّه كـان يعيّن لإمامة الجمعة ــ وكـذا الخلفـاء بعده ـ كما يعيّن للقضاء ، وكما لا يصح للإنسـان أن ينصب نفسه قاضيا من دون إذن الإمام كذا

---

(1) راجع المصدر / ص 156
(2) المصدر / ص 154

إمامة الجمعـة. ثم قـال : وهل للفقهـاء المؤمـنين ــ حـال الغيبة ـ والتمكّن من الاجتماع والخطبـتين صـلاة الجمعـة؟ أطبق علماؤنا على عدم الوجوب ، واختلفوا في استحباب إقامتها فالمشهور ذلك [1].

ويـوم الجمعة يـوم عيد للمسـلمين وهو سـيّد الأيـام ، وليلتها ليلة عبادة وتهجّد ، ويندب فيها المزيد من الابتهـال إلى الله ، والانشغال بالمستحبات ، وزيـارة القبـور لتـذكر الموتى والتحريم عليهم والإعتبار بصيرهم ، وبالذات قبـور أئمة الهدى (عليهم السلام) ومرقد سيد الشـهداء أبي عبد الله الحسـين (عليه السـلام) ، وتجديد العهد مع الرسـول وآل بيته والإمـام الحجة (عليهم السـلام) بالاسـتقامة على خطّ الرسالة.

كما ينبغي صــلة الأرحــام ، والتوجّه إلى المســاكين ، والتزاور مع الإخوان ، في هذا اليوم الشريف.

كما ينبغي محاسـبة الـذات لتجديد العـزم على متابعة الخطط السليمة ومقاومة الانحرافات والضلالات.

وعموما فــإنّ يــوم الجمعة ليس يــوم اللعب واللهو والانشـغال بالتوافه ، وإنّما هي فرصة المؤمــنين للتفـرّغ للعبادة وذكر الله بخير الأعمـال يومئذ حيث صـلاة الجمعة المتميّـزة بفروضـها وخطبتها ومظهرها الاجتمـاعي. وهـذا نداء الله ودعوته للالتزام بها وإقامتها إذ يقول :

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذا نُـودِيَ لِلصَّـلاةِ مِنْ يَـوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**)

---

(1) المصدر / ص 153

فكلّ مؤمن إذن مكلّف بالامتثال لهـذا الأمر الإلهي ما لم يمنعه مانع مشروع عند الله ، وحيث يدعو الله للصـلاة جمعة كلّ أسبوع فـإنّ هـذه الفريضة تبقى مقياسا لوحـدة الأمة ومصـداقية إيمانها بنسـبة التفاعل مع هـذا التكليف الربّاني الحكيم.

وإذا ينادي الـوحي المؤمـنين بالسـعي للفضـيلة وذكر الله ـ سعيا بـالروح قبل الجسد ـ فلا بد لنا أن نتحـرّر من شتى الأصر والقيـود الـتي تثقلنا وتشـدّنا إلى الأرض أوّلا ، أنّى كـانت مادية أو معنوية ، وهـذه الفكـرة تفسـير لنا العلاقة بين الدعوة للسعي إلى ذكر الله وبين الأمر بـترك سائر شؤون الدنيا كالبيع وقت صلاة الجمعة.

وقد أفـتى كثـير من فقهـاء المسـلمين بحرمة الـبيع حينها ، بل قـال بعضـهم ببطلان العقد أساسا إذا صـارت الجمعة واجبة لازمة بتـوافر شـروطها ، قـال المحقّق في الشرائع : إن باع (عند النداء) أثم وكان البيع صـحيحا على الأظهـر. ثم قـال العلّامة الشـيخ حسن النجفي عن هـذا الحكم : الأشهر بل هو المشهور نقلا وتحصيلا [1].

ولعلّ الإنسـان يتحسس للوهلة الأولى الـذي يقع فيها فكره على هذا الحكم الإلهي أنّه يخـالف مصـالحه ، ولكنّه إذا ما درسه من أبعـــــاده المختلفة ، وارتقى درجة في الـوعي بحقـائق الحيـاة ، وجـده منطويا على خـير الـدنيا والآخرة بالنسبة له ، كما وصف القرآن :

(**ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

ومن ذلك الخير وحـدة المجتمع المسـلم ، وما يتلقّـاه من الوعي والهدى في شؤون الدين والدنيا حيث خطبـتي الصلاة ، وكذلك التوفيقات الإلهية التي يختص بها

---

(1) الجواهر / ج 11 ص 306

المصلين المستجيبين لدعوته. وهذه بعض الأخبار التي تبيّن جانبا من فضائل الجمعة :

قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «**أفّ لرجل لا يفرّغ نفسه في كلّ جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه**» [1].

وقال (صلّى الله عليه وآله) : «**إنّ لكم في كلّ جمعة حجة وعمرة ، فالحجة الهجرة إلى الجمعة ، والعمرة انتظار العصر بعد الجمعة**» [2].

وقال الإمام الباقر (عليه السلام) : «**إذا كان يوم الجمعة نزل الملائكة المقرّبون معهم قراطيس من فضة وأقلام من ذهب ، فيجلسون على أبواب المسجد على كراسي من نور ، فيكتبون الناس على منازلهم الأوّل والثاني حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ولا يهبطون في شيء من الأيّام إلّا في يوم الجمعة**» [3].

وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : «**ما من قدم سعت إلى الجمعة إلّا حرّم الله جسده على النار (وقال) : من صلّى معهم في الصفّ الأوّل فكأنّما صلى مع رسول الله** (صلّى الله عليه وآله) **في الصفّ الأوّل**» [4] وقال (عليه السلام) : «**وإنّكم تتسابقون إلى الجنة على قدر سبقكم إلى الجمعة ، وإنّ أبواب السماء لتفتح بصعود أعمال العباد**» [5]

[10] ولأنّ الإسلام جاء منهجا كاملا وشاملا لأبعاد الحياة الإنسانية جعله

---

(1) تفسير البصائر / ج 46 ص 343
(2) المصدر / ص 346
(3) المصدر / ص 343
(4) المصدر / ص 346
(5) المصدر / 344

الله متوازنا في أصـوله وأحكامه بحيث لا يتضـخم بسـببه جـانب في حيـاة الإنسـان على حسـاب جـانب آخر ، فهو منهج الدنيا والآخرة ، والدين والسياسة ، والـروح والجسد ، وحيث تتكامل شخصية الإنسـان بالوصـول إلى المصـالح المشـروعة من جـانب وبـالتزام الواجبـات المفروضة من جـانب آخر فقد دعـاه الـدين إلى مصـالحه جنبا إلى جنب دعوته للالـــتزام بواجباته ، ولم يجعل فروضه بـــديلا عمّا يطمح إليه النـاس من المصـالح والتطلعـات ، ولـذا نجد القـرآن فـور ما يـأمر بالسـعي إلى صـلاة الجمعة يـأمر بالانتشـــار لممارسة الحيـــاة الطبيعية وبلـــوغ المـــآرب والأهـــداف ، والحصـــول على الـــرزق ولقمة العيش. وإنّ الدعوة للصلاة يوم الجمعة وتحريم البيع حينها هي منهجية لتأسيس انتشـار الإنسـان المـؤمن لابتغـاء فضل الله على هدى القيم والإيمان.

(**فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**)

كلّ إلى مقصـده. وهـذه الـدعوة المنطوية على الأمر بالسـعي لشـؤون الـدنيا تهـدينا إلى أنّ الصـلاة والعبـادة ليست بـــديلا عن ممارسة الحيـــاة الطبيعية والاجتماعية ، كما فهمها بعض المتصوّفة ، فالدين منهج لتوجيه الإنسـان وقيـادة الحيـاة ، يجد النـاس فيه فرصة للعبـادة ومنهجا للسعي والعمل ، وقد قال الإمـام الصـادق (عليه السـلام) يفسّـــر هـــذه الآية : «إنّي لأركب في الحاجة الـــتي كفاها الله. ما أركب فيها إلّا التمـاس أن يـراني الله أضـحى في طلب الحلال. أما تسمع قول الله عـزّ اسـمه : الآية أرأيت لو أنّ رجلا دخل بيتا وطيّن عليه بابه ثم قال : رزقي ينزل علي أكان يكون هذا؟ أما إنه أحد الثلاثة الذين لا يسـتجاب لهم ، قال الراوي قلت من هؤلاء؟ قال : ... والرجل يكون عنده الشـيء فيجلس في بيته فلا ينتشر ، ولا يطلب ، ولا يلتمس حتى يأكله ، ثم يدعو فلا يستجاب لـه» [1] بلى. إنّ فضل الله ورزقه ينال بالسعي والعمل الحـثيث من أجله ، لذلك يقول تعالى بعد الدعوة للانتشار :

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 327

(**وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ**)

أي أنّكم حينئذ في موضع يـرتجى فيه الفضل والـرزق أو تجــدون أنفســكم أمــام فضل من الله تصــيبون منه رزقكم.

(**وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)

وأهمية الاسـتمرار في ذكر الله للإنسـان حيث ينتشر في الأرض ويبتغي من فضل الله أنّه يجنّبه الانحـــــــراف والوقوع في الأخطاء بسبب نسيان الله ، فإنّ ذاكر الله لا يسعى نحو الحرام ، ولا يسلك الطرق الملتوية ، ولا يغشّ الناس ويضرّهم ، فهو يرتجى له الصلاح والفلاح.

ومن اللطائف الواردة في هذه الآية أنّه تعـالى قـال : (**فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ**) ببناء الفعل للمجهول بينما يفـترض أن يقــول : فــإذا قضــيتم الصــلاة ، وصلا بخطابه الآنف للمؤمنين ، إلّا أنّ هذه الصـيغة للفعل تعطي حرمة لـوقت الصلاة بالذات ، بحيث يكون المفهوم أنّ البيع وقت صـلاة الجمعة المستوفية شـروطها حـرام لمن شـهد الصـلاة مع المســلمين ولمن لم يشــهدها عمــدا ، ولو جــاء التعبــير للمعلــوم : فــإذا قضــيتم الصــلاة لكــان الحكم منحصــرا للمصلين فقط ولا يشمل غير المصلين.

[11] وبعد أن يرسم الــــوحي للمؤمــــنين الموقف المطلـوب تجـاه صـلاة الجمعة ـ وهو السـعي لـذكر الله وتـرك الـبيع وقتها ـ ينثـني السـياق القـرآني لنقد ظـاهرة الانفضاض إلى شؤون الـدنيا وتقـديمها على الصـلاة ، ممّا يشــير إلى وجــود ضــعف في الإيمــان لــدى المجتمع ، وانخفاض في مستوى التفاعل مع شعائر الدين وبرامجه.

(**وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْـواً انْفَضُّـوا إِلَيْها وَتَرَكُـوكَ قائِماً**)

خوف أن يفوتهم ذلك أو يسبقهم الآخرون إليه ، وهذه الظـاهرة تنطـوي على هزيمة أمـام جمـوح النفس وميلها العظيم للدنيا ، ممّا يكشف عن ضعف الإيمان الذي يريده الإسـلام مقـدّما وما يتصل به على كـلّ شـيء في حيـاة أبنائه. وقد استفاد الفقهـاء والمفسـرون حكما باسـتحباب الوقـوف أثنـاء خطبـتي الجمعة من هـذه الآية إذ وصـفت الرسـول قائما بعد الانفضـاض. وعن أبي بصـير أنّه سـئل عن الجمعة : كيف يخطب الإمـــام؟ قـــال : يخطب قائما فإنّ الله يقول : (**وَتَرَكُوكَ قائِماً**) [1].

ويعـالج القـرآن هـذه الظـاهرة السـلبية الـتي تنمّ عن ترجيح التجارة واللهو على حضور الصلاة ببيــان أنّ ما عند الله الذي يتـأتّى بـالتزام مناهجه خـير من ذلك كلّـه. والآية نفسها فضح للاعتقـاد بالتنـاقض بين الالـتزام بالـدين وبين الـــدنيا ، والـــذي يقع فيه البعض عمليّا فلا يـــرون إمكانية الجمع بين الإثـــنين فـــيرجّحون الـــدنيا باعتبارها الأجر المقبوض على الآخرة المؤجّلة. والحقيقة أنّ خير الالـتزام بمناهج الله في الحيـاة ليس مقتصـرا على الآخـرة فقط ، بل يشمل الدنيا أيضا.

(**قُـلْ ما عِنْـدَ اللـهِ خَيْـرٌ مِنَ اللهْـوِ وَمِنَ التِّجـارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**)

فالـــذي يريد كـلّ الخـــير معنويّا وماديّا ، وفي الــدنيا والآخـرة «ما عند اللـه» فـإنّ سـبيله اتبـاع نهجه القـويم ، وأيّ خير في تجارة لا تقوم على هدى الوحي وتقوى الله؟ إنّها تـزرع الطبقية المقيتة ، والفقر ، وتسـبّب الانحطـاط في الإقتصاد.

وفي تـــرتيب كلمـــات الآية الكريمة ملاحظة جـــديرة بالالتفـــات ، ففي البداية عند ما أراد الله بيـــان ظـــاهرة الانفضاض عن الصـلاة قـدّم التجـارة ـ وهي الأهم ـ على اللهو ، وذلك ليبيّن مـدى تـرجيح البعض لأمـور الـدنيا على شؤون الدين ، فهم ليس

---

(1) المصدر / ص 330

تستخفهم التجارة وحسب بل يتأثّرون بما هو أبسط وأقـلّ شأنا منها وهو اللهـو. وحيث أراد التأكيد على أنّ ما عنـده أفضل ممّا ينفضّ له الناس قدّم الأدنى على الأهم تدرّجا ، فما عند الله ليس خـيرا من اللهو بل حـتى ممّا هو فوقه كالتجارة.

بلى. إنّ البعض ومنهم التجّـار لا يلـتزمون بالشـعائر الدينية خشية الخسارة أو أن تفـوتهم أرزاقهم ، ولكنّ الله يؤكّد لهم العكس وهو أنّ الصـلاة وبالـذات صـلاة الجمعة تجلب الـرزق ، باعتبارها صـلة الإنسـان بضـامن الـرزق ومعطيها ، بل بخير الرازقين.

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

قــال رســول الله ــ صــلى الله عليه وآله ــ : «**من قرأها برىء من الشرك والنفاق في الدّين**».

ثواب الأعمال وعقابها / ص 210

الإطار العام

في هذه السورة يفضح الوحي خطّ النفاق في الأمّة ، وذلك ببيـان معـالم مسـيرتهم ، حيث التكلّف في إظهـار الإيمـان والطاعة للقيـادة الرسـالية ، والعيش بـوجهين وشخصيتين : إحـداهما التظـاهر بالإيمـان المؤكّد بالإيمـان والاهتمام بالمظاهر الدينية والمظاهر المختلفة ، والأخـرى الكفر العملي المبطّن ، فهم يستنكفون الاعتراف بالقيادة والذهاب إليها لتستغفر لهم ، وهكذا يصدّون أنفسـهم عنها لإضـعاف مركزها بشـتى الطـرق والأسـاليب ، ومن بينها الحـرب الاقتصـادية ضـدها لفضّ النـاس عنها وتعطيل مشـاريعها. ولكنّ الآيـات تـتركّز عند نقطة محورية هي مـوقفهم من الحيـاة الرسـالية مبـدئيّا ونفسـيّا واجتماعيّا واقتصاديّا.

ويقف السـياق في نهاية السـورة ضد هـذه الخطة الغادرة ليدفع المؤمنين نحو حركة معاكسة ومضاعفة ضد مكر المنـافقين ، بـدعوتهم لعـدم التلهّي بـالأموال والأولاد عن ذكر الله والجهاد في سبيله (كما يريد المنـافقون) لما في ذلك من عظيم الخسارة ، وبتحريضهم من جهة أخرى على سـبق الأجل بالإنفـاق من مـال الله في سـبيله ، بصـورة تضـعهم في سـياق التحـدي مع المـوت والعـدو ، سباقا معطياته (الأجل

القــادم ، والفرصة الوحيــدة القليلة ، والمصــير الحاسم ، فإمّا الانتماء للخاسرين حيث العذاب ، وإمّا الانتماء لفريق الصالحين حيث الجنة) ، وهكذا سـباق لا يـدّخر العاقل فيه جهدا ، ولا يضيع فرصة أبدا.

ونقرأ في آيـات هـذه السـورة بيانا لجـانب من ركـائز النفـاق كمخالفة القيـادة الرسـالية ، والاسـتكبار على من حولها من المستضعفين والفقـراء ، والاغـترار بما عنـدهم من الأموال ، وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : لماذا هـذا الحـديث العـريض عن النفـاق والمنـافقين في كثـير من مواضع القـرآن إلى حـدّ يخصّـص الله سـورة باسـمهم؟ والجواب كما يبدو لي لثلاثة أمور رئيسية :

الأوّل : لتحذير المؤمنين من خطر الوقوع في النفـاق ، بالذات وأنّ المؤمن أقرب للتورط في مرض النفاق منه إلى الكفر ، إذن فهو بحاجة لمعرفة حــدود هــذه المنطقة الخطــرة ، وصــفات أهلها ، وســبل تجنّب الــدخول فيها للخلاص من شرورها.

الثـاني : لتوجيه اهتمـام القيـادة الرسـالية والمجتمع الإســـلامي إلى خطر هـــذا الفريق على مســـيرة الأمة ومستقبلها.

الثالث : ثم أنّ تنوّع الحـديث عن النفـاق في القـرآن الكريم ضرورة يفرضها البحث في هذه القضية ، فالنفــاق كما أعتقد هو انهزام الإنسان أمام الحقيقة ، فلا هو يقبلها بــإخلاص ، ولا هو يردّها بصــراحة ، وهــذه الحالة تختلف باختلاف الحقائق ، فهناك نفـاق يقع فيه الـذين لا يؤمنـون بالله عـزّ وجل ، وآخر في مواجهة القيـادة الرسـالية ، بل هناك نوعه منه في مواجهة بعض التشريعات الإلهية.

وبتعبير آخر : النفـاق هو الاتجـاه المعـاكس للإيمـان ، وباعتبــار الإيمــان يمتد على مســاحة الحقــائق كلها فــان النفاق يمتد بالتضاد على المسـافة ذاتها ، وتنـاول القـرآن لموضـوع النفـاق في سـور كثـيرة يسـتهدف معالجته من جوانبه المختلفة علاجا شاملا.

سورة المنافقون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ

---

2 [جنّة] : أي وقاية ، والجنّة هي السترة المتخذة لدفع الأذية كالسلاح المتخذ لدفع الجراح ، والجنّة البستان الذي يجنّه الشجر ، والجنّة الجنون الذي يستر العقل.

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

---

5 [لوّوا رؤوسهم] : أمالوها إعراضا عن الحق ، وقيل : إكثار التحريك لها بالهزء.

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

بينات من الآيات :

[1] حينما يهـدف الحـديث عن المنـافقين فضـيحتهم تـتركز الآيـات عن علاقة هـذا الفريق بالقيـادة الرسـالية ، لأنّها أظهر شاخص يميّزهم عن غيرهم ، إذ من السهل أن يخضع الإنسـان لمجموعة من الشـعائر والتقاليد ، كصـلاة الركوع والسجود ، وصوم الجوع والعطش ، ويتقن التستر بها على نواياه الحقيقية ، ولكن من الصعب جدا أن يخضع في ســـلمه وحربه ، وفي اقتصــــاده وسياســـته ، وفي اجتماعه وأســـرته ، وفي كافّة جـــــوانب حياته اليومية ، لقيادة إلهية خضوعا دائما وشاملا دون تكلّف أو تنـاقض أو تمرّد. ثم إنّ أبرز دوافع المنافقين السعي وراء السـلطة ، وأهم استراتيجية يسعون لتحقيقها هي الوصول إلى مركز القيــادة في الأمة الإسـلامية ، بالتـأثير على قراراتها ، أو بالسيطرة التامة عليها ، وهم يتحركون لتحقيقها بكلّ مكر وحيلــة. ومن وســائلهم في ذلك التظــاهر بــالإخلاص لها والقرب منها بالملق والتكلف ، من هنا تراهم أكثر النــاس تظاهرا بالولاء للقيادة ، يخفون به ما تنطوي عليه قلـوبهم من

النوايا الخبيثة تجاهها ، ولا بد من اليقظة التامة لكي لا يصدّعوا جبهة الحق في الساعات الحرجة عند ما يخضون حربا أو يعيشـون حالة التحـدي أو تعيش الأمة فراغا قياديّا يشغلونه لمصلحتهم أو فراغا توجيهيّا فيحرّفون مسـيرتها ، من هنا قرعت الآيات الأولى جرس الإنذار بقوة.

(**إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ**)

فهم قد يتعنّـون قاصـدين القيـادة دون أيّة مناسـبة تستدعي تجديد الولاء والبيعة ليشـهدوا للرسـول بالقيـادة بتكلّف وملق.

(**قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ**)

وهنا ثلاثة تأكيدات لفظية : (نشهد) و(إن) ، و(اللام) ، إذ كان من الممكن أن يقولوا (إنّك رسول الله) فقط ، إلّا أنّهم أضـافوا كلمة «نشـهد» بغـرض التأكيـد. وكـلّ ذلك لا يضيف شيئا في الواقع ، بلى. لو صدرت هذه الشهادة من مؤمن صادق فهي تضيف شيئا جديـدا باعتبارها تدفعه إلى المزيد من التسـليم للقيـادة ، وتكشف عن ارتقائه في الإيمـان درجة ، وهي حالة الشـهود والحضـور عند حقيقة الرسـالة والـتي تسـتدعي البـوح بها وتحمّل مسـئولياتها وتحدي الأعداء من أجل ترسيخها.

بيد أنّ المنـافقين كـاذبون في ادعائها فلن تنفعهم شيئا.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**)

إذن فشـهادتهم لم تضف إلى الواقع شـيئا كما لم تضف إلى حياتهم شيئا جديدا.

(**وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ**)

وفي الآية ملاحظة أدبيّة رفيعة حيث لم يقل الله مباشرة : «**وَاللهُ يَشْهَدُ**) ..» ، إنّما قدّم قوله : «**وَاللهُ يَعْلَمُ**) ..» ، وذلك ليؤكّد رســـــالة نبيه بعلمه من جهة ، وليؤكّد كذب المنافقين في ادعائهم الإيمان والولاء من خلال شهادتهم بشهادته دون نفي ما شهدوا عليه. فليس الكذب هنا بمعنى مخالفة الكلام للواقع ، إذ رسالة النبي حق وهم عبروا عنها ، ولكنّ الكذب بمعنى مخالفة لازم الكلام لواقعهم وهو اعتقادهم بالرسالة وبلوغهم مستوى الشهادة عليها ، ولكن لماذا لم يقل ربنا : (والله يشهد إنّك لرسوله)؟ ربما لأن علم الله كله علم حضوري بالغ مستوى الشهادة ، بينما الشهادة عندنا كبشر تختلف عن العلم إذ لها مفهوم أوسع منه ، لأن العلم يحصل بطرق مختلفة ، أمّا الشهادة فلا تكون إلّا بالحضور والمعاينة وهو مستوى رفيع من العلم.

[2] الكذّاب يحتاط لنفسه بمبالغة لفظية يغطي بها خواء كلامه ، والدّين لا يعترف بالادعاءات والتمنّيات لأنّه دين الواقعيات والمصاديق [1] ، ولذلك يمكن فضح كل دعوى كاذبة يصطنعها المنافقون [2].

ولأنّ الكذب هو مخالفة الكلام أو الادعاء مع الحقيقة فإنّ المنافقين كاذبون ، لأنّهم لا يلتزمون بمقتضيات الولاء للقيادة والإيمان بها ، بل يخالفون شهادتهم في سلوكهم تجاه القيادة الرسالية.

(**اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

---

(1) حينما نراجع مادة (صدق والصادقين) ونقرأ الآيات التي وردت فيها هذه المفردة تتضح لنا هذه الحقيقة وهي أنّ الإسلام لا يكتفي بمجرد الادعاء بل يطالب بالمصداق ويضع كل مدّع ولو كان مؤمنا أمام المحك العملي والامتحان ، «**لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**» الأحزاب / 8

(2) هناك بحث للمؤلف حول شهادة الله تجده في كتاب الفكر الإسلامي مواجهة حضارية ص 258

والجنة هي الـترس والسـتر ، والمنـافقون يتـدرّعون بكثرة القسم والأيمان المغلظة في إظهار الإيمـان بهـدف إخفـــاء ما هم عليه من الكفر والانحـــراف ، وهـــذه من طبيعتهم في كلّ زمان ومكـان ، وليس الأيمـان منحصـرة في صـــيغ القسم المتعارفة : والله ، وبالله ، وتاللـــه) بل هي شاملة لكل ما من شأنه تأدية نفس الغـرض من كلام أو سلوك يقوم به الإنسان ليصدقه الناس وليطمئنوا إليه ، مثل رفع الشـــعارات المتطرفة والمبالغة في الاهتمـــام بالقشور ، فمثلا : نجد بعض الأنظمة العميلة للغـرب ترفع شـعارات يسـارية متطرفة لإخفـاء واقعها المنـاقض ، كما نجد بعضـها تبـالغ في بنـاء المسـاجد واتهـام الآخـرين بـالمروق من الـدين ، فيما نجد هـذا النظـام كما ذاك متورطا حتى النخاع في العمالة والخيانة والفسق.

وقد سمّى القرآن الأيمان جنّة ليس لأنّها تستر حقيقة المنافقين بل لأنّهم يتحصنون بها عن ردّات فعل المؤمنين والمجتمع التي تتوجه ضدهم لو انكشـفت لهم حقيقة هـذا الفريق الضال.

وثمّة دور خـبيث وخطـير يقـوم به المنـافقون في الخفـاء هو صد النـاس عن سـبيل الله المتمثل في القيم الرســالية ، والمتمثلة هي بـــدورها في حزبه وخطه في المجتمع ، وكلاهما يتجلّيـان في نقطة مركزية هي القيـادة الرسـالية فهي سـبيل الله [1]. ومع ما يتكلّف المنـافقون إظهاره بمختلف الإيمان من الإيمـان بها إلّا أنّهم يحاربونها ويصدون الناس عنهـا. وما شـهاداتهم وأيمـانهم المعلنة إلّا فخاخ الشيطان ، وهذه صورة لكذبهم الذي يشهده الله.

(**إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

---

(1) هناك اخبار كثيرة تفيد هذا المعـنى ، قـال الامـام ابو الحسن (ع) : «والسبيل هو الوصي» نور الثقلين / ج 5 ص 334

وتـأتي هـذه الخاتمة لتؤكّد بـأنّ المنـافقين يحسـنون صـناعة الكلام والشـعارات البرّاقة ، ويـبرعون في إظهـار الـولاء للقيـادة ، ولكن ينبغي أن لا ينخـدع المؤمنـون بهم فإنّ أعمـالهم مناقضة لأقـوالهم بالكامـل. وهاتـان الآيتـان تعطيان صـورة واضـحة للنفـاق والمنـافقين يمكن التعبـير عنها بعملة ذات وجهين : أحدهما المظهر الحسن والآخرة المخبر السيء ، أحدهما الوردة النضـرة الجميلة والآخـرة الشوكة السامّة.

ومن منهجية القرآن في نقد الأعمـال والأشـخاص أنه عند ما يــذكر عملا سـيئا (كالصد عن سـبيل اللــه) يؤكّد سـوءة حـتى لا يصـبح القـائمون به مثلا يحتـذي به ، بل أمثولة يحذر منها. ولعل كلمة «ساء» تهدي إلى أنّ أعمال المنافقين تترك آثارا سيئة في أنفسهم وفي المجتمع.

وليس بالضرورة أن يتحقّق الصد في لا وعي الناس ، بل يكون أحيانا في نتيجة الضغوط المختلفة التي يمارسها المنافقون ضدهم ، كالإرهاب البدني والفكـري والسياسي والضغط الاجتماعي والاقتصادي جنبا إلى جنب الإشـاعات المؤذية ونشر الثقافة السـلبية الـتي هي وسـائل الطغـاة والمنظمــات العميلة لتضــليل النــاس ومحاربة القيــادات الرسالية ، وإنّ أخطر فئات المنافقين على الدين والنـاس هم علمـاء السـوء. وقد أكّد أمـير المؤمـنين علي ــ عليه السـلام ــ هـذه الحقيقة لأنّهم يتلبّسـون بمظـاهر الإسـلام ليخـدعوا النـاس ، قـال ــ عليه السـلام ــ : «وإنّما أتـاكم الحـديث عن أربعة ليس لهم خـامس : رجل منـافق يظهر الإيمان ، متصـنّع بالإسـلام ، لا يتـأثّم ولا يتحـرّج أن يكـذب على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ متعمّدا ، فلو علم الناس أنّه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدق ، ولكنّهم قالوا هذا صحب رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ــ ورآه وسمع منه وأخذ عنه وهم لا يعرفون حاله ، وقد أخـبر الله تعالى عن المنافقين بما أخبره ووصفهم فقال عــزّ وجل : (**وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُـكَ أَجْسـامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُـوا تَسْـمَعْ لِقَوْلِهِمْ**) ، ثم بقوا بعدهم فتقرّبوا إلى

أئمة الضلال والدعاة إلى النار بـالزور والكـذب والبهتـان ، فولّوهم الأعمال ، وحمّلـوهم على رقـاب النـاس ، وأكلـوا بهم الدنيا ، وإنّما النـاس مع الملـوك والـدنيا إلّا من عصم الله ، فهذا أحد الأربعة» [1].

[3] ونستفيد من خاتمة الآية السابقة أنّ النفاق الذي وصل إليه هــذا الفريق لم يكن وليد لحظته ، إنّما كــان نتيجة تراكمات لسوابق أعمالهم السيئة التي لم يتطهّـروا منها حينما دخلـوا دار الإسـلام ، وهـذه الفكـرة تقودنا إلى التأمل في قوله عــزّ وجل : (**إِنَّ اللــهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**) [2] ، فلا تسـتقيم مسـيرة الإنسـان العـاكف على الخطايا في ردح من عمـره إلّا بـالتطهّر عن السوابق السيئة بالتوبة المستمرة ، لأنّ آثـار الـذنب تهـدّد بالانحراف في أيّ لحظة. لذلك يقول ربنا سبحانه :

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا**)

فهم حين اختـاروا الإيمـان ربما كـان ذلك نتيجة نفحة إلهية تعرّضوا لها ولحظة إشـراق عمّت صـدورهم وقـرّروا الإيمــان [3] ، ولكنّهم لم يكنســوا من أنفســهم رواسب الضلال السابقة فنمت من جديد إلى حدّ غيّـرت مسـارهم إلى الطريق الآخر.

(**ثُمَّ كَفَرُوا**)

وكــان ينبغي لهم أن يرســخوا الإيمــان في قلــوبهم وســلوكهم ويعمــدوا إلى التطهّر من ســوابق الضــلال ودواعيه فلم يفعلــوا فعــادوا إلى الكفر اتباعا للأهــواء والمصــالح ، أو كــان إيمــانهم إيمانا ســطحيّا دعتهم إليه الظروف والمصالح فلمّا وجدوا الفرصة

---

(1) المصدر نقلا عن أصـول الكـافي. وإنّه لجـدير بنا أن نـدرس تاريخنا وواقعنا على أضواء هذه الرواية العظيمة

(2) البقرة / 222

(3) لقد مرّت الإشارة إلى هذه الفكرة عند تفسـير الآيـتين : 17 ـ 20 من سورة البقرة فراجع

المناسبة رجعوا إلى شخصياتهم الحقيقية.
وحينما يتمــادى الإنســان في الانحــراف ويصر على الكفر يصل إلى درجة تمــوت في نفسه جــذوة الإيمــان ، وينطفئ عنها نــور الهـدى (العقل والفطـرة والإيمـان) فلا يحـدث نفسه بالهداية ولا يـرتجى له ذلـك. وهـذه المرحلة يسمّيها القرآن بالطبع.
(**فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ**)
ولكن لم يكن هذا الطبع جبرا من الله فـرض عليهم ، وإنّما كــان نتيجة اختيــارهم الحر للكفر بعد الإيمــان والتمادي فيه. ولأنّ حكمة الخلق كانت الرحمة الإلهية (**إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ**) [1] فـإنّ الله لا يطبع على قلب أحد إلّا إذا علم أنّه يستحق ذلك ، ولا يمكن أن يهتدي في المسـتقبل. والطبع في أحد وجوهه لـون من العـذاب في الدنيا بسـلب حلاوة الإيمـان والهـدى ، أمّا في الآخـرة فإنّه يؤدي إلى الخلود في العذاب الأليم.
وفي هذه الآية بيان المراحل الانحطاط الـتي يمـرّ بها المنافقون وهي ثلاث : الإيمان ، الكفر بعـده ، الطبع على القلــوب) ، كما تنطــوي على تحــذير للمؤمــنين بــأنّهم معرضون للوقوع في النفـاق عـبر تلك المراحـل. أو ليس أولئك بدأوا مؤمنين وانتهوا إلى منافقين؟ إذن فكل مؤمن يمكن أن يصـــبح منافقا في يـــوم من الأيّــام إن لم تبق أســباب إيمانه ، لأنّ الإيمــان كيــان متكامل قــائم على أســاس مجموعة من العقائد والســلوكيات والأعمــال ، والكفر هو الكيـان المنـاقض له ، فكلّما انسـحب الإنسـان خطــوة من دار الإيمــان وكيانه دخل بقــدرها دار الكفر وكيانه ، فالصـدق والأمانة والوفـاء من الإيمـان ، والكـذب والخيانة والخلف من الكفر ، والتعبــير الحسن عن هــذه الحقيقة نجــده في نصــوص الروايــات أنّ الخلق الفلاني شعبة من النفاق أو خصلة من

(1) هود / 119

خصال المنافقين ، وجاء في حديث نبوي عن رسول الله ـ صـلّى الله عليه وآله ــ قوله : «**أربع من كنّ فيه كـان منافقا خالصا ، ومن كـانت فيه خصـلة منهنّ كـانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خــان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر**» [1].

فإذا تمحّض أحد في الشر صار كافرا ، وإذا أصرّ على الشر المحض طبع على قلبه [2] ، وقد طبع على قلـوب المنـافقين بـالكفر والنفـاق إلى حـدّ لم تبق معه وسـيلة حســية ولا عقلية يهتــدون بها إلى الإيمــان والصــلاح أو يفرّقون بها بين الكفر والإسلام.

(**فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**)

أي لا يفقهــون دلالات الآيــات فيهتــدون إلى الحق ، ليس لأنّ الله يســلبهم الســمع والأبصــار والأفئــدة فهي موجـودة ولكن لا ينتفعـون بها ، كما وصـفهم الله بقوله : (**لَهُمْ قُلُـوبٌ لا يَفْقَهُـونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِـرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْـمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعـامِ بَـلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**) [3].

وإذا تعطّل العقل عند الإنسان ، وفقد الوعي والقدرة على التميـيز ، فهل يبقى منه ســوى مظهــره الخــارجي وصورته المادية؟ وما هو الفرق إذن بينه وبين الحيـوان أو الجمــاد؟! ولا عجب أن يشــبّه القــرآن المنــافقين آنئذ بالخشب المسنّدة.

[4] ويعــرض الســياق لبيــان جــانب من الصــفات اللصيقة بالشخصية المنافقة ،

---

(1) القرطبي / ج 18 ص 122

(2) وقد وردت في الروايات تحذيرات كثيرة من الاغترار بالإيمان ، قال رسول الله (ص) : «العلماء كلهم هلكى إلّا العاملون ، والعـاملون كلهم هلكى إلّا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم» تنبيه الخــواطر / ص 358

(3) الأعراف / 179

والتي يتميز بها المنافقون عن غيرهم في المجتمع ، وهي :

1 ـ المزيد من الاعتناء بالمظاهر الدينية بهـدف خـداع النــاس وإثـارة إعجــابهم ، فقد تــراهم وقد أكلت ثفنــات السجود جباههم وركبهم ، أو تسابقوا إلى حضور المسـجد والقيــام في الصــفّ الأول من الجماعة ، ويتمــاوتون في صلاتهم ، ويقصرون ثيابهم ، ويطلقــون اللحى ، ويـتراءون بسمات البطولة والشهامة .. وهكذا تلاحق عقـدة المظهر المنـافقين أينما كـانوا لإحساسـهم الملحّ بأهمية المظهر ، فهم لا يملكـــون جـــوهرا ســـليما فلا بد أن يبحثـــوا عما يسـترون به خبثهم وكفـرهم ، بالـذات وهم يعيشـون في مجتمع المسلمين.

(**وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ**)

ولعلّ الجسم أعمّ من البدن ، فهو كلّ ما يتصل بكيان الإنسان المادي.

2 ـ الكلام المنمّق ، فالمنافقون يحسـبون لكـلّ كلمة تصدر منهم حسابها ويفكرون في كلامهم قبل نطقه كثـيرا ، أولا : لكي لا يحكي ما يخبّئــون. أو ليس المــرء مخبــوء تحت لســـانه؟ أو لم يقل ربّنا ســـبحانه وتعـــالى عنهم : (**وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَـوْلِ**)؟ وثانيا : لكي يــدعموا آراءهم الباطلة التي لا رصـيد لها من حقـائق الواقع شـيئا فيعوّضون نقص الأدلة بزخـرف الكلام ، وينتقـون مفرداته واحــدة واحــدة ، ليتمكّنــوا من قلب الســامع فيضــلّونه ، فظـــــاهر كلامهم الطيب والحلاوة ولكنك إذا تطلّعت على خلفياته وما بين سطوره تجد السمّ الذعاف.

(**وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**)

والقـول كل ما يحـاكي به الإنسـان الآخـرين كـالكلام والكتابة ، وما أكثر الأفواه والأقلام المـأجورة الـتي تـرقى منابر المسلمين ، وتقبع في دوائر التثقيف والاعلام ،

تضـــلل النــــاس ، وتمكّن الطغـــاة منهم ، مســـتفيدة من الوسـائل الدعائية المتقدمة والإمكانـات الكبـيرة لتسـخير أسـماع النـاس واهتمـامهم. وما أكـثر الشـعارات البرّاقة (التقـدم .. الديمقراطية .. الرفـاه .. العـدل) الـتي يطلقها الحكـــام المنـــافقون لخــداع النـــاس ، وبالخصـــوص في المناســبات السياســية والاجتماعية العامة ، ولكنك تطلع على الخواء والسراب عند ما تواجه الواقع!

(**كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ**)

والخشب هي الأغصـــان اليابسة الـــتي لا ينتظر منها نمـــاء وثمـــرا ، ولا ينفعها تعـــديل أحد ، بلى. إنّها تنفع لو تحـوّلت سـقفا أو بابا أو وقـودا أو أيّ شـيء يسـتفيد منه الإنسان في حياته ، ولأنّ القرآن شبّه المنـافقين بالخشب قـال عنها : «مسـنّدة» لينفي أدنى دور إيجـابي لهم في المجتمع الإسلامي.

3 ـ الهزيمة النفسية أمـام الانتقـاد ، لأنّ المنـافقين لا يســتطيعون مواجهة الحقيقة الواقعية ، وموقف القيـــادة والمجتمع من شخصيتهم الاخرى ، كما أنّ دورهم الخـبيث يعتمد كلّيّا على مظهـــرهم الخـــادع ، ولو أنّهم افتضـــحوا لفشلوا في الوصول إلى مآربهم ولنبذهم النـاس. وقد أكّد العلم الجنـائي وجـود هـذه الصـفة في كـلّ مجـرم ، بل اعتبرها المحقّقـــون وعلمـــاء النفس مرتكـــزا في معرفة المجـرمين ، وأسسـوا عليها منهجا في التحقيق الجنـائي الحديث. ومضى القول : (كاد المريب أن يقول خذوني).

(**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**)

إنهم يعلمون حقيقة أنفسهم وأعمالهم السيئة ، لـذلك تراهم يهبّون للدفاع عن أنفسهم أمام أدنى اتهام أو انتقاد بصــــورة ملفتة (كما يــــدافاع المجــــرم عن نفسه في المحكمــة) بغضّ النظر إن كــان الانتقــاد ضــدهم أو ضد غـيرهم أو بصـورة عامـة. ومن طرائف ما جـاء في قضـاء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أنّه جيء له بعدّة أشخاص

مشكوك في قيامهم بجريمة ما ، فأمر بأن تعمل في الجدار فتحات بعددهم ، وأمرهم أن يضعوا رؤوسهم فيها ولا يخرجوها ، ثم صاح بصوت عال : اضرب عنقه ، فأخرج المجرم رأسه ، وافتضح أمره. وعبّر القرآن عن هذه الصفة النفسية للمنافقين في موضع آخر بقوله تعالى : (**يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ**) [1].

ولكنّ المنهجية الإسلامية في تقييم الأشخاص لا تعتمد على المظاهر وحدها حتى تمر عليها أساليب المنافقين وحيلهم ، فكيف وهي مدعومة بعلم الله المطلق وتوفيقه الدائم لأوليائه والمؤمنين به؟ لذا لا يعبأ القرآن بشهادتهم عند الرسول وأيمانهم المغلظة ، ولا بأجسامهم وأقوالهم ، إنّما ينظر إلى حقيقتهم حيث الأعمال السيئة المعادية للأمة وللقيادة الربانية ، وحيث النوايا الخبيثة المبيّتة ضد الإسلام ، وكلها صورة للعدو اللدود ، وكذلك وصفهم الله :

(**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**)

ونستلهم من هذه الكلمة بصيرتين :

الأولى : أنّ تظاهر المنافقين بالمحبّة والودّ وممارستهم للطقوس والشعائر قد يفقد المؤمنين الجرأة على اتخاذهم عدوّا ، أو يشكّكهم في كونهم من الأعداء ، وقد أشار القرآن إلى صورة من الاختلاف في الموقف تجاههم ، قال تعالى : (**فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**) [2] ، فتأتي الآية تبصّرنا بأنّهم هم العدو لرفع التردد بالقول الفصل.

الثاني : تحدّد الآية الموقف العملي تجاه المنافقين ، ففي البداية ينبغي أن نؤمن

---

(1) التوبة / 64
(2) النساء / 88

بعـــداوتهم ثم نأخذ الحيطة والحـــذر منهم وبالــذّات القائد الـــذي تتوجّه إليه ضـــغوطهم المختلفة الهادفة إيقاعه في فخــــاخهم ، فــــإنّ من الخطأ الفظيع أن تتعامل قيـــادة المسـلمين سياسـية أو دينية بصـورة سـاذجة أو مائعة مع هـذا الخط الـذي همّه ـ كما تقـدّمت الإشـارة ـ الالتفـات حولها وتغيير آرائها ومسارها بالاتجاه الذي يخدم مصالحه.

(**قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**)

وهـذه الخاتمة من الآية تعطي شـرعية للعـداء معهم بل ومقـاتلهم ، فما دام الله يقـاتلهم يجب على المؤمـنين الـذين هم جنـده أن يقـاتلوهم أيضـا. ومن قاتله الله فهو مهزوم لا ريب ، أمّا الإفك فهو الكذب والضلال ، ويؤفكون هنا يصـرفون عن الحق إلى الباطل ، قـال تعـالى : (**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**) [1] ، فإلى أين وأيّ حـدّ يصـرف المنـافقون عن الحـق؟! وكـأنّ في الآية إشارة إلى وجهة تضلّلهم كالشيطان والزعامات المنحرفة التي يسـيرون تحت لوائها ، ويصـنعون من أنفسـهم عملاء أجــراء لمصــالحها. وهــذه نتيجة طبيعية ، لأن المنــافق لا يفقه شــيئا بتعطيله ضــميره وعقله ، فليس ثمّة مقيــاس يميّز به الحق عن الباطل ، ولا حـــدّ يقف عنـــده ســـوى المصـــالح والأهـــواء الـــتي لا تعـــرف لها نهايـــة. وقـــال المفسرون في معنى «**قاتَلَهُمُ اللهُ**» أنّه لعنة أي أبعدهم الله.

[5 ـ 6] ويــبيّن القــرآن صــورة أخــرى من حــالات المنافقين ومواقفهم فيما يتصل بالقيـادة الرسـالية ، وهي رفضـــهم الاعـــتراف بشـــرعيتها ، وبالتـــالي الصـــدّ عنها والاســتكبار عليهــا. إنّهم مســتعدون للتظــاهر بكثــير من الشــعائر الدينية كالصـلاة والصــيام والحج لأنّها لا تكلّفهم مسئولية كبيرة ، أمّا أن يخضعوا للقيـادة الشـرعية فـذلك أمر لا تطيقه نفوسهم. ومن هذا المنطلق أصبحت الطاعة للقيادة الرسالية

---

(1) الذاريات / 8 ـ 9

مقياس الإيمان ، كما قال تعالى : (**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُــوكَ فِيما شَــجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِــدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) [1].

(**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ**)

باعتباره (كما القيادات التي تمثّل امتدادا له) باب من أبواب رحمة الله.

(**لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ**)

ماذا تعني تلوية الرأس؟ إمّا باعتبارها علامة للرفض ، وإمّا لأنّه العضو الــذي يحــدّد به الإنســان وجهته ، فهم يصرفون وجهتهم خلاف تلك الدعوة.

وبوضع هـذه الآية إلى جنب الآية الأولى الـتي تحـدّثنا عن تكلّفهم في إظهار الإيمان بالرسول القائد نهتـدي إلى أنّهم يعاشــرون القيــادة بــوجهين : أحــدهما وجه الإيمــان والصلاح الذي يظهرونه في حضرة الرســول ، والآخر وجه الصدّ والتكبر الذي يعيشـون به في المجتمع ضـدّها. أو أن تكــــون الآية الأولى تحكي ظـــــاهرهم ، والرابعة تحكي واقعهم وحقيقتهم. ثم إنّ صـدق الإيمـان بالقيـادة لا يثبت بـالقول «**قـالُوا نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُـولُ اللـهِ**» ، إنّما يثبت بالعمل ، وليس في واقع المنـــافقين ذرّة من الشـــهادة بـــذلك ، بل على العكس تجـــدهم يحـــاربون الرســول. وبالمقارنة نجد في الآيتين لفتة لطيفة ، فهناك قـال الله : (**إِذا جـاءَكَ الْمُنـافِقُونَ**) ، وهنا قـال : «**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا**» أي أنهم حين التظــاهر بالشــهادة والإيمــان هم الــذين يتعنّـون ويجـيئون للقيـادة ، ولكنّهم عند العمل بها يسـتنكفون عن المجيء رغم دعـوة الآخـرين وإلحـاحهم ، فالشهادة كما يراها الإسلام ليست مجرد التلفّظ والقول ، بل هي الشـــهادة للحقيقة بـــالقلب والقـــول والعمل ، ومسيرة المنافقين تناقض ذلك كلّه.

---

(1) النساء / 65

ونستوحي من الآية أنّ المنافقين كانوا يتعاملون مع الرسول باعتباره قائدا سياسيّا ، يخشون صلوته ، ويطمعون في منائحه ، وليس باعتباره إنسانا ربّانيّا يوصلهم إلى ربّ العزّة والعظمة ، ولذلك تراهم لا يقبلون حتى استغفاره لهم ، بينما الاستغفار في مصلحتهم ، ويهدف تخفيف ذنوبهم.

(**وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**)

وهذا الموقف الجاحد تجاه الرسول (التمرّد والتحدّي) يميّز المنافقين عن العصاة الذين لا يلبثون أن يعودوا إلى رشدهم ويستغفروا لدى القيادة. ولعلّ الصد والاستكبار عن الخضوع للرسول نابع من تشرّبهم بالقيم الدنيوية واتباعهم مقاييسها في تشخيص القائد الحق ، فالمنافقون وأكثرهم من أهل المدينة ومن أصحاب المال والجاه كانوا يرون الأولى بالزعامة هو ابن بلدهم (وليس المهاجر من مكّة إليهم) ويشرط أن يكون أكثرهم مالا وولدا ، وليس تلك من صفة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ فصدّوا عنه واستكبروا على قيادته ، وذلك لون من محاربة الله عزّ وجلّ ومحاربتهم الوحي ممّا يجعلهم في صفّ أعداء الله ، وليس تنفع أعداء الله شفاعة أحد ولو كان حبيبه محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ.

(**سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**)

ونقرأ في هذه الآية عدّة أفكار تتصل بموقف الإسلام من قضية الشفاعة :

الأولى : أنّ السعي الذاتي هو الركيزة الأولى لتأثير الشفاعة في مسيرة الإنسان عمليّا وفي مصيرة عند الله ، حيث أنّ الشفاعة تقبل في من يكون أساس مسيرته سليما ، فتشفع له صالحاته ، ويقبل فيه استغفار المقرّبين ، أمّا لو كان منافقا أو كافرا أو مشركا فلن يستغفر له المقرّبون ، ولو فعلوا فإنّما يفعلون ذلك بصورة ظاهرة ،

لأنّ المقـرّبين (الأنبيـاء والأوصـياء) يرضـون بمرضـاة الله ويسخطون لسخطه فلا يحبّون المنـافقين ولا يرغبـون في نجـاتهم إذا تـبيّن لهم أنّهم أعـداء الله ، كما أنّ إبـراهيم ـ عليه السلام ـ اسـتغفر لأبيه قبل أن يتـبيّن له أنّه عـدو لله فلمّا تبيّن له ذلك تبرّأ منه. كما أنّ مجرد استغفار الآخرين لا يحيل المنافق مؤمنا إذا لم يغيّر هو ما بنفسه ، ولا يغفر الله له إذا لم يستغفر لنفسه. قال تعـالى : (**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ (فَاسْـتَغْفَرُوا اللـهَ) وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً**) [1].

الثانية : أنّ الشـــــفاعة في التحليل العميق هي أنّ حسـنة كبـيرة كحب الرسـول وطاعته والعمل بما يقـول تذهب بالسيئات التي لا تمس بجوهر الإيمان وأساسه.

الثالثة : أنّ الآية توضّــح الفاصل بين نظرية الفـــداء وشبيهاتها القائمة على الإيمـان بتعـدّد الآلهة ، وأنّ بعضـها يفـرض رأيه على البعض الآخر ، والـتي تـرى بـأنّ شـفاعة الأوليـــاء والملائكة تفـــرض على الله فرضا ، وبين نظرية الإسـلام الـتي تـرى أنّها مجـرّد دعـاء من قبل المقـرّبين ، ولله أن يتقبّله أو يـردّه من دون فـرض أو حتم. والفـارق المهم بين النظريتين أنّ الأولى تبرّر للإنسـان عـدم تحمّل المسؤولية اعتمـادا على اختلاف الملأ الأعلى وتعـدّد إدارة الكـون ، بينما تؤكّد الثانية ضـرورة تحمّلها إذ ليس مؤكّـدا أن يقبل الله شفاعة الآخرين واستغفارهم.

(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**)

والآية هذه تختصر المعادلة كالتـالي : إنّ الله لا يوفّق المنافقين لأنّهم فاسقون ، وبالتالي لا يتمّ التحوّل الإيجابي في حياتهم فلا يستغفر لهم الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، وإذا لم يسـتغفر لهم لن يغفر الله لهم. وبالتـدبر في خاتمة الآية قد يتضح لنا أنّ مغفـرة الله تتجلّى في هدايته للإنسان إلى الحق ، وأنّ الفسق هو

(1) النساء / 64

ســبب النفــاق ، وأنّ من تجــاوز حــدود الله يقع في تيه النفاق والضلال.

[7] ومن أظهر مصاديق صدّ المنـافقين واسـتكبارهم وفسقهم هو حربهم الاقتصادية التي يشنّونها على الرسالة والرسـول ، حيث لا يكتفـون بعـدم إنفـاقهم إنّما يوجّهـون الآخــرين إلى عــدم الإنفــاق ، بهــدف إضـعاف المســيرة الرســالية من خلال تفــرّق النــاس عن القيــادة ، وتعطيل مشاريعها نتيجة فقـدان العامل الاقتصـادي الـذي هو جـزء من القوانين الاجتماعية.

(**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُــونَ لا تُنْفِقُــوا عَلى مَنْ عِنْــدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا**)

وهـذه سياسة أعـداء الإسـلام عـبر التـاريخ ، ولكنّها لا يتحقّق لهم ما يريدون لأسباب واقعية ، وأهمّها :

أوّلا : أنّ الذين حول القيـادة الرسـالية من المؤمـنين الصـــادقين لم يكن الـــدافع لهم نحو الانتمـــاء إلى خطّها والطاعة لها هو الإقتصــــاد ، كما يتصــــوّر المنــــافقون المنهزمون أمام المادة ، إنّما تبصّروا طريق الحق ، وانّهم لعلى اســتعداد للبقــاء معها حــتى الشــهادة بالســيف أو المــوت جوعا ، فهــذا أحــدهم (عبد الله بن حذاقــة) وقد أسرته الـروم وعرضت عليه التنصّـر فـأبى فـأغلي الـزيت في إناء كبير ، وأتي برجل من أسـرى المسـلمين فعـرض عليه التنصّر فأبى فألقي في الزيت المغلي ، فـإذا عظامه تلوح ، ثم عرض على عبد الله هذا النصرانية فأبى ، فـأمر به أن يلقى في الزيت المغلي فبكى ، فقـالوا : جـزع ، قد بكى! قال كبيرهم : ردّوه ، فقال : لا ترى أنّي بكيت جزعا ممّا تريد أن تصــــــنع بي ولكنّي بكيت حيث ليس لي إلّا نفس واحدة يفعل بي هـذا في الله ، كنت أحبّ أن يكـون لي من الأنفس عدد كلّ شعرة فيّ ثم تسـلّط عليّ فتفعل بي هذا [1].

---

(1) سفينة البحار / ج 2 ص 128

ثانيا : أنّ المـــوارد الاقتصـــادية ليست حكـــرا على المنافقين حـتى يكـون منعهم أو حصـارهم سـببا في شـلّ الحركة الرسـالية ، إنّما المـوارد وأسـباب الغـنى موجـودة في الطبيعة ولها سـبلها ومناهجها الـتي يمكن أن يأخذ بها المؤمنـون فيسـتقلّون عن الآخـرين. وإنّ الله الـذي أغـنى أولئك لقـادر على إغنـائهم لو توكّلـوا عليه وفتحـوا خزائنه بالتسليم له والعمل بمناهجه.

(**وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

وهـذه الآية وآيـات أخـرى في القـرآن تشـير إلى أنّ المنـافقين الـذين ينتمـون في الأغلب إلى الطبقة المترفة يحـاولون بما لـديهم من قـوة اقتصـادية أن يـؤثّروا على مسيرة الحركات الرسالية والمجتمع وتحريف مسيرتهما ، وحيث يـدعمون بعض المشـاريع فلكي يجـدوا من ورائها بعض المكاسب الاقتصـادية والاجتماعية والسياسـية ، وإلّا فـإنّهم غـير مسـتعدين للإنفـاق المخلص لوجه الله فقـط! ولذلك تراهم يتوقفون عن الدعم ويرفعون سلاح الإقتصاد في وجه القيادة بمجرّد أن تكون مصالحهم وشهواتهم غير مؤمّنة من قبلهـــا. وتكفي هـــذه الآية تحـــذيرا للقيـــادة الرسالية من مكر المترفين وخططهم السيئة عند التعامل معهم. ولعلّنا نســتفيد من هـــذا الســـياق تحريضا لطيفا للمؤمــنين نحو وجــوب الاســتقلال والاكتفــاء الــذاتي في الإقتصـاد باعتبـاره ركـيزة الاسـتقلال السياسي والعـزّة ، وذلك كلّه كامن في التوكّل على الله والاعتمـاد من بعـده على سـواعد الرجـال وألبـابهم الـتي يفتح الله بها خزائنه عليهم ، حيث أنّ الحـرب الاقتصـادية واحـدة من أسـاليب صراع المسـتكبرين مع الرسـالة وعلى حملة الرسـالة أن يستعدوا لهذه الحرب منذ البداية بالاجتهاد في جمع المـال ، والتقشّــف في صــرفه ، والاكتفــاء الــذاتي في مختلف الحقول.

وقد استطاع الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ أن يبني حركة مستقلّة لا يضرّها المحاصرة الاقتصادية شيئا. وهذه الحقائق كلّها غائبة عن أذهان المنافقين لكونهم

لا يعلمـــون إلّا ظـــاهر الحيـــاة المادية ، أمّا عمقها فهم بعيدون عن فهمه ، لأنّه يحتاج إلى البصيرة النافذة.

(**وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ**)

ولـذا تجـدهم يزعمـون أنّ المؤمـنين سـوف تتوقّف حركتهم أو يموتون جوعا إذا لم ينفقوا عليهم من أمـوالهم ، بينما تراهم قد حصلوا عليها عبر قوانين موضوعية يمكن للمؤمنين أن يتبعوها فيحصلون على المال أيضا.

[8] كما أنّهم يزعمـــون بـــأنّ عـــزّة المؤمـــنين في المجتمع مســـتمدّة منهم ، وبالتـــالي فهي رهن إرادتهم ، بينما الحقيقة أنّ عزة المؤمنين هي من عزّة الله وبـالقيم الحضارية الجديدة التي يؤمنون بها ويلتزمون بحدودها.

(**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَـةِ لَيُخْـرِجَنَّ الْأَعَـزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ**)

وتأكيـدهم على رجـوع المدينة حيث يجـدون القـدرة هناك لأسباب ثلاثة :

1 ـ لأنّهم اعتمـــــدوا على القيم الوطنية وحيث أنّ الرسـول والمهـاجرين من مكّة فهم ليسـوا (حسب زعم هؤلاء المنافقين) وطنيين ، فتراهم يقومـون بإثـارة الحس الوطـني لـدى أهل المدينة واعتمـاده مقياسا في العـزّة والذلّة ، وبالتـالي إخـراج الرسـول وأصـحابه باعتبـارهم أجانب.

2 ـ لأنّهم حينذاك كانوا خارج المدينة وفي غـزوة بـني المصـــطلق ، بالـــذّات وأنّ الجيش يمثّله خلّص أصـــحاب الرسـول ـ صلّى الله عليه وآله ـ المنضـبطون في تنفيذ أوامـره ، وبالتـالي فـأيّ محاولة هنـاك لمواجهة القيـادة سـتؤدي إلى الفشل حيث لن يجـدوا لهم أنصـارا ، أمّا في المدينة حيث المجتمع العام فإنّهم يمكنهم تضليل البعض

وخداعه.

3 ـ كما تشـير الآية إلى أنّ المنـافقين قد بنـوا لهم قاعدة في المجتمع حيث أعطـوا الرجـوع إلى المدينة تلك الأهمية ، لأنّهم يتحرّكـــون داخلها بجبهة عريضة هي جبهة النفاق وأنصارها.

وقد غاب عن أذهـانهم وعي ذلك التحـوّل العظيم في القيم الــذي أحدثه الإســلام في المدينة ، وكيف تســامى أهلها فوق قيمة الـوطن والعشـيرة والمـال والسـنّ وكـلّ القيم الجاهلية الأخـــرى ، واستعاضـــوا عنها بالإيمـــان والكفـاءة والعلم ، وهكـذا أصـبحوا لا يـرون العـزّة إلّا من خلالها ، فكيف يستطيع المنافقون إذن أن يمضوا خططهم ويصلوا إلى أهدافهم في مجتمع هذه أفراده؟

(**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**)

وليست العـــزّة بالمـــال فقط ، فقد يكـــون تجمّع المؤمــنين فقــيرا نسـبيّا ولكنّه مجتمع مســتقل متماسك فاعل ويعتمد من القيم ما يعطيه القـــــدرة على التوسع والامتداد ، ومجتمع المدنية المؤمن ليس مسـتعدا للـدفاع عن العظـــام البالية ، ولا عن الرجعية المهترئة بما تعنيه من القيم الفاسدة.

(**وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**)

لقد تبدّلت الشرعية في مجتمع المدينة فأصبح محـور المجتمع المــدني الــوحي ، فبينما كـانت قائمة على قيمة القبيلة أصـــبحت الآن قائمة على القيم الربانيـــة. إنّ الله قـال كـذا .. ونحن عبـاده فيجب أن نطيعه ونعمل بقولـه. وقد تمثلت هذه الشرعية الجديـدة في موقف عبد الله بن عبد الله ابن أبي حيث منع أبـــاه (رأس المنـــافقين) من دخول المدينة فلم يدخلها إلّا بشفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ له ، وأعظم من ذلك

أنّه جاء النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال : يا رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أن أكون أنا الذي أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الأوس والخـــــــزرج أنّي أبرهم ولدا بوالـدي» [1]. وهـذه صـورة للتحـول الحضـاري الجديد ، وطغيان الشرعية الجديدة على الشرعية القديمة التي ليس فيها أقرب من علاقة الابن بأبيه.

ونتساءل : لماذا اختتمت الآية السابقة بأنّ المنـافقين «لا يفقهون» بينما اختتمت هذه الآية بأنّهم «لا يعلمـون»؟ الإجابة هي : أنّ معرفة القـوانين الاقتصـادية ، وأنّ المـال يأتي نتيجة الجهود التي تسـتخرج خـزائن الله في الأرض ، إنّ معرفة ذلك بحاجة إلى الفقه وهو الفهم العميق ، بينما لا تحتـاج معرفة القــوانين الاجتماعية ، ومنها تبـدّل القيم عند النــاس إلى ذلك الفهم ، بل يســتطيع أيّ إنســان أن يعلمهـــا. وهكـــذا نفت الآية فقه المنـــافقين للقـــوانين الاقتصـادية ، ثم نفت الثانية علمهم (وهو أقل من الفقـه) حتى من فهم التحوّلات الاجتماعية.

[9] ولأنّ المنافقين يسعون لتعميق الروح المادية في المجتمع ، وبالتـالي تجيـيره في صـالح حـربهم الاقتصـادية السياسـية ضد الإسـلام والقيـادة الرسـالية ، نجد القـرآن ينمّي في ضـمير الأمة القيم المعنوية الــتي تســتلهم من الإيمــان بــالآخرة ، لكي لا يقع في حبائل النفــاق ، ولكي يفشل خطط المنــافقين ضد الإســلام. والــدعوة التالية للمؤمـنين في ظـروف المحنة والحـرب الاقتصـادية تغـني بصورة أكبر أغنياءهم فـإنّهم مسـئولون ، والرسـالة تواجه هذا اللون من التحـدي أن ينهضـوا بأعبـاء المسـؤولية في دعم مسيرة القيادة والدولة والأمة الإسـلامية بالمزيد من الإنفاق ، ولا يمكن ذلك إلا إذا حلّق الإنسان في سماء ذكر الله ، وترفّع عن شحّ النفس والتلهّي بالأموال والأولاد.

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــــوا لا تُلْهِكُمْ أَمْـــــوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**)

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 334

وهما زينة الحيـاة الـدنيا وأجلى صـورها ، والمـؤمن ينبغي أن يجعل ذكر الله محوره الذي يتحـرّك ضـمنه دون أن يخرجه عنه شـيء. والأمـوال هنا ليست الـدراهم والـدنانير والـذهبات فقط ، بل كـلّ ما يملكه المجتمع من أرض وإمكانية ومصلحة اقتصادية وما أشبه ، وهكذا الأولاد ليسـوا الأبنـاء وحـدهم ، إنّما المقصـود هنا صـلة الإنسـان بالمادة وصلته بالآخرين والأموال والأولاد أظهر المصـاديق للإثـنين. ولعـلّ الـدعوة إلى عـدم التلهّي بـالأموال تقابل سياسة المنافقين الاقتصادية ضد الرسالة والرسول (الآية 7) ، بينما الدعوة إلى عدم التلهّي بالأولاد تقابل سياستهم العنصرية والوطنية التي أرادوا الاعتماد عليها بعد الرجـوع إلى المدينة (الآية 8).

ثم يحـذّر القـرآن المؤمـنين من عـواقب السـير في ركاب المال والأولاد فيقول :

(**وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

وليس الإسلام هو الذي يخسر ، وخسـارتهم بخسـارة معطيـات الإنفـاق حيث الطهـارة والتزكية ، وبالمصـير الوبيل في الآخرة حيث العذاب ، والحسـرة على التفريط في جنب الله. وهذه الآية تجتثّ جذور النفـاق الـذي يقـوم على أساس المصالح المادية والعنصرية ، إذ تتجلّى بـأبهى صـورها في علاقة الإنسـان بماله الشخصي ، وتتجلّى الثانية بأظهر مصاديقها في علاقته بولده.

[10] أمّا الطريق للتخلّص من شـحّ النفس فهو بالإنفـاق ، وهـذا ما تـذكر به الآيـات وتثـيره في أذهـانهم ، حيث تضع المؤمنين أمام حقيقة الـدنيا أنّها فرصة قصـيرة حاسـمة ، كما تضـعهم في سـباق خطر مع الأجل الـذي يطوي صفحة الحياة ليلاقي الإنسان بعدئذ مصـيره الأبـدي فإمّا مع الصـالحين في الجنة وإمّا مع أصـحاب النـار في العذاب.

(**وَأَنْفِقُـوا مِنْ ما رَزَقْنـاكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَـأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**)

وحينئذ يواجه مصيره لوحده ، ويقدم على الله فردا لا مـــال ولا أولاد ولا معين. وإذ يـــذكر القـــرآن الإنســـان بمسـؤوليته الفردية فلكي يفصـله عن المـؤثّرات السـلبية المادية والاجتماعية الــتي تمنعه من الإنفــاق والاســتجابة لـدعوة الله .. ولمـاذا يبخل الإنسـان بماله على ربّه الـذي رزقه إيّاه وهو منتقل عنه لا محالة بالموت؟!

(**فَيَقُــولَ رَبِّ لَــوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَــلٍ قَــرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

إنّه حينئذ لا يطلب من الله التــأخير لألف ســنة ، إنّما يريد أجلا قريبا كاللحظة لينقذ نفسه من الحسرة والعذاب ، وهذا يدل فيما يدل على أن باستطاعة الإنسان أن يتغير جــذريّا بقــرار واحد وخلال لحظة ، فينتقل نفسه من جبهة الى أخــرى ، ومن مصــير إلى مصــير. ونهتــدي من الآية الكريمة إلى أنّ الصـدقة (والإنفـاق) معـراج المـؤمن إلى الصالحات والصالحين ، وهنا نجد إيحاء لقول الله تعــالى : (**خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها**) [1].

[11] وكما يكشف الوحي للإنسان واقعه المســتقبلي وهو يعالج سكرات الموت ، يؤكّد له أنّ الدنيا هي الفرصة الوحيدة ، وأنّ الموت هو نهايتها.

(**وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها**)

وهذه حقيقة حاسـمة لو تفكّر فيها البشر لاهتـدوا إلى الحق حيث الانصـياع لأوامر الله ، وإنّ عـدم اسـتجابة الله لتمنّيات الإنســان بالتــأخير تنطــوي على حكمة هامة ، فلو كان يستجيب لكـان النـاس يسـتبدلون السـعي بـالمعنى ، والعمل بالتسـويف. كيف والله يعلم بــأنّهم لو ردوا لعـادوا لما كانوا عليه من الأعمال؟!

---

(1) التوبة / 103

(**وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ**)

فعلى افــتراض أنّ الله يــؤخّر أحــدا فإنّه يعلم بأنّه سوف يعمل ما كان يعمله قبل الموت.

وفي ختام السورة ننقل القصة التاريخية الـتي تناقلها المفسرون في تفسير هذه السـورة وسـبب نزولها ، قـال صاحب المجمع :

نزلت الآيات في عبد الله بن أبي المنافق وأصـحابه ، وذلك أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ بلغه أنّ بـني المصـطلق يجتمعـون لحربه ، وقائـدهم الحـرث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ ، فلمّا سمع بهم رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ خـرج إليهم حتى لقيهم على مـاء من ميـاههم يقـال له المريسـيع من ناحية قديد إلى الساحل ، فتزاحف الناس واقتتلوا ، فهـزم الله بـني المصـطلق ، وقتل منهم من قتل ، ونقل رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ أبناءهم ونسـاءهم وأمـوالهم ، فبينما النـاس على ذلك المـاء إذ وردت واردة النـاس ومع عمر بن الخطاب أجـير له من بـني غفّـار يقـال له جهجـاه ابن سعيد يقود له فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان الجهـني من بــني عــوف بن خــزرج على المــاء فــاقتتلا ، فصــرخ الجهـني : يا معشر الأنصـار! وصـرخ الغفـاري : يا معشر المهاجرين! فأعان الغفاري رجل من المهـاجرين يقـال له جعـال وكـان فقـيرا ، فقـال عبد الله بن أبي لجعـال : إنّك لهتّاك ، فقال : وما يمنعـني أن أفعل ذلك ، واشـتد لسـان جعــال على عبد الله ، فقــال عبد الله : والــذي يحلف به لأزرنك ويهمك غير هذا ، وغضب ابن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد ابن أرقم حديث السن فقـال ابن أبي : قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما مثلنا ومثلهم إلّا كما قال القائل : سـمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخــرجنّ الأعز منها الأذل ، يعــني بــالأعزّ نفسه ، وبالأذل

رســول الله ــ صــلّى الله عليه وآله ــ ثمّ أقبل على من حضـــره من قومه فقـــال : هـــذا ما فعلتم بأنفســـكم ، أحللتمـوهم بلادكم ، وقاسـمتموهم أمـوالكم ، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقـابكم ، ولأوشـكوا أن يتحوّلـوا من بلادكم ، ويلحقـوا بعشـائرهم ومـواليهم ، فقـال زيد بن أرقم : أنت والله الـذليل القليل المبغض في قومك ، ومحمد ـ صـلّى الله عليه وآله ــ في عـزّ من الـرحمن ، ومـودّة من المسـلمين ، والله لا أحبّك بعد كلامك هذا ، فقال عبد الله : أسكت فإنما كنت ألعب.

فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ وذاك بعد فراغه من الغـزو فـأخبره الخـبر ، فـأمر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ بالرحيل ، وأرسل إلى عبد الله فأتاه ، فقال : ما هـذا الـذي بلغـني عنـك؟ فقـال عبد الله : والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك قط ، وإنّ زيـدا لكـاذب ، وقـال من حضر من الأنصـار : يا رســول الله شــيخنا وكبيرنا لا تصــدّق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكـون هـذا الغلام وهم في حديثه ، فعــذره رســول الله ــ صــلّى الله عليه وآله ــ وفشت الملامة من الأنصار لزيد ، ولمّا استقلّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فسار لقيه أسيد بن الخضـير فحيّـاه بتحية النبــوّة ، ثم قــال : يا رســول الله لقد رحت في ســاعة منكرة ما كنت تـروح فيها ، فقـال له رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ـ : أوما بلغك ما قال صاحبكم ، زعم أنّه إن رجع إلى المدينة اخـرج الأعـزّ منها الأذل ، فقـال أسـيد : فــأنت والله يا رســول الله تخرجه إن شــئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فو الله لقد جـــاء الله بك وإنّ قومه لينظمـــون له الخـــرز ليتوّجوه ، وإنّه ليرى أنّك قد استلبته ملكا.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقال : يا رسـول الله إنه قد بلغني أنّك تريد قتل أبي فإن

كنت لا بد فاعلا فمـرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخــزرج ما كــان بها رجل أبــرّ بوالديه منّي ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلي قاتل عبد الله ابن أبي أن يمشي في النـــــاس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النـار ، فقـال : بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا.

قـالوا : وسـار رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ بالنـاس يـومهم ذلك حـتى أمسى ، وليلتهم حـتى أصـبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشـمس ، ثم نـزل بالنـاس فلم يكن إلّا أن وجدوا مس الأرض وقعـوا نياما ، إنّما فعل ذلك ليشغل النـاس عن الحـديث الـذي خـرج من عبد الله بن أبي ، ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال له بقعاء ، فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوّفوها ، وضـلّت ناقة رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ــ وذلك ليلا ، فقال : مـات اليـوم منـافق عظيم النفـاق بالمدينة ، قيل : من هو؟ قال : رفاعة ، فقـال رجل من المنـافقين : كيف يزعم أنّه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ، ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي؟! فأتاه جبرئيل فأخبره بقـول المنـافق وبمكان الناقة ، وأخبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ــ بــذلك أصــحابه ، وقـــال : ما أزعم أنّي أعلم الغيب وما أعلمه ، ولكنّ الله تعالى أخـبرني بقـول المنـافق وبمكـان نـاقتي هي في الشـعب ، فـإذا هي كما قـال فجـاءوا بها وآمن ذلك المنافق.

فلمّا قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التـابوت أحد بني قينقاع ، وكان من عظمـاء اليهـود وقد مـات ذلك اليوم. قال زيد بن أرقم : فلمّا وافى رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ـ المدينة جلست في البيت لما بي من الهمّ والحياء. فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكـذيب عبد الله بن أبي ، ثم أخذ رســول الله ـــ صــلّى الله عليه وآله ـ بأذن زيد فرفعه عن الرحل ثم قـال : يا غلام صـدق فـوك ، ووعت أذنـاك ، ووعى قلبك ، وقد أنــزل الله فيما قلت قرآنا.

وكـــان عبد الله بن أبي بقـــرب المدينة ، فلمّا أراد أن يـدخلها جـاءه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي حـتى أنـاخ على مجامع طرق المدينة فقال : مالك ويلك؟ قال : والله لا تدخلها إلّا بـإذن رسـول الله ، ولتعلمنّ اليـوم من الأعـزّ ومن الأذلّ ، فشـكا عبد الله ابنه إلى رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ـ فأرسل إليه أن : خلّ عنه يدخل ، فقـال : أمّا إذا جاء أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ــ فنعم ، فـدخل ، فلم يلبث إلّا أيّاما قلائل حـتى اشـتكى ومـات ، فلمّا نزلت هذه الآيات وبـان كـذب عبد الله قيل له : نـزل فيك آي شداد فـاذهب إلى رسـول الله ــ صـلّى الله عليه وآله ـ يستغفر لك ، فلوّى رأسه ، ثم قال : أمر تمـوني أن أؤمن فقد آمنت ، وأمرتمـوني أن أعطي زكـاة مـالي فقد أعطيت ، فما بقي إلّا أن أسـجد لمحمـد؟! فـنزل : «**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا**» .. إلى قوله : «**وَلكِنَّ الْمُنـافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**» [1].

---

(1) مجمع البيان / ج 10 ص 293 – 295

الفهرس

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر